سلسلة الرسائل والدراسات الجامعية

رثاء الخلفاء والقادة في العصر الأموي

دراسة موضوعية وفنية

تأليف

الأستاذ الدكتور

طراف طارق النهار

أستاذ الأدب العربي

في كلية التربية والعلوم الإسلامية

جامعة أدي امان



دار الكتب العلمية

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

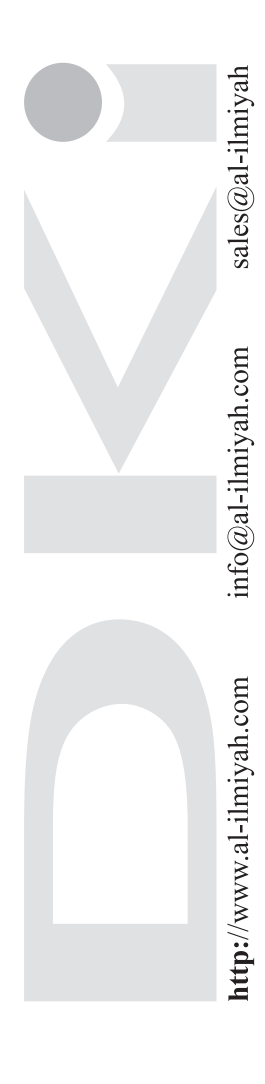
DKi

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان

Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon

Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

رثاء الخلفاء والقادة
في العصر الأموي



الكتاب: رثاء الخلفاء والقادة في العصر الأموي

Title: RIṮĀ' AL-ḪULAFĀ' WAL-QĀDA FĪ AL-ʿAṢR AL-'UMAWĪ

التصنيف: دراسات - تاريخ - شعر

Classification: Studies - History - Poetry

المؤلف: الأستاذ الدكتور. طرّاف طارق النهار

Author: Prof. Dr. Tarraf Tarek Al-Nahar

الناشر: دار الكتــب العلمــيــة - بيــروت

Publisher: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

Pages	408	**عدد الصفحات**
Size	17 x 24 cm	**قياس الصفحات**
Year	2019 A. D. - 1440 H.	**سنة الطباعة**
Printed in	Lebanon	**بلد الطباعة** لبنـــان
Edition	1st	**الطبعة** الأولى

أصل هذا الكتاب هو أطروحة، تقدم بها المؤلف إلى مجلس كلية التربية - ابن رشد - جامعة بغداد، وهي جزء من متطلبات نيل درجة دكتوراه فلسفة، في اللغة العربية / أدب، بإشراف الأستاذ المساعد الدكتور ناهي إبراهيم العبيدي

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Est. by Mohamad Ali Baydoun

1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ١٢/١١/٠٨٠٤٨١٠ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠



رِثاءُ الخُلفاءِ والقادة في العصرِ الأمويِّ

دراسة موضوعيَّة وفنيَّة

تأليف

الأستاذ الدكتور

طراف طارق النّهار

أستاذ الأدب العربيّ

في كليّة التّربية والعلوم الإسلاميّة

جامعة أديامان



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان

Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon

Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

إقرار المشرف

أشهد بأن إعداد هذه الأطروحة الموسومة بـ(**رثاء الخلفاء والقادة في العصر الأموي، دراسة موضوعية وفنية**) المقدمة من الطالب (طرّاف طارق النّهار) جرى تحت إشرافي في قسم اللغة العربية في كلية التربية ابن رشد/ جامعة بغداد، وهي جزء من متطلبات نيل درجة دكتوراه فلسفة في اللغة العربية/ أدب.

توقيع المشرف:
أ.م. الدكتور: ناهي إبراهيم العبيدي.
التاريـــخ:/ / 2003م.

توصيـة رئيـس لجنـة الدراسـات العليـا
بناءً على التوصيات المتوافرة أرشح هذه الأطروحة للمناقشة.

التوقيـــع:
أ.م. الدكتور: ناهي إبراهيم العبيدي.
رئيس قسم اللغة العربية
(رئيس لجنة الدراسات العليا)
التاريـــخ:/ / 2003م.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدِّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وخاتم المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله الطَّيِّبين الطَّاهِرين، وصحابته الأخيار من الأنصار والمهاجِرين، ومن سار على نهجه واقتفى أثره إلى يوم الدين. أمَّا بعد...

فقد استقر الرأي - بعد التوكل على الله - أن يكون موضوع أطروحتي للدكتوراه «رثاء الخلفاء والقادة في العصر الأموي» استكمالاً لِما بدأت العمل به في مرحلة الماجستير التي كان عنوانها «مراثي القادة المسلمين حتى نهاية العصر الراشدي»، وكان دافعي لإكمال هذا العمل، ما لمسته في فن الرثاء بشكلٍ عام من صدق العاطفة ونبل الإحساس والمشاعر، ما يجعله مناسباً للتعبير عن قيمٍ ومناقبِ رجالٍ كان لهم الدور المُشرِّف في بناء تاريخ هذه الأمة المجيدة، وإعلاء صرحها الشامخ، فضلاً عن أنّ هكذا دراسة تذكِّرنا بالماضي الحافل والمجد والعز الذي كانت عليه الأمة في عهد هؤلاء الخلفاء والقادة، إذ دانت لهم الأرض، وذلت لهم الملوك والجبابرة. ولم يتأت لهم ذلك كله، إلاّ بإعلاء راية الجهاد ونشر دعوة الإسلام إلى الأمم الغارقة في دياجير الظلام، وما تواجهه الأمّة اليوم من أخطارٍ محدقةٍ تهدد كيانها، وفي المقدّمة منها العراق الصامد، يدعونا للسير على الطريق الذي اختطوا والمنهج الذي اتبعوا، ففيه سبيل عزّتنا وسعادتنا في الدنيا والآخرة.

ولعلّ من المفيد أن أعرض لبعض الأمور التي تعين على توضيح ما قمت به في هذه الدراسة. إذِ اعتمدَت على المنهج التاريخي الوصفي الذي يجنح إلى تحليل النصوص واستنطاقها. وكان المعيار الذي سرت عليه في اختيار شخصيات البحث ولا سيما الخلفاء منهم، على ما أوردته كتب التاريخ والتراجم فيما يخص عددهم. أمّا القادة - وهم كُثُر - فكان اختيارهم يعتمد على طبيعة المهام التي

يليها هؤلاء القادة والمسؤوليات التي يتسنمونها في الدولة، وقد تمتد لتشمل أبناء الخلفاء والقادة أنفسهم.

وأود الإشارة إلى أن الدراسة لم تشأ أن تتقيد بدراسة الشعر فقط، إذ استعانت ببعض النصوص النثرية التي قيلت في تأبين هؤلاء الخلفاء والقادة.

ومن هنا فقد كان على دراستنا هذه أن تبدأ بتمهيدٍ أخذ على عاتقه أولاً بيان مفهوم الخليفة والقائد في اللغة والاصطلاح، كما درس المفردات المرادفة لكلٍّ منهما. ومن جانبٍ آخر، أوضح أهمية منصب الخليفة، وربطت بينه وبين وجود الأمن والاستقرار في المجتمع. واختُتِمَ بنظرة عامة في الرثاء وتطوره إلى نهاية العصر الأموي.

وجاء الفصل الأول ليدرس المصادر التي وردت المادة الشعرية فيها، إذ أعطى لمحةً موجزةً عن كل مصدر وعدد الأبيات الشعرية الواردة فيه مما يخص بحثنا، كما أفرد مبحثاً للرواة الذين رووا هذا الشعر ومقداره، وبين رأي علمائنا في مصداقيتهم، وكان للشعراء مبحثٌ آخر، إذ أفردت فيه ثلاثة أنواع، أوّلها: أصحاب الدواوين المحققة والمنشورة، وثانيها: الشعراء الذين لم يجمع شعرهم أو يحقق، وثالثها: الشعراء غير معروفي الاسم. فضلاً عن عدد الأبيات، وأسماء الخلفاء والقادة الذين رثوهم.

وتكفّل الفصل الثاني بالحديث عن أنواع المراثي واتجاهاتها في الشعر والنثر، إذ كان لتنوع الشعراء أثرٌ في تنوع المادة الشعرية والمعاني والقيم التي تخص كلاً منها، فكان المبحث الأول في رثاء الشعراء للخلفاء، والثاني في رثاء الشعراء للقادة، والثالث في رثاء الخلفاء للخلفاء والقادة، والرابع في رثاء القادة للقادة والخلفاء.

أمّا الفصل الثالث، فوقف على المضامين التي استقى الشعراء مادّتهم الشعرية منها، إذ انقسمت على مبحثين، المبحث الأول: المضامين الجاهلية، والثاني: المضامين الإسلامية، وبين أثر الدين الإسلامي في تطويع بعض تلك

القيم الجاهلية وجعلها تتوافق وتتماشى مع تعاليمه، في حين كشفت المضامين الإسلامية عن عمق إيمانهم بمبادئ الإسلام وتعاليمه، وعلى وجه التحديد فيما يخص حدث الموت والصبر واحتساب الأجر والثواب عند الله.

وانتهت الدراسة الموضوعية إلى الفصل الرابع الذي تكفّل بالحديث عن تداخل الموضوعات في قصيدة الرثاء، وأوضحت أنها لم تقتصر على الندب والتأبين والعزاء، إذ اشتملت على فنونٍ شعريّةٍ أخرى كان الفخر في مقدمتها، وتلاه الهجاء والمديح والحكمة والشكوى والوصف، وتطرق إلى الشعر التاريخي فضلاً عن موضوعاتٍ عامّة.

وخلصت الدراسة إلى الفصل الخامس الذي تكفّل بالحديث عن الدراسة الفنية، التي لم يكن الهدف منها الإحاطة بكل الجوانب الفنية؛ بل كنا نهدف من خلالها إلى الإشارة إلى أبرز السمات الفنية التي امتازت بها المرثية. والتي اختص المبحث الأول منها، بدراسة البناء الفني للقصائد والمقطعات، وتلته المقدمة والمطلع والخاتمة، أمّا المبحث الثاني: فدرس الألفاظ والتراكيب، والثالث: الخيال والصورة الشعرية، والرابع: الموسيقى الشعرية بما فيها الأوزان والقوافي، وخلص إلى نتائج قد تكون مخالفةً في بعض الأحيان لآراء بعض النقاد القدماء. وانتهت الدراسة إلى خاتمة أوضحت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها، في فصولها ومباحثها.

أمّا عن مصادر هذه الدراسة، فقد اعتمدت على أغلب المصادر المعروفة في التاريخ والأدب والبلاغة والنقد[1]، فمن كتب التاريخ: تاريخ دمشق، وأنساب الأشراف، وتاريخ الطبري، والكامل في التاريخ، والبداية والنهاية، وتاريخ الخلفاء. أمّا كتب الأدب فهي كثيرة، منها: الأغاني، والعقد الفريد، والكامل في اللغة والأدب، وعيون الأخبار، وخزانة الأدب، والبيان والتبيين، والحيوان، ومن كتب البلاغة والنقد: إعجاز القرآن، وثلاث رسائل في إعجاز القرآن، والمثل السائر،

(1) اعتمدت في ترتيب هذه المصادر على كثرة المادة الواردة فيها.

ونقد الشعر، وكتاب الصناعتين، والعمدة... وغيرها. أمّا مراجع الدراسة فهي من الكثرة بحيث يتعذّر الإشارة إليها.

ولعلّ من المناسب في هذا السياق، أن أُشير إلى أنني لا أدعي الجدّة في هذا الموضوع، فهناك دراساتٌ سابقةٌ كانت تقترب منه، ولكنها بطبيعة الحال تختلف عنه وتبتعد عن هدفه الأساس، ومن تلك الدراسات التي عُنيت بالرثاء بشكلٍ عام، دراسة الدكتور شوقي ضيف «الرثاء»، ودراسة الدكتورة بشرى الخطيب «الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام»، ودراسة الدكتور مخيمر صالح «رثاء الأبناء في الشعر العربي»، ودراسة مقبول بشير النعمة «المراثي الشعرية في صدر الإسلام»، ولعلّ دراسة علي حسين التمر الموسومة بـ «الرِّثاء السِّياسيّ عند الأُمويِّين منذ قيام دولتهم حتى سنة **227**هـ»، وهي أُطروحة دكتوراه، أقرب تلك الدراسات إلى دراستي، غير أن المنهج الذي سار عليه الباحث، يختلف عن المنهج الذي اتبعته، إذ امتدّت دراسته إلى ما بعد العصر الأموي بما يقارب المئة عام، وضمّنها رثاء الدولة الأموية وبكاء الديار في مرحلة الانحلال وبعد السقوط. ولا يخفى على القارئ بعد الاطّلاع على الدراسات السابقة ودراستي اختلاف المنهج الذي سار عليه البحث، على أنّ دراستي قد أفادت من تلك الدراسات المذكورة في مواطن عدّة.

وبعد... فإن من دواعي رد الجميل والعرفان، أن أتقدّم بالشكر والتقدير إلى أستاذي الفاضل المشرف على هذا البحث، الدكتور ناهي إبراهيم العبيدي على ما بذله من جهد ووقت في تقويمه وإغنائه بملاحظاته القيمة والسديدة، على الرغم من مسؤولياته الكثيرة في رئاسة قسم اللغة العربية، وقد بلغ من حرصه على البحث أن أمدّني بكل ما يفيده ويغنيه من مصادر وتوجيهات كان لها الفضل في إخراجه بالصورة المرضية، فله مني جزيل الشكر وعظيم الامتنان.

ويدعو المقام أن أتوجه بالشكر الجزيل لكلٍّ من الأساتذة الأفاضل، الدكتور سامي مكي العاني لما أبداه من توجيه ونصح أفاد البحث وصاحبه، والدكتور عناد

غزوان الذي كان له الفضل في إقرار مصطلح «الرِّثاء الهجائي» بهذه الصِّيغة، وهو مصطلح جديد غير مسبوق توصل إليه الباحث، والدكتور محمود الجادر الذي كان للمساته الأثر الكبير في رسم خطة البحث وإخراجه بالصورة التي تفيده، والدكتور أيهم القيسي الذي أمدّني بعلمه وتوجيهاته السديدة.

ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل والعرفان الجميل إلى الأستاذ الفاضل عدنان سعد الدين لما له من أيادٍ بيضاء على طلبة العلم، إذ كان سببًا في قبولي في الدكتوراه، فجزاه الله عني خير الجزاء، وأمدَّ في عمره ذخرًا للعلم وطلابه.

وشكري وامتناني لكل الأخوة والزملاء الذين أمدّوني بفيض مشاعرهم، وغمروني بفضلهم وعلمهم، فجزاهم الله عني خير الجزاء.

ولا أنسى أن أتوجَّه بالدُّعاء إلى الباري عزَّ وجلَّ أن يحفظَ العراق المجاهد وأهله الطَّيِّبين من كلِّ مكروه، ويُجنِّبهم شرور الأعداء الحاقدين المتربِّصين، ويكشف عنهم هذه الغُمَّة، ويجعل عاقبتهم نصرًا مؤزَّرًا يُعزُّ أُمَّتهم ويُرغم أنف الطَّامعين، وأن يجعلهم خير خلفٍ لأُولئك القادة العظام الفاتحين، إنَّه ذو القوَّة المتين.

وبعد... فأرجو أن أكون قد أسهمت في هذا الجهد المتواضع بما يفيد طلبة العلم، ويغني المكتبة العربية التي تحتاج إلى دراسات أخرى في هذا المجال تكمل ما بدأته من عمل، وتميط اللثام عن تاريخ رجالٍ أفذاذ، وقادةٍ عظام، طالما تعرّضوا لحملاتٍ ظالمة وتشويهٍ متعمّد من ذوي الأهواء، إذ يكفيهم فخراً ما تم في عهدهم من فتوحاتٍ كبيرة بلغت مشارق الأرض ومغاربها، إذ وصل الإسلام بفضلها إلى أمم وأقوام لم يكن ليصلهم لولاها، وحسبي ما بذلت من جهد، فإن أصبت الهدف المرسوم فبتوفيقِ الله ومنِّه وكرمه، وإن كانت الأخرى فمن النفس والهوى، والكمال لله وحده.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

التمهيـــد

- الخليفة والقائـد في اللغـة والإصطلاح
- مفردات مرادفـة للخليفـة والقائـد
- منصب الخلافة وأهميّتُه في المجتمع الإسلامي
- نظرة عامّة في الرثـاء حتّى بداية العصر الأموي

الخليفةُ والقائدُ في اللغةِ والاصطلاح

لغـــةً:

الخِلافَةُ فِي الأَصْلِ: مَصدر خَلَفَ، والخِلافَةُ: الإمارة، والخليفة الذي يستخلف ممن قبله، والجمع خلائفَ وخلفاء[1]. وقد وردت بصيغة الجمع في رثاء الفرزدق لابن الحجاج وأخيه[2]، بقوله[3]:

مَاسَدَّ حَيٌّ وَلاَ مَيْتٌ مَسَدَّهُمَا ... إِلاَّ الخَلاَئِفَ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّينِ

ويقال: خلفه في قومه خلافةً فهو خليفته، وقد جاء في التنزيل العزيز: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾[4]. وخلف فلانٌ فلاناً إذا كان خليفته، كما ورد في رثاء حُمَيْد بن ثور الهلالي للخليفة عبد الملك بن مروان، وهو يخاطب ابنه الوليد باسم الخليفة قائلا[5]:

يَابْنَ الخَلِيْفَةِ ثُمَّ أَنْتَ خَلِيْفَةٌ ... وَخَلِيْفَةٌ مَا أَنْتَ إِذْ تَتَخَيَّرُ

بَحْرَانِ تَنْتَسِبُ البُحُوْرُ إِلَيْهِمَا ... لاَ بَحْرَ بَعْدَهُمَا يُهَارُ وَيُغْمَرُ

أما القائد: فهو اسم فاعل، وجمعه قوّد وقوّاد وقادة وقادات، كما جاء في

---

(1) ينظر اللسان، مادة (خَلَفَ): 9/ 4، وتاج العروس: 6/ 99، وما بعدها.

(2) محمد بن يوسف الثقفي أخو الحجاج، كان أميراً على اليمن. ينظر البداية والنهاية: 9/ 95.

(3) الكامل في اللغة والأدب: 1/ 412، وشرح ابن عقيل: 1/ 69، وقد أخل به ديوانه المنشور، وينظر في المعنى نفسه، منتهى الطلب من أشعار العرب: 7/ 393، في رثاء حميد بن ثور الهلالي لعبد الملك بن مروان.

(4) سورة الأعراف، الآية: 142.

(5) منتهى الطلب من أشعار العرب:7/ 393، وقد خلا ديوانه المنشور منها.

رثاء فُضالة بن عبد الله الغَنَوِي للقائد قتيبة بن مسلم الباهلي، إِذ يقول[1]:

وَمَا زَالَ مُذْ شَدَّ الإِزَارَ بِحُقْوِهِ   يَقُوْدُ إِلى الأَعْدَاءِ جَيْشَاً عَرَمْرَمَا[2]

والقود: نقيض السَوق، يقود الدَّابَّةَ مِنْ أَمَامِها وَيَسُوقها مِنْ خَلفِهَا، والقياد والمقود: الحبل الذي تقاد به الدّابة[3].

يقال: إن فلاناً سلس القياد، وأعطيت فلاناً مقادتي، أي انقدت له. والاقتياد والقود واحد. يقول أمرؤ القيس[4]:

وَلَوْلاَ أَنَّنِي آثَرْتُ قَوْمِي   وَكُنتُ لَدَيْهِمُ صَعْبَ القِيَادِ

إصطلاحاً:

يطلق إسم الخليفة: على كل من قام بأمر المسلمين، «ويسمى خليفة لأنه خلف رسول الله ﷺ في أمته، فيجوز أن يقال: ياخليفة رسول الله. وعلى الإطلاق، يقال: الخليفة. واختلفوا: هل يجوز أن يقال: ياخليفة الله؟ فجوزه بعضهم لقيامه بحقوقه في خلقه»[5]. ولقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾[6].

وقد وردت بصيغة الجمع عندما خاطب حُمَيْد بن ثور الهلالي الوليد بن عبد الملك يُهنِّئه بالخلافة، ويعزّيه بأبيه عبد الملك بن مروان قائلاً[7]:

أَنْتُمْ أَسِدَّةُ كُلِّ ثَغْرٍ خَائِفٍ   وَخَلائِفُ اللهِ الَّتِي نَتَخَيَّرُ

(1) معجم الشعراء للمرزباني: **177**.

(2) الحقو: وهو الخصر ومعقد الإزار، اللسان مادَّة (حَقَا): **14/ 189**، وتاج العروس: **10/ 94**.

(3) ينظر اللسان، مادة (قَوَدَ): **4/ 372**، وتاج العروس: **9/ 76**.

(4) ديوانه: **290**.

(5) الأحكام السلطانية: **29**، وينظر المقدمة لابن خلدون: **191**.

(6) سورة الأنعام، الآية: **165**.

(7) منتهى الطلب من أشعار العرب: **7/ 393**، وقد خلا ديوانه المنشور منها.

ووقفت على تعاريفَ متعدِّدة تَصُبُّ كلها في المعنى السابق، منها: أنَّ «الإمامة العظمى أو الخلافة أو إمارة المؤمنين، كلها تؤدي معنىً واحداً وتدلُ على وظيفةٍ واحدة، هي السلطة الحكومية العليا. وقد عرّفها علماء الإسلام بتعاريف متقاربة في ألفاظها، متحدة في معانيها تقريباً»[1].

ومن تلك التعاريف التي ذكرها العلماء في الخلافة قولهم: إنها «الزعامة العظمى، وهي الولاية العامة على الأمة كافة، والقيام بأمورها والنهوض بأعبائها»[2].

وقيل: إنها «الرياسة العامة في التصدي لإقامة الدين، بإحياء العلوم الدينية، وإقامة أركان الإسلام، والقيام بالجهاد، وما يتعلق به من ترتيب الجيوش والفروض للمقاتلة وإعطائهم من الفيء، والقيام بالقضاء، وإقامة الحدود، ورفع المظالم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نيابةً عن النبي ﷺ »[3].

وأول من لقب بهذا اللقب أبو بكر الصديق[4] رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ «ويؤيد ذلك ما حكي أنه قيل لأبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ياخليفة الله ، فقال: لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله ﷺ»[5].

يستخلص من التعاريف السابقة:«أن سلطة الخليفة تتناول أمور الدين وسياسة الدنيا على أساس شرائع الإسلام وتعاليمه، لأن هذه التعاليم تستهدف تحقيق مصالح الناس في عالمي الدّنيا والآخرة، أي أن العنصر العقدي والإنساني أو الأخلاقي يسير جنبا إلى جنب مع العنصر المادّي، ويتآزر العنصران لإقامة المجتمع الفاضل المستقر المتمكن في الأرض، الذي يقيم العزّة والسيادة الفعلية بين جناحيه. وتتعاضد فيه الهداية الإلهية مع الإرادة البشرية والقوى العقلية عن

(1) الفقه الإسلامي وأدلته: 6/ 661.
(2) مآثر الأنافة في معالم الخلافة: 8-9.
(3) ينظر المقدمة: 191، نظام الحكومة النبوية: 2.
(4) ينظر الأوائل للعسكري: 1/ 215.
(5) مآثر الأنافة في معالم الخلافة: 15، وينظر: المقدمة: 191.

طريق الإجماع والقياس»[1].

أمّا المعنى الاصطلاحي للقائد فنجد أنه يندمج مع المعنى اللغوي. غير أنّ المعنى الاصطلاحي ظلّ يتطور بتطور الحياة، حتى أنه أصبح صفةً لازمةً للأبطال الفرسان في المعارك الحربية [2]. ومن الجدير ذكره أنّ كل خليفة قائد، وليس كل قائد خليفة.

(1) الفقه الإسلامي وأدلته: 6/ 662.

(2) ينظر البطولة في الشعر العربي قبل الإسلام: 165.

مفردات مرادفـة للخليفـة والقائـد

الخليفـة:

وردت مرادفاتٌ كثيرةٌ لمفردةِ الخليفةِ منها: «المَلِكْ، أمير المؤمنين، الإمام، الولي، وتصب جميعها في المعنى نفسه، سأتناولها بحسب كثرة الاستعمال. وهي كما يأتي:

المـَلِكْ:

تكررت هذه المفردة في رثاء الخلفاء في العصر الأموي بشكل لافتٍ للنظر. ومردّ ذلك عائدٌ إلى طبيعة الحكم في هذا العصر، وإن سمي الحاكم فيه بالخليفة؛ إلاّ أنّه أقرب إلى المَلَكِيَّة في طبيعته، وذلك لتوارثه في نطاق العائلة الواحدة. وهذا ما تنبأ به الرسول ﷺ حينما قال: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم مُلْكٌ بعد ذلك»[1]. وقد عبّر عن هذه الحقيقة الخليفة معاوية بن أبي سفيان في قوله ذات مرة: «أنا أول الملوك»[2].

وكان لا بدّ للشعر من تصوّير ذلك، فهذا الأحوص الأنصاري[3]، يرثي الخليفة معاوية بن أبي سفيان، ويصفه بالملك الذي تدين له الملوك، فيقول[4]:

---

(1) مسند أحمد:5/ 221، وسنن الترمذي: 3/ 341.

(2) الاستيعاب في معرفة الأصحاب: 1/ 254، وينظر تاريخ اليعقوبي: 2/ 276.

(3) عبد الله بن محمد، شاعر هجَّاء، صافي الديباجة، من طبقة جميل بن معمر ونصيب، كان معاصراً لجرير والفرزدق، ولقب بالأحوص لضيقٍ في مؤخر عينيه، (ت 105)هـ. ينظر الأعلام للزركلي: 4/ 257.

(4) ديوانه: 219.

مَلِكٌ تَدِيـْنُ لـَهُ المُلُوكُ مُبَارَكٌ   كَـادَتْ لِمَهْلِكـهِ الجِبَالُ تَـزُوْلُ

وفي رثاء الفرزدق للخليفة سليمان بن عبد الملك، ما يُؤكد ذلك. إذْ نجده يخلع عليه صفة الملوك، بما يضعونه على رؤوسهم من التيجان، وهذا ما صرّح به سليمان نفسه في حياته. عندما لبس حلّة خضراء وعمامةً خضراء ونظر في المرآة فقال: «أنا الملك الفتى»[1]. فقال الفرزدق[2]:

مَـا لِلمَنِيَّةِ لاتـَـزَالُ مُلِحَّـــةً   تَعْدُو عَلَيَّ وَلاَ أُطِيـْقُ قِتَالَـهَا

تَسْقِي المُلُوكَ بِكَأسٍ حَتْفٍ مَرَّةً   وَلَتُلْبِسَنَّكَ إِنْ أَرَدت جِلاَلَهَـــا

أَرْدَتْ أَغَـرَ مِـنَ المُلوْكِ مُتَوَّجـاً   وَرِثَ النُّــبُوَّةَ بَـدْرَهَـا وَهِلاَلَهَـا

وهذا ابن ميادة المرّي يرثي الخليفة الوليـد بن يزيد ويصفه بالمَلِكِ المرجّى فيقـول [3]:

أَلاَ لَهْفِـي عَلَى المَلِكِ المَرَجَّى   غَـدَاةَ أَصَـابَـهُ القَـدَرُ المُتَـاحُ

أَلاَ أَبْكِـي الوَلِيـْدَ فَتَى قُرَيْشٍ   وَأَسْـمَحَهَا إِذا عُـدّ السِمَـــاحُ

ومثله ما جاء في رثاء الفرزدق لعبد العزيز بن مروان، إذ يخلع عليه صفة المَلِك الذي تشخص الأبصار إليه فوق المنبر، لشدّة تأثيره وبيانه، فيقول[4]:

إِنَّ المَنَابِرَ لاَ تَعْتَاضُ عَـنْ مَلِكٍ   إِلَيْهِ يَشْخَصُ فَـوْقَ المِنْبَرِ البَصَرُ

أميـر المؤمنيـن:

ومن المرادفات الأخرى لمفردة الخليفة: (أمير المؤمنين)، إذ وردت في

---

(1) ينظر الكامل: 4/ 311، وتاريخ اليعقوبي: 2/ 299، «أنا الملك الشاب» وفي وفيات الأعيان:2/ 421 «أنا الخليفة الشاب» وفي تاريخ الخلفاء للسيوطي: 221، «أنا الملك الشاب».

(2) ديوانه: 2/ 83.

(3) شعره:95-96، وتنظرالمفردة في الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام: 2/ 141، وتاريخ الطبري : 5/ 500.

(4) العقد الفريد: 3/ 46، وقد خلا ديوانه المنشور من هذا البيت.

رثاء الخلفاء، وإن كانت بنسبة أقل من سابقتها. علماً أنّ نشوءَ هذا المصطلح يعود إلى عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب[1] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ولعلّ في الحوار الذي جرى بينه وبين المغيرة بن شعبة ما يؤكد ذلك ويوضحه. «قال المغيرة لعمر: يا خليفة الله، فقال عمر: ذاك نبي الله داود، قال: يا خليفة رسول الله، قال: ذاك صاحبكم المفقود، قال: يا خليفة خليفة رسول الله، قال: ذاك أمر يطول! قال: ياعمر، قال: لا تبخس مكاني شرفه، أنتم المؤمنون وأنا أميركم. قال المغيرة: يا أمير المؤمنين»[2]. يقول جرير في رثائه للخليفة عمر بن عبد العزيز يصفه بأمير المؤمنين[3]:

تَنْعَى النُّعَاةُ أَمِيْرَ المُؤْمِنِيـنَ لَنَا ... يَا خَيْرَ مَنْ حَجَّ بَيْتَ الله واعْتَمَـرَا
حُمِّلْتَ أمراً عظيماً فاصْطَبَرْتَ لَهُ ... وَقُمْـتَ فِيْـهِ بِأَمْـرِ اللهِ يَاعُمَـرَا

وفي موضع آخر، يرد هذا المصطلح في رثاء الفرزدق لابن القائد بشـر بن مروان [4]، حينما أتته صحيفة بها خبر موت ولده، الذي لا يجد له بعد النبي محمد ﷺ وأمير المؤمنين من شبيه. يقول[5]:

ستَأْتِي أَبَـا مَـــرْوَانَ بِشراً صحِيْفَةٌ ... بِهـا مُحْقَبَـاتٌ سـيْرُهُنَّ خَبِيـبُ
كـأَنَّ حُـــزُوْنَ الأَرْضِ حِيْنَ يَطَأَنَهُ ... سُهُوْلٌ وَمـا يَصعِدْنَ فِيْهِ صَبُوْبُ
وَمـــدْرَجَـةٌ بَيْضَاءُ فِيْهَا عَظِيْمَةٌ ... تَكـادُ لَهـا الصُّمُّ الجِبَالُ تـزُوْلُ
وَمَـا لأَبِـي مَـــرْوَانَ بَعْـدَ مَحَمَّـدٍ ... وَبَعْـد أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ ضرِيْبُ

وتمتد يد المنون لتصل إلى بشر بن مروان نفسه، فيرثيه الفرزدق قائلاً: إن

(1) ينظر الأوائل للعسكري: 1/ 222.
(2) التاج في أخلاق الملوك، هامش: 88.
(3) ديوانه: 304.
(4) بشر بن مروان بن الحكم بن أبي العاص القرشي الأموي، أمير، كان سمحاً جواداً. ولي أمرة العراقين (البصرة والكوفة) لأخيه عبد الملك سنة (74) هـ. وهو أوّل أمير مات بالبصرة. توفي عن نيف وأربعين سنة. ينظر خزانة الأدب للبغدادي: 4/ 117، والأعلام: 2/ 55.
(5) ديوانه: 1/ 40 – 41.

نعيه سيصل إلى أمير المؤمنين ثم إلى أخيه عبد العزيز والي مصر[1]:

سَيَأْتِي أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ نَعِيُّهُ وَيَنْمِي إِلَى عَبْدِ العَزِيْزِ إِلَى مِصْرِ
بِأَنَّ أَبَا مَرْوَانَ بِشراً أَخَاكُمَا ثَوَى غَيْرَ مَتْبُوْعٍ بِعَجْزٍ وَلاَ غدْرِ

الإمـام:

وردت مفردة الإمام في رثاء الخلفاء وكانت تعني الخليفة. فالإمام في الأصل اللغوي للمصطلح، هو المقدم، المقدم في أي شيء والمقتدى به في أي سبيل، ومن ذلك قيل: الإمام الذي يقتدى به[2]. ويقول في هذا الشأن ابن حزم: «إنّ لفظ (الإمام) إذا أطلق فإنه لا ينصرف إلاّ إلى صاحب الإمامة الكبرى أو العامّة، أمّا إذا أريدت الإشارة إلى أي من المعاني الخاصّة فلا بدّ من إضافة اللفظ إلى ما يدلّ على ذلك»[3]. وابن خلدون لا يفرّق بين الخلافة والإمامة فيقول: «تسمّى خلافةً وإمامةً والقائم به خليفةً وإماماً»[4]. ومما جاء في هذا المعنى، رثاء يزيد بن معاوية لأبيه ينعته بإمام الناس، فيقول[5]:

لَوْ عَاشَ حَيٌّ إذاً لَعَاشَ إِمَـ ـامُ النّاسِ لاَ عَاجِزٌ وَلاَ وَكِلُ
الحُوَّلُ القَلبُ الأَرِيْبُ وَلَنْ يَدْفَعُ رَيْبَ المَنِيَّةِ الحِيَلُ

ويقول مِقْسَم (مولىً لبعض أهل المدينة) يرثي عمر بن عبد العزيز مشبّها أفعاله بالنبي وصاحبيه أبي بكر وعمر، ويضيف أن صنيعهما ليس يفوقه إمام أو خليفة بأي حالٍ من الأحوال[6]:

لَوْ أَعْظَمَ المَوْتُ خَلْقَاً أَنْ يُلاَقِيَهُ لأَعْظَمَ المَوْتُ أَنْ يَلْقَاكَ يَا عُمَرَ

(1) المصدر نفسه: 1/ 217.
(2) ينظر اللسان، مادة (أَمَمَ): 12/ 25، وينظر: المقدّمة 19، ونصيحة الملوك: 79.
(3) الفصل في الملل والأهواء والنحل: 4/ 90.
(4) المقدّمة: 191.
(5) نهاية الأرب: 20/ 368.
(6) التعازي والمراثي للمبرّد: 63.

ثَلاثَةٌ لا تَرَى عَيْنٌ لَهُمْ شَبَهاً تَضُمُّ أَعْظُمَهُمْ فِي المَسْجِدِ الجُدُر
فَقَدْ بَلَغْتَ وَلَمْ تَبْلُغْ فِعَالَهُمُ مَا فَوْقَهُ لإِمَامٍ مُبْصِرٍ بَصَرُ

ويقول ذو الشامة [1] في رثاء عبد العزيز بن مروان وابنه إذ يصف عبد العزيز بالخليفة، وأنه وابنه من أئمة الهدى والتقى والوفاء، قائلاً[2]:

أَبَعْدَ الخَلِيْفَةِ عَبْدَ العَزِيزْ وَبَعْدَ الأَمِيرِ كَذَا وَابقَةْ
إِمَامَي هُدَىً وَهَدِيَّيْ تُقَىً وَأَهْلُ الوَفَاءِ وَأَهْلُ الثِّقَةْ

الولـي:

جَاءَتْ مُفْرَدَةُ الوَلِي مُرَادِفَةً للخَلِيفَة. نَتَبَيَّنُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ الوَلِيْدِ بن يَزِيْد حِيْنَمَا أَتَاهُ نَعْيُ هِشَام بن عَبد المَلِكْ، فَقَال[3]:

فَجَعَلْتُ الوَلِيَّ مِنْ بَعْدِ فَقْدِي يَفْضُلُ النَّاسَ نَاشِئاً وَغُلَامَا
ذَلِكَ ابْنِي وَذَاكَ قِرْمُ قُرَيْشٍ خَيْرُ قِرْمٍ وَخَيْرُهُمْ أَعْمَامَا

ويشبه محارب بن دثار السدوسي[4] حكم وعدل عمر بن عبد العزيز، بحكم الولاة الأوّلين وعدلهم، ويقصد بهم الخلفاء الراشدين، إذ يقول[5]:

تَقَسَّطُ بَيْنَهُمْ حُكْماً وَعَدْلاً بِهِ حَكَمَ الوُلاةُ الأَوَّلُوْنَا
وَكَمْ مِنْ سُنَّةٍ دَرَسَتْ وَحُكْم رَفَعْتَ لَهُ مَنَاراً مُسْتَبِيْنَا

وَوَصِفَ الوليد بن يزيد، عبد الملك بن مروان بوليّ الأمّة إشارةً إلى منصب

(1) وهو محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط، ولي الكوفة من قِبَل مسلمة بن عبد الملك، ينظر تاريخ الطبري: 5/ 340، والبداية والنهاية: 9/ 248.
(2) ولاة مصر: 77.
(3) ديوانه: 77، وتنظر المفردة في جمهرة خطب العرب: 2/ 263، وزهر الآداب: 1/ 91.
(4) محارب بن كردوس السدوسي الشيباني الكوفي، أبو المطرف (ت 116 هـ) قاضي الكوفة، وكان فقيها فاضلا، حسن السيرة، زاهداً شجاعاً، من أفرس الناس. ينظر: النجوم الزاهرة: 1/ 28، الأعلام للزركلي: 5/ 281.
(5) أخبار القضاة: 3/ 33.

الخلافة، وذلك بعد رجوعه من دفنه، إذ صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: « ... وقد كان قضاء الله وسابق علمه، وماكتب على أنبيائه وحملة عرشه من الموت، موت وليّ هذه الأمّة»[1].

ومهما يكن من أمر، فإن الحاكم المسلم بأي لقب سمّى نفسه أو سمّاه النّاس، لا يغيّر في جوهر المهمّة الموكلة إليه من إقامة الشرع وحماية الأمّة والذّود عنها.

القائـد:

وردت مرادفات كثيرة لمفردة القائد منها: «السيد، الأمير، الزعيم، الوزير»، وجميعها ترمز إلى المعنى المراد نفسه، وتأتي في المقدّمة مفردة السيد. «وهي أكثر الألقاب إطلاقا»[2]. إذ وردت في رثاء حارثة بن بدر الغدّاني [3] لزياد بن أبيه بقوله[4]:

صَلَّى الإِلَـهُ عَلَى قَبْرٍ وَطُـهْـرِهِ   عِنْدَ الثَّوِيَّةِ يَسْفِي فَوْقَهُ المُـوْر
زَفَّتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ نَعْشَ سَيِّدِهَا   فَثَمَّ كُـلُّ التُّقَى وَالبَـرُّ مَقْبُـوْرُ

وجاءت مفردة السيد في إطار الدّلالة على القيادة كما ورد في رثاء الشمردل ابن شريك [5] لعمر بن يزيد الأسدي [6] ....

(1) جمهرة خطب العرب: 2/ 199.
(2) محاضرات في تاريخ العرب: د. صالح العلي : 156.
(3) حارثة بن بدر بن حصين التميمي محاضرات في الغدّاني: تابعي، من أهل البصرة، وقيل أدرك النبي ﷺ ، له أخبار في الفتوح، وقصة مع عمر، ومع علي، وأخبار مع زياد وغيره، في دولة معاوية وولده. ينظر، الإصابة: 1/ 371، والأعلام: 2/ 158.
(4) شعراء أمويون: 2/ 346.
(5) الشمردل بن شريك بن عبد الملك، من بني ثعلبة بن يربوع، من تميم: شاعر هجّاء، يجيد القصيد والرجز، ويقال له: (ابن الخريطة). ينظر معجم الشعراء للمرزباني:139. والأعلام: 3/ 176.
(6) عمر بن يزيد بن عمير، من بني أُسيد من تميم: أحد الشجعان الرؤساء المقدّمين أيام بني مروان. ذكره يزيد بن عبد الملك يوماً فقال: «هذا رجل العراق «قتله مالك بن المنذر بن =

إِذ يقول[1]:

لا يَبْعُـدِ ابـْنُ يَزِيـْدَ سَيِّدُ قَوْمِهِ عِنْـدَ الحِفَـاظِ وَحَـاجَةٍ تُسْـتَنْبَحُ
حَامِي الحَقِيْقَةِ لا تَـزَالُ جَيَـادُه تَغْـدُو مُسَـوَّمَةً بِـهِ وَتَـــرُوْحُ

ومن المرادفات الأخرى، مفردة الأمير، وكانت تطلق على قادة الجيوش، فَيُقَالْ: أمير السرايا وأمراء الشام[2]. يتبين ذلك في رثاء جرير للقائد قتيبة بن مسلم الباهلي[3]، وهو يخاطب قتلته، ويصفه بالأمير الذي كانت رعيته في غنيمة ما استمرّت حياته، لكنهم أصبحوا بعد موته غنيمة للأعداء. فيقول[4]:

نَدِمْتُمْ عَلَى قَتْلِ الأَمِيْرِ ابْنِ مُسْلِمٍ وَأَنْتُـمْ إِذَا لَاقَيْتُـمُ اللهَ أَنْـدَمُ
لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَـزْوِهِ فِـيْ غَنِيْمَةٍ وَأَنْتُـمْ لِمَـنْ لاقَيْتُـمُ اليَوْمَ مَغْنَمُ

ومن ذلك ما رثى به زرارة بن حرب، ولده عبد العزيز[5]، فهو خير من يتقن إدارة الحروب وحماية الثغور. يقول[6]:

= جارود، صاحب شرطة البصرة بأمر من خالد بن عبد الله القسري لما ولي العراق. ينظر: تاريخ الطبري: 8/ 19، والأعلام: 5/ 69.

(1) شعراء أمويون: 2/ 523، وتنظر مفردات أخرى في: ديوان سراقة البارقي في رثاء عبد الرحمن بن مخنف: 43و 44، تاريخ دمشق، في رثاء المنذر بن جارود العبدي: 60/ 285، وأنساب الأشراف، في رثاء عمر بن سعد بن أبي وقّاص: 11/ 34.

(2) ينظر، محاضرات في تاريخ العرب: 156.

(3) قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي، أمير فاتح، من مفاخر العرب، ولي الري في أيام عبد الملك بن مروان، وخراسان في أيام ابنه الوليد. وهو عظيم المكانة مرهوب الجانب، قال أحد الأعاجم بعد مقتله: يامعشر العرب قتلتم قتيبة، ووالله لو كان فينا لجعلناه في تابوت واستفتحنا به غزونا. ينظر: وفيات الأعيان: 1/ 428، والأعلام: 5/ 189.

(4) البداية والنهاية: 9/ 191. وحماسة الظرفاء: 1/ 119. وقد خلا ديوانه المنشور منها.

(5) عبد العزيز بن زرارة الكلابي، قائد من الشجعان المقدمين زمن معاوية، كان فيمن غزا القسطنطينية وأبلى في قتال الروم البلاء العجب، قُتل في إحدى الوقائع، (ت 50 هـ) ينظر، تاريخ دمشق: 36/ 286، والأعلام: 4/ 17 .

(6) تاريخ دمشق: 18/ 448، وينظر، أنساب الأشراف: 6/ 48.

أَلا زَانَ قَتْلُ عَبْدِ العَزِيـزِ يُصْلِـي الـحُرُوْبَ وَسَـدَّ الثُّغُوْرَا
وَمَــازَالَ مُــنْذُ كَـانَ عَبْدُ العَزِيْزِ إِمَّـا وَزِيْـراً وَإِمّـَا أَمِيـْرَا

وجاءت مفردة الزعيم مرادفةً للقائد في رثاء سراقة البارقي لعبد الرحمن بن مخنف [1]، إذ ينعته بالحلم الذي يزينه ولا يفارقه، وإن حصر رئيس القوم الذي يلجأ إليه في الكلام فإنه ينطق عن قومه ويكون قوله الفصل، فيقول[2]:

وَإِنْ ذُكِـرَ الحِلْمُ المُزَيِّـنُ أَهْلَـهُ فَمَا الحِلْـمُ عَنْـهُ يَـوْمَ ذَاكَ بِغَائِبِ
وَكَـانَ زَعِيْمُ القَوْمِ فِيْمَا يَنُوْبُهُـم إِذَا عَـيَّ مَنْ يَعْنَوْنَـهُ بِالمُخَاطَبِ

وفي مرثية أُخرى يصفه بالزّعيم والسّيد، في معرض هجائه لقومه الذين أسلموه للأعداء، ولم يصبروا معه تحت قعقعة السيوف اللوامع، فقال[3]:

لَحَا اللهُ قَوْماً عَـرَّدُوْا عَنْكَ بُكْرَةً وَلَـمْ يَصْبِرُوا لِلَّامِعَـاتِ البَوَارِقِ
تَوَلُّوا فَأَجْلُوا بِالضُّحَى عَنْ زَعِيْمِنَا وَسَـيِّدِنَا فِي المَارِقِ المُتَضَـايِقِ

ومن مرادفات القائد، مفردة الوزير، وهي من المرادفات الجديدة التي ظهرت في عصر صدر الإسلام[4]. ولا يعني هذا الظهور في الشعر أنها كانت تعرف بهذا الاسم لمسمّى يقوم بمهام معينة يطلق عليه لفظ الوزير، فالمسعودي يشير إلى عدم وجود الوزارة عنـد الأمويين [5]. ويعضّد كلامـه ابن خلّكان عند حديثه عن أوّل وزير عبّاسي «... ولم يكن قبله من يعرف بهذا النعت لافي دولة بني أمية ولا في

---

(1) عبد الرحمن بن مخنف الأزدي، قائد من الشجعان في الدولة المروانية. انتهت إليه سيادة (أزد شنوءة) و(أزد عمان) كان مع المهلب في قتال الأزارقة فقتل في كازرون (بإيران). ينظر الكامل في التاريخ لابن الأثير: **4/ 150** وما قبلها، الأعلام للزركلي: **3/ 336**.

(2) ديوانه : **87**.

(3) ديوانه:**56**، وتاريخ الطبري: **4/ 582**.

(4) ينظر، القيادة في منظور الشعر العربي: **14**.

(5) ينظر، التنبيه والإشراف: **294**.

غيرها»[1].

وأرجّح أن يكون استعمال هذه المفردة بمعنى المؤازرة والمعاونة. فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي﴾ [2]. وقد جاءت بهذا المعنى في رثاء زرارة ابن حرب لولده عبد العزيز بن زرارة، الذي استشهد بعيداً عن أهله ووطنه فقال[3]:

وَمَـــا زَالَ مــُذْ كَـــانَ عَـبْدُ   العَزِيـزِ إِمَّـا وَزِيْـراً وَإِمَّـا أَمِيْـرَا
رَمَـتْــهُ الـمَـنُــوْنُ عَلَـى غُـرْبَـةٍ   بِسَـهْمٍ فَأَصْبَـحَ حَـدِّي عَثُـوْرَا

ومن الجدير بالذكر، أن تداخلاً قد يحصل بين المفردات الدّالة على الخليفة والقائد، فيؤدّيان المعنى نفسه، من ذلك ورود مفردة السيد وقصد بها الخليفة. نلمح ذلك من خلال السياق العام كما جاء في رثاء الفضل بن العبّاس للوليد بن عبد الملك، إذ يقول[4]:

وَلَقَـدْ مَـرَرْتُ بِنُسْـوَةٍ يَنْدُبْنَـهُ   بِيْـضِ السَّـوَاعِدِ مِـنْ بَنِي فِهْرِ
تَبْكِـي لِسَـيِّدِهَا الأَجَـلِّ   وَمَـا يَبْكِيْـنَ مِـنْ نَـابٍ وَلا بَكْـرِ
يَبْكِيْنَـهُ وَيَقُلْـنَ سَـيِّدَنَا   ضَـاعَ الخِلافَـةَ آخِـرَ الدَّهْـرِ

وقد وردت بهذا المعنى في رثاء سلَّامة القس ليزيد بن عبد الملك، تصفه بالسيد الذي يرعى رعيته ولا يُعَرِّضَهُمْ للضَّيَاع، إذ تقول[5]:

قَـــدْ لَعَـــمْرِي بِـــتُّ لَيْلِي   كَـأَخِـــي الـــدَّاءِ الـوَجِـيْـــعِ
وَنَـجِـــيُّ الـهَـــمِّ مِنِّـي   بَـــاتَ أَدْنَـــى مِـــنْ ضَجِيْعِـي
قَـــدْ خَـــلا مِـــنْ سَـــيِّدٍ   كَـــانَ لَنَـــا غَـيْـرَ مُضِيْـــعِ

---

(1) وفيّات الأعيان: 1/ 110-111.

(2) سورة، طه الآية:29.

(3) تاريخ دمشق: 18/ 448.

(4) شعره: 50.

(5) أنساب الأشراف: 9/ 187، وتنظر المفردة في: الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام: 2/ 141، تاريخ الطبري: 5/ 500، معجم الشعراء: 311.

وهناك مفردات أخرى مرادفة للقائد جاءت بالمعنى نفسـه، منها: العميد[1]، والسَّرِي[2]، والرئيس.[3]

(1) ينظر ولاة مصر: **113**. وينظر ديوان سراقة البارقي: **85**.

(2) ينظر ديوان سراقة البارقي: **85**، وولاة مصر للكندي: **114**.

(3) ينظر ديوان سراقة البارقي: **80**.

منصب الخلافة وأهميّتُه في المجتمع الإسلامي

من الحقائق الثابتة أنّ الاجتماع في حياة الإنسان ضرورةٌ لازمة، وهو ما يعبّر عنه بقول بعض الحكماء: «الإنسان مدني بالطبع، أي لا بد له من الإجتماع الذي هو المدينـة في اصطلاحهم»[1]. معنى ذلك أن لاغنى للإنسان عن المجتمع، فهو يولد فيه ويموت فيه. «وإذا كان المجتمع ضروريا للإنسان ولا بدّ من وجوده ، فإن النظام – على أي نحو كان – ضروري للمجتمع لا يُتَصَوّر وجوده بغيره، لأن الأفراد لا يمكنهم العيش بحرّية مطلقة داخل المجتمع، وإلا كان في ذلك هلاكهم أو اضطراب حياتهم وانقلاب مجتمعهم إلى مجتمع حيوانات كالّذي نشاهده في الغابات، ولهذا كان لا بدّ من نظام للمجتمع يتضمّن الحدود التي يجب أن يقف عندها الجميع والضوابط العامّة التي يجب أن يلتزموا بها في سلوكهم، حتّى يستطيعوا العيش بأمان واستقرار»[2].

ولا بدّ لهذا النظام من حاكم يسوسه ويقيم العدل فيه، ويقطع الطريق على الظالم، ويمنع الفتن والأهواء والفرقة [3]. وبغير ذلك «تهلك الجماعات البشريّة وتتبدّد قواها في اتجاهات مختلفة إذا لم يكن لها رئيس واحد يأمر ويوحّد، وينقل إلى الآخرين أفكاره، كالرأس ينقل الأوامر إلى الأعضاء»[4]. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [5]. وقديماً قال الشاعر

(1) تاريخ ابن خلدون: 1/ 41.

(2) أصول الدّعوة: 103.

(3) ينظر الأحكام السلطانية: 30، مآثر الأنافة في معالم الخلافة: 1/ 29.

(4) فصول في الأمرة والأمير: 177.

(5) سورة البقرة، الآية: 251.

الجاهلي الأفوه الأودي عن هذه الحاجة المّاسّة لحياة الإنسان، وإن كانت حياةً لا تزال في طابعها القبلي المحدود، الذي حتّم عليه الانضواء تحت لواء قبيلته التي تضم بجانبه مجموعة من الأفراد تجمع بينهم آصرة الدّم، ووشائج القربى، فيقول[1]:

لا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لاَسُرَاةَ لَهُمْ وَلا سُـــرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَــادُوْا
وَالبَيْتُ لا يُبْتَنَى إِلاَّ عَلَى عَمَـــدٍ وَلا عِـمَـادَ إِذَا لَـمْ تُـرْسَ أَوْتَـادُ
فَـإِنْ تُجْمَعْ أَوْتَـادٌ وَأَعْـمِـدَةٌ يَوْمـاً فَـقَـدْ بَلَغُوا الأَمْـرَ الَّـذِي كَـادُوْا

وعلى من يتصدّى لهذا المنصب أن يتحلى بخلال معيّنه، إذ لايمكن لأي شخص أن يتقلّد هذا المنصب من دون مؤهّلات تؤهّله لذلك. فالقبيلة لاتقدّم رئيساً له الحق في قيادتها وتنظيم شؤونها دون أن تعهد فيه قدرات لا توجد في غيره من رجالها، كالكرم والشجاعة والإيثار وبُعد النظر ...، إلى غير ذلك من الصفات التي لا تجتمع في شخص واحد إلاّ نادراً، وإذا ما اجتمعت كان على القبيلة أن تحترمه وتطيعه، وبالمقابل عليه أن يسوسها بحكمة ورعاية متحمّلا في هذا السبيل كثيراً من التبعات[2].

وعندما جاء الإسلام، استطاع أن يجمع هذه القبائل المتفرّقة في أمة واحدة، إذ استبدل رابطة الدّم التي لم تخرج عن حيّز القبيلة الواحدة، برابطة الدّين[3]. التي شملت الأمّة جميعها. وحكم الرسول ﷺ باسم الله، فنسب المؤسسات العامّة الى الله، ومعنى ذلك: أنه لا توجد سلطة بشريّة ، بل سلطة إلهية لها وحدها الحكم، والرسول ﷺ هو منفذ إرادة الله تعالى في الأرض[4].

وبعد وفاته ﷺ، كان لابدّ للأمّة من إمام أو حاكم، فقد تواتر إجماع المسلمين

(1) ديوانه: 10.
(2) ينظر أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي: 62.
(3) ينظر النظم الإسلامية، صبحي الصالح: 259.
(4) النظم الإسلامية ، د. فاروق عمر وآخرون: 14.

في الصدر الأوّل بعد وفاة النبي ﷺ على امتناع خلو الوقت من إمام، حتّى قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطبته المشهورة، حين وفاته عليه الصلاة والسلام: ألا إن محمداً قد مات، ولا بدّ لهذا الدّين ممن يقوم به، فبادر الكل إلى قبوله، وتركوا له أهم الأشياء، وهو دفن رسول الله، ولم يزل النّاس على ذلك في كل عصر إلى زماننا هذا من نصب إمامٍ متّبع في كل عصر [1]. نخلص من ذلك إلى أنّ «ولاية أمر النّاس من أعظم واجبات الدين، لاقيام للدّين إلاّ بها»[2]، وإنّ بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع، لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بدّ لهم عند الاجتماع من رأسٍ يسوسهم ويقوم بأمرهم، وقد أكد الرسول ﷺ هذه الحقيقة حينما قال: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم» [3]. والمسلمون لا بدّ لهم من إمام يقوم بتنفيذ أحكامهم، وإقامة حدودهم، وسدّ ثغورهم، وتجهيز جيوشهم، وأخذ صدقاتهم، وقهر المتغلّبة والمتلصّصة وقطاع الطريق، وإقامة الجمع والأعياد وقطع المنازعات الواقعة بين العباد، وقبول الشهادات القائمة على الحقوق، ونحو ذلك من الأمور التي لا يتولّاها آحاد الأمّة [4].

وإذا كانت الشروط الموجبة لتسنّم القيادة في العصر الجاهلي كالكرم والشجاعة والإيثار ... إلى غيرها من القيم التي عبّرت عن صورة المجتمع حينئذ كون الشيخ أو رئيس القبيلة ينظر بمنظار لا يتعدّى قبيلته؛ فإنّها في ظل الإسلام قد ترسّخت وتأكدت. كما وضعت لها شروط وواجبات تنبع من طبيعة دعوته الجديدة[5]. منها: العلم ، والعدالة، والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء، واختلف في شرط خامس وهو النسب القرشي[6].

(1) ينظر نهاية الإقدام: 479.
(2) السياسة الشرعيّة، لابن تيمية: 136.
(3) سنن أبي داود: 1/ 587.
(4) ينظر، الفَرق بين الفِرَق: 1/ 340.
(5) ينظر الأحكام السلطانية: 16-17، والمقدّمة: 193.
(6) ينظرالمقدّمة: 194، وأصول الدّعوة: 215.

أمّا اشتراطهم العلم فظاهره لأنّه إنما يكون منفّذاً لأحكام الله تعالى إذا كان عالماً بها، وما لم يعلمها لا يصح تقديمه لها، وأمّا العدالة فلأنّه منصب ديني ينظر في سائر المناصب التي هي شرط فيها، فكان أولى باشتراطها فيه، وأمّا الكفاية فهو أن يكون جريئا على إقامة الحدود واقتحام الحروب بصيرا بها، وأمّا سلامة الحواس والأعضاء من النقص والعطلة كالجنون والعمى والصمّ والخرس، وَمَا يُؤَثِّرُ فَقْدُهُ مِنَ الأَعْضَاء فِي العَمَلْ... فَتَشْرُطُ السَّلاَمَةُ مِنْهَا كُلَّها لِتَأْثِيرِ ذَلِكَ فِي تَمَامِ عَمَلِه[1].

ولأهمية وجود السلطة الحاكمة في المجتمع ممثلة بالخليفة أو الحاكم، لابدّ من إعطاء لمحة موجزة عن أهم الواجبات الملقاة على عاتق من يتصدّى لهذا المنصب [2]. وأوّل هذه الواجبات وأهمها، حفظ الدّين على أصوله المستقرّة، وما أجمع عليه سلف الأمّة، فإن نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة أوضح له الحجّة، وبيّن له الصّواب، وكفّه عن ذلك بما يستحقّه من الزجر ليكون الدين محروسا، وحال الأمّة فيه مضبوطا، ولا يتأتّى ذلك إلاّ بحماية بيضة الإسلام والذّب عن الحُرَم، ليتصرّف الناس في معايشهم وينتشروا في أسفارهم آمنين على أنفسهم.

ومن لوازم حفظ الدّين، تحصين الثغور بالعُدَدِ وَوُفُورُ العَدَدِ، حتّى لا يظفر العدو بغرّة فينتهك فيها محرما أو يسفك فيها دم مسلم أو معاهد. فتنفيذ الأحكام وإقامة الحدود، من أولويّات الخليفة أو الحاكم. وفي هذا المعنى يقول جرير في عبد الملك بن مروان[3]:

لَـوْلاَ الخَلِيْفَـةُ وَالـقُـرْآنُ يَقْرَؤُهُ ... مَا قَـامَ لِلنـَّاسِ أَحْكَامٌ وَلاَ جُمَعُ

ومن المهام الأخرى التي لا تقل أهمية عما سبق ذكره، جهاد الكفرة المعاندين للإسلام، حتّى يسلموا أو يدخلوا في ذمّة المسلمين قياما بحق الله تعالى في ظهور

---

(1) ينظر تفاصيل أوفى في مآثر الأنافة في معالم الخلافة: 1/ 31-39.

(2) ينظر الأحكام السلطانيّة: 30.

(3) ديوانه: 355.

دينه على الدّين كله. وعليه تنفيذ الأحكام وإقامة الحدود لتتوقّى المحارم وتصان الأنفس والأموال. ولا يستطيع الخليفة تنفيذ ذلك إلاّ باختيار المسؤولين الأمناء والأكفّاء وتقليد الولايات للثقات والنصحاء، وعليه أن لا يتّكل عليهم، إذ لا بدّ له من مشارفة الأمور بنفسه. فتأدية هذه الواجبات ليست بالأمر السهل، وإلاّ انقلبت على صاحبها بالحسرة والندامة. والأحاديث النبويّة الواردة في هذا المعنى كثيرة. منها ما ورد عن أبي ذر حينما سأل النبي ﷺ الإمارة قائلاً: يا رسول الله ألا تستعملني، فضرب الرسول ﷺ بيده الشريفة على منكبه ثمّ قال: يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنّها أمانة وإنّها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقّها وأدّى الذي عليه فيها [1]. وبالمقابل فإنّ هناك أجراً عظيماً لمن يقوم بها خير قيام. فقد أجمع المسلمون على أنّ الولايات من أفضل الطاعات ، وأنّ الولاة المقسطين، أعظم أجراً وأجلّ قدراً من غيرهم ، لكثرة ما يجري على أيديهم من إقامة الحدود ودرء الباطل، فالأمير يقول الكلمة الواحدة فيدفع بها ألف مظلمة فما دونها، ويكفي أنّ الأمير العادل يوضع في ميزانه أعمال جميع رعيّته[2]. وإلى هذا المعنى يشير الرسول ﷺ بقوله: من دعا إلى الهدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لاينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لاينقص ذلك من آثامهم شيء[3].

(1) ينظر صحيح مسلم: 6/ 6.

(2) ينظر فصول في الأمرة والأمير: 10–11.

(3) ينظر مسند أحمد: 2/ 397، وصحيح مسلم: 8/ 62، وسنن ابن ماجة: 1/ 75.

نظرة عامّة في الرثـاء حتّى بداية العصر الأموي

الرثاء مِن المَوضُوعَات القَدِيْمة عِندَ العَرَب، قِدم إِحْسَاس الإِنْسَان بِالمَوْت، وَرُؤْيَتِه منْ حَولهُ وَقَدْ خطَفتهمْ يد المنُونْ. ولا نَكَاد نَهتدِي إِلَى صُوْرَةٍ واضِحَةٍ لِهذا الإِحسَاس قَبْل العَصْر الجَاهِلِي، إِذْ تَفاوتتْ مَشاعرُ الإِنْسَان تِجَاهَ مَن يَموت تَبعاً لِتَطوّر الحياة وامتدادها الزمني. وَقدْ يَكوْن لِعِنَايَةِ أَهْلِ الفَقِيْدِ بِقَبرِهِ لَوناً مِنْ أَلْوَانِ هَذا الرِّثَاء البدائي، ولعلّ «من أقدم صور الرثاء عندهم ما نقش على قبور الأقيال والأذواء في اليَمَن والأمراء في الحيرة، وعند الغساسنة في الشام، فعلى قبورهم كانوا يكتبون أسماءهم وألقابهم تخليداً لذكراهم وتمجيداً لأعمالهم، وكأنّ هذه هي الصورة الأولى للتأبين والإشادة بفضائل الميت»[(1)].

لكنّ هذه الصورة الساذجة للرثاء لم تبق على حالها، وظلّت تتطوّر بتطوّر الإنسان إلى أنْ بدأ يفصح عن إحساسه العميق بالحزن قِبَل الموتى ومحاولة ذكراهم بتمجيدهم وبيان فضائلهم التي ماتت بموتهم، مع التفكير في القدر وقصور الناس أمامه، وعبثه بهم ولعبه بحياتهم وموتهم[(2)].

هذه الصورة البدائية للرثاء لم تقف عند هذا الحد، فانتقلت الى مرحلة أكثر تعقيداً «لا بما فيها من طول فحسب، بل بما فيها من وسائل فنية كثيرة، إذ نرى شعراء الرثاء يهتمّون بقوالب رثائهم وصيغه وينوعونها تنويعاً واسعاً، كما نجدهم يهتمون بصورهم واستعاراتهم وتشبيهاتهم مع العناية التامّة بموسيقاهم وأوزانهم

---

(1) الرثاء، شوقي ضيف: 7.

(2) ينظر المصدر نفسه: 7.

والملاءمة بين أنغامهم وشعور الحزن الذي يتعمّق قلوبهم وأفئدتهم»[1].

ونتيجة لهذا التطوّر الحاصل في التعبير عن الإحساس بألم الفراق والشعور بالحزن، اتخذ الرثاء صوراً متعدّدة، تمثّلت بالندب والتأبين والعزاء[2]. وقد سلك الجاهليّون في رثائهم سبلاً شتّى، فقد كان من عادتهم عند البكاء على الميت، شق الجيوب ولطم الخدود وتعفير الرؤوس بالتراب [3].

ومن الأعراف الأُخرى السائدة لديهم، أن يتجنّب أهل الميت وذوو قرابته لبس الملابس ذات الألوان الزاهية، وقد يقتصر على ملابس الحزن، كما أنّ النساء لا يستعملن مدّة العزاء طيباً ولا خلوقاً أوزيناً ولا يغسلن رؤوسهنّ[4].

وقد أطلقوا بعض الأسماء على النسوة اللائي يقمن بالبكاء، فكانوا يسمّون «من ترفع صوتها بالنياحة بالصالقة، وأمّا التي تحلق شعرها عند نزول المصيبة فكان يقال لها: الحالقة، وأمّا التي تشقّ جيبها فيقال لها الشّاقّة»[5].

أمّا في العصر الإسلامي؛ فقد طُبع الرثاء بطابع يتماشى مع تعاليمه الجديدة، ويختلف عن مثيله قبل الإسلام، وقد يتّفق معه في بعض الجزئيّات التي لاتمس جوهر العقيدة الإسلامية. فالتأبين مثلاً يقوم في الجاهلية على التمجيد الخالص لمناقب الفقيد كالشجاعة والكرم والحلم وحماية الجار ... وعندما جاء الإسلام أبقى على هذه القيم الحميدة التي تتوافق وتعاليمه، في حين أبطل قيماً جاهليةً سيئةً كالثأرِ والعصبيّة القبلية والتفاخر بالأنساب وشرب الخمر وغيرها .. ، وأتى بقيم إسلامية فاضلة كالإيمان بالقضاء والقدر واليوم الآخر والعمل الصالح والجهاد في سبيل الله.

---

(1) المصدر نفسه: 7.

(2) المصدر نفسه: 12-54-86.

(3) ينظر المفصّل في تاريخ العرب: 5/ 154.

(4) ينظر بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب:3/ 13.

(5) المفصّل في تاريخ العرب: 5/ 155.

وتجدر الإشارة إلى أن الرثاء في العصر الإسلامي، لم يتقيّد برابطة الدّم والنسب التي سادت العصر الجاهلي، بل إننا نجد الشاعر المسلم قد يرثي من كان عدوّه القبلي قبل الإسلام، فصار بفضله أخاه اليوم[1]. في حين لا نجد الشاعر الجاهلي يخرج في رثائه عن أبناء قبيلته. ومنطقه في ذلك المثل القائل: «في الجريرة تشترك العشيرة»[2]. أمّا في الإسلام فقد توسّعت هذه الدائرة لتشمل كل أبناء العقيدة الجديدة التي ساوى بين جميع أفرادها، إذ لافضل لأبيضٍ على أسود إلاّ بالتقوى.

وهناك أمرٌ آخرُ مهم، وهو تصوّر الراثي لحياة الفقيد بعد موته، إذ أننا نجد الشاعر الجاهلي ينظر إلى الميت باعتبار أنّ حياته انتهت بموته، وأنّ الإنسان بموته يصير إلى عدم، فلم يكن يتصوّر وجوده ولا حياته بعد موته[3]. وهذا ما عبّر عنه أبو بكر ابن الأسود في مرثيته لقتلى بدر، إذ تعرّض فيها لعقيدة الإسلام في اليوم الآخر وأنكر وجود حياة أخرى بقوله [4]:

يُخْبِرُنَا الـرَّسُـوْلُ لَسَـوْفَ نَحْيَـا وَكَـيْـفَ حَـيَـاةُ أَصْـــدَاءٍ وَهَـامِ

أمّا في المفهوم الإسلامي، فانّ الموت لم يكن فناءً وعدماً كما كان شائعا قبل الإسلام، بل هو انتقال من دارٍ إلى دار، من دار الدنيا الضيقة إلى سعة الآخرة ودوامها، وأنّ للإنسان أجلاً لا يمكن أن يتقدّم أو يتأخّر، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [5]. وعلى هذا الأساس لم يعد الخوف من الموت نفسه كما كان قبل الإسلام، إذ انتقل إلى ما بعده، حيث الحساب والجزاء، فأمّا إلى الجنّة ونعيمها وأمّا إلى النّار وجحيمها. يتبين ذلك في

(1) ينظر الشعر الاسلامي: 103.
(2) مجمع الأمثال للميداني: 2/ 334.
(3) ينظرالمفصّل في تاريخ العرب: 6/ 126.
(4) سيرة ابن هشام: 2/ 261.
(5) سورة الأعراف، الآية: 34.

رثاء كعب بن مالك لحمزة بن عبد المطلب إذ يقول[1]:

وَقَتْلاَهُمْ فِـي جِنَـانِ النَّعِيْـمِ كِـرَامُ المَدَاخِـلِ وَالمَخْـرَجِ
بِمَا صَـبَـرُوا تَحْتَ ظِـلِّ اللِّـوَاءِ لِـوَاءِ الـرَّسُـوْلِ بِـذِي الأَضْـوَجِ

إِنَّ مِنْ أَهَم مَا يُمْكِنُ أَنْ نَخْلُصَ إليه وما نلمحه من تغيير في طبيعة الرثاء في الإسلام عنه في الجاهلية؛ نظرة كليهما للموت. ففي الجاهلية فناءٌ وعدم، وفي الإسلام اطمئنانٌ تامٌّ إلى المصير، ورضاءٌ بقضاء الله وقدره، محل الجزع والولولة والتشكّي من الدّهر وسبّه، إذ بدأ الشاعر الإسلامي يتحدّث عن مصير المرثي وما يلقاه من تكريم في الجنّة حيث النعيم المقيم.

وبعد هذه الإلمامة السريعة والموجزة عن طبيعة الرثاء قبل العصر الجاهلي وبعده أقول: لا بدّ لهذه العصور أن تلقي بظلالها على الرثاء في العصر الأموي، وتؤثّر فيه بشكل مباشر وغير مباشر، وذلك لقرب المسافة الزمنية الفاصلة بينهما. فأين الرثاء في هذا العصر من ذلك كلّه؟ هل احتذى النماذج السابقة أو أحدها؟ وهل أضاف شيئاً جديداً؟ وما الدّوافع والتغييرات الجوهريّة التي طرأت على هذا الفن ... هذا ما ستحاول الفصول القادمة الإفصاح عنه.

(1) ديوانه: 157.

الفصل الأول

مصـادر المراثـي ورواتهـا وشعـراؤها

- المبحث الأول: المصـــادر
- المبحث الثاني: الـــــرواة
- المبحث الثالث: الشـــعراء

المبحث الأوّل
المصــادر

وَرَدَ شِعْرُ رِثَاءِ الخلفاءِ والقادةِ في العصرِ الأمويِ، ضِمْنَ مَصَادِرَ كثيرة يتعذرُ عَلى الباحثِ إحصاؤها، أو الاطلاع عليها كلها. وذلك لأسبابٍ متعددةٍ لا تخفى على من سلك طريق البحث وعانى مشكلاته. إذ ليست هذه المصادر محددة بمدةٍ زمنيةٍ معينة يسهل حصرها، ولكنها مبثوثة على مساحة واسعة من تاريخ أمتنا المجيد.

ومن خلال بحثنا في المصادر المتيسرة التي استقينا مادتنا الشعرية منها والتي نحن بصدد دراستها. وجدنا أنّ أكثر المصادر التي وردت فيها هي: كتب التاريخ، وكتب التراجم والأنساب، وكتب اللغة والبلدان، والمختارات الشعرية، فضلاً عن دواوين الشعراء.

وقد تعددت الغاية من إيراد هذه الأشعار عند المؤلفين، تبعاً لاختلاف موضوعاتهم فكُتّاب التاريخ يسوقونها سنداً لأخبارهم، وأحياناً يوردونها للتدليل على صحة حدث ما[1]. أمّا في كتب التراجم والأنساب، فتأتي الأشعار عندهم في سياق التحدث عن حياة المترجم له، وذلك بالتطرق لما قيل فيه من شعر بعد موته. وفي كتب اللغة والمعجمات وردت هذه الأشعار وإن كانت بنسبة أقل من سابقتها، وذلك للاستشهاد بها على فصاحة لفظة ما، أو للدلالة على استعمالها في الكلام العربي[2]. وكذلك الأمر في كتب البلدان، إذ استعملت الشواهد الشعرية

---

(1) ينظر تاريخ الطبري: 4/ 242، تاريخ دمشق: 59/ 232.

(2) ينظر اللسان: 3/ 313، 3/ 219، 7/ 432، 11/ 50.

لتوثيق أسماء الأماكن[1]. وفي كتب المختارات الشعرية جاءت هذه الأشعار لتمثل اختياراً مثل الجودة في بابها. أمّا الدواوين الشعرية فقد أوردت هذه الأشعار ضمن ما جمع أو حقق لكل شاعر.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الفضل في حفظ هذه الأشعار، يعود إلى مؤلفي هذه الكتب، كل بحسب الهدف الذي كان يرمي إليه. وستبين الإحصائية التي قمنا بها، مقدار الشعر وأماكن وجوده. وفيما يأتي عرض مختصر لأهم هذه المصادر، مرتبةً بحسب كثرة المادة الشعرية الواردة فيها، وقد قسمتها على قسمين: القسم الأول، ويشمل المصادر النثرية بمختلف أنواعها، والقسم الثاني: ويشمل الدواوين والمجاميع الشعرية، يتلوها عرض لرواة هذه الأشعار وشعرائها.

القسم الأول، المصادر النثرية:

يأتي **كتاب «تاريخ دمشق»** للإمام الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر المتوفى سنة **(571)** هـ [2]. **في مقدمة المصادر** التي حوت أشعاراً كثيرةً في رثاء الخلفاء والقادة في العصر الأموي، وإذا ما علمنا أن أغلب هؤلاء الخلفاء والقادة ممن سكنوا دمشق خاصة أو بلاد الشام عامّة؛ أدركنا سبب كثرة هذه الأشعار في تاريخ دمشق، لأن ابن عساكر وكما يتضح من عنوان كتابه «تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من ورايديها وأهلها» لخير دليل على سعة مادته وغزارتها وشمولها. فقد بلغ مجموع الأبيات التي أوردها ابن عساكر فيما يخص بحثنا **(370)** ثلاث مئةٍ وسبعين بيتاً[3]. والكتاب موسوعة في الأدب شعراً ونثراً، فضلًا

---

(1) ينظر معجم البلدان: 1/ 311، 320، و3/ 463.

(2) ينظر كشف الظنون: 1/ 54 .

(3) ينظر تاريخ دمشق: 8/ 320-321، و10/ 108، 264-265-266، و11/ 324، 327، 454 و14/ 450، و15/ 45-46، و16/ 163، 314، و18/ 57-58، 202-203، 448، و19/ 149، 208، و20/ 80-81، و21/ 226، 228، و25/ 274، 28/ 8-9، و32/ 216، و34/ 332-333، =

عن كون الحافظ ابن عساكر نفسه شاعراً وأديباً[1]. يقول ابن خلكان: «كان محدث الشام في وقته، ومن أعيان فقهاء الشافعية، غلب عليه الحديث فاشتهر به، وبالغ في طلبه إلى أن جمع منه ما لم يتفق لغيره»[2].

والمصدر الثاني هو: «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني علي بن الحسين بن محمد القرشي المتوفى سنة (356) هـ. إذْ كان شاعراً مصنِّفاً أديباً وكان يحفظ من الشعر والأخبار والأحاديث المسندة [3]. وقد روى فيه من الشعر موضوع البحث (227) مئتين وسبعة وعشرين بيتاً[4].

أما المصدر الثالث فهو «تاريخ الأمم والملوك» المشهور بـ(تاريخ الطبري) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة (310) هـ[5]. وقد ورد فيه من الشعر الذي ندرسه (187) مئة وسبعة وثمانون بيتاً[6]. ومن أهم ميزاته أنه يذكر الأسانيد في كل الأخبار والأشعار التي أوردها، وهو الذي يقول: «...وليعلم الناظر في

= و36/ 294 .و 43/ 553، و45/ 165، -263 264، 296، -391 392، و46/ 40، 246، و47/ 91 - 92، و48/ 28و52/ 264، و57/ 170-171-172، 210، 275، 310، و58/ 45، و59/ 230، 232-233، و60/ 58، 96-97، 285-286، و65/ -63 64، 334-335، و72/ 60، و73/ 41، 224-225-226.

(1) تاريخ دمشق، المقدمة: 1/ 8-9.

(2) وفيات الأعيان: 3/ 309، وينظر مفتاح السعادة: 1/ 266-267.

(3) ينظر الفهرست: 128، وتاريخ بغداد: 11/ 398.

(4) ينظر الأغاني: 1/ 42 ،213-214. 2/ 247-248، 307، 331، 411. 7/ 12-13، 23، 2، 44، 81. 8/ 346، 361، 407. 10/ 354. 11/ 315-316، 376. 13/ 296، 386. 14/ 265-266-270. 15/ 279-371-372، 378. 16/ 189. 17/ 210، 213-214، 333. 18/ 295. 19/ 224. 20/ 221، 380، 419. 22/ 259، 260، 263. 24/ 103.

(5) تنظر مصادر ترجمته، معجم الأدباء: 6/ 423، تذكرة الحفاظ: 2/ 710، فوات الوفيات: 1/ 456.

(6) ينظر تاريخ الطبري: 4/ 221، 242، 384، 557، 582، و5/ 22، 48-49، 162، 267و 271، 283-284-285و 303، 319، 323-324، 346، 348، 374-375، 427، -466 467، 614، و6/ 12-13، 109-110.

كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أني أرسمه فيه إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه دون ما أدرك بحجج المعقول وأستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه»[1].

والمصدر الرابع هو: «أنساب الأشراف» للإمام أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري المتوفى سنة (**279**) هـ، إذ «كان كاتباً بليغاً وشاعراً محسناً»[2]. ومما ورد فيه من الأشعار التي تدخل ضمن نطاق بحثنا (**172**) مئةٌ واثنان وسبعون بيتاً[3]. قدم البلاذري في هذا الكتاب أخباراً مهمة عن أيام العرب ومع هذه الأخبار وغيرها أبيات كثيرة من الشعر حتى لشعراء مشهورين خلت دواوينهم من بعضها. فقد أورد للفرزدق بيتين في رثاء يزيد بن المهلب خلا ديوانه المنشور منهما[4]. فضلًا عن قصيدةٍ أُخرى في رثاء عبد الله بن ناشرة لم توجد في ديوانه[5]. ومقطوعةٍ للكميت في رثاء معاوية بن هشام من ستة أبيات، خلا ديوانه المنشور منها عدا بيتٍ واحد[6]. ومما يميز كتاب البلاذري حرصه على ذكر الأشخاص الذين روى عنهم، وذلك باستعمال طريقة الأسانيد على قاعدة المحدثين[7].

والمصدر الخامس هو «الفتوح» لأحمد بن أعثم الكوفي المتوفى سنة (**314**) هـ[8]. روى فيه من الشعر الذي ندرسه (**77**) سبعة وسبعين بيتاً[9]. وقد كان

---

(1) المصدر نفسه: **1/ 5**.

(2) سير أعلام النبلاء: **13/ 163**.

(3) ينظر أنساب الأشراف: **5/ 161، 163، 290-291، 304-305**، و**6/ 10، 48، 65، 34-335**، و**8/ 101، 199،116، 339، 341، 344-345، 363، 365، 404**، و**9/ 187، 259-260، 384-385**، و**10/ 145، 153، 211**، و**11/ 34، 111**، و**12/ 118، 198، 250**، و**13/ 38، 131**.

(4) ينظر المصدر نفسه: **8/ 339**.

(5) ينظر المصدر نفسه: **8/ 118**.

(6) ينظر المصدر نفسه: **8/ 404** .

(7) ينظر المصدر نفسه: المقدمة (ط) .

(8) ينظر معجم الأدباء لياقوت: **2/ 230**، دائرة المعارف:**1/ 91**.

(9) ينظر الفتوح: **2/ 31، 61، 69، 71، 72، 75، 443**، و**3/ 28، 131، 299، 302، 344، 357**.

ابن أعثم حريصاً على ذكر من روى عنهم حتى أنه جمعهم في بداية كتابه ثم قال في نهاية من روى عنهم «... وقد جمعت ما سمعت من رواياتهم على اختلاف لغاتهم وألفته حديثا واحداً على نسق واحد»[1]. وانفرد ابن أعثم بذكر أشعار لبعض القادة لم ترد في مصادر أخرى [2] .

والمصدر السادس هو: «البداية والنهاية» للحافظ عماد الدين إسماعيل بن عمر ابن كثير البصري ثم الدمشقي المتوفى سنة (**774**) هـ. أحد كبار أئمة العلم في عصره، مؤرخ، ومقرئ، ومفسر[3]. ورد فيه من الشعر الذي ندرسه (**76**) ستةٌ وسبعون بيتاً[4]. ومما يلاحظ على ابن كثير أنه ترك نسبة بعض الأشعار إلى مجهولين، كما فعل في رثاء عبد الرحمن بن خالد بن الوليد إذ قال: ورثاه بعضهم، في حين نجد أن ابن عساكر في تاريخه قد ذكر اسم الشاعر، وهو كعب بن جعيل[5]. في حين أورد أبياتاً لجرير في رثاء قتيبة بن مسلم خلا ديوانه المنشور منها[6] .

والمصدر السابع هو: «الحماسة البصرية» لصدر الدين أبي الحسن علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري المتوفى سنة (**659**) هـ[7]. وقد ورد فيه من الشعر الذي ندرسه (**72**) اثنان وسبعون بيتاً [8]. ومما امتازت به حماسة البصري، هو ذكرها طرفاً من الأخبار التي تتعلق بالأشعار أو ذكر المناسبة التي قيل فيها الشعر..

---

(1) ينظر الفتوح: **5** .

(2) ينظر المصدر السابق: **2/ 443**، و**3/ 302**.

(3) ينظر الدرر الكامنة: **1/ 399**، والنجوم الزاهرة : **11/ 123-124**.

(4) ينظر البداية والنهاية: **8/ 35**، **153**، **154-155**، و**9/ 187-188**، **190-191-192**، **236-237**، **356**، **360**.

(5) ينظر تاريخ دمشق: **34/ 332**.

(6) ينظر البداية والنهاية: **9/ 191**.

(7) تنظر مصادر ترجمته :كشف الظنون : **1/ 693**، وهدية العارفين : **1/ 710**.

(8) ينظر الحماسة البصرية:**1/ 204**، **206-207**، **230-232**، **236**، **252**، **258**، **263**، **267-271**، **272**، **276**.

والمصدر الثامن هو: «التعازي والمراثي» لأبي العباس محمد بن يزيد الأزدي النحوي المعروف بالمبرد المتوفى سنة (**285**) هـ[1]. إذ انفرد هذا المصدر بذكر بعض الأشعار التي لم ترد في مصادر أخرى، حتى لشعراء مشهورين كالفرزدق مثلا، إذ خلا ديوانه المنشور منها [2]. وقد بلغ مجموع الأبيات التي وردت في هذا المصدر (**65**) خمسةً وستينَ بيتاً [3] .

والمصدر التاسع هو: «المراثي، مراثٍ وأشعار في غير ذلك وأخبار ولغة» لمحمد ابن العباس اليزيدي المتوفى سنة (**310**) هـ [4]. ويتضح من عنوان الكتاب اختصاصه في هذا اللون من الشعر العربي، وهو إنما اختار قصيدتين ضمن موضوع بحثنا لأنهما من عيون القصائد. وقد بلغ عدد أبياتهما (**61**) واحداً وستينَ بيتاً[5]. وقد اعتمد اليزيدي في نقل شعره على الطريقة المباشرة التي تدل على سماع مباشر منه أي أنه سمع الخبر مباشرة بنفسه ممن رواه، أو سمع القول مباشرة ممن قاله. فيقول: أنشدني فلان، أو قرأ فلان وأنا أسمع.

والمصدر العاشر هو: «العقد الفريد» لأحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي الأندلسي المتوفى سنة (**328**) هـ[6]. وقد ورد فيه من الشعر الذي ندرسه (**61**) واحدٌ وستون بيتاً [7]. ويعود الفضل لابن عبد ربه في جمع هذه الأشعار فضلًا عن الأخبار

---

(1) ينظر بغية الوعاة: **116**، وفيات الأعيان: **1/ 495**. وترجمته فيه أن وفاته سنة (**286**) وفي تاريخ بغداد: **3/ 380** ، (**285**) هـ.

(2) ينظر التعازي والمراثي: **203**، وينظر بعض الأشعار الأخرى: **26**، **52**.

(3) ينظر المصدر السابق: **26**، **47**، **52**، **60-61**، **63**، **79**، **82-83-84**، **119**، **130**، **135**، **146**، **200-201**، **203**.

(4) تنظر مصادر ترجمته: الفهرست: **51**، وبغية الوعاة: **50**.

(5) ينظر المراثي : **31-44**، **137**.

(6) تنظر مصادر ترجمته، وفيات الأعيان: **1/ 32**، والبداية والنهاية: **11/ 193**.

(7) ينظر العقد الفريد: **1/ 62**، **95**. **2/ 124**. **3/ 14**، **27**، **46-48**، **54**، **62**، **282**. **4/ 208**، **222-223**. **5/ 30**، **35-36**.

التاريخية والأدبية والحِكَم والنوادر والأمثال من أدب العرب. وإن كان ما يورده من أخبار وروايات بغير إسناد في أكثر الأحيان [1].

والمصدر الحادي عشر هو: «كتاب ذيل الأمالي والنوادر» لأبي علي إسماعيل ابن القاسم القالي البغدادي المتوفى سنة (**356**) هـ [2]. فقد كان إماماً في اللغة وعلوم الأدب. روى فيه من الشعر الذي ندرسه (**56**) ستة وخمسينَ بيتاً [3] .

والمصدر الثاني عشر هو: «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» لابن خلكان، أحمد ابن محمد، المتوفى سنة (**681**) هـ[4]. وهو كتاب تاريخي يعنى بتراجم المشاهير حتى عصر المؤلف. وقد وُجِدَ فيه من الشعر الذي ندرسه (**48**) ثمانية وأربعون بيتاً[5].

والمصدر الثالث عشر هو: «معجم الشعراء «لأبي عبد الله محمد بن موسى المرزباني، المتوفى سنة (**384**) هـ[6]. وهو أول معجم في الشعراء وُضع في اللغة العربية، حاول المرزباني إحصاء الشعراء من أقدم العصور إلى أواخر القرن الثالث من الهجرة[7]. «فيه نحو خمسة آلاف اسم وفيه من شعر كل واحد منهم أبيات يسيرة من مشهور شعره»[8]. ورد فيه من الشعر موضوع البحث (**47**) سبعةً وأربعين بيتاً[9].

---

(1) ينظر مناهج التأليف عند العلماء العرب: **303**.

(2) تنظر مصادر ترجمته، نفح الطيب:**2/ 85**، وفيات الأعيان: **1/ 74**.

(3) ينظر كتاب ذيل الأمالي والنوادر: **1**، **8-10**، **11**.

(4) تنظر مصادر ترجمته، هدية العارفين: **1/ 99**.

(5) ينظر وفيات الأعيان: **2/ 235**، **303**، و**5/ 354**، **355**، و**6/ 286-287**، **307 - 308**، **317**، **374**.

(6) تنظر مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء: **16/ 447**، الأعلام: **6/ 319**.

(7) ينظر المكتبة العربية: **300**.

(8) الفهرست: **192**.

(9) ينظر معجم الشعراء: **103-104**، **139**، **177**، **345-349**.

والمصدر الرابع عشر هو: «بغية الطلب فِي تاريخِ حلب» لابن العديم. الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة المتوفى سنة **(660)** هـ[1]. وقد ورد فيه من الشعر الذي ندرسه **(42)** اثنان وأربعونَ بيتاً[2].

والمصدر الخامس عشر هو: «الكامل في التاريخ» لمحمد بن محمد بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير، أحد المؤرخين المشهورين ومن العلماء بالنسب المتوفى سنة **(630)** هـ[3]. وقد ورد فيه من الشعر موضوع البحث **(39)** تسعة وثلاثون بيتاً[4].

والمصدر السادس عشر هو: «مروج الذهب ومعادن الجوهر» للمسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المتوفى سنة **(346)** هـ[5]. والكتاب من المصادر المهمّة التي يعتمدها المؤرخون في سرد الحوادث والأخبار. ثَبَّتَ المؤلف الكثير من تجاربه التي اكتسبها خلال سفراته المتواصلة بين الشرق والغرب. وقد اعتمد كتباً في السيرة فُقِدَ معظمها، وأورد مقاطع شعرية لتوثيق الحوادث التاريخية[6]. ومن هذه الأشعار ما يخص بحثنا، إذ بلغ عدد أبياتها **(36)** ستةً وثلاثينَ بيتاً[7].

والمصدر السابع عشر هو: «معجم البلدان» لياقوت بن عبد الله الحموي، مؤرخ ثقة، من أئمة الجغرافيين، ومن العلماء باللغة والأدب. توفي سنة **(626)** هـ[8].

---

(1) تنظر مصادر ترجمته: فوات الوفيات: **3/ 126**، وفيه وفاته **(666)** هـ، خلافا للمصادر المرتبة على السنين، معجم الأدباء:**6/ 18**.

(2) ينظر بغية الطلب في تاريخ حلب: **6/ 2921**، و**7/ 3196**، و**9/ 3922**، **3926**، **4015** .

(3) تنظر مصادر ترجمته، وفيات الأعيان: **3/ 33**، ومفتاح السعادة:**1/ 253**.

(4) ينظر الكامل في التاريخ:**3/ 315**، و**4/ 149**، **298**،**287**، **315**، **345**،**326**، و**5/ 20**، **85**.

(5) تنظر مصادر ترجمته، لسان الميزان: **4/ 22**، الأعلام للزركلي: **4/ 277**.

(6) تنظر مصادر دراسة الشعر العربي في العصر الأموي: **182**.

(7) ينظر مروج الذهب: **3/ 32-33**، **63**، **76**، **191**، **205**، **226**، **311**، **317** .

(8) تنظر مصادر ترجمته، وفيات الأعيان: **5/ 178**.

روى فيه من الشعر موضوع البحث (**33**) ثلاثةً وثلاثين بيتاً [1]. والرابط بين وجود هذه الأشعار وكتاب يختص بالجغرافية إلى حد ما، هو توثيق أسماء الأماكن الواردة فيه. علماً بأنَّ الحموي قد يترك بعض الأبيات بغير نسبة، كما ورد في رثاء يزيد بن المهلب، إذ قال: قال الشاعر [2]. والأبيات للفرزدق في ديوانه [3].

والمصدر الثامن عشـر: «ولاة مصر» لمحمد بن يوسف الكندي المتوفى سـنة (**350**) هـ[4]. وقد اختص هذا الكتاب بالتحدث عمن حكموا مصر من ولاة وقادة. ومن الطبيعي أن يكون اهتمامنا منصبّاً على الفترة الزمنية التي يشملها البحث. وقد روى فيه الكندي من الشعر الذي ندرسه (**29**) تسعة وعشرينَ بيتاً[5].

والمصدر التاسع عشر: «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني المتوفى سنة (**430**) هـ[6]. وقد روى فيه من الشعر الذي ندرسه (**26**) ستةً وعشرين بيتاً[7]. لكنه خلط في نسبة بعض الأشعار خلطاً عجيباً. فتارةً يقول: قال الشاعر، وتارة أخرى: ابن عائشة، للأبيات نفسها[8]. بينما القائل هو الشاعر كثير عزة[9].

والمصدر العشرون هو: «العيون والحدائق في أخبار الحقائق» لمؤلف

---

(1) ينظر معجم البلدان: **1/ 230، 311**، و**2/ 87**، و**3/ 425، 463** و**4/ 170، 179**، و**5/ 111، 243**.

(2) ينظر المصدر السابق: **5/ 111**.

(3) ينظر ديوانه: **1/ 137**.

(4) تنظر مصادر ترجمته، الأعلام للزركلي: **5/ 235**.

(5) ينظر ولاة مصر: **77-78-79**، و**113-114**.

(6) تنظر مصادر ترجمته، وفيات الأعيان: **1/ 26**، ولسان الميزان: **1/ 201**، وطبقات الشافعية: **3/ 7**.

(7) ينظر حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: **5/ 276-277، 306**، و**9/ 136**.

(8) ينظر المصدر السابق : **5/ 276**.

(9) ينظر ديوانه: **179**، وينظر مكان آخر، خلط فيه الأصبهاني بين محارب بن دثار والفرزدق لنفس الأبيات أيضا: **5/ 277**.

مجهول، إذ ورد فيه من الشعر الذي ندرسه (26) ستةٌ وعشرون بيتاً[1].

والمصدر الحادي والعشرون: «نسب قريش» لمصعب بن عبد الله الزبيري المتوفى سنة (236) هـ[2]. إذ ورد فيه من الشعر الذي ندرسه (23) ثلاثة وعشرون بيتاً[3].

والمصدر الثاني والعشرون: «الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس محمد ابن يزيد المعروف بالمبرد النحوي المتوفى سنة (285) هـ[4]. احتوى هذا الكتاب على نماذج مختارة من الشعر والنثر موزعة على أبواب[5]. وقد ورد فيه من الشعر موضوع البحث (21) واحدٌ وعشرون بيتاً[6].

والمصدر الثالث والعشرون: «التعازي» لأبي الحسن المدائني إذ ورد فيه من الشعر الذي ندرسه (19) تسعة عشر بيتاً[7]. وقد انفرد هذا المصدر بذكر أشعارٍ لم ترد في مصادر أُخرى، منها: رثاء الأُقيشر لمحمد بن الحجاج [8]. ورثاء رجل من الأزد لمحمد بن عبد الله بن خازم [9]. وقد أشارت محققة الكتاب إلى أنّ ما وصلنا منه جزءان فقط، فيما فقدت باقي الأجزاء التي لا ندري في كم جزءٍ هي[10].

---

(1) ينظر العيون والحدائق: 3/ 80 ،121، 124 – 125، 136 – 137.

(2) ينظر تهذيب التهذيب: 10/ 162، الفهرست: 1/ 110، وفيه: تُوفي سنة (233) هـ. وله (96) سنة، والأعلام: 7/ 248.

(3) ينظر نسب قريش: 111، 128–129، 162 – 163، 165، 179، 191، 229، 325–336.

(4) تنظر مصادر ترجمته، بغية الوعاة: 116، وفيات الأعيان: 1/ 495، وفيها وقيل وفاته: (286)، وتاريخ بغداد: 3/ 380.

(5) تنظر مصادر دراسة الشعر العربي في العصر الأموي: 16.

(6) ينظر الكامل في اللغة والأدب: 2/ 328، 334–335، 395.

(7) ينظر التعازي: 22، 46 – 47، 57، 59 – 60، 62 – 63، 85 – 86.

(8) ينظر المصدر نفسه: 62.

(9) ينظر المصدر نفسه: 85 – 86.

(10) المصدر نفسه: 8.

والمصدر الرابع والعشرون: «الشعر والشعراء» لابن قتيبة، محمد بن عبد الله ابن مسلم بن قتيبة الدينوري، المتوفى سنة (**276**) هـ[1]. وهو كتاب تراجم للشعراء ممن يستشهد بشعرهم، بدءاً بشعراء الجاهلية ثم المخضرمين فالإسلاميين حتى القرن الثالث الهجري. متخذاً الجودة والشاعرية أساساً في التفضيل، إذ يقول عن منهجه: «وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء، الذين يعرفهم جل أهل الأدب، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو وفي كتاب الله عزّ وجلّ وحديث الرسول ﷺ» [2]. وعلى هذا الأساس أورد ابن قتيبة (**19**) تسعة عشر بيتاً لأربعة شعراء كلهم ممن ينطبق عليه وصف ابن قتيبة[3].

والمصدر الخامس والعشرون هو: «البيان والتبيين» للجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر المتوفى سنة (**255**) هـ[4]. يقول عنه المسعودي: «وللجاحظ كتب حسان، منها كتاب البيان والتبيين وهو أشرفها، لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب»[5]. روى فيه من الشعر الذي ندرسه (**18**) ثمانية عشر بيتا[6] .

والمصدر السادس والعشرون هو: «الأخبار الطوال» لأبي حنيفة، أحمد بن داود الدينوري المتوفى سنة (**282**) هـ[7]. ورد فيه من الشعر الذي ندرسه (**18**) ثمانية عشر بيتا [8]. وقد انفرد هذا المصدر بذكر بعض الأشعار لم ترد في مصادر

(1) نظر مصادر ترجمته، وفيات الأعيان: **1/ 251**، لسان الميزان: **3/ 357**، الأعلام : **4/ 137**.

(2) ينظر الشعر والشعراء : **1/ 7**.

(3) ينظر المصدر السابق : **1/ 344، 2/ 449،527،546،653-654**.

(4) تنظر مصادر ترجمته : معجم الأدباء : **6/ 56-80**، وفوات الوفيات : **1/ 388**.

(5) ينظر مروج الذهب: **4/ 47**.

(6) ينظر البيان والتبيين: **2/ 132، 236، 3/ 329-330، و4/ 58-59-60**.

(7) تنظر مصادر ترجمته: معجم الأدباء : **1/ 123**، خزانة الأدب للبغدادي: **1/ 25**.

(8) ينظر الأخبار الطوال: **173، 286، 355**.

أخرى[1].

والمصدر السابع والعشرون: «نهاية الأرب في فنون الأدب» لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، المتوفى سنة (**733**) هـ[2]. وهو موسوعة ضخمة في الثقافة العامّة، فيه من كل فنٍ طَرَف[3]. إذ ورد فيه من الشعر الذي ندرسه (**17**) سبعة عشر بيتاً[4].

والمصدر الثامن والعشرون هو: «الوافي بالوفيات» لصلاح الدين الصفدي، المتوفى سنة (**764**) هـ[5]. وهو كتاب يجمع بين الأدب والتاريخ، ويعدُّ من أكبر كتب التراجم العربية[6]. إذ ورد فيه من الشعر الذي ندرسه (**16**) ستة عشر بيتاً[7].

والمصدر التاسع والعشرون: «التذكرة الحمدونية» لمحمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، المتوفى سنة (**562**) هـ. عالم بالأدب والأخبار من أهل بغداد[8]. روى من الشعر موضوع البحث (**15**) خمسة عشر بيتاً[9].

والمصدر الثلاثون «أمالي الزجاجي» لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحق الزجاجي المتوفى سنة (**340**) هـ[10]. وهي «أمشاج من نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي ومختار كلام العرب وحكمائهم وشعرائهم وخطبائهم وأنبيائهم

---

(1) ينظر المصدر السابق: **355**، في رثاء المهلب بن أبي صفرة.

(2) تنظر مصادر ترجمته، النجوم الزاهرة: **9/ 299**، البداية والنهاية : **14/ 164**، الأعلام:**1/ 156**.

(3) ينظر كشف الظنون: **2/ 1985**.

(4) ينظر نهاية الأرب: **20/ 270، 367 – 368، 370، 512 – 513**.

(5) تنظر مصادر ترجمته، الدرر الكامنة: **2/ 87**، وطبقات الشافعيّة: **6/ 94**، والأعلام: **2/ 315**.

(6) ينظر مناهج التأليف عند العلماء العرب: **592**.

(7) ينظر الوافي بالوفيات: **10/ 157، 14/ 194، 15/ 87**.

(8) تنظر مصادر ترجمته: البداية والنهاية :**12/ 315**، الأعلام: **6/ 85**، ومعجم المؤلفين: **9/ 217**.

(9) ينظر التذكرة الحمدونية: **4/ 202–203، 228–229**.

(10) تنظر مصادر ترجمته، وفيات الأعيان: **1/ 278**، وبغية الوعاة : **297**.

...»[1]. وقد أورد في هذا السياق (14) أربعة عشر بيتاً. كونت قصيدة في رثاء المفضل بن المهلب للشاعر ثابت قطنة[2].

والمصدر الحادي والثلاثون: «عيون الأخبار» لابن قتيبة، محمد بن عبد الله ابن مسلم بن قتيبة الدينوري، المتوفى سنة (276) هـ[3]. وليس لابن قتيبة في الكتاب شيء من عند نفسه، وإنما هو جَمّاعة ينقل الأخبار والأشعار، ويسلكها في كتابه من غير أن يشرحها، أو يقول فيها شيئا[4]. ورد فيه من الشعر الذي ندرسه (13) ثلاثة عشر بيتاً[5].

والمصدر الثاني والثلاثون: «الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام» لأبي الحجاج يوسف بن محمد بن إبراهيم الأنصاري البياسي المتوفى سنة (653) هـ[6]. إذ كان يكتفي بالنقل الحرفي عن المصادر، كالطبري في تاريخ الأمم والملوك، والمسعودي في مروج الذهب، والكامل في التاريخ لابن الأثير[7]. وقد ورد فيه من الشعر الذي ندرسه (12) إِثنا عشر بيتاً[8].

والمصدر الثالث والثلاثون: «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» للإمام شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد الحنبلي المتوفى سنة (1089) هـ[9]. أورد فيه من الشعر الذي ندرسه (11) أحد عشر بيتاً[10].

---

(1) أمالي الزجاجي، مقدمة المحقق: 16.

(2) ينظر المصدر السابق: 201-202-203.

(3) تنظر مصادر ترجمته، وفيات الأعيان: 1/ 251، لسان الميزان: 3/ 357، الأعلام: 4/ 137.

(4) ينظر المكتبة العربية: 254.

(5) ينظر عيون الأخبار: 3/ 62-63،75-76.

(6) تنظر مصادر ترجمته، وفيات الأعيان: 2/ 413، وشذرات الذهب: 5/ 262.

(7) ينظر الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام: 98.

(8) ينظر المصدر نفسه: 316 – 317.

(9) تنظر مصادر ترجمته، الأعلام للزركلي :3/ 290.

(10) ينظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب: 1/ 198، 217، 291.

والمصدر الرابع والثلاثون: «زهر الآداب وثمر الألباب» لأبي إسحق إبراهيم ابن علي الحصري القيرواني المتوفى سنة (**453**) هـ[1]. وهو مجموع مختارات من الشعر والنثر لشعراء العرب وفصحائهم من القديم إلى عصر المؤلف، يقول عن كتابه: «... وبعد فهذا كتاب اخترت فيه قطعة كافية من البلاغات في الشعر والخبر، والفصول والفقر، مما حسن لفظه ومعناه، واستدل بفحواه على مغزاه، ولم يكن شاردا حوشـياً ولا ساقطاً سوقيا»[2]. وقد أورد فيه من الشعر موضوع البحث (**10**) عشرة أبيات[3].

والمصدر الخامس والثلاثون: «فوات الوفيات» لمحمد بن شاكر الكتبي، المتوفى سنة (**764**) هـ[4]. وهو كتاب تراجم استدرك مؤلفه على كتاب «الوافي بالوفيات» كثيراً من التراجم التي أخلّ بها[5]. إذ ورد فيه من الشعر الذي ندرسه (**10**) عشرة أبيات[6].

والمصدر السادس والثلاثون: «ديوان المعاني» للإمام اللغوي الأديب أبي هلال العسكري، المتوفى سنة (**395**) هـ[7]. روى فيه من الشعر الذي ندرسه (**9**) تسعة أبيات[8].

وفضلاً عمّا ما ذكرناه من مصادر، هناك مصادر أخرى أوردت أبياتاً قليلة. سأوردها بشكل مختصر منعا للإطالة، منها: «المنتظم في تاريخ الملوك والأُمم»

---

(1) تنظر مصادر ترجمته: معجم الأدباء : **1/ 358**، وفيات الأعيان : **1/ 13**.

(2) ينظر زهر الآداب: **1/ 33**.

(3) ينظر المصدر السابق: **3/ 849 – 850**.

(4) تنظر مصادر ترجمته البداية والنهاية: **14/ 303**، والدرر الكامنة : **3/ 451**، والأعلام : **6/ 156**.

(5) ينظر مناهج التأليف عند العلماء العرب: **586**.

(6) ينظر فوات الوفيات: **2/ 30**، **4/ 258**.

(7) تنظر مصادر ترجمته، خزانة الأدب: **1/ 112**، والأعلام للزركلي: **2/ 196**.

(8) ينظر ديوان المعاني: **2/ 174–175**، **179**.

لأبي الفرج،عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي الجوزي،المتوفى سنة(597)هـ. إذ أورد (9) تسعة أبيات[1]. وفتوح البلدان للبلاذري المتوفى سنة (279) هـ. إذ ورد فيه (8) ثمانيــة أبيات[2]. و« كتاب الأمالي» لليزيدي المتوفى ســنة (310) هـ. إذ أورد (8) ثمانية أبيات[3]. وكتاب «الأخبار الموفقيات » للزبير بن بكار المتوفى سنة (256) هـ. إذ ورد فيه (8) ثمانية أبيات[4]. وكتاب «المستطرف في كل فنٍ مستظرف» للإبشيهي، المتوفى سنة (850) هـ. إذ ورد فيه (8) ثمانية أبيات[5]. ومعجم «لسان العرب»لابن منظور المتوفى سنة (711) هـ. إذ ورد فيه (8) ثمانية أبيات[6]. وكتاب «الأمالي» لأبي علي القالي المتوفى سنة (356) هـ. فقد ورد فيه (5) خمسة أبيات[7]. وكتاب «سير أعلام النبلاء» للذهبي المتوفى سنة (748) هـ. فقد ورد فيــه (5) خمسة أبيات [8]. وكتاب «العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده » لابن رشيق القيرواني المتوفى سنة (456) هـ. إذ ورد فيه (4) أربعة أبيات[9]. وكتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور» لمحمد بن أحمد بن إياس الحنفي المتوفى سنة (930) هـ. فقد ورد فيه (4) أربعة أبيات[10]. وكتاب «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » لابن تغري بردي المتوفى سنة (874) هـ. إذ ورد فيه (3) ثلاثة أبيات[11]. وكتاب «تاريخ اليعقوبي لأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح

---

(1) ينظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: 6/ 92 – 93، 242، 7/ 71.

(2) ينظر فتوح البلدان للبلاذري : 2/ 490، 3/ 508، 540.

(3) ينظر الأمالي لليزيدي: 47 – 51.

(4) ينظر الأخبار الموفقيات: 386، 474 – 475.

(5) ينظر المستطرف: 303–305، 309.

(6) ينظر اللسان: 3/ 219، 313، و7/ 432، 11/ 50.

(7) ينظر الأمالي لأبي علي القالي: 2/ 199.

(8) ينظر سير أعلام النبلاء: 3/ 449 – 450.

(9) ينظر العمدة: 2/ 155.

(10) ينظر بدائع الزهور في وقائع الدهور: 1/ 118، 122.

(11) ينظر النجوم الزاهرة: 178، 189.

المعروف باليعقوبي المتوفى سنة (**292**) هـ. فقد ورد فيه (**2**) بيتان[1]. وكتاب «معجم ما استعجم» للبكري المتوفى سنة (**487**) هـ. إذ ورد فيه (**1**) بيت واحد[2].

القسم الثاني: الدواوين والمجاميع الشعرية:

بعد استعراض مصادر رثاء الخلفاء والقادة النثرية، نجد أن أكثر من مئة شاعر تعاونوا على نقل هذا الشعر. لكن أكثر هؤلاء الشعراء لم يزد عدد أبياته على أصابع اليد الواحدة، عدى بعض الشعراء الذين لهم دواوين منشورة. ولهذا السبب آثرت التحدث عنها بعد المصادر النثرية. وفيما يأتي عرضٌ موجز لهذه الدواوين والمجاميع بحسب كثرة الشعر الوارد فيها مما يخص بحثنا.

إذ يأتي في **المرتبة الأولى**: «ديوان الفرزدق»(ت **112**هـ)[3]. الذي نشر برواية الأصمعي ضمن مجموع فيه خمسة دواوين فضلاً عن طبعات أُخر[4]. وقد بلغ مجموع الأبيات الشعرية التي تدخل ضمن نطاق بحثنا (**263**) مئتين وثلاثة وستينَ بيتاً[5].

والمرتبة الثانية: «ديوان كثير عزة المتوفى» (**105**)هـ[6]. جمع شعره وحققه الدكتور إحسان عباس. ورد فيه من الشعر الذي ندرسه (**125**) مئة وخمسة وعشرون بيتاً[7] .

---

(1) ينظر تاريخ اليعقوبي: **2/ 289 – 290**.

(2) ينظر معجم ما استعجم: **2/ 423**.

(3) تنظر مصادر ترجمته : طبقات فحول الشعراء لابن سلام: **298**، الأعلام: **9/ 96–70** .

(4) تنظر مصادر دراسة الشعر العربي في العصر الأموي: **89–90** .

(5) ينظر الديوان: **1/ 40–41، 89، 122–123، 131، 137، 156، 161، 186، 202 –203، 216 – 217، 235 – 236، 271، 295، 312، 350، 397–399، 409 –410**، و**2/ 5–7، 83 – 84، 223، 225، 238 – 239، 251، 253 – 254، 264، 325 –326، 342**.

(6) تنظر مصادر ترجمته، سير أعلام النبلاء:**5/ 152**، الأعلام: **6/ 72**.

(7) ينظر الديوان: **177 – 178– 179، 272، 312 – 320،317 – 326، 328، 535، 538**.

والمرتبة الثالثة يأتي: «منتهى الطلب من أشعار العرب» لمحمد بن المبارك بن محمد بن محمد بن ميمون، المتوفى سنة (**597**)هـ[1]. وهو من المجاميع الشعرية المختارة. إذ قال عن كتابه: هذا كتاب جمعت فيه ألف قصيدة اخترتها من أشعار العرب الذين يستشهد بأشعارهم [2]. فكان هذا الكتاب أعظم ديوان مختار من شعر العرب... وهو منتهى كتب الاختيارات المعروفة عند العرب[3]. وقد ورد فيه من الشعر موضوع البحث (**103**) مئة وثلاثة أبيات[4].

والمرتبة الرابعة يأتي: «ديوان سراقة البارقي» المتوفى سنة (**79**) هـ[5]. حققه وشرحه حسين نصار، إذ ورد فيه من الشعر الذي ندرسه (**62**) اثنان وستون بيتاً[6].

والمرتبة الخامسة: «ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات» المتوفى سنة (**75**) هـ[7]. حققه محمد يوسف نجم. وقد ورد فيه من الشعر الذي ندرسه (**39**) تسعة وثلاثون بيتاً[8].

والمرتبة السادسة: «ديوان جرير» المتوفى سنة (**115**) هـ[9]. له عدة طبعات[10]. ورد فيه من الشعر الذي ندرسه (**35**) خمسة وثلاثون بيتاً[11].

---

(1) تنظر مصادر ترجمته: كشف الظنون: 2/ 1857، والأعلام: 7/ 17.

(2) ينظر منتهى الطلب من أشعار العرب: 1/ 11.

(3) ينظر المكتبة العربية – الدكتور عزة حسن: 81.

(4) ينظر منتهى الطلب: 4/ 168 – 171، و7/ 387 – 394، و9/ 372 – 376.

(5) تنظر مصادر ترجمته، الأغاني : 7/ 63، تاريخ دمشق: 6/ 69، الأخبار الطوال: 300.

(6) ينظر الديوان: 43 – 45، 80 – 82، 85 – 89 .

(7) ينظر مصادر ترجمته، الأعلام: 4/ 352.

(8) ينظر الديوان: 17 – 19، 20 – 22، 79.

(9) تنظر مصادر ترجمته، طبقات فحول الشعراء لابن سلام: 297، الأعلام: 2/ 111.

(10) تنظر مصادر دراسة الشعر العربي في العصر الأموي: 57 – 58.

(11) ينظر الديوان : 166 – 167، 175، 227، 234، 484.

والمرتبة السابعة: «ديوان الحماسة لأبي تمام» المتوفى سنة **(232)** هـ[1]. والأشعار المجموعة في هذه الحماسة عبارة عن مقطوعات مختارة لا قصائد مطولة. ومعظم شعراء الحماسة من المقلين المجيدين أو المغمورين الذين لا يعرفهم عامة الناس. وقصد أبي تمام من ذلك إتحاف الناس بجديد لا يعرفونه[2]. وقد ورد في ديوان الحماسة من الشعر الذي ندرسه **(34)** أربعة وثلاثون بيتاً[3].

والمرتبة الثامنة: «ديوان الوليد بن يزيد» المتوفى سنة **(126)** هـ[4]. جمعه وحققه وشرحه الدكتور واضح الصمد. وقد ورد فيه من الشعر الذي ندرسه **(32)** إثنان وثلاثون بيتاً[5].

والمرتبة التاسعة: «ديوان الأحوص الأنصاري» المتوفى سنة **(105)** هـ[6]. جمعه وحققه: عادل سليمان جمال. وله طبعات أخر[7]. وقد ورد فيه من الشعر الذي ندرسه **(26)** ستةٌ وعشرونَ بيتاً[8].

والمرتبة العاشرة: «شعر نُصَيب بن رباح» المتوفى نحو **(111)** هـ[9]. جمعه الدكتور داود سلوم. إذ ورد فيه من الشعر موضوع البحث **(21)** واحدٌ وعشرون بيتاً[10].

---

(1) تنظر مصادر ترجمته، وفيات الأعيان: 1/ 121، خزانة الأدب للبغدادي: 1/ 172 و464.

(2) ينظر المكتبة العربية، د. عزة حسن: 87.

(3) ينظر ديوان الحماسة: 508، 539 – 540، 549، 553 – 554، 574 – 575.

(4) ينظر مصادر ترجمته، الفهرست لابن النديم: 102، الأعلام: 9/ 145.

(5) ينظر الديوان: 55، 60، 78، 84، 111، 119.

(6) تنظر مصادر ترجمته، الفهرست : 306، الأعلام : 4/ 257.

(7) تنظر مصادر دراسة الشعر العري في العصر الأموي : 47–48.

(8) ينظر الديوان : 198 – 199، 219 – 220.

(9) تنظر مصادر ترجمته: الشعر والشعراء:1/ 322، والأعلام : 8/ 355.

(10) ينظر شعره: 64، 83، 87 – 88، 113، 139.

والمرتبة الحادية عشرة «ديوان الطِّرِمّاح» المتوفى سنة **(125)** هـ[1]. حققه الدكتور عزة حسن. ورد فيه من الشعر موضوع البحث **(19)** تسعة عشر بيتاً[2].

والمرتبة الثانية عشرة: «حارثة بن بدر الغدّاني» [3]. جمع شعره الدكتور نوري حمودي القيسي، ضمن شعراء أمويون. وقد ورد فيه من الشعر الذي ندرسه **(17)** سبعة عشر بيتاً[4].

والمرتبة الثالثة عشرة: «حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء» لأبي محمد عبد الله بن محمد العبدلكاني الزوزني المتوفى سنة **(431)** هـ[5]. وقد سار العبدلكاني على خطا أبي تمام إلا أنه اختار لحماسته من الأشعار ما يناسب المبتدئين خاصة، إذ رأى حماسة أبي تمام عسيرة عليهم[6]. وقد ورد فيها من الشعر الذي ندرسه **(17)** سبعة عشر بيتا[7].

والمرتبة الرابعة عشرة: «ديوان يزيد بن معاوية» المتوفى سنة **(64)** هـ[8]. جمعه وحققه صلاح الدين المنجد، وقد ورد فيه من الشعر الذي ندرسه **(11)** أحد عشر بيتاً[9].

والمرتبة الخامسة عشرة: «شعر الكميت بن زيد الأسدي» المتوفى سنة

---

(1) تنظر مصادر ترجمته، جمهرة أشعار العرب للقرشي: **356 – 360**، الأعلام: **3/ 325**.

(2) ينظر الديوان: **248 – 252**، **337 – 339**.

(3) تنظر مصادر ترجمته، الإصابة: **1/ 371**، تاريخ دمشق :**11/ 389**، الأعلام : **2/ 158**.

(4) ينظر شعراء أمويون: **2/ 346–347**، **363–364** .

(5) تنظر مصادر ترجمته، فوات الوفيات: **2/ 229**، الأعلام: **4/ 121**.

(6) ينظر المكتبة العربية، د. عزة حسن: **95**.

(7) ينظر حماسة الظرفاء: **1/ 92–93**، **95**، **99**، **119**.

(8) تنظر مصادر ترجمته، الأغاني: **17/ 29–212**، كشف الظنون: **820**، الأعلام: **9/ 224 – 225**.

(9) ينظر الديوان: **46 –48**.

(126) هـ[1]. جمع وتقديم الدكتور داود سلوم. وقد ورد فيه من الشعر موضوع البحث **(7)** سبعة أبيات[2].

والمرتبة السادسة عشرة: «الوحشيات» وهو الحماسة الصغرى لأبي تمام أيضا حقّقه عبد العزيز الميمني، ورد فيه **(6)** ستة أبيات أخرى[3].

والمرتبة السابعة عشرة: «ديوان نصر بن سيار» المتوفى سنة **(131)** هـ[4]. جمع شعره وحقّقه عبد الله الخطيب ونشره ببغداد سنة **1972** م ، ورد فيه من الشعر موضوع البحث **(5)** خمسة أبيات[5].

والمرتبة الثامنة عشرة «شعر الأخطل» المتوفى سنة **(92)** هـ[6]. تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، إذ ورد فيه من الشعر موضوع البحث **(4)** أربعة أبيات[7].

والمرتبة التاسعة عشرة: «الحماسة الشجرية» لهبة الله بن علي بن حمزة العلوي الحسني المعروف بابن الشجري، المتوفى سنة **(542)** هـ[8]. إذْ ورد فيه من الشعر موضوع البحث **(4)** أربعة أبيات[9].

والمرتبة العشرون: «شعر عبد الله بن الزبير الأسدي» المتوفى نحو **(75)** هـ[10].

---

(1) تنظر مصادر ترجمته : الشعر والشعراء:**2/ 485**، الأعلام: **6/ 92 - 93**.

(2) ينظر الديوان: **147**.

(3) ينظر كتاب الوحشيات: **148**.

(4) تنظر مصادر ترجمته، خزانة الأدب للبغدادي: **2/ 223-224**، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان:**1/ 245**.

(5) ينظر الديوان: **45**.

(6) تنظر مصادر ترجمته، طبقات فحول الشعراء : **298**، والأعلام:**5/ 318**.

(7) ينظر شعره: **2/ 533**.

(8) تنظر مصادر ترجمته: وفيات الأعيان: **2/ 183**، معجم الأدباء لياقوت: **7/ 247**، الأعلام: **8/ 74**.

(9) ينظر الحماسة الشجرية: **1/ 330-331**.

(10) تنظر مصادر ترجمته، الأغاني: **14/ 215**، الأعلام: **4/ 87**.

جمع وتحقيق الدكتور يحيى الجبوري، إذ ورد فيه من الشعر الذي ندرسه **(3)** ثلاثة أبيات[1].

والمرتبة الحادية والعشرون: «ديوان مسكين الدارمي» المتوفى سنة **(89)** هـ[2]. جمعه وحققه خليل إبراهيم العطية والدكتور عبد الله الجبوري، إذ ورد فيه من الشعر الذي ندرسه **(1)** بيت واحد[3].

وخلاصة القول: إنّ ورود شعر رثاء الخلفاء والقادة في كثير من المصادر التاريخية، والأدبية، واللغويّة، لدليلٌ أكيد على أصالة هذا الضرب من الشعر العربي، الذي ساقه كتّاب التاريخ سنداً لأخبارهم، في حين استشهد به أصحاب كتب اللغة والمعجمات على فصاحة بعض الألفاظ، أو للدلالة على استعمالها في الكلام العربي.

وقد حفظت لنا هذه المصادر بأنواعها المختلفة الشعر العربي من الضياع، ولاسيما ما ندرسه من شعر، وكانت المعين الذي لا ينضب للباحثين في شتّى المجالات، ومن أمثلة ذلك، ما قيل عن شعر الفرزدق، من أنه حفظ نصف لغة العرب، فكيف ببقيّة الشعراء! وتراوحت كمية الشعر الموجود في كلُ مصدر - فيما يخصّ بحثنا - تبعاً لنوع المادّة التي يحويها، إذ كانت نسبتُها في كتب التاريخ والتراجم أكبر من غيرها، وهذا نابعٌ من سعة شمول هذه الكتب لفترات زمنية وأحداث استدعت وجود مثل تلك الكثرة. في حين اكتفت كتب اللغة والمعاجم بالاستشهاد بالبيت الواحد أو الاثنين أحياناً.

كما توجد ضمن هذه المصادر، كثيرٌ من الأبيات الشعرية التي خلت دواوين أصحابها منها، مما يستدعي إعادة النظر في تحقيق هذه الدواوين.

ومن هذه المصادر: على سبيل المثال لا الحصر، أنساب الأشراف للبلاذري،

---

(1) ينظر شعره: **79**.

(2) تنظر مصادر ترجمته، معجم الأدباء لياقوت: **4/ 204**، الأعلام: **3/ 16**.

(3) ينظر الديوان: **30**.

وتاريخ دمشق لابن عساكر، ومنتهى الطلب من أشعار العرب لابن ميمون.

المبحث الثاني
الـرّواة

حفلت مصادرنا الأدبية بعدد كبير من الرواة الذين تعاقبوا على نقل تراثنا الأدبي الضخم، وهذا إن دلَّ على شيء، فإنما يدل على أن علماءنا القدامى اتبعوا الطريقة العلمية في أخـذ العلم وتأليف الكتب. ولأهمية هذا الموضوع، آثرت التحدث عـن معنـى كلمة «الرّاوية» ومدلولها العلمي في أطوارها المختلفة بشكل مختصر. ومن ثم تحدّثت عن أهم الرواة الذين رووا لنا شعر رثاء الخلفاء والقادة مرتبين بحسب كثرة ما رووه من شعر. وفي هذا المجال تحسن الإشارة إلى النقاط الآتية:

أولاً: إن الشعر موضوع البحث هو أحد أغراض الشعر العربي، وعليه لا يمكن أن تكون الإحصائية التي أجريتها بعدد الرواة ومقدار الشعر الذي رووه مؤشراً حقيقياً عن عدد الرواة وطبيعة الشعر الذي رووه؛ إِذْ لا نجد ذكراً لبعض الرواة المشهورين، في حين يكثر وجود أسماء لرواة مغمورين، وهذا ما ينطبق تماماً على مقدار الشعر المروي أيضاً.

ثانياً: بقي كثير من الأشعار بغير نسبة إلى راوٍ معين، وهذا أسلوب متبع عند علمائنا. فمنهم من يحذف الأسانيد طلباً للاستخفاف والإيجاز كما أشار إلى ذلك ابن عبد ربه في مقدمة العقد الفريد مثلاً [1]. ومنهم من يشير إلى المصادر التي استقى منها أخباره كما فعل ابن الأثير في تاريخه [2].

---

(1) ينظر العقد الفريد:1/ 10-11.

(2) ينظر الكامل في التاريخ :1/ 3-4.

ثالثاً: وجد أن هناك علاقة بين بعض الرواة وبين كمية المادة التي يروونها، فمثلاً بلغ أكبر عدد للأبيات المروية لأبي الحسن المدائني، وربما يعود ذلك إلى اهتمامه بهذا اللون من الشعر، وما كتابه التعازي إلا دليلٌ على ذلك.

المعنى اللغوي والاصطلاحي للرواية:

يشير المعنى اللغوي للرواية في أصل مدلولها إلى حمل الماء في أوانٍ معروفة، كالمزادة، والقربة، وغيرهـما. فقد قيل للبعير الذي يستقي عليه الناس راوية، وللمزادة التي يُسْتَقى فيها الماء راوية على المجاز. وقد ورد في اللسان: «والراوية هو البعير أو البغل أو الحمار الذي يُستقى عليه الماء، والرجل المستقي أيضاً راوية، والعامّة تسمي المزادة راوية، وذلك جائزٌ على الاستعارة، والأصل الأول»[1].

ثمّ تطور المعنى اللغوي ليطلق مجازاً على معنى الحمل عامّةً، ومن ذلك رواية الشعر وحمله ونقله. ولم تكن هذه الكلمة غريبةً في استعمالها بهذا المدلول، إذ إننا نجد الجاحظ في كتابه الحيوان يقول: «الراوية هو الجمل نفسه، وهو حامل المزادة، فسميت المزادة باسم حامل المزادة. ولهذا سمّوا حامل الشعر والحديث راوية»[2].

وعليه لا بد من إيجاز تطوّر معنى كلمة الرواية في أطوارها المختلفة وإجمالها بمرحلتين[3]:

المرحلة الأولى: كانت الرواية في العصر الجاهلي وأوائل العصر الإسلامي، تعني نقل الشعر وحفظه في الصدور، ولا يتجاوز ذلك إلى ضبطه وتحقيقه والنظر فيه وتمحيصه.

---

(1) ينظر اللسان، مادة (روى): 10/ 315 .

(2) الحيوان: 1/ 333 .

(3) تنظر مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية: 189-190.

المرحلة الثانية: الرواية بمعنى دراسة الشعر وغيره من فنون الأدب وحفظها وضبطها وتصحيحها وإسنادها إلى أصحابها، وهذه هي الرواية العلمية.

وأوّل هؤلاء الرواة: هو المدائني، أبو الحسن علي بن محمد، المتوفّى سنة (**225**) هـ. صاحب التصانيف والمغازي والأنساب، فقد بلغ مجموع الكتب التي ألّفها: مئتين وثلاثة وثلاثين كتاباً[1]. وثّقه ابن معين وغيره[2]. وقال عنه ابن كثير: «كان علي المدائني من أئمة الحديث»[3]. ويضيف: بأنه إمام الإخباريين في زمانه[4]. ويقول الذهبي: «كان عجباً في معرفة السير والمغازي والأنساب وأيام العرب، مُصَدّقاً فيما ينقله، عالي الإسناد»[5]. ولسعة علمه قال عنه المرزباني: «من أراد أخبار الإسلام فعليه بكتب المدائني»[6]. حدّث عنه خليفة بن خياط، والزبير بن بكار، والحارث بن أبي أسامة ... وغيرهم [7]. وقد روى المدائني من الشعر الذي ندرسه (**150**) مئةً وخمسين بيتاً[8].

والأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع ابن مظهر بن عبد شمس البصري، المتوفى سنة (**216**) وقيل: (**215**) هـ. كان

---

(1) ينظر الإحصائية التي أجراها الدكتور مصطفى الشكعة لكتب المدائني في كتابه: مناهج التأليف عند العلماء العرب: **154-157**.

(2) ينظر شذرات الذهب: **1/ 54**. وفيها سنة وفاته (**224**) هـ.

(3) البداية والنهاية: **10/ 327**.

(4) ينظر المصدر السابق: **10/ 329**.

(5) سير أعلام النبلاء: **12/ 374**.

(6) تاريخ بغداد: **12/ 55**.

(7) ينظر سير أعلام النبلاء:**12/ 401**.

(8) ينظر أنساب الأشراف: **5/ 290-291**، **8/ 116**، **199**، **9/ 187**. وتاريخ الطبري: **4/ 221**، **5/ 162**، **267**، **374-375**، **427**، **466-467**. والأغاني:**8/ 361**، **7/ 12**، **17**،**226/ 330**، والبداية والنهاية: **9/ 187-188**، **190-191**، **237**، والتعازي والمراثي:**146**والبيان والتبيين: **4/ 59-60**، والإعلام بالحروب: **316-317**. والكامل في اللغة والأدب: **2/ 335**.

بحراً في اللغة[1]. وقال عنه الشافعي: ما عبّر أحدٌ عن العرب بمثل عبارة الأصمعي، وقال ابن معين: لم يكن ممن يكذب، وكان من أعلم الناس بفنّه، وقال أبو داود: صدوق[2]. حدّث عنه أبو عبيد، ويحيى بن معين، وإسحق بن إبراهيم الموصلي، والرياشي والسجستاني ...وغيرهم[3]. روى من الشعر الذي ندرسه (88) ثمانيةً وثمانينَ بيتاً [4].

ومن الرواة: الأخفش، أبو الحسن علي بن سليمان بن الفضل البغدادي النحوي، المعروف بالأخفش الصغير. المتوفى سنة (315)هـ. قال عنه المرزباني: لم يكن الأخفش بالمتسع في الرواية للأخبار والعلم بالنحو، وما علمته صنّف شيئاً البتة ولا قال شعراً، وكان إذا سئل عن مسألة في النحو ضجر وانتهر من يسأله [5]. روى عن ثعلب والمبرد وروى عن المرزباني [6]. وقد روى من الشعر الذي ندرسه (57) سبعةً وخمسين بيتاً [7].

وأبو عبيدة، معمر بن المثنى البصري، المتوفى سنة (210) وقيل: (211) هـ. وهو من أهل العلم [8]. قال عنه المبرد: «له علم الإسلام والجاهلية، وكان ديوان العرب في بيته»[9]. وثّقه أبو عبيد القاسم بن سلام، وأكثر الأخذ عنه في كتبه [10].

---

(1) ينظر سير أعلام النبلاء: 10/ 175.
(2) ينظر تهذيب الكمال: 18/ 387، وسير أعلام النبلاء: 10/ 175.
(3) ينظر سير أعلام النبلاء:10/ 176.
(4) ينظر المراثي لليزيدي: 31-44، وتاريخ دمشق: 20/ 80-81، 37/ 179، وأنساب الأشراف: 13/ 131، وأمالي الزجاجي: 201 – 202.
(5) ينظر شذرات الذهب : 1/ 270.
(6) ينظر المصدر نفسه: 1/ 27.
(7) ينظر ذيل الأمالي والنوادر: 8-11.
(8) ينظر طبقات ابن سلام:21.
(9) الفهرست: 59.
(10) ينظر تهذيب اللغة، المقدمة: 1/ 14.

ووثَّقه أيضاً الحافظ الذهبي[1]. روى من الشعر الذي ندرسه (41) واحداً وأربعين بيتاً [2].

وأبو بكر بن عياش بن سالم الأسدي الكوفي المقرئ الحنّاط، المتوفى سنة (193) هـ[3]. وثّقه ابن حجر بقوله: ثقة عابد إلا أنه لما كبر ساء حفظه وكتابه صحيح[4]. وقال الذهبي: أحد الأعلام ثقة يغلط [5]. روى من الشعر الذي ندرسه (39) تسعةً وثلاثين بيتاً[6].

ومصعب بن عبد الله الزبيري، المتوفى سنة (236) هـ. وهو راوية وأديب ومحدّث[7]. روى عن مالك وابن أبي حازم، وروى عنه أبو زرعة، وكتب عنه ابن أبي خيثمة، ويحيى بن معين، ونظرا في حديثه[8]. وقد روى من الشعر الذي ندرسه (38) ثمانيةً وثلاثين بيتاً[9].

وابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة (204) وقيل (211) هـ. وهو عالم بالنسب وأخبار العرب وأيامهم ووقائعهم، أخذ عن أبيه وعن جماعة من الرواة[10]. يقول عنه أبو حاتم الرازي: «كان صاحب

---

(1) ينظر ميزان الاعتدال: 4/ 155.

(2) ينظر الأغاني: 20/ 411، والأمالي لأبي علي القالي: 2/ 199، وتاريخ دمشق: 16/ 163، 45/ 391 .

(3) تنظر مصادر ترجمته في، معرفة القراء الكبار، للذهبي: 1/ 134، وغاية النهاية في طبقات القراء، للجزري: 1/ 325.

(4) تقريب التهذيب: 2/ 366.

(5) المغني: 2/ 774 .

(6) ينظر أنساب الأشـراف:5/ 136،304–305، 8/ 365. وحلية الأولياء: 5/ 277. والبيان والتبيين: 2/ 132. وتاريخ الطبري : 4/ 406.

(7) ينظر الفهرست: 123.

(8) ينظر الجرح والتعديل: 8/ 309.

(9) ينظر تاريخ دمشق: 21/ 228 ،34/ 332، 46/ 40.

(10) ينظر الفهرست: 108–111.

أنساب وسمر»[1]. روى من الشعر موضوع البحث (36) ستةً وثلاثين بيتا[2].

ويونس بن حبيب، المحدّث الحجّة، أبو بشر العجلي المتوفى سنة (267)هـ. قال عنه أبو محمد بن أبي حاتم: كتبت عنه، وهو ثقة[3]. روى عن أبي داود الطيالسي، وعن بكّار وعامر بن إبراهيم وغيرهم ... وحدّث عنه: أبو بكر بن أبي عاصم، وأبو بكر بن أبي داود، وعلي بن رستم ...وغيرهم[4]. وقد روى من الشعر الذي ندرسه (35) خمسةً وثلاثين بيتاً[5].

والشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس، المتوفى سنة (204)هـ. قال عنه أبو ثور: من زعم أنه رأى مثل محمد بن إدريس في علمه وفصاحته ومعرفته وثباته وتمكنه فقد كذب، كان منقطع القرين في حياته، فلما مضى لسبيله لم يُعتض عنه[6]. قال عنه يحيى بن معين: «هو صدوق ...، وقال مرة: لو كان الكذب له مباحاً مطلقاً لكانت مروءته تمنعه أن يكذب»[7]. وحكى بعضهم عن أبي زرعة أنه قال: ما عند الشافعي حديث غلط فيه، وحكى عن أبي داود نحوه [8]. روى من الشعر الذي ندرسه (33) ثلاثةً وثلاثين بيتاً[9].

والطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، المتوفى سنة (310) هـ. قال عنه

---

(1) الجرح والتعديل: 9/ 69.

(2) ينظر أنساب الأشراف: 6/ 10، 8/ 363 ،9/ 259-260، 11/ 111، والأغاني: 2/ 411، وتاريخ الطبري: 4/ 384، 5/ 319، وتاريخ دمشق: 60/ 285-286.

(3) ينظر سير أعلام النبلاء: 12/ 596.

(4) ينظر المصدر السابق:12/ 597.

(5) ينظر المراثي لليزيدي: 137، والأخبار الموفقيات: 386، والأغاني: 11/ 315، 374 - 375، 20/ 206، وتاريخ دمشق: 45/ 296.

(6) ينظر تهذيب الكمال: 24/ 373.

(7) البداية والنهاية: 10/ 726.

(8) البداية والنهاية: 10/ 726 .

(9) ينظر البداية والنهاية:8/ 35 ،تاريخ دمشق : 8/ 320، 11/ 324، 58/ 45 ،65/ 335، وفيات الأعيان: 6/ 307-308.

ابن النديم في الفهرست: «كان متفنناً في جميع العلوم، علم القرآن والنحو والشعر واللغة والفقه، كثير الحفظ»[1]. وقال عنـه ابن خزيمة: «ما أَعْلَمُ عَلَـى أديم الأرضِ أَعْلَـمَ مِنـْهُ»[2]. روى لنا من الشعر موضوع البحث (33) ثلاثةً وثلاثين بيتاً[3].

وأبو معشر، نجيح السندي، قال عنه الإمام أحمد: كان صدوقاً ولكنه لا يقيم الأسانيد. ويضيف: بأنه كان بصيراً بالمغازي[4]. وقال عنه أبو زرعة: سمعت أبا نعيم يقول: كان أبو معشر كيِّساً حافظاً. لكن يحيى بن معين يقول: ليس بقوي في الحديث[5]. روى من الشعر الذي ندرسه (32) اثنين وثلاثين بيتاً [6].

والعتبي الإخباري، محمد بن عبيد الله بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان الأموي المشهور بالعتبي البصري الإخباري. المتوفى سنة (228) هـ. أحد الأدباء الفصحاء[7]. روى عن أبيه وسفيان بن أبي عيينة، ولوط ابن يحيى، وروى عنه: أبو حاتم السجستاني وأبو الفضل الرقاشي، وإسحق بن محمد النخعي. روى من الشعر موضوع البحث (29) تسعة وعشرين بيتاً[8].

والرياشي، العباس بن الفرج، المتوفى سنة (257) هـ. قال عنه أبو سعيد السيرافي: «كان الرياشي حافظاً للغة والشعر»[9]. وقال أبو بكر الخطيب: «كان ثقةً

---

(1) الفهرست: 291.

(2) طبقات الحفاظ: 308 .

(3) ينظر البداية والنهاية: 8/ 35، وتاريخ دمشق: 8/ 320، 11/ 324، 58/ 45، 65/ 335، ووفيات الأعيان: 6/ 307-308.

(4) ينظر تهذيب الكمال:29/ 322، 326.

(5) ينظر المصدر السابق: 29/ 326.

(6) ينظر تاريخ الطبري: 5/ 346، 348.

(7) ينظر سير أعلام النبلاء:11/ 96.

(8) ينظر الكامل في اللغة والأدب:2/ 395، وتاريخ دمشق: 18/ 57-58، 19/ 208.

(9) سير أعلام النبلاء:12/ 374.

وكان من الأدب وعلم النحو بمحلٍّ عال»[1]. روى من الشعر موضوع البحث (28) ثمانية وعشرين بيتاً[2].

والليث بن سعد، المتوفى سنة (195) هـ. قال عنه الذهبي: كان الليث فقيه مصر ومحدّثها ومحْتشمها ورئيسها[3]. وروى عبد الملك بن يحيى بن بكير عن أبيه قال: مارأيت أحداً أكمل من الليث[4]. وقال الفضل بن زياد: قال أحمد بن حنبل: ليثٌ كثير العلم صحيح الحديث. ويقول عنه ابن سعد: كان ثقة، وقال ابن خراش: صدوق صحيح الحديث[5]. روى عن سعيد بن بشير، وسعيد بن عبد الرحمن الحجمي، وشعيب بن إسحق ... وغيرهم. روى من الشعر الذي ندرسه (28) ثمانيةً وعشرين بيتاً[6].

والزبير بن بكّار، المتوفى سنة (256) هـ. قال عنه ياقوت: «كان علّامةً نسّابةً، إخبارياً، وكان ثقةً من أوعية العلم»[7]. وقال عنه الخطيب البغدادي: كان ثقةً ثبتاً، عالماً بالنسب عارفاً بأخبار المتقدّمين وسائر الماضين[8]. وقد انفرد الزبير ابن بكّار برواية أشعارٍ كثيرة لم توجد في دواوين أصحابها، ولا في أي مصدر آخر[9]. وقد روى من الشعر موضوع البحث (27) سبعةً وعشرين بيتاً[10].

(1) المصدر السابق.
(2) ينظر العقد الفريد: 3/ 46-47. والتعازي والمراثي: 52. وديوان المعاني: 2/ 174.
(3) ينظر سير أعلام النبلاء:8/ 143.
(4) ينظر المصدر السابق: 8/ 146، وتهذيب الكمال: 24/ 268.
(5) ينظر تهذيب الكمال:24/ 264.
(6) ينظر تاريخ دمشق: 14/ 450، ولاة مصر للكندي :77-79.
(7) معجم الأدباء:11/ 161.
(8) ينظر تاريخ بغداد: 8/ 467.
(9) ينظر الأخبار الموفقيات، مقدّمة المحقق: 21.
(10) ينظر الأخبار الموفقيات: 474 - 475، والبداية والنهاية:9/ 360، وتاريخ دمشق:10/ 21،108/ 226، 36/ 294، 46/ 40، وسير أعلام النبلاء: 46/ 450.

وابن الأعرابي، محمد بن زياد، المتوفى سنة (**231**) هـ. كان عجباً في معرفة اللغة والأنساب[1]. قال عنه أبو منصور الأزهري: ابن الأعرابي صالحٌ زاهدٌ ورعٌ صدوق [2]. روى ياقوت الحموي في كتابه معجم الأدباء في ترجمة ابن الأعرابي نقلاً عن أبي العباس ثعلب قوله: «شاهدت ابن الأعرابي وكان يحضر مجلسه زهاء مئة إنسان، كلّ يسأله أو يقرأ عليه، ويجيب من غير كتاب. قال: ولزمته بضعة عشر سنة ما رأيت بيده كتاباً قط، وما أشك في أنه أملى على الناس ما يحمل على أجمال»[3]. روى من الشعر موضوع البحث (**26**) ستةً وعشرين بيتاً[4].

ويوسف بن يزيد البصري، أبو معشر البرّاء العطّار. المتوفى سنة (**90**) هـ. ذكره ابن حبان في كتاب الثقات[5]. روى عن إبراهيم بن محمد بن عرعرة وزيد ابن الحباب ... وغيرهم، روى له البخاري ومسلم[6]. وقد روى من الشعر موضوع البحث (**22**) اثنين وعشرين بيتاً[7].

وأبو عمرو الشيباني، إسحق بن مرار الكوفي، المتوفى سنة (**213**) هـ. كان راوية أهل بغداد، واسع العلم باللغة والشعر، ثقة في الحديث، كثير السماع، وله كتب كثيرة في اللغة جياد[8]. أخذ عنه جماعة كبار، منهم الإمام أحمد وأبو عبيد القاسم بن سلام، ويعقوب بن السكيت[9]. روى من الشعر موضوع البحث (**18**)

---

(1) ينظر تاريخ بغداد: 5/ 282.

(2) ينظر سير أعلام النبلاء:10/ 688.

(3) معجم الأدباء:18/ 190-191 .

(4) ينظر البداية والنهاية:9/ 356، وتاريخ دمشق: 20/ 80-81، 24/ 103، 60/ 96-97 .

(5) ينظر الثقات، لابن حبان: 7/ 637.

(6) ينظر المصدر السابق: 9/ 18 .

(7) ينظر تاريخ الطبري: 5/ 48-49 .

(8) ينظر الوافي بالوفيات: 8/ 425 .

(9) ينظر المصدر السابق .

ثمانية عشر بيتاً[1].

والمازني، أبو عثمان بكر بن محمد بن عدي البصري. المتوفى سنة (**247**) وقيل (**248**) هـ. قال عنه المبرد: لم يكن أحدٌ بعد سيبويه أعلم بالنحو من المازني[2]. أخذ عن أبي عبيدة والأصمعي. وروى عن الحارث بن أبي أسامة وموسى بن سهل الجوني ومحمد بن يزيد المبرد. روى من الشعر الذي ندرسه (**18**) ثمانية عشر بيتاً[3].

والواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر المدني، المتوفى سنة (**207**) هـ. أحد الأعلام القضاة [4]. قال عنه ابن راهويه: «إنه عندي ممن يضع الحديث»[5]. قال عنه يحيى بن معين: «لايُكتب حديث الواقدي، الواقدي ليس بشيء»[6]. وسئل عنه أبو زرعة فقال: «ضعيف»[7]. وقد اتفقوا على ترك حديثه، وهو من أوعية العلم لكنه لا يتقن الحديث. وهو رأس في المغازي والسير ويروي في كل ضرب [8]. روى من الشعر الذي ندرسه (**17**) سبعة عشر بيتاً[9].

ومحمد بن الحسن بن أبي الحسن القرشي المخزومي المدني، المتوفى سنة (**187**)هـ[10]. قال عنه يحيى بن معين: ما هو بثقة، كان يسرق الحديث. وقال

(**1**) ينظر الأغاني: **19/ 29**، والبداية والنهاية: **9/ 236-237**، وتاريخ دمشق: **45/ 263**.

(**2**) ينظر سير أعلام النبلاء:**12/ 270**.

(**3**) ينظر تاريخ دمشق: **47/ 91-91** .

(**4**) ينظر الفهرست:**111**، وتهذيب التهذيب :**9/ 363** .

(**5**) الجرح والتعديل: **8/ 20-21** .

(**6**) المصدر السابق .

(**7**) المصدر السابق .

(**8**) ينظر تذكرة الحفاظ: **1/ 348**.

(**9**) ينظر تاريخ دمشق: **11/ 454**، **57/ 275**، **18/ 450**، ومروج الذهب :**3/ 32-33**. والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم: **6/ 92-93**.

(**10**) طبقات الفقهاء، للشيرازي: **142**.

عنه البخاري: عنده مناكير، وقال أبو زرعة: واهي الحديث[1]. روى من الشعر الذي ندرسه (17) سبعة عشر بيتاً[2].

ومن الرواة أيضاً، زيد العمّي، وهو زيد بن الحواري العمي البصري قاضي هراة في ولاية قتيبة بن مسلم الباهلي[3]، قال عنه أبو زرعة: «ليس بقوي، واهي الحديث ضعيف، وقال النسائي: ضعيف، وقال الدّارقطني: صالح»[4]. وثّقه أحمد وأبو داود فقالا عنه: ثقة ثقة، ووثّقه ابن حبان [5]. روى عن أنس بن مالك وجعفر بن زيد العبدي والحسن البصري ... وغيرهم. وروى عنه: أيـّوب بن موسى المكي، وجابر الجعفي، وسفيان الثوري ... وغيرهم. روى من الشعر الذي ندرسه (16) ستة عشر بيتاً[6].

وأبو مخنف، لوط بن يحيى. المتوفى قبل سنة (170) هـ. إخباري تالف، لايوثق به، تركه أبو حاتم وغيره. وقال الدّارقطني: ضعيف، وقال عنه يحيى ابن معين: ليس بثقة [7]. روى عن الصعق بن زهير وجابر الجعفي، وروى عنه المدائني، وعبد الرحمن بن مغرار [8]. روى مـن الشـعر موضوع البحث (15) خمـسة عشر بيتا[9].

وعمرو بن ميمون الأودي المتوفى سنة (74) هـ. ثقةٌ عابدٌ صدوق [10].

---

(1) ينظر تهذيب الكمال :25/ 65.

(2) ينظر تاريخ دمشق: 32/ 216.

(3) شهد وفاة الخليفة سليمان عبد الملك سنة 99 هـ، وكان حينها قاضياً على هراة، ينظر تاريخ دمشق: 19/ 383 .

(4) تهذيب الكمال:10/ 58 .

(5) ينظر لسان الميزان: 7/ 515.

(6) ينظر تاريخ دمشق: 19/ 384. وبغية الطلب: 9/ 3926، 4015.

(7) ينظر لسان الميزان: 4/ 619.

(8) ينظر المصدر نفسه: 4/ 619.

(9) ينظر تاريخ الطبري: 4/ 582، 5/ 271.

(10) تقريب التهذيب: 1/ 747.

وثّقه يحيى بن معين [1]. حدّث عن عمر وعلي وابن مسعود ومعاذ وأبي هريرة ... وغيرهم. وروى عنه الشعبي، وأبو إسحق، وحصين بن عبد الرحمن وغيرهم [2] روى من الشعر الذي ندرسه (15) خمسة عشر بيتاً[3].

وهناك طائفة أخرى من أسماء الرواة، رووا لنا من شعر رثاء الخلفاء والقادة الأبيات القليلة مقارنة بمن سبق الحديث عنهم. وإذا أردنـا التحدّث عن كل واحد منهم، فسيطول الحديث بنا. ولذلك سأكتفي بذكر أسمائهم وعدد الأبيات التي رواها كل واحدٍ منهم. وهم: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي أربعة عشر بيتاً[4]. عمرو بن صالح الزهري، أربعة عشر بيتاً[5]. وموسى بن مضرّس، أربعة عشر بيتاً [6]. وخالد بن خدّاش، ثلاثة عشر بيتاً[7]. وعيسى بن يزيد بن دأب، أحد عشر بيتاً[8]. والحسن بن علي الحرمازي، أحد عشر بيتاً[9]. ومسلمة بن محارب، أحد عشر بيتاً[10]. وزهير بن الهنيد، أحد عشر بيتاً[11]. وخالد ابن عجلان الباهلي، عشرة أبيات [12]. وأبو سليمان بن يزيد، عشرة أبيات [13]. والوليد بن يزيد العذري، عشرة أبيات[14]. ....

---

(1) ينظر تذكرة الحفاظ: 1/ 65.

(2) ينظر سير أعلام النبلاء: 4/ 158.

(3) ينظر تاريخ دمشق: 59/ 232-233.

(4) ينظرمروج الذهب: 3/ 191. وشذرات الذهب: 1/ 291.

(5) ينظرتاريخ دمشق: 45/ 264، 57/ 70، وحلية الأولياء : 5/ 277 .

(6) ينظر تاريخ دمشق: 58/ 45، والأغاني: 7/ 13.

(7) ينظر تاريخ دمشق: 57/ 170-172.

(8) ينظر التعازي والمراثي: 119، 130.

(9) ينظر التعازي والمراثي: 143، والأغاني: 8/ 397 -398.

(10) ينظر أنساب الأشراف: 8/ 341-345، وتاريخ دمشق: 45/ 392.

(11) ينظر تاريخ الطبري: 5/ 22، 6/ 12-13.

(12) ينظر أنساب الأشراف: 5/ 161.

(13) ينظر تاريخ دمشق: 18/ 202-203.

(14) ينظر الأغاني: 22/ 261-262.

وعبد الله بن عمر، عشرة أبيات [1]. وأبو هاشم مخلد بن محمد، عشرة أبيات[2].

وإسحق بن محمد، عشرة أبيات [3]. وعاصم بن الحدثان الليثي، عشرة أبيات[4]. ويحيى بن سعيد الأموي، تسعة أبيات[5]. والشعبي، عامر بن شراحيل، تسعة أبيات[6]. وعوانة بن الحكم، ثمانية أبيات[7]. ومحمد بن قيس الهمداني المرهبي الكوفي، ثمانية أبيات[8]. وسيف بن عمر الضبّي، ثمانية أبيات[9].

وعمر بن شبّة، سبعة أبيات[10]. والمفضّل الضبّي، سبعة أبيات[11]. وسليمان بن داود الجمعي، سبعة أبيات[12]. وأبو عمرو الأعمي، سبعة أبيات[13].

وابن عباس، عبد الله بن عباس بن عبد المطّلب، سبعة أبيات[14]. وعبد الله ابن عيّاش، سبعة أبيات[15]. وسبح بن حاتم، ستة أبيات[16].

وعبد الملك بن عمير القطبي، ستة أبيات[17]. وأحمد بن المعدّل، ستة

---

(1) ينظر تاريخ الطبري :5/ 283-284 .
(2) ينظر المصدر نفسه: 6/ 109-110.
(3) ينظر تاريخ دمشق: 18/ 202-203 .
(4) ينظر الأغاني: 8/ 412 ،و 19/ 209-210.
(5) ينظر تاريخ دمشق: 10/ 265-266.
(6) ينظر الأغاني: 17/ 212، وتاريخ الطبري : 4/ 557 .
(7) ينظر التعازي والمراثي:203، وتاريخ دمشق : 46/ 246.
(8) ينظر الأغاني: 14/ 263.
(9) ينظر تاريخ الطبري: 18/ 295.
(10) ينظر الأغاني: 7/ 23.
(11) ينظر تاريخ الطبري: 5/ 162 .
(12) ينظر تاريخ دمشق: 43/ 553 .
(13) ينظر الأغاني: 15/ 378.
(14) ينظر أنساب الأشراف: 6/ 65.
(15) ينظر مروج الذهب:3/ 317 .
(16) ينظر تاريخ دمشق: 45/ 263، وحلية الأولياء : 5/ 276 .
(17) ينظر تاريخ دمشق: 60/ 58.

أبيات[1]. وخالد بن سعيد بن عمرو بن سعيد، ستة أبيات[2].

وعلي بن محمد النوفلي، خمسة أبيات[3]. وقبيصة بن عمر المهلبي خمسة أبيات[4].

والسكري، أبو سعيد الحسن بن الحسين، خمسة أبيات[5]. وعبد الملك بن نوفل بن مساحق بن عبد الله بن محرمة، خمسة أبيات[6]. وعبد الله بن أحمد العذري، خمسة أبيات[7]. وحمّاد بن أبي ليلى، خمسة أبيات [8]. وأبو جعفر المديني، خمسة أبيات[9].

والحسن بن عبد الرحمن، خمسة أبيات[10]. والنضر بن شميل، خمسة أبيات[11]. وأبو العباس المبرد، أربعة أبيات[12]. وحرملة بن عبد العزيز، أربعة أبيات[13]. ومحمد بن عمر بن علقمة، أربعة أبيات [14].

ومحمد بن كثير، أربعة أبيات[15]. ....

---

(1) ينظر ذيل الأمالي والنوادر: 1.
(2) ينظر تاريخ دمشق: 34/ 333 .
(3) ينظر الأغاني: 8/ 359 .
(4) ينظر وفيات الأعيان: 6/ 286-287.
(5) ينظر تاريخ الطبري: 5/ 614.
(6) ينظر المصدر نفسه: 4/ 242.
(7) ينظر الأغاني: 22/ 261.
(8) ينظر تاريخ دمشق:8/ 321.
(9) ينظر المصدر نفسه: 25/ 274.
(10) ينظر تاريخ دمشق: 25/ 274 .
(11) ينظر العقد الفريد: 5/ 29.
(12) ينظر وفيات الأعيان: 2/ 235.
(13) ينظر تاريخ الطبري: 5/ 323-324. وحلية الأولياء : 5/ 276.
(14) ينظر التعازي والمراثي: 63.
(15) ينظر وفيات الأعيان: 6/ 317 .

وسلمويه أبو صالح، أربعة أبيات[1]. والحكم بن هشام، أربعة أبيات[2]. وأبو العباس ثعلب، أربعة أبيات[3]. والجمحي، محمد بن سلّام، أربعة أبيات[4]. ويحيى بن علي، أربعة أبيات[5]. وأبو زيد الأعمى، أربعة أبيات[6]. وهشام بن عروة بن الزبير، ثلاثة أبيات[7]. وأبو اليقظان، ثلاثة أبيات[8]. وحمّاد بن إسحق، ثلاثة أبيات[9]. ومحمد بن مالك العبدي، بيتين[10]. وابن عبد الحكم، بيتين [11]. وابن السمّاك، بيتين [12]. وأبو علي القالي، بيتين[13]. وحمد بن محمد الخطّابي، بيتين[14]. وأحمد بن سليمان الطوسي، بيتين[15]. وأبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد، بيتين[16]. وعلي بن مجاهد، بيتين[17]. وعمرو بن أبي عمرو، بيتين[18]. والوليد بن هشام القحذمي، بيتين[19]. ....

(1) ينظر أنساب الأشراف: 11/ 111.
(2) ينظر تاريخ دمشق: 10/ 264.
(3) ينظر المصدر نفسه: 48/ 284.
(4) ينظر الأغاني:8/ 361 .
(5) ينظر المصدر نفسه: 2/ 306 .
(6) ينظر بغية الطلب: 9/ 3926.
(7) ينظر الأغاني: 17/ 213-214.
(8) ينظر أنساب الأشراف: 9/ 384-385 .
(9) ينظر الأغاني: 14/ 270 .
(10) ينظر حلية الأولياء: 5/ 306 .
(11) ينظر النجوم الزاهرة: 10/ 178.
(12) ينظر العقد الفريد: 3/ 6.
(13) ينظر الشعر والشعراء:2/ 449.
(14) ينظر تاريخ دمشق:19/ 149.
(15) ينظر المصدر نفسه: 57/ 310.
(16) ينظر المصدر نفسه: 28/ 9.
(17) ينظر تاريخ الطبري: 5/ 303.
(18) ينظر الأغاني: 2/ 248.
(19) ينظر المصدر نفسه:20/ 379.

وحمّاد العدوي، بيتين[1]. وابن عائشة، بيتين [2]. وأبو الفرج الأصبهاني، بيت واحد[3].

وخلاصة القول: إنَّ وجود المئات من الرواة الذين تعاقبوا على نقل ورواية تراثنا الشعري والأدبي؛ ليدل بوضوح على اتباعهم الطريقة العلمية والمنهج السليم في أخذ العلم وروايته. وقد تصدَّى لهؤلاء الرواة، بعض علمائنا الذين أعملوا رأيهم في تقييمهم، وبيان صحة ما يروون، وكتب التراجم والرجال خير شاهدٍ على ذلك.

وفضلاً عن وجود هذا الكم الكبير من الرواة؛ إلاَّ أننا لا نجد ذكراً لهم في بعض المصادر، وهذا عائدٌ إلى المنهج الذي يتبعه المؤلفون، فمنهم من يُغفل ذكر الرواة طلباً للاستخفاف والإيجاز، ومنهم من يفصِّل في ذلك القول. لكن الحقيقة التي لا يمكن تجاهلها، أن ما وصلنا من تراثٍ شعري وأدبي، كان بفضل هؤلاء الرواة.

---

(1) ينظر تاريخ دمشق: **45/ 165**، وبغية الطلب : **6/ 2921**.

(2) ينظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: **6/ 242**.

(3) ينظر وفيات الأعيان: **6/ 374**.

المبحث الثالث
الشــعراء

بلغ عدد الشعراء الذين رثوا الخلفاء والقادة، أكثر من مئةٍ شاعر، لم يبلغوا المستوى نفسه من العطاء الشعري ولا الفني. فمنهم من قال البيت، ومنهم من قال المقطوعة والقصيدة. ولذلك رأيت أن أُقسّمهم على أصنافٍ ثلاثة، لتسهل دراستهم.

الصنف الأوّل: وهم الشعراء أصحاب الدّواوين المنشورة، أي الذين وصلت إلينا دواوينهم أو الذين جُمعت أشعارهم وحققت .

الصنف الثاني: وهم الشعراء الذين لم تصل إلينا دواوينهم ولم تجمع أو تحقق، وإنما وردت أشعارهم مبثوثةً في ثنايا المصادر.

الصنف الثالث: وهم الشعراء المجهولون الذين أوردت لهم المصادر أشعاراً لم يعرف قائلوها، واكتفى رواتها بالقول: قال الشاعر، أو الراجز، أو أحد الشعراء، أو لمجهول ... إلى غير ذلك مما سنفصّل القول فيه لاحقاً .

ولم تكن المرأة بعيدةً عن الرثاء، فالنساء من أكثر الناس عاطفةً، وأصدقهم تعبيراً، وأشجاهم قلوباً عند المصيبة[1]، ولاسيما إذا كان المرثي زوجاً أو أباً أو أخاً. وهذا يضفي على رثاء الخلفاء والقادة - الذي يغلب عليه الطابع السياسي والرسمي إلى حدٍّ ما - نوعاً آخر من المشاعر الصادقة التي يمتزج فيها الرثاء الرسمي بالخاص .

---

(1) ينظر العمدة :2/ 153 .

وقد اتّخذتُ من مقدار المادّة الشعريّة عند الشاعر، معياراً أسير عليه في ترتيب الشعراء، وانسحب ذلك على الشخصيات المرثية أيضاً. وقد حاولت أن أَمِيط اللثام عن العلاقة التي تربط الشاعر بالمرثي، سلباً أم إيجاباً، على المستوى الشخصي أو القبلي، أو غير ذلك، ما استطعت إلى ذلك سبيلا. وأودّ الإشارة في هذا السياق إلى أنّ من الشعراء من هجا بعض الخلفاء والقادة بعد موتهم لسببٍ أو لآخر. وقد عددت ذلك من (الرثاء الهجائي) إذا جاز التعبير. وهذا يدخل ضمن الصراع القبلي الذي أجّجه بعض الخلفاء والقادة، وذلك باعتمادهم على القبائل بشكلٍ واضح وأساس[1]. فضلًا عن الحوادث الشخصيّة التي قد تترك أثراً في نفس هذا الشاعر أو ذاك، فينطبع ذلك في شعره. وهذا ما سنفصّل القول فيه في الفصل الرابع من هذه الدّراسة إن شاء الله.

المجموعة الأُولى، الشعراء أصحاب الدّواوين المنشورة:

ويأتي في مقدّمتهم الفرزدق، إذ رثى من الخلفاء والقادة سبعة عشر، بين خليفةٍ وقائد. فرثى محمد بن يوسف الثقفي، أخا الحجاج وواليه على اليمن، وابن الحجاج محمد اللذين ماتا في جمعةٍ واحدة [2]، بقصيدتين بلغ مجموع أبياتهما (38) ثمانية وثلاثين بيتاً[3]، ورثى محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله التميمي[4]، بقصيدتين بلغ مجموع أبياتهما (34) أربعة وثلاثين بيتاً[5]، ورثى وكيع بن حسّان بن أبي سود الغدّاني التميمي بأكثر من قصيدة ومقطوعة بلغ مجموع أبياتها (29) تسعة

---

(1) ينظر تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي: 27 – 28.

(2) ينظر التعازي للمدائني: 59، وجمهرة خطب العرب:2/ 299 وفيها ...في يومٍ واحد، وتاريخ دمشق: 52/ 264 ... وكان بينهما جمعة.

(3) ينظر الديوان: 1/ 161، 397–399.

(4) محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله التميمي، أمير من القادة الشجعان في العصر المرواني، ولّاه عبد الملك بن مروان على سجستان، فانتدبه الحجاج لقتال شبيب الخارجي، فقُتِلَ سنة (76) هـ. ينظر الكامل لابن الأثير: 4/ 185، والأعلام: 7/ 116.

(5) ينظر الديوان: 2/ 325–326، 253–254.

وعشرين بيتاً[1]، ورثى الحجّاج بن يوسف الثقفي بقصيدتين، بلغ مجموع أبياتهما (25) خمسة وعشرين بيتا[2]، ورثى بشر بن مروان بقصيدةٍ بلغ مجموع أبياتها (22) اثنين وعشرين بيتاً[3]. ورثى الجرّاح بن عبد الله الحكمي[4]. بقصيدتين بلغ مجموع أبياتهما (20) عشرين بيتاً[5]. ورثى عمر بن عبيد الله بن معمّر التيمي القرشي[6]. بقصيدة بلغ مجموع أبياتها (18) ثمانية عشر بيتاً[7]. ورثى عبد الله بن ناشرة اليربوعي بقصيدةٍ بلغ عدد أبياتها (11) أحد عشر بيتاً[8].

ورثى هلال بن أحوز المازني[9]، بقصيدة بلغ مجموع أبياتها (10) عشرة أبيات[10]، ورثى مخلّد بن يزيد [11]، ....

(1) ينظر المصدر نفسه : 1/ 122-123، 202-203، 312، 409-410.

(2) ينظر المصدر نفسه : 1/ 295، 2/ 5-7.

(3) ينظر المصدر نفسه :1/ 217.

(4) الجرّاح بن عبد الله الحكمي، أبو عقبة، أمير خراسان وأحد الأشراف الشجعان، دمشقي الأصل والمولد، ولي البصرة للحجاج، ثم خراسـان وسجستان لعمر بن عبد العزيز، وولّاه يزيد بن عبد الملك إمارة أرمينـية وأذربيجان. استشهد غازيا بمرج أردبيل. ينظر الكامل لابن الأثير : 5/ 58، والأعلام – 2/ 115.

(5) ينظر الديوان : 2/ 238 – 239، 251.

(6) عمر بن عبيد الله بن معمر بن عثمان التيمي القرشي، أسد بني تميم في عصره. من كبار القادة الشجعان الأجواد، أرسله عبد الملك بن مروان لقتال أبي فديك. توفي سنة (82) هـ. ينظر النجوم الزاهرة: 1/ 262 ،والكامل لابن الأثير: 4/ 140، والأعلام: 5/ 54.

(7) ينظر الديوان: 1/ 235 – 236.

(8) ينظر المصدر نفسه: 1/ 216 – 264.

(9) هلال بن أحوز بن أربد المازني المالكي التميمي : قائد من الشجعان القساة. ويعرف بقاتل آل المهلّب بقندابيل. ينظر: معجم البلدان : 7/ 167، والأعلام: 8/ 90.

(10) ينظر الديوان: 1/ 131.

(11) مخلد بن يزيد بن المهلّب بن أبي صفرة : أمير، من بيت رياسةٍ وبطولة، كان مع أبيه في أكثر وقائعه وولاياته، استخلفه عمر بن عبد العزيز على خراسان، وقال عنه هذا فتى العرب. مات في الشام سنة (100) هـ. ينظر الكامل لابن الأثير: 5/ 18-19، والأعلام: 7/ 194.

بتسعة أبيات[1]. ورثى عبد العزيز بن مروان بثمانية أبيات[2]، ورثى سلم بن زياد بن أبيه[3]، بسبعة أبيات[4]، ورثى سعيد ابن أسلم[5]، بستة أبيات[6]، ورثى زياد بن أبيه بخمسة أبيات[7]، ورثى الخليفة سليمان ابن عبد الملك بأربعة أبيات[8]، ورثى عبد الملك بن بشر بن مروان بأربعة أبيات[9]، ورثى مالك بن مسمع[10] بثلاثة أبيات[11] .

ومما يلاحظ على بعض القادة الذين رثاهم الفرزدق، انتماؤهم إلى قبيلة الشاعر (تميم)، وهذا يؤكّد اعتزاز الشاعر بأبناء قبيلته وتمجيدهم بذكر فضائلهم بعد موتهم، على أنّه لم يغفل القادة الآخرين أيضاً. وهذا يتناقض مع ما قاله المرزباني عن الفرزدق إلى حدٍّ ما. إذ قال: «كان الفرزدق سيّداً جوّاداً فاضلاً، وجيهاً عند الخلفاء والأُمراء، هاشمي الرأي في أيام بني أميّة، يمدح أحياءهم ويؤبّن موتاهم،

(1) ينظر الديوان :1/ 163.

(2) المصدر نفسه : 1/ 186.

(3) سلم بن زياد بن أبيه : أمير، من آل زياد. كنيته أبو حرب، ولّاه يزيد بن معاوية خراسان سنة (61) هـ. توفي في البصرة سنة (73)هـ. ينظر الكامل لابن الأثير: 4/ 39، والنجوم الزاهرة: 1/ 190، والأعلام : 3/ 110.

(4) ينظر الديوان: 1/ 271.

(5) سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي: قائد، ولي السند للحجاج بن يوسف سنة (78) هـ. ثم بعثه على ثغر مكران. ينظر تاريخ خليفة بن خيّاط : 212، والأعلام: 8/ 25.

(6) ينظر الديوان: 1/ 89.

(7) ينظر المصدر نفسه: 1/ 156، 2/ 223.

(8) ينظر المصدر نفسه: 2/ 83.

(9) ينظر المصدر نفسه: 1/ 40-41 .

(10) مالك بن مسمع بن شيبان البكري الربعي، أبو غسّان: سيّد ربيعة في زمانه، كان مقدّماً رئيساً، ويقال : ساد الأحنف بحلمه، وساد مالك بمحبة العشيرة له. ينظر المعارف لابن قتيبة: 419، والأعلام: 5/ 415.

(11) ينظر الديوان: 1/ 396.

ويهجو بني أميّة وأُمراءهم »[1]. فالذي يفهم من كلام المرزباني، أنّ الفرزدق في حالة عداءٍ مستمر مع بني أميّة. ولسان الواقع يقول خلاف ذلك، والدليل رثاؤه للخلفاء والقادة، ومنهم سليمان بن عبد الملك، وبشر بن مروان، والحجّاج ابن يوسف وأخيه وابنه. فكلام المرزباني لا يستقيم دليلاً عامّاً نطمئن إليه .

ويأتي في المرتبة الثانية كُثَيِّر عَزّة، إذ رثى عبد العزيز بن مروان بستّ قصائد بلغت إحداها (**38**) ثمانية وثلاثين بيتاً، وهي فيما وقفت عليه، أطول ما رثي به عبد العزيز. وقد بلغ مجموع الأبيات في هذه القصائد (**82**) اثنين وثمانين بيتاً[2]. وهذا يدل على مدى الحب والوفاء الذي يُكنّه الشاعر لعبد العزيز بن مروان، والذي أسكته عن قول الشعر بعد موته. وظلّ على ذلك – طوال خلافة الوليد بن عبد الملك وسليمان – حتّى تولّى الخلافة عمر بن عبد العزيز، فعاد مرّة أُخرى إليه[3]. وقد سُئل كثير عزة: «ما لك لا تقول الشعر؟ أجْبَلْتَ ؟[4]. فقال: والله ما كان ذلك، ولكن فقدت الشباب فما أطرب، ورزئت عزّة فما أنْسُب، ومات ابن ليلى فما أرغب، يعني عبد العزيز بن مروان»[5].

ويأتي في المرتبة الثالثة: الشَّمَرْدَل بن شُرَيْك، إذ رثى عدداً من القادة بقصائد متعددة، بلغ مجموع أبياتها (**70**) سبعين بيتاً. فقد رثى إخوته الثلاثة الذين بعثهم وكيع بن أبي سود الغداني على رأس بعوث ووجههم إلى مناطق متفرّقة[6]. وكان

(1) معجم الشعراء: **446–447**.

(2) ينظر الديوان: **272، 312–317، 320–321، 323–326، 328، 535**.

(3) ينظر ديوان كثير عزة: **15–16** المقدّمة.

(4) قولـه أجبلت، أي انقطعت عن قول الشعر، أُخِذ من قولهم: أَجْبَلَ الحافِرُ إذا أفضى إلى الجبل أو الصخر الذي لا يحيك فيه المعول. ينظر اللسان مادة (جَبَلَ): **11/ 96**.

(5) الأمالي لأبي علي القالي: **1/ 30**، وينظر عيون الأخبار: **2/ 200**، والعقد الفريد: **2/ 175**. وفيه: «وقيل لكثير عزة : لِمَ تركت الشعر؟ قال: ذهب الشباب فما أعجب، وماتت عزة فما أطرب، ومات ابن ليلى فما أرغب، يريد عبد العزيز بن مروان».

(6) ينظرتفاصيل عن البلاد التي أرسلهم إليها وكيع في الأغاني: **13/ 377**.

طلب الشمردل من وكيع أن يكونوا جميعاً في وجهةٍ واحدة لأنّه كما يقول:«إذا اجتمعنا تعاونّا وتناصرنا وتناسبنا»[1] ... فلم يلبث أن أتاه نعي إخوته الواحد تلو الآخر، فتأثّر لذلك ورثاهم واحداً واحداً، بقصائد تقطر ألماً وحزناً، فرثى أخاه وائلاً بقصيدةٍ بلغت (43) ثلاثةً وأربعينَ بيتاً[2]. ثمّ أخاه قدامة بقصيدةٍ بلغت (14) أربعة عشر بيتاً [3]. ثمّ أخاه الحكم بقصيدةٍ بلغت (13) ثلاثةَ عشرَ بيتاً[4]، ورثى عمر بن يزيد الأسيدي بقصيدةٍ بلغت (9) تسعة أبيات[5]، وعبد الله بن حصن، ببيتين[6].

ويأتي في المرتبة الرابعة: سراقة البارقي الأزدي، الذي عُرف عنه بأنّه لم يرث أحداً مات حتف أنفه، وإنّما جميع من رثاهم قوّاد قتلوا في الحروب، وهم إمّا من بارق أو الأزد[7]. فقد رثى عبد الرحمن بن مخنف الأزدي وابنه محمد. إذ رثى عبد الرحمن بقصيدتين مجموع أبياتهما (46) ستةٌ وأربعون بيتاً، في حين رثى ابنه بقصيدةٍ بلغ طولها (13) ثلاثة عشر بيتاً [8]. ومن المرجّح أن يكون انتماء الشاعر والمرثي إلى قبيلةٍ واحدةٍ هي (الأزد) سبباً في طول هذه القصائد وما تحمله من مشاعر جيّاشة.

ويأتي في المرتبة الخامسة: ثابت قطنة، إذ رثى يزيد بن المهلّب بأربع قصائد، بلغ مجموع أبياتها (39) تسعة وثلاثين بيتاً[9]. ورثى المفضّل بن المهلّب بقصيدةٍ

---

(1) ينظر المصدر نفسه: 13/ 377.

(2) شعراء أمويون: 2/ 540-545.

(3) ينظر المصدر نفسه: 2/ 547-548.

(4) ينظر المصدر نفسه: 2/ 553-554.

(5) ينظر المصدر نفسه: 2/ 523.

(6) ينظر أنساب الأشراف: 12/ 198، وقد أخل بهما شعره المجموع.

(7) ينظر الديوان: 25 .

(8) ينظر الديوان: 43-45، 80-81، 85 -89.

(9) ينظر شعره: 49، 51، 57-60.

بلغ مجموعها (15) خمسة عشر بيتاً [1]. ورثى قتيبة بن مسلم الباهلي، وعدي بن أرطأة الفزاري[2]، ببيتين لكلٍّ منهما[3]. ومن الجدير ذكره، أنّ ثابت هو الشاعر الوحيد الذي ثار على الأمويين وتوعّدهم، وغضب غضباً شديداً حين قتلوا يزيد ابن المهلّب[4]. وبالمقابل نجده يشمَت بقتيبة بن مسلم الذي تولّى خراسان بعد المهالبة، إذ قال فيه بعد مقتله بيتين تقدّم ذكرهما.

ويأتي في المرتبة السادسة: زياد الأعجم، إذ رثى المغيرة بن المهلّب [5]، بقصيدةٍ طويلةٍ بلغت (57) سبعة وخمسين بيتاً[6]، «وهي معدودة من مراثي الشعراء في عصر زياد»[7].

ويأتي في المرتبة السابعة: حُمَيْد بن ثور الهلالي، إذ رثى عبد الملك بن مروان بقصيدةٍ طويلةٍ بلغت (44) أربعةٌ وأربعين بيتاً، خلا من معظمها ديوانه المنشور[8]. وجاءت هذه القصيدة بمناسبة تهنئة الوليد بن عبد الملك بالخلافة وتعزيته بعبد الملك بن مروان، وهذا دليلٌ لا لبس فيه، أنّ حُمَيْد بن ثور امتدّ به العمر إلى هذا الزمن؛ إلاَّ أنه ورد في بعض المصادر أنّ وفاته سنة (30) هـ، زمن الخليفة عثمان بن عفّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويؤيد ما ذهبنا إليه، رواية الزبير بن بكّار وهي

---

(1) ينظر المصدر نفسه: 64-66.

(2) عدي بن أرطأة الفزاري: كان على شرطة يزيد بن أبي كبشة لمّا ولي العراق للوليد بن عبد الملك، ثم ولّاه عمر بن عبد العزيز البصرة. ينظر تاريخ دمشق : 10/ 9، 40/ 60.

(3) ينظر شعره: 51، 67.

(4) ينظر الشعر الأموي في خراسان والبلاد الإيرانية: 94.

(5) المغيرة بن المهلّب بن أبي صفرة الأزدي، أبو فراس، أمير من الشجعان العرب المعدودين، استخلفه أبوه على خراسان، فمات فيها سنة (82) هـ. ينظر الكامل لابن الأثير: 4/ 182، تاريخ الطبري: 8/ 17 .

(6) ينظر زياد الأعجم، حياته وشعره: 56 – 69.

(7) الأغاني: 15/ 372 .

(8) ينظر الديوان:116، وينظر بقيّة القصيدة في منتهى الطلب من أشعار العرب: 7/ 387-394.

قوله: أخبرني أبي أنّ حُمَيْد بن ثور دخل على بعض خلفاء بني أُميّة[1].

ويأتي في المرتبة الثامنة: عبيد الله بن قيس الرقيات، إذ رثى طلحة الطلحات[2]، بقصيدتين بلغ مجموع أبياتهما (36) ستة وثلاثين بيتاً[3]، ورثى عبد الواحد بن الحكم ابن العاص بثلاثة أبيات[4].

ويأتي في المرتبة التاسعة جرير، وهو لم يكن كالفرزدق في كثرة رثائه، إذ أنّه لم يشترك معه إلاّ في رثاء مالك بن مسمع الشيباني بأربعة أبيات[5]. وتوزّعت بقية مراثيه على المرار بن عبد الرحمن (10) عشرة أبيات[6]، وعبد العزيز بن الوليد (9) تسعة أبيات[7]، والوليد بن عبد الملك (6) ستة أبيات[8]. وعمر بن عبد العزيز (3) ثلاثة أبيات[9]، وقتيبة بن مسلم الباهلي (3) ثلاثة أبيات[10].

ويأتي في المرتبة العاشرة: عبد الله بن سلمة الهذلي السهمي، أبو صخر، إذ رثى عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أُسَيْد[11]، بقصيدةٍ بلغت أبياتها (29) تسعةً

(1) ينظر الإصابة: 2/ 109 .

(2) طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي: أحد الأجواد المقدّمين. كان أجود أهل البصرة في زمانه، ذهبت عينه بسمرقند، ولّاه زياد بن مسلمة على سجستان، فتوفي فيها والياً نحو (65) هـ. ينظر المحبّر: 56،395، خزانة الأدب: 3/ 394 – 395.

(3) ينظر ديوانه: 17 – 19، 20 – 22.

(4) ينظر ديوانه: 79.

(5) ينظر الديوان: 484.

(6) ينظر المصدر نفسه: 166 – 167.

(7) ينظر المصدر نفسه: 175.

(8) ينظر المصدر نفسه: 227.

(9) ينظر المصدر نفسه: 234 .

(10) ينظر حماسة الظرفاء: 1/ 119، البداية والنهاية : 9/ 191. وقد خلى ديوانه المنشور منها.

(11) عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أُسيد القرشي، أبو الحجّاج، استعمله عبد الملك بن مروان على مكّة، وأقرّه عمر بن عبد العزيز عليها حتّى مات، ثمّ عزله عنها يزيد بن عبد الملك. ينظر تاريخ خليفة بن خيّاط: 259، وتاريخ دمشق: 36/ 294، 297.

وعشرين بيتاً[1]. ومما يذكر أنّ أبا صخر من شعراء الدّولة الأمويّة المتعصّبين لبني مروان في الحجاز، حبسه ابن الزبير إلى أن قُتِل[2].

ويأتي في المرتبة الحادية عشرة: الوليد بن يزيد، فقد هجا هشام بن عبد الملك بقصيدتين، وهو ما اصطلحنا على تسميته (الرثاء الهجائي) بلغ مجموع أبياتهما (**16**) ستة عشر بيتاً[3]. ودافِعُ الوليد بن يزيد على ذلك: هو نتيجةً لمحاولة هشام خلعه من ولاية العهد وجعلها لابنه[4]، ورثى الوليد مسلمة بن عبد الملك بـ (**6**) ستة أبيات[5]، ورثى ابنه مؤمناً بأربعة أبيات[6].

ويأتي في المرتبة الثانية عشرة: نُصَيّب بن رَبَـاح، إذ اقتصر رثاؤه على عبد العزيز بن مروان، ولم أقف له على أية مرثية أُخرى سواه، إذ رثاه بمقطوعات متعددة بلغ مجموع أبياتها. (**23**) ثلاثة وعشرين بيتاً[7]. وأسباب هذا الاهتمام هو: «العلاقة الوثيقة التي كانت تربطه بعبد العزيز، منذ افتكّ رقبته – أو ساعده على فكّها – من ربقة الرّق وضمّه إليه مولىً من مواليه، وشاعراً من أقرب الشعراء منزلةً لديه»[8].

ويأتي في المرتبة الثالثة عشرة: الأحوص الأنصاري، إذ رثى معاوية بن أبي سفيان بقصيدةٍ بلغت (**17**) سبعة عشر بيتاً[9]، ورثى يزيد بن عبد الملك بستة

---

(1) ينظر شعراء أمويون: **4/ 84-88**.

(2) تنظر مصادر دراسة الشعر العربي في العصر الأموي: **45**.

(3) ينظر الديوان: **55، 84، 111**.

(4) ينظر تاريخ الخلفاء للسيوطي: **251**.

(5) ينظر الديوان: **119**.

(6) ينظر المصدر نفسه: **78**.

(7) ينظر الديوان: **64، 83، 87 – 88، 113، 139**.

(8) الشعر والشعراء في بلاط عبد العزيز بن مروان: **59**.

(9) ينظر الديوان: **219 – 220** .

أبيات[1].

ويأتي في المرتبة الرابعة عشرة: عبد الله بن همام السلولي، إذ رثى معاوية بن أبي سفيان بقصيدةٍ بلغت (17) سبعة عشر بيتا[2]. ورثى عمر بن يزيد بن معاوية بأربعة أبيات[3].

ويأتي في المرتبة الخامسة عشرة: الطِرِمّاح، إذ رثى قتيبة بن مسلم الباهلي بقصيدةٍ بلغت (13) ثلاثة عشر بيتاً[4]، ورثى يزيد بن المهلّب، بستة أبيات[5].

ويأتي في المرتبة السادسة عشرة: عويف القوافي، إذ رثى سليمان بن عبد الملك بقصيدةٍ بلغت (18) ثمانية عشر شطراً[6]. ويشير أبو الفرج إلى أنّه لمّا مات سليمان بن عبد الملك وولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، وفد إليه عويف القوافي، وقال شعراً رثى به سليمان ومدح فيه عمر [7].

ويأتي في المرتبة السابعة عشرة: حارثة بن بدر الغدّاني، إذ رثى زياد بن أبيه بقصيدتين بلغ مجموع أبياتهما (15) خمسة عشر بيتاً[8]، وقد كان زياد مُكرِماً لحارثة بن بدر قابلاً لرأيه، وكان يأنس به طوال حياته [9]، وقد لامه بعضهم في كثرة ملازمته، فعلل ذلك بقوله: «ما تفل في مجلسي قط، ولا حكّ رِكابُه رِكابي، ولا سار معي في علاوة الريح فغبّر علي، ولا دعوتُه قط فاحتجت إلى تجشّم الالتفات

---

(1) ينظر المصدر نفسه: 198 – 199.

(2) ينظر شعره: 188–189.

(3) ينظر المصدر نفسه:190.

(4) ينظر الديوان: 248 – 252.

(5) ينظر المصدر نفسه: 337 – 339 .

(6) ينظر شعراء أمويون: 3/ 148 – 150.

(7) ينظر الأغاني: 19/ 223 – 224.

(8) ينظر شعراء أمويون: 2/ 346–347، 363، وفيه ثمانية أبيات، والبقية في أنساب الأشراف: 5/ 290 – 291. وقد خلا منها ديوانه المنشور .

(9) ينظر الأغاني: 396.

إليه حتّى يوازيني، ولا شاورته في شيءٍ إلاّ نصحني، ولا سألته عن شيءٍ من أمر العرب وأخبارها؛ إلاّ وجدته به بصيرا»[1] .

وفضلاً عما ذكرناه من شعراء، فهناك (21) واحدٌ وعشرونَ شاعراً من أصحاب الدواوين، أو ممن جمع وحقق شعرهم. سأكتفي بذكر الشاعر ومن رثاه منعاً للإطالة: فقد رثى يزيد بن معاوية أباه بقصيدة بلغت (11) أحد عشر بيتاً[2]. ورثى أبو نخيلة، معمر ابن الحرث بن زائدة، المهاجر بن عبد الله الكلابي[3]. بستة أبيات[4]، ورثى الجنيد بن عبد الرحمن المرّي[5] بأربعة أبيات[6]. ورثى ابن ميّادة، الرّماح بن الأبْرَد، الوليد بن يزيد بقصيدة بلغت (10) عشرة أبيات[7]. ورثى نصر بن سيّار ولده تميم بن نصر بخمسة أبيات[8]، ورثى الحارث بن شريج بأربعة أبيات[9]، ورثـى يزيد بن زياد بن مفرغ الحميري، عبيد الله بن زياد (8) ثمانية أبيات[10]، ورثى كعب بن معدان الأشقري المهلب ابن أبي صفرة (8) ثمانية أبيات[11]،

(1) الأغاني: 8/ 425.

(2) ينظر ديوانه: 46 – 48.

(3) المهاجر بن عبد الله الكلابي: والي اليمامة والبحرين في خلافة هشام والوليد بن يزيد. ينظر الأعلام للزركلي: 7/ 310.

(4) ينظر الأغاني: 20/ 419، وقد أخل شعره المجموع بها.

(5) الجنيد بن عبد الرحمن بن عمرو بن الحارث المرّي الدّمشقي : أمير خراسـان، وأحد الشجعان الأجواد الممدوحين. ولّاه هشام بن عبد الملك سنة (111) هـ. فثبت في الولاية إلى أن مات في خراسان. ينظر تاريخ دمشق : 3/ 412، الأعلام : 2/ 140.

(6) ينظر شعره :250.

(7) ينظر شعر ابن ميّادة: 95-96.

(8) ينظر الديوان: 45.

(9) ينظر أنساب الأشراف: 12/ 111، والكامل لابن الأثير: 5/ 20. وقد خلا ديوانه المنشور منها.

(10) ينظر ديوانه: 81-84.

(11) الفتوح، لابن أعثم: 3/ 29، وقد أخل شعره المنشور بها.

ورثى الفضل بن العباس اللهبي الوليد بن عبد الملك (8) ثمانية أبيات[1]، ورثى الكميت بن زيد الأسدي معاوية بن هشام بن عبد الملك (7) سبعة أبيات [2].

ورثى أبو عطاء السندي، نصر بن سيّار (7) سبعة أبيات[3]، ورثى الحكم بن عبدل الأسدي، بشر بن مروان (7) سبعة أبيات[4]. ورثى نهار بن توسعة التميمي، المهلب بن أبي صفرة بستة أبيات[5].

ورثى أبو جلدة اليشكري، مسمع بن مالك بستة أبيات[6]. ورثى الأخطل، يزيد بن معاوية بأربعة أبيات[7]. ورثى أيمن بن خريم الأسدي، معاوية بن أبي سفيان بأربعة أبيات[8].

ورثى عبد الله بن الزبير الأسدي، عمرو بن العاص بثلاثة أبيات[9]. ورثى عبيد الله بن الحُر الجعفي، مسعود بن عمرو الأزدي[10]، بثلاثة أبيات[11].

ورثى القحيف العقيلي، الوليد بن يزيد ببيتين[12]، ورثى ابن هرمة، إبراهيم بن

---

(1) شعره: 50، جمع شعره وحققه: مهدي عبد الحسين النجم، مجلة البلاغ – بغداد، العدد الثامن، السنة الثالثة، 1396هـ – 1976م.

(2) ينظر ديوانه: 147.

(3) ينظر شعره: 283.

(4) ينظر شعره: 108.

(5) ينظر شعره: 96.

(6) ينظر شعراء أمويون: 4/ 348–349.

(7) ينظر ديوانه: 37.

(8) ينظر أنساب الأشراف: 5/ 163، تاريخ دمشق: 10/ 47، البداية والنهاية: 8/ 154–155، خزانة الأدب: 1/ 356.

(9) ينظر شعره: 79.

(10) مسعود بن عمرو الأزدي العتكي: زعيم من بني عتيك، من الأزد، كان رئيس الأزد وربيعة في البصرة، وهو الذي سهّل لأميرها (عبيد الله بن زياد) الهرب إلى الشام. وتولّى بعده إمارتها. ينظر الكامل لابن الأثير: 4/ 53 – 55، الأعلام: 7/ 219.

(11) ينظر شعراء أمويون: 1/ 113.

(12) ينظر معجم الشعراء: 190.

علي، الوليد بن يزيد ببيتين[1].

ورثى مسكين الدارمي، زياد بن أبيه ببيت واحد[2].

المجموعة الثانية، ممن ليس لهم دواوين منشورة:

وقد بلغت هذه المجموعة: (57) سبعةً وخمسين شاعراً، منهم (7) سبع شواعر، في حين خلت الدّواوين المنشورة من أية شاعرة، ويبلغ طول هذه القصائد والمقطّعات الرثائيّة ما بين اثنين وعشرين بيتاً، وبيتٍ واحدٍ. وفيما يأتي كشفٌ بأسماء الشعراء، والقادة الذين رثوهم، وعدد الأبيات .

فقد رثى حُمَيْد بن مسلم، عبد الرحمن بن مخنف بقصيدةٍ بلغت (22) اثنين وعشرين بيتاً[3]، ورثى كعب بن جعيل التغلبي، عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بأربع مقطوعات بلغت (19) تسعة عشر بيتاً[4]، ورثى أبو الشغب العبسي، خالد بن عبد الله القَسْرِي[5]، بقصيدةٍ بلغت (17) سبعة عشر بيتاً[6]، ورثى ذو الشامة، عبد العزيز بن مروان بقصيدةٍ بلغت (9) تسعة أبيات[7]، ورثى مسلمة بن عبد الملك[8]، بأربعة

---

(1) ينظر شعره: 215.

(2) ينظر ديوانه: 30.

(3) ينظر تاريخ الطبري: 5/ 48 – 49، وفيه: وتنسب أيضاً لسراقة البارقي.

(4) ينظر أنساب الأشراف: 10/ 210 – 211، تاريخ دمشق: 34/ 332 – 333.

(5) خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القَسْري، من بجيلة، أمير العراقين (الكوفة والبصرة) وأحد خطباء العرب وأجوادهم. ولي الكوفة للوليد بن عبد الملك سنة (89) هـ. ثمّ ولّاه هشام بن عبد الملك العراقين سنة(105)هـ، قتل على يد يوسف بن عمر الثقفي. ينظر الكامل لابن الأثير : 4/ 250، تاريخ دمشق: 5/ 67 – 68.

(6) ينظر الأخبار الطوال: 348، وتاريخ دمشق 16/ 163 .

(7) ينظر ولاة مصر للكندي: 77 .

(8) مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم: أمير قائد، من أبطال عصره، يلقّب بالجرادة الصفراء، له فتوحات مشهورة، مات بالشام سنة (120)هـ. ينظر تهذيب التهذيب:10/ 144، سير أعلام النبلاء: 5/ 241.

أبيات[1]، ورثى فضالة بن عبد الله الغنوي، قتيبة بن مسلم الباهلي بقصيدةٍ بلغت (9) تسعة أبيات[2]. ورثى يزيد بن معاوية بأربعة أبيات[3]. ورثى عبد الله بن عبد الأعلى، أيّوب بن سليمان بن عبد الملك، بستة أبيات[4]، وهشام بن عبد الملك، بأربعة أبيات[5]. ورثى مسلمة بن عبد الملك ببيتين اثنين[6]، ورثى الأصم بن الحجاج، قتيبة بن مسلم الباهلي بقصيدةٍ بلغت (12) اثني عشر بيتاً[7]، ورثى خليد عينين، المنذر بن الجارود العبدي[8]، بقصيدةٍ بلغت (12) اثني عشر بيتاً[9]، ورثى ابن عرّادة، عبد الله بن ناشرة اليربوعي. بقصيدةٍ بلغت (8) ثمانية أبيات[10]، ورثى يزيد بن معاوية بثلاثة أبيات[11]، ورثى خالد بن يزيد بن معاوية، جدّه وأباه بقصيدةٍ بلغت (11) أحد عشر بيتاً[12]، ورثت سلّامة القس، يزيد بن عبد الملك بمقطوعتين بلغتا (10) عشرة أبيات[13]، ورثى حمزة بن بيض الحنفي، مخلّد بن يزيد بن المهلّب بقصيدةٍ بلغت (8) ثمانية أبيات[14]. ....

(1) ينظر معجم الشعراء للمرزباني: 349.
(2) ينظر المصدر نفسه: 158 – 159.
(3) ينظر المصدر نفسه: 158، وفي تاريخ دمشق: 48/ 284، في رثاء معاوية بن أبي سفيان.
(4) ينظر أنساب الأشراف: 8/ 100، وتاريخ دمشق: 4/ 198.
(5) ينظر بغية الطلب: 9/ 3926، وتاريخ دمشق: 73/ 224 – 225.
(6) ينظر أنساب الأشراف: 8/ 363، وتاريخ دمشق : 73/ 226.
(7) ينظر تاريخ الطبري: 5/ 285.
(8) بشر بن عمرو بن خنيس العبدي، أمير من السادة الأجواد، ولّاه عبيد الله بن زياد ثغر الهند سنة (61) هـ. فمات فيها في نفس السنة. ينظر المعارف لابن قتيبة: 338، والإصابة : 6/ 209.
(9) ينظر تاريخ دمشق: 60/ 285 – 286.
(10) ينظر البيان والتبيين: 1/ 539، وأنساب الأشراف : 12/ 118.
(11) ينظر الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام: 2/ 141 .
(12) ينظر بغية الطلب: 7/ 3196، وتاريخ دمشق: 16/ 314 .
(13) ينظر الأغاني : 1/ 37 و8/ 361، وتاريخ الطبري: 5/ 374 – 375.
(14) ينظر تاريخ دمشق: 57/ 171.

ومحمد بن القاسم الثقفي[1]، ببيتين اثنين[2]. ورثى أبو قطيفة، خالد بن عقبة بن أبي معيط، سعيد بن عثمان ابن عفّان بثلاث مقطوعات بلغت (10) عشرة أبيات[3]، ورثى الجعد بن قيس، زياد بن أبيه بمقطوعتين بلغتا (9) تسعة أبيات[4]، ورثى أبو الجويرية، عيسى بن أوس بن عقبة، الجنيد بن عبد الرحمن المرّي[5] بـ (8) ثمانية أبيات[6]، ورثى عبد الرحمن بن جمانة الباهلي، قتيبة بن مسلم الباهلي بـ (8) ثمانية أبيات[7]، ورثى مروان بن الحكم، معاوية بن أبي سفيان بـ (7) سبعة أبيات[8]، ورثت أُخت عمرو بن سعيد الأشدق [9]، أخاها عمراً بـ (7) سبعة أبيات[10]. ورثى ابن عرس العبدي، أسد بن عبد الله القسْري[11]. بستة أبيات[12]، ورثى إسماعيل بن

---

(1) محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي، فاتح السند وواليها. من كبار القادة، ولّاه الحجاج ثغر السند أيام الوليد بن عبد الملك توفي نحو (98) هـ. ينظر فتوح البلدان: 441 – 446.

(2) ينظر الكامل في التاريخ لابن الأثير: 4/ 287، وفتوح البلدان: 1/ 428.

(3) ينظر الأغاني: 1/ 42، 2/ 247 – 248. الفتوح لابن أعثم: 2/ 31، تاريخ دمشق: 21– 226.

(4) ينظر تاريخ الطبري: 4/ 221.

(5) الجنيد بن عبد الرحمن بن عمرو بن الحارث المرّي الدّمشقي: أمير خراسـان، وأحد الشجعان الأجواد الممدوحين. ولّاه هشام بن عبد الملك سنة (111) هـ. فثبت في الولاية إلى أن مات في خراسان. ينظر تاريخ دمشق : 3/ 412، الأعلام: 2/ 140 .

(6) ينظر تاريخ دمشق: 11/ 324.

(7) ينظر تاريخ الطبري: 5/ 485، والكامل في التاريخ لابن الأثير: 4/ 298.

(8) ينظر تاريخ دمشق: 57/ 275.

(9) عمرو بن سعيد بن العاص بن أميّة بن عبد شمس الأموي القرشي، أمير من الخطباء البلغاء، كان والي مكّة والمدينة لمعاوية وابنه يزيد، لقّب بالأشدق لفصاحته. ينظر الإصابة: 4/ 526، الكامل لابن الأثير: 4/ 116 .

(10) ينظر سير أعلام النبلاء: 3/ 449 – 450.

(11) أسد بن عبد الله القُسّري البجلي، أمير من الأجواد الشجعان، ولد ونشأ بدمشق، ولّاه أخوه خالد ابن عبد الله خراسان سنة (108) هـ. فأقام فيها زمناً، توفي سنة (120) هـ. ينظر الكامل لابن الأثير: 5/ 79، وتاريخ الطبري: 8/ 247، والأعلام: 1/ 298 .

(12) ينظر تاريخ الطبري: 5/ 466، والبداية والنهاية: 9/ 356، وتاريخ دمشق: 8/ 320.

عمّار، عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بستة أبيات[1]، ورثى أبو حزّابة، الوليد بن حنيفة، طلحة الطلحات بستة أبيات[2]، ورثى سليمان بن أبان بن أبي جُدَير الأنصاري، عبد العزيز بن مروان بستة أبيات[3]، ورثى محارب بن كردوس السدوسي، عمر ابن عبد العزيز بستة أبيات[4]، ورثت صفيّة بنت عبد الملك، أباها عبد الملك ابن مروان بستة أبيات[5]، ورثى عباس بن أنس بن عبّاس السلمي، عبد الله بن خازم[6]، بستة أبيات[7]، ورثت أم كثير الحارثيّة زوجها المغيرة بن شُعبة[8]، بستة أبيات[9]، ورثى سوادة بن عبد الله السلولي، هبيرة بن مشمرج، بستة أبيات[10]، ورثى بشر بن الوليد بن عبد الملك، الوليد بن يزيد بستة أبيات[11]، ورثى سليمان بن قتّة التميمي، أسد بن عبد الله القسْري بخمسة أبيات[12]، ورثى

---

(1) ينظر الأغاني: 11/ 376.

(2) ينظر أنساب الأشراف: 12/ 250، والأغاني: 22/ 261 – 262.

(3) ينظر ولاة مصر للكندي: 78، وفي تاريخ دمشق: 43/ 554، منسوبةٌ لشاعر آخر اسمه عمر بن أبي الجدير العملاق.

(4) ينظر ذيل الأمالي والنوادر: 1، وأنساب الأشراف: 8/ 199، وفيه أن الشعر للجمحي.

(5) ينظر حماسة الظرفاء: 1/ 93.

(6) عبد الله بن خازم بن أسماء بن الصلت السلمي البصري، أمير خراسان. له صحبة، كان من أشجع الناس، ولي أمرة خراسان لبني أميّة، واستمرّ عشرة سنين، توفي (72) هـ. ينظر الأعلام: 4/ 84.

(7) ينظر معجم الشعراء للمرزباني: 103، وتاريخ دمشق 28/ 9.

(8) المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي، أحد دهاة العرب وقادتهم وولاتهم، صحابي يقال له: (مغيرة الرأي) توفي سنة (50) هـ. ينظر الكامل لابن الأثير: 3/ 182، والمحبر: 184.

(9) ينظر الأخبار الموفقيات : 474، وتاريخ دمشق : 60/ 58.

(10) ينظر تاريخ الطبري : 5/ 271.

(11) ينظر تاريخ دمشق: 10/ 230.

(12) ينظر تاريخ الطبري: 5/ 466 – 467، وتاريخ دمشق: 8/ 320.

الحارث بن عبد الأزدي، سفيان بن عوف [1]، بخمسة أبيات[2]، ورثى محمد ابن خالد بن الوليد، عمر بن عبد العزيز بخمسة أبيات[3]، ورثى عبد الله بن عمر ابن عبد العزيز، أخاه عاصم بن عمر بخمسة أبيات[4]، ورثى يحيى بن الحكم ابن أبي العاص، عمرو بن سعيد الأشدق بخمسة أبيات[5]، ورثت صفيّة الباهلية أخاها قتيبة بن مسلم الباهلي بخمسة أبيات[6]، ورثى عبد الله بن خازم، ابنه محمد بن عبد الله بن خازم بخمسة أبيات[7]، ورثى يحيى ابن أبي حفصة، عبد الملك بن مروان بخمسة أبيات[8]، ورثى (مِقْسَم) مولىً لبعض أهل المدينة، عمر بن عبد العزيز بأربعة أبيات[9]، ورثى أبو الدرداء العنبري، معاوية بن أبي سفيان بأربعة أبيات[10]، ورثى ذو العنق الجذامي، مصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزهري[11]

(1) سفيان بن عوف الأزدي الغامدي : قائد صحابي، من الشجعان الأبطال، كان مع أبي عبيدة بالشام حين افتتحت، وولّاه معاوية الصائفتين، ثمّ سيّره بجيش إلى بلاد الرّوم. ينظر الكامل لابن الأثير: 3/ 194، النجوم الزاهرة: 1/ 134.

(2) ينظر تاريخ دمشق: 11/ 454 .

(3) ينظر معجم الشعراء: 345.

(4) ينظر التعازي والمراثي: 61، والكامل في اللغة والأدب: 2/ 328، وتاريخ الطبري: 5/ 614، تاريخ دمشق: 25/ 274.

(5) ينظر أنساب الأشراف: 6/ 65، وتاريخ دمشق: 46/ 40 .

(6) ينظرحماسة أبي تمّام: 270.

(7) ينظرتاريخ دمشق: 28/ 8.

(8) ينظر تاريخ دمشق: 65/ 63 .

(9) ينظر حلية الأولياء: 5/ 321 – 322.

(10) ينظر أنساب الأشراف: 5/ 163، والبداية والنهاية: 8/ 154، وفيه أبو الورد العنبري، وتاريخ دمشق: 67/ 283، وفيه أبو الورد العنبري أيضاً.

(11) مصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزهري: من أشجع رجال عصره، اسـتعمله مروان بن الحكم (في زمن معاوية) على شرطة المدينة، كان من أشد الناس بطشاً، وأشجعهم قلباً. ينظر الكامل لابن الأثير: 4/ 49، وطبقات ابن سعد: 5/ 13.

بأربعة أبيات[1]، ورثى إبراهيم بن متمم بن نويرة، سعيد بن العاص بثلاثة أبيات[2]، ورثى أبو بكر بن أبي جهم بن حذيفة العدوي، عبد العزيز بن مروان بثلاثة أبيات[3]، ورثى خلف بن خليفة الباهلي، عاصم بن عمر بن عبد العزيز بثلاثة أبيات[4]، ورثى عبد الصمد بن المعذّل، عمرو بن سعيد الأشدق بثلاثة أبيات[5]، ورثى يحيى بن أكثم، عمرو بن سعيد الأشدق أيضاً بثلاثة أبيات[6]، ورثى الهيثم بن الأسود النخعي، مسعود بن عمرو الأزدي بثلاثة أبيات[7]. ورثى سليمان بن عبد الملك، ابنه أيوب بثلاثة أبيات[8]، ورثى الضّحاك ابن قيس، معاوية بن أبي سفيان، ببيتين اثنين[9]، ورثى أبو طلق، عدي ابن حنظله، عمر بن سعد بن أبي وقّاص[10] ببيتين اثنين[11]، ورثى عبيد الله بن أبي رافع، عمرو بن سعيد الأشدق بيتين اثنين[12]، ورثت ميسة بنت جابر زوجها حارثة بن بدر الغدّاني ببيتين اثنين[13]، ورثى بطحاء

(1) ينظر شعر الدّعوة: 231 .

(2) ينظر أنساب الأشراف: 6/ 48.

(3) ينظر المصدر نفسه: 6/ 335، وتاريخ دمشق: 9/ 170، وفيه: أن الأبيات منسوبة لعمر بن أبي الحديد .

(4) ينظر أنساب الأشراف: 9/ 260.

(5) ينظر زهر الآداب: 3/ 850.

(6) ينظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: 6/ 92 – 93.

(7) ينظر أنساب الأشراف: 6/ 10.

(8) ينظر المصدر نفسه: 8/ 116.

(9) ينظر الفتوح لابن أعثم: 2/ 71.

(10) عمر بن سعد بن أبي وقّاص الزهري المدني، أمير من القادة الشجعان، سيّره عبيد الله بن زياد على أربعة آلاف لقتال الدّيلم، توفي سنة (66)هـ. ينظر طبقات ابن سعد: 5/ 125، والكامل لابن الأثير: 4/ 21.

(11) ينظر أنساب الأشراف: 11/ 34 .

(12) ينظر تاريخ دمشق : 46/ 40 .

(13) ينظر الأغاني: 8/ 422.

العذري، معاوية بن أبي سفيان ببيتين اثنين[1]، ورثى الحسن بن أبي الحسن، عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ببيت واحـد[2]، ورثى عبد الله بن عبّاس، معاوية بن أبي سفيان ببيت واحد[3]، ورثت بنت رُقيقة[4]، معاوية بن أبي سفيان ببيت واحد[5].

أمّا الصنف الثالث من الشعراء، فهم غير معروفي الاسم، وقد كنّى عنهم أصحاب المصادر بأسماءٍ عدّة، كقولهم: قال أحدُ الشعراء ... أو أعرابي ... أو رجلٌ من كلب ... الخ. وسأُحاول جهدي أن أتتبع هذا الشعر وقائله الحقيقي ما استطعت. وأُثْبِت الباقي كما هو، مع أسماء المرثيين وعدد الأبيات.

وأوّل هذا الصنف، قولهم: لمجهول، في رثاء المنذر بن الجارود العبدي، في قصيدةٍ بلغت (12) اثني عشر بيتا[6]، وهي منسوبة في تاريخ دمشق لشاعرٍ اسمه خُليد عينين[7]، وقال أحد أهل الكوفة، يرثي مروان بن محمد بـ (7) سبعة أبيات[8]. وقال رجلٌ من سليم، يرثي عبد الله بن خازم السلمي بـ (7) سبعة أبيات[9]. ... وباكية، ترثي سليمان بن عبد الملك بستة أبيات[10]. وقال الشاعر، في رثاء عثمان بن عبد الله بن معمر خمسة أبيات[11]. ورجلٌ من كلب، يرثي

(1) ينظر المصدر نفسه: 17/ 212 – 213.
(2) ينظر العقد الفريد: 3/ 58 .
(3) ينظر التعازي والمراث : 130 .
(4) وفي التعازي والمراثي: ابنة قرظة، ينظر 130 .
(5) ينظر الأغاني: 17/ 213 .
(6) ينظر شعر الدّعوة: 230 .
(7) ينظر تاريخ دمشق: 60:/ 285 – 286 .
(8) ينظر الفتوح لابن أعثم: 3/ 344 .
(9) ينظر تاريخ الطبري: 5/ 22، وتاريخ دمشق : 28/ 9 .
(10) ينظر بغية الطلب: 9/ 4015، وتاريخ دمشق : 19/ 384.
(11) ينظر أنساب الأشراف: 10/ 153 .

عبد الملك بن الوليد بن عبد الملك بأربعة أبيات[1]. وأحد الشعراء، يرثي معاوية بن أبي سفيان بأربعة أبيات[2]. ورجُلٌ من وجوه الشام، يرثي معاوية ابن أبي سفيان بأربعة أبيات[3]. وقال الشاعر: يرثي يزيد بن المهلّب بثلاثة أبيات[4]. وقال الشاعر يبكي: سعيد بن عثمان بن عفّان بثلاثة أبيات[5]. وهي منسوبة في الأغاني لابن سيحان[6]. وقال رجلٌ من الشّام، يرثي عمر بن عبد العزيز بثلاثة أبيات[7]. والأبيات في تاريخ دمشق لابن عائشة[8]. وقال بعض الشعراء، في رثاء عمر بن عبد العزيز، بيتين[9]. والبيتان في أنساب الأشراف، والكامل في التاريخ، لكثيّر عزّة [10]. وراجزٌ يرثي أيّوب بن سليمان ببيتين[11]. وأعرابي من كلاب، يرثي عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ببيتين[12].

وأحد الشعراء يرثي عبد الملك بن مروان ببيتين[13]. وقال الشاعر يرثي: مروان ابن عبد الملك ببيتين[14]. وأعرابي، يرثي المغيرة بن شُعبة ببيتين[15].

---

(1) ينظر تاريخ دمشق: 37/ 179 .
(2) ينظر أمالي اليزيدي: 51 .
(3) ينظر الفتوح لابن أعثم: 2/ 75 .
(4) ينظر معجم البلدان: 5/ 111.
(5) ينظر تاريخ دمشق: 21/ 228 .
(6) ينظر الأغاني: 1/ 213 – 214.
(7) ينظر العقد الفريد: 3/ 46 .
(8) ينظر تاريخ دمشق: 45/ 263.
(9) ينظر تاريخ الطبري: 5/ 323 – 324.
(10) ينظر أنساب الأشراف: 8/ 199، والكامل في التاريخ لابن الأثير: 4/ 326.
(11) ينظر تاريخ الطبري: 5/ 303.
(12) ينظر حلية الأولياء: 5/ 306، والحماسة البصرية: 1/ 272، وفي المستطرف، عزّى رجُلٌ بعض الخلفاء بابنٍ له: 2/ 303 .
(13) ينظر أنساب الأشراف: 11/ 265 .
(14) ينظر تاريخ دمشق: 57/ 310 .
(15) ينظر مروج الذهب: 3/ 33.

وقال الشـاعر: لابن أبي جراب[1]، .... بيتين[2]. وهما في الأغاني لابن زياد المكّي[3]. وقال الشاعر: يرثي عبد العزيز بن مروان ببيت واحد[4]. وقيل فيه لمّا نُعِي: عتّاب بن ورقاء[5] بيت واحد[6]. ورجلٌ من عنزة، يرثي يزيد بن معاوية ببيت واحد[7]. وجارية للحجاج، ترثي الحجاج بن يوسف الثقفي، ببيت واحـد[8]. وسُمِع صوت يقول: عند وفاة سليمان بن عبد الملك، بيت واحد[9]. وقال الشاعر، يرثي معاوية بن يزيد بن معاوية، ببيت واحد[10]. والبيت في تاريخ دمشق للشاعر أزنم الفزاري[11].

نخلص مما تقدَّم إلى أنَّ نتاج الشعراء لم يكن متساوياً، لا من الناحية الكمية ولا الفنية، فمنهم مَنْ قال البيت أو البيتين، ومنهم من قال القصائد الطِوال. وكانوا على أصنافٍ متعددة، فمنهم أصحاب الدواوين المشهورة، ومنهم المغمور الذي أنطقته المناسبة، في حين بقي الكثير من الشعر بلا نسبة إلى شاعرٍ معين، إذ يُكتفى بالقول: قال الشاعر.. أو قال أعرابي.. إلى غير ذلك من التسميات. وكما كان

(1) محمد بن عبد الله، المعروف بأبي جراب العبلي، ينظر الأغاني: 1/ 213 .
(2) ينظر أنساب الأشراف: 9/ 384.
(3) ينظر الأغاني: 1/ 213- 214.
(4) ينظر أنساب الأشراف: 6/ 335.
(5) عتّاب بن ورقاء بن الحارث بن عمرو، أبو ورقاء الرياحي اليربوعي التميمي: قائد من الأبطال. ولّاه مصعب بن الزبير إمارة أصبهان، انتظم بعد ذلك في أُمراء جيش المهلّب، ثمّ انتدبه الحجّاج لقتال شبيب بن يزيد. ينظر الكامل لابن الأثير: 4/ 362، البداية والنهاية:9/ 17. ينظر الأغاني: 17/ 213.
(6) ينظر البيان والتبيين: 2/ 235 – 236.
(7) ينظر الإعلام بالحروب: 2/ 141.
(8) ينظر الأخبار الموفقيّات: 475.
(9) ينظر بغية الطلب: 6/ 2921، وتاريخ دمشق : 45/ 165.
(10) ينظر تاريخ الطبري: 4/ 384.
(11) ينظر تاريخ دمشق: 57/ 210.

للعلاقة على المستوى الشخصي والقبلي بين الشاعر والمرثي، أثرٌ في كمية الشعر

ونوعيته.

الفصـل الثانـي
تنوع المراثي واتجاهاتها في الشعر والنثر

- تمهيـد
- المبحث الأول: رثاء الشعراء للخلفاء
- المبحث الثاني: رثـاء الشـعراء للقـادة
- المبحث الثالث: رثاء الخلفاء للخلفاء والقادة
- المبحث الرابع: رثاء القادة للقـادة والخلفاء

تمهيـــد

لم يقتصر الرثاء على فئةٍ معينةٍ من الشعراء، عُرفوا وذاع صيتهم به، إنما كان مُلازِماً لكل الشعراء تقريباً؛ بل يمكننا القول: إنه وسيلةٌ يعبر بها كل إنسان عن خلجات نفسه وأحزانها حينما يمر بتجربة حزينة تفقده أحبّاءَه وأعزّاءَه. وقد تأخذ هذه العاطفة أشكالاً متعدّدة. فمنها ما ينظم شعراً، ومنها ما يقال نثراً، ومنها ما يُعبّر عنه مادّياً. وهم على ذلك أنواع. فمنهم من تجود قريحته بالقصائد الطوال ومنهم من يقول الأبيات القلائل، وأحياناً البيت الواحد، كلٌّ بحَسْبِ إمكانيته الشعريّة وعطائه الفنّي. ولا يخفى أنّ حدث الموت من المواقف الصعبة، التي كثيراً ما أخرست بعض الشعراء، فلم يستطيعوا حياله حِراكاً. وهذا ما يفسّر قلّة عطاء بعض الشعراء المشهورين في هذا المجال .

وبناءً على ذلك نجد أنّ رثاء الخلفاء والقادة ممن تنوع شعراؤه، فمنهم من قرض الشعر، وله فيه باعٌ طويل، ومنهم من أنطقته المناسبة فجاد بأبيات قلائل عبّر فيها عن ألمه وحزنه، ومن هؤلاء الشعراء خلفاء وقادة[1]. وعليه فقد قسّمت الشعراء على أربعة مباحث .

المبحث الأوّل: رثاء الشعراء للخلفاء، **والمبحث الثاني**: رثاء الشعراء للقادة، **والمبحث الثالث**: رثاء الخلفاء للخلفاء والقادة، **والمبحث الرابع**: رثاء القادة للقادة والخلفاء .

---

(1) من دواوين الخلفاء: ديوان معاوية بن أبي سفيان. وقد عدّه المرزباني في معجمه من الشعراء ينظر معجم الشعراء: **313**، وديوان يزيد بن معاوية، وديوان الوليد بن يزيد. أمّا من القادة فديوان نصر ابن سيّار، وديوان حارثة بن بدر الغدّاني، وثابت قطنة، ... وغيرهم.

ونتيجةً لتنوّع الشعراء بتنوّع مراكزهم القياديّة، فلا بُدّ أن يلقي ذلك بظلاله على الأجواء النفسيّة التي تحيط بهم، فرثاء الخليفة للخليفة يتطرّق إلى معانٍ وأفكار قد تختلف عن مثيلتها في رثاء القائد للقائد. وهذا نابعٌ من طبيعة المهام والواجبات الموكلة لكلٍ منهم. وهكذا في رثاء الشاعر للخليفة، والشاعر للقائد، مما سنلاحظه في دراستنا لهذا الفصل.

ولعلّ من المناسب في هذا المجال أن نناقش رأي بعض الباحثين المحدثين الذين حكموا على شعر الرثاء في العصر الأموي بالقلّة، بل وصموه بعدم الوفاء تارةً، والسعي إلى كسب المال والشهرة تارةً أُخرى. فقال أحدهم: إنما وجدناه من أشعار قليلة في الرثاء السياسي الأموي يأخذ اتجاهين: أحدهما رثاء الخلفاء، والآخر رثاء القوّاد والفرسان. وإنما يرجع تأخّر الرثاء كمّاً وكيفاً بين فنون الشعر للحزب الأموي، لأن الشعراء المعبّرين عن هذا الحزب، كانت كثرتهم من الشعراء الذين اجتذبهم عطاء بني أُميّة، وحرّكت ألسنتهم الرغبة فيما يصيبونه من مالهم وجاههم، والرثاء فنّ يقال بدافع الوفاء للمرثي، وبين الرجاء والوفاء بونٌ بعيد[1]. وقال باحثٌ آخر: «ومن بين هذه الفنون التي تراجعت، الرثاء، وهو موقفٌ سلبي يؤكده الواقع الأدبي الذي تعلن عنه دواوين كبار شعراء هذا العصر، وكأنّما شُغل هؤلاء الشعراء بالحياة والكفاح من أجلها، والسعي وراء أسباب الرزق فيها، والعمل على اكتساب الشهرة عن التفكير في قضيّة الموت والأموات التي لا تقدّم لهم شيئاً من أسباب الحياة والسعي من أجلها، أو كأنما جرفتهم تيّاراتها الصاخبة وشدّ أبصارهم إليها بريقها المتألّق عن الانسحاب إلى عالم الفناء في هدوئه وظلامه ووحشته»[2].

وعند مناقشة رأي الباحِثَيْن، تبين لنا اتفاقهما في سمة مشتركة ألا وهي: اعتمادهما في إطلاق الأحكام على قلّة الرثاء في الشعر الأموي، على عدد قليل

(1) ينظر اتجاهات الشعر في العصر الأموي، صلاح الدين الهادي : **156**.
(2) التيّار الإسلامي في القصيدة الأمويّة، د. مي يوسف خليف : **510**.

من المصادر التاريخية والأدبية لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة[1].

وهذا لا يستقيم دليلاً على ما ذهب إليه الباحثان، إذ إِنّ نظرة فاحصة إلى عدد الشعراء الذين رثوا الخلفاء والقادة، نجده يربو على المئة شاعرٍ وشاعرة[2]. وهذا دليلٌ على كثرة هذا الرثاء وشموله شريحة واسعة من الشعراء والشواعر، فضلاً عن وجود كثير من الأبيات لشعراء مشهورين خلت دواوينهم المنشورة منها – وهذا من الشعر الذي يدخل ضمن نطاق بحثنا – أمّا غيره فكثير. وتُزادُ إليه العوامل التي اعترت الشعر بعامّة من ضياع وتلف قد يكون متعمداً في بعض الأحيان؛ إذا ما علمنا أن أغلب هذه الأشعار قد دوّنت في عهد مناوئيهم العبّاسيين .

أمّا من حيث الدّوافع التي اتفق الباحثان على وصفها بالمادّية، والسعي لكسب الشهرة. فأقول: إنّ هذه أحد الأسباب وليس كلها، إذ إن النفس مجبولة على حبّ من أحسن إليها. ولكن لا نستطيع أن نفصل تلك العلاقة الحميمة والإعجاب الذي حمل بعض الشعراء – وهم على خلاف مذهبي مع بعض الخلفاء والقادة – على رثائهم وتأبينهم بأفضل الخصال والقيم الحميدة[3]. ثمّ إنّ من يسعى للشهرة، عليه أن يختار الزمان والمكان المناسب، وأظنّ جو الرثاء أبعد ما يكون عن ذلك .

وقبل الخوض في رثاء الشعراء للخلفاء والقادة، يحسُنُ بنا أن نأتي ولو بشكلٍ مختصر على تعريفٍ لأهم ألوان الرثاء[4]. التي درج الشعراء على تضمينها

(1) اعتمد الباحث الأوّل على ثلاثة مصادر تاريخية هي: تاريخ الطبري، ومروج الذهب للمسعودي والكامل لابن الأثير، أمّا المصادر الأدبيّة فهي: الكامل في اللغة والأدب، والعقد الفريد، ومسالك الأمصار، وديوان جرير والفرزدق، اللذين اعتمد عليهما أيضاً الباحث الثاني فقط.

(2) ينظر المبحث الثالث من الفصل الأوّل .

(3) ينظر مثلًا : رثاء أيمن بن خريم لمعاوية بن أبي سفيان، وهو المتشيع لآل البيت، ورثاء كثيّر عزّة لعمر بن عبد العزيز وهو شاعر الشيعة الكيسانية ... وغيرهم. ينظر تفاصيل أوفى عن مذاهب هؤلاء الشعراء في، اتجاهات الشعر في العصر الأموي : **84 – 85** و**129**.

(4) اصطلح الدكتور شوقي ضيف على تسميتها بهذا الاسم فقال : «والأُمة العربية من الأمم =

في قصائدهم. وبما أنّ الرثاء فنٌّ لا يقتصر على تأبين الميّت بذكر فضائله ومآثره في حياته فحسب، إذ يتعدّاه إلى النّدب والعزاء، فقد آثرت التحدّث عن هذه الأقسام الثلاثة، فضلاً عن العلاقة التي تربط النعي بالرثاء. ونبدأ بأوّل هذه الأقسام وهو:

النَّـــدب:

وهي لفظةٌ يكثر ذكرها في شعر الرثاء، وهو أن تدعو النادبة الميت بحسن الثناء في قولها وافلاناه! وا هناه! واسم ذلك الفعل الندبة، وندبُ الميّت، البُكاءُ عليه وتعداد محاسنه والثناء عليه شعراً ونثراً [1]. ويكون «النّواح والبكاء على الميّت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية، وتذيب العيون الجامدة، إذْ يولول النَّائحون والباكون ويصيحون ويعولون مسرفين في النحيب والنشيج وسكب الدموع»[2]. وقد بكى الشعراء موتاهم بدموعٍ غِزار، وأكبادٍ حِرار، لأنّ من شأن الرّثاء «أن يكون ظاهر التّفجّع بيّن الحسرة، مخلوطاً بالتلهّف والأسى والاستعظام إن كان الميت ملكاً أو رئيساً»[3].

التأبيـــن:

التأبين في الأصل: الثناء على الرجل حيّاً أو ميْتاً. وقيل لمادح الميت مؤبّن لاتّباعه آثار فِعاله وصنائعه[4]. ومع مرور الزمن «اقتُصِرَ استعماله على الموتى فقط. إذ كان من عادة العرب في الجاهلية أن يقِفوا على قبر الميت فيذكروا مناقبه ويُعدّدوا فضائله ويُشهِروا محامده»[5].

= التي تحتفظ بتراثٍ ضخم من المراثي، وهي تأخذ عندها ألواناً ثلاثة، هي الندب والتأبين والعزاء «الرثاء: 5».

(1) ينظر اللسان، مادّة (نَدَبَ): 1/ 753 – 754.

(2) الرثاء، شوقي ضيف: 12.

(3) العمدة لابن رشيق: 2/ 147.

(4) ينظر اللسان: مادّة (أبّن) 13/ 4–5.

(5) الرثاء، شوقي ضيف: 54.

والتأبين يختلف عن الندب، فهو ليس نواحاً، ولا نشيجاً، «بل هو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص، إذ يخرُّ نجمٌ لامعٌ من سماء المجتمع، فيُشيد به الشعراء منوّهين بمنزلته السياسية، أو العلمية، أو الأدبية، وكأنهم يريدون أن يصوّروا خسارة الناس فيه. ومن هنا كان التأبين ضرباً من التعاطف والتعاون الاجتماعي، فالشاعر فيه لا يعبر عن حزنه وإنما يعبر عن حزن الجماعة وما فقدته في هذا الفرد المهم من أفرادها، ولذلك يُسجّل فضائله ويلح في هذا التسجيل، وكأنه يريد أن يحفرها في ذاكرة التاريخ حفراً حتّى لاتنسى على مرّ الزمن»[1] .

العـــزاء:

العزاء في الأصل: الصبر، والتعزية: التصبير والحمل على الصبر، بذكر ما يسلّي المصاب ويخفف حزنه ويهوّن عليه مصيبته. والعزاء الصبر عن كل ما فقدت[2]. «ثمّ اقتصر استعماله في الصبر على كارثة الموت، وأن يرضى من فقد عزيزاً بما فاجأه به القدر، فتلك سُنَّة الكون، نولد ونمضي في الحياة سُعداء أو أشقياء، ثم نموت، وكأنَّ الناس راحلون وهم لا يفكون عُقَدَ رَحْلهم إلَّا في أَجداثهم، فهي قرارهم، وهي غايتهم التي ينتهون إليها، ولا مفرَّ لهم منها ولا خلاص، إذن فليقبلوا الحياة كما هي، ليقبلوها على أَنها دار زوال وانتقال، وليست دار بقاء واستمرار»[3]. فالموت كأسٌ كلُّ الناس شاربه، ومن لم يدركه اليوم سيدركه غداً لا محالة .

لقد وعى الشعراء هذه الحقيقة في رثائهم للخلفاء والقادة حين أدركوا «أن ثمرة الصبر الأجر، وثمرة الجزع الوزر، والتسليم لأمر الله عزّ وجلّ فائدة جليلة، وتجارة مربحة، فالموت حوضٌ مورود، وكأسٌ مشروب»[4] .

والعزاء واجبٌ شرعيٌ يُثابُ فاعله، إذ لا بد للمسلم من مشاركة إخوانه

(1) المصدر نفسه : 6 .
(2) ينظر اللسان مادّة (عزا) : 15/ 52 .
(3) ينظر الرثاء، شوقي ضيف : 86 .
(4) جمهرة خطب العرب : 3/ 120 .

في أفراحهم وأتراحهم، فقد جاء في الحديث الشريف: «ما من مؤمنٍ يُعزّي أخاه بمصيبةٍ إلاّ كساه الله سبحانه من حلل الكرامة يوم القيامة»[1]. وقد ورد في الأثر: «إن في الله عزاءً من كلِّ مصيبة، وخلفاً من كلِّ فائتْ»[2]. فمن يظهر الجزع وعدم الرضى بما كتبه الله عليه، فليس له إلّا السخط، كما ورد في الحديث: «عِظَمُ الجزاء مع عِظَم البلاء، وإن الله إذا أحبّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرّضى، ومن سخط فعليه السخط»[3].

النعـي وعلاقتـه بالرثـاء:

أصل النعي، الإشاعة، ثمّ تطوّر مجازاً إلى إشاعة خبر الموت وإشهاره[4]. فيقال: «نعى الميّت ينعاه نعياً إذا أذاع موته وأخبر به، وإذا ندبه»[5]. ومن هنا نجد ارتباط النّعي بالرثاء، إذ إنّ كلاهما يُعْنَيان بالميت. فالأُولى تختصّ بإعلان خبر الموت وإذاعته بين النّاس. والثانية تكمّل الأُولى بما تشمله من ندبٍ، وتأبينٍ، وعزاء، وقد يرافق النّعي في بعض الأحيان ذكرٌ لبعض مناقب الميّت بكلمات لا تتعدّى قولهم: مات فتى العرب ... مات أكرم الكرماء... [6].

وإذا كان موضوع الموت هو القاسم المشترك بينهما، فمهمّة كل منهما تختلف عن الأُخرى، فالنّاعي هو الآتي بخبر الموت، ويقال له نعيٌّ أيضاً، ويُقال نعاء فلان، أي إنعـهِ وأظهِر خبر موتـه بين النّاس [7]. وقد تكلّف بعض القبائل مـن يقوم بهذه المهمّةَ، فكانوا إذا مات منهم شريف أو قُتِلْ، بعثوا راكباً إلى القبائل

(1) سُنن ابن ماجه :1/ 511 .
(2) المستدرك للحاكم النيسابوري : 3/ 58، والسنن الكبرى للبيهقي : 4/ 60 .
(3) سنن ابن ماجة : 2/ 1338، وينظر سنن الترمذي : 4/ 27 .
(4) ينظر اللسان مادة (نَعَا) : 15/ 334.
(5) النّهاية في غريب الأثر : 5/ 84 .
(6) ينظر تاريخ دمشق : 36/ 286، ووفيات الأعيان : 6/ 268 .
(7) ينظر اللسان، مادة (نعا): 15/ 334 .

ينعاه إليهم، يقول: «نعاءِ فلاناً، أو يا نعاء، أي هلك فلان، أو هلكت العرب بموت فلان[1]. ويكون مع النّعي ضجيجٌ وبكاء. أمّا الراثي، فهو الذي يندب الميّت، ويؤبّنه بالخصال والقيم الحميدة، ويُعزّي أهله بمصابهم.

والنّعي من العادات الجاهليّة التي كانت تدعو للنّفار والحرب لأخذ الثّأر، فيُقال: تناعى بنو فلان في الحرب إذا نَعوا قتلاهم ليُحرّضوهم على القتل وطلب الثّأر [2]. ولعل ذلك من الأسباب الّتي دعت النّبي ﷺ إلى النّهي عن النّعي بقوله: «إيّاكم والنّعي، فإنّ النّعي من عمل الجاهليّة»[3]. والنّعي ليس ممنوعاً بمجمله، وإنّما نُهي عمّا كان أهل الجاهليّة يصنعونه. فإذا ما اقتصر على إذاعة خبر الموت بين الناس بقصد إعلامهم، لتهيئة أمره، والصّلاة عليه، والدّعاء له والاستغفار، وتنفيذ وصاياه[4]. فلا بأس، لِما أُثِر عن الرّسول ﷺ أنّه نَعى زيداً وجعفر قبل أن يجيء خبرهم، نعاهم وعيناه تذرفان، ونعى النّجاشي صاحب الحبشة في اليوم الذي مات فيه وقال: استغفِروا لأخيكم[5].

(1) النّهاية في غريب الأثر : **5/ 85**، وينظر الاذكار النوويّة : **154** .

(2) ينظر تاج العروس : **10/ 373** .

(3) الترمذي : **4/ 205** .

(4) نيل الأوطار للشوكاني : **4/ 96** .

(5) ينظر السنن الكبرى للبيهقي : **4/ 35** .

المبحث الأوّل

رثاء الشعراء للخلفاء

اهتمّ خلفاء بني أميّة بالأدب عامّة، وأولوا الشعراء عنايةً خاصّة، كونهم الوسيلة الإعلاميّة الأولى في المجتمع، والناطق الرسمي باسم السلطة. فأدنوهم من مجالسهم، وأغدقوا عليهم العطايا والهبات. وقد بلغ من اهتمامهم أن اشترطوا فيمن يستقبلونه من الشعراء أن يكون راوٍ للمراثي لأنّ فيها ذكراً لمعالي الأمور[1]. وقد حثّوا على الاهتمام به، فالخليفة معاوية بن أبي سفيان يقول: «اجعلوا الشعر أكبر همّكم وأكثر دأبكم»[2]. كما نعتوا الشعراء بأحسن الألفاظ، فعبد الملك بن مروان يصفهم بأهل الفضل والذكاء فيقول: «الشعر لا يقوله إلّا أَهل الفضل والذكاء، ولا يرتاح لسماعه إلّا الكرام»[3].

ومن الطبيعي أن يحفظ هؤلاء الشعراء لخلفائهم هذا الفضل، فنراهم يلهجون بذكرهم بعد موتهم، معددين مآثرهم وأفعالهم التي لا يدانيهم فيها أحد، فهم سياج الأُمّة، وحماة الدّين، والذّائدين عن حياضه بوجه الأعداء الطامعين. ومن هنا نجد أن علاقة كثير من الشعراء قد بلغت حدّاً من الحبّ جعلتهم يدينون لخلفائهم بالوفاء، فيرثونهم بعد موتهم بمراثٍ تفيض أساً ولوعة .

وكان على رأس تلك الفضائل والقيم التي بكاها الشعراء في خلفائهم،

---

(1) ينظر المحاسن والمساوئ للبيهقي: 34، والبيان والتبيين: 1/ 372، لأنها تدل على مكارم الأخلاق.

(2) العمدة لابن رشيق : 1/ 29.

(3) نثير فرائد الجمان : 194.

الشجاعة والإقدام، والكرم والعطاء، والصبر والأناة، والحلم، والورع، والتقوى، والعدل... إلى غيرها من القيم الأُخرى. كما أنّ رثاءهم لم يقتصر على ذكر الفضائل والقيم التي تعاور الشعراء على ذكرها، بل تعدّاه إلى النواحي السياسية والدّينية والاجتماعية والتاريخيّة، فمن الناحية السياسية نجد أنّ بعض الشعراء قد اتخذ من قصيدة الرثاء مناسبةً لإثبات أحقّية هذا الخليفة أو من سيخلفه بالخلافة، وأنّها حقّ سماوي اختاره الله للقيام به، بل إنّ بعضهم قد جعل الخليفة الذي يرثيه، وارثاً للنبوّة نفسها. وكأنّما أراد أن يعود بالخليفة إلى النبي عليه الصلاة والسلام، ليخلص من ذلك إلى أنّ الخلافة الأمويّة هي الميراث الشرعي للنبوّة .

وفي الناحية الاجتماعية صوّر الشعراء حال مجتمعهم وقد فقد خليفته، حتّى أنّهم أشركوا الجمادات في التعبير عن حُزْنِهَا، فهذه الشمس كاسفة، والجبال باكية، والنجوم تهوي لموته .

وقد أسهمت قصيدة الرثاء في توثيق الأحداث التاريخية التي وقعت أو تنبّأت ببعضها، فقد نجد ذكراً لليوم والشهر الذي توفي فيه الخليفة أو القائد، ثم ذكر الأماكن والبلدان التي دُفنوا فيها وتلك التي فُتحت في عهدهم، وكثيراً ما استشهد أصحاب المعجمات اللغويّة، ومعجمات البلدان بأبيات منها للدلالة على صحّة لفظة وفصاحتها، أو لتوثيق بعض المدن والأقاليم.

ومما ورد في ندب الشعراء للخلفاء، ما جاء في رثاء جرير للخليفة الوليد بن عبد الملك إذْ طلب من عينه أن تجود بالدّمع عليه، وخاطبها بِأنْ لا أَحَدَ بَعْدَ اليومِ أولى بالبكاءِ منه، فَلِمَنْ تَدَّخِرِيْنَ هَذَا الدّمع بَعْدَهُ؟ فقال[1]:

يَاعَيْـنُ جُـوْدِي بِدَمْعٍ هَاجَهُ الذِّكَرُ ... فَمَـا لِدَمْعِـكِ بَعْدَ اليَوْمِ مُدَّخَرُ

إِنَّ الخَلِيْفَـةَ قَـدْ وَارَى شَـمَائِلَهُ ... غَـبْـرَاءُ مَلْحُودَةٌ فِي جَوْلِهَا زُوَرُ

أَمْسَى بَنُوْهُ وَقَـدْ جَلَّتْ مُصِيْبَتَهُمْ ... مِثْلَ النُّجُوْمِ هَوَى مِنْ بَيْنِهَا القَمَرُ

---

(1) ديوانه : 296 – 297 .

وهذه صفيّة بنت عبد الملك تصوّر حُزنَها على أبيها، إذ أصابها الأرق فباتت تفيق على صوت كلّ نائحةٍ، لأنّها تُذكّرها مُصابَها، وبعد أن تستذكر صفاته، وأنّه سيّدٌ، صدوقٌ، شُجاعٌ مطاعٌ في ملكه، لا تستطيع أن تتمالك نفسها فتفيض دموعها على خدّها متدفّقةً كالسيل في المنحدَر، فتقول[1]:

أَرِقْتُ لِصَوْتِ نَائِحَةٍ بِلَيْلٍ ... عَلَى رَجُلٍ بِقَارِعَةِ الطَّرِيْقِ
صَدُوقٍ فِي المَوَاطِنِ غَيْرُ نَكْسٍ ... وَلاَ صَخْبُ المَقَامِ وَلاَ سَنِيْدِ
فَفَاضَتْ عِنْدَ ذَلِكُمْ دُمُوْعِي ... عَلَى خَدَّي كَمُنْحَدَرِ الغَرِيْدِ

وإذا كانت المرأة أشدَّ عاطفةً من الرجل، لا تستطيع أن تتمالك نفسها عند المصيبة، فقد نرى من الرجال من يبكي أيضاً، لكنّه يؤكد أن بُكاءه ليس عن ضعفٍ وَجَزَعْ، إنّما أراد أن يؤكّد عنصر الرجولة وما تتميز به من سيطرة على العواطف في المواقف المحزنة، ولا سيما وهو يحذّر قومه، ويتهدد القتلة بعقابٍ أليم، كما جاء في رثاء ابن ميادة للخليفة الوليد بن يزيد، ولا ينسى أن يُعدد محاسنه: فهو فتى قريش المرجّى لكلِّ نائبة، وأسمحها إذا ذُكِر أهل السّماح والكرم في الأوقات العصيبة. وكأنّه يريد القول: أفلا يستحقّ من تكون هذه شمائله أن يُبكى عليه. فيقول[2]:

أَلاَ لَهْفِي عَلَى المَلِكِ المُرَجّى ... غَدَاةَ أَصَابَهُ القَدَرُ المُتَاحُ
أَلاَ أَبْكِي الوَلِيْدَ فَتَى قُرَيْشٍ ... وَأَسْمَحَهَا إِذَا عُدَّ السَّمَاحُ
سَأَبْكِي مَا بَكَى جَزَعا ًوَشَوْقَاً ... حَمَامٌ عِنْدَ مَكَّةَ مُسْتَبَاحُ
حَذَارِ حَذَارِ أَنْ أُنجِي قْسِيّاً ... كَتَائِبَ لاَ يُمَيِّزُهَا الصَّبَاحُ

وقد يكون تصوير الحزن والبكاء بطريقةٍ غيرِ مباشرة، فلا يأتي معبّراً عن حقيقة الموقف وما يتطلّبه من عاطفة صادقةٍ حزينة ولا سيما إذا ارتبط من يَبْكي

(1) حماسة الظرفاء : 1/ 93 .

(2) شعر ابن ميّادة : 95-96، والقصيدة بروايةٍ أُخرى في تاريخ دمشق: 18/ 202، منها البيتان الثالث والرابع.

ومن يُبْكى عليه بصلة قُربى، كما في بُكاء بنات هشام بن عبد الملك لوالدهنّ، إذ صوّر لنا الوليد بن يزيد المشهد بطريقة تمثيلية تنمّ عن حالةٍ من التشفّي بموت هشام لأنه كان يريد خلعه من ولاية العهد وجعلها لابنه عبد العزيز، فقال[1]:

إِنِّي سَمِعْتُ بِلَيْلٍ وَرَاءَ المُصَلَّى بِرَنَّهْ
خَرَجْتُ أَسْحَبُ ذَيْلِي أَقُولُ مَا شَأْنُهُنَّهْ
إِذَا بَنَاتُ هِشَامٍ يَنْدُبْنَ وَالِدَهُنَّهْ
يَنْدُبْنَ قِرْماً جَلِيلاً قَدْ كَانَ يَقْصُدُهُنَّهْ
يَقُلْنَ وَيْلِي وَعُوَيْلِي وَالوَيْلُ حَلَّ بِهِنَّهْ

ومن جانبٍ آخر، تبيّن هذه المرثية أُسلوباً جديداً من أساليب النّدب، وهو الولولة والعويل.

ومن البواعث على البكاء، تذكّر الأماكن التي كان المرثي يرتادها، فالشجى يبعث الشجى والدموع، كما جاء في بكاء سلامة القس ليزيد بن الوليد، لأنّ من تبكيه سيّدٌ ماجِدٌ يهتمُّ برعيّته ولا يُضيّعها فتقول [2]:

قَدْ لَعَمْرِي بِتُّ كَأَخِي الدَّاءِ الوَجِيْعِ
وَنَجِيّ الهَمِّ مِنِّي بَاتَ أَدْنَى مِنْ ضَجِيْعِي
كُلَّمَا أَبْصَرْتُ رَبْعَاً خَالِيَاً فَاضَتْ دُمُوْعِي
قَدْ خَلاَ مِنْ سَيِّدٍ كَانَ لَنَا غَيْرَ مُضِيْعِ

وكما يكون التعبير عن الحزن مادّياً وذلك بالبكاء والطلب من العيون أن تذرف الدّموع، فقد يكون معنوياً، عندما يجعل الشاعر من الحيوانات والجمادات أحياءً تحسّ وتتألم وتبكي. كما جاء في رثاء حُمَيْد بن ثور الهلالي لعبد الملك بن

---

(1) ديوانه :84.

(2) الأغاني : 8/ 360، وينظر في المعنى نفسه، المصدر نفسه : 17/ 214، في رثاء بنت رقيقة لمعاوية ابن أبي سفيان، وأنساب الأشراف : 5/ 163، في رثاء أيمن بن خُرَيم لمعاوية بن أبي سفيان.

مروان حينما توعّد الشاعر الجبال وصخورها الصمّ، كيف لا تفصح وتبوح بما في صدرها من حزن، وكيف لا تتحدّر صخورها دمعاً أسفاً عليه. ثمّ تراجع قليلاً لِيُقِرَّ بحقيقةٍ واقِعة، وهي أن الجبال لا تبكي. لكنّها إذا ما بكت يوماً فإنّها ستبكي على الخليفة عبد الملك، وذلك لعِظَم المُصاب وجليل الرّزء. فيقول[1]:

وَيْـلُ الجِبَـالِ أَلاَ تَبُوحُ لِفَقْـدِهِ ... وَلِصَخْرِهِـنَّ الصُّمّ لاَ تَتَحَدَّرُ
إِنَّ الجِبَالَ وَلَـو بَكَيْنَ لِهَالِـكٍ ... يـوْمَـاً رَأَيْـتَ صِلاَبَهَا تُسْتَعْبَرُ

ولم تكن الجِبال وحدها تبكي، فقد شاركتها الأيّامُ والشّهور، حتّى الإِبِلُ الّتي كانت عصيّةً على القِيادْ أصبحَتْ تُقادُ بسُهولة لضعف حالها من فرط الحُزْن. ولم يكتَفِ الشاعر بذلك، إذ جَعَلَ النّجوم وهي خرساء لا تتكلّم، تنوح وتبكي على معاوية بن أبي سفيان، كما جاء في رثاء أبي الدّرداء العنبري له إذ يقول [2]:

أَلاَ أَنْعَـى مُعَاوِيَـةَ بْـنَ حَـرْبٍ ... نَعَـاهُ الحِلُّ وَالشَّـهْرُ الحـرَامِ
نَعَتْـهُ النَّاعِجَـاتُ لِكُـلِّ حَيٍّ ... خَـوَاضِـعُ فِي الأَزِمَّـةِ كَالسِّـهَامِ
فَهَاتِيْكَ النُّجُـوْمُ وَهُـنَّ خُـرْسٌ ... يَنُحْنَ عَلَـى مُـعَـاوِيَـةَ الشَّآمِـي

وتتكرر هذه الصور المُحْزِنة في رثاء جَرير للخليفة عُمر بن عبد العزيز، إذ نجد الشمس قد كُسِفَتْ، ونجوم الليل والقمر تبكي حُزْناً عليه. وكُسوف الشمس هنا مُبالغةٌ من قِبَلِ الشـّاعر يُريدُ أن يُصوّر بها عِظَم الخسارة التي حلّت بالمسلمين لفقده. فقد ورد في الحديث الشريف: «إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحدٍ ولا لحياته»[3]. ويُتابِع الشاعر مبالغاته ليجعل الخليفة عمر ابن عبد العزيز خير من حجّ بيت الله، متناسياً من اقتدى عمر بهُداه ﷺ. ولعلّه أراد من وصْف الخليفة بهذه الصور: أنّه أفضل أهل زمانه فقال[4]:

---

(1) منتهى الطلب من أشعار العرب: 7/ 393 – 394، وقد أخل بهما ديوانه المشور.

(2) أنساب الأشراف: 5/ 163.

(3) صحيح البخاري: 2/ 26، وصحيح مسلم: 3/ 27، وفيه لا ينخسفان لموت أحد.

(4) ديوانه: 304.

تَنْعَى النُّعَاةُ أَمِيْرَ المُؤمِنِيْـنَ لَنَا يَا خَيْرَ مَنْ حَجَّ بَيْتَ الله وَاعْتَمَـرَا
حُمِّلْتَ أَمْراً عَظِيْماً فَاصْطَبَرْتَ لَهُ وَقُـمْـتَ فِيْهِ بِـأَمْـرِ الله يَا عُمَـــرَا
فَالشَّمْسُ كَاسِفَةٌ لَيْسَـتْ بِطَالِعَة تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومُ اللَّيْلِ وَالقَمَـرَا

ولعلّ هذه المبالغة قد دفعت بعض الباحثين إلى القول: «إنّ شخصيّة عمر بن عبد العزيز وسياسته، كانت ثرّةً رحبةً في جوانب الحق والخير والعدل، بحيث لا تحوج القائل فيها إلى تزيّد أو مبالغة، فقد أبى بعض الشعراء إلّا أن يطبع شعره في رثاء هذا الخليفة بطابع شعر الأمويين بعامّة من حيث المبالغة والتهويل والادّعاء، حيث نجد هذه الظاهرة في شعر جرير الذي يرثي عمر بن عبد العزيز، مع أنّه واجِدٌ – مع أصالة فنّه وتوهّج موهِبَتِه – ومن واقع شخصيّة المرثي، وسياسته ما كان يُرضي فنّه، ويُبرز عبقريّته الشعرية دون حاجةٍ إلى التّردّي في هوّة المبالغة المرفوضة، والادّعاء الذي يُجافي الحقّ، والعقل، والدّين ؟!»[1].

وفي مقابلةٍ فنّيةٍ رائعة، امتزج الحزن فيها بالفرح، بين – ظهْر البلاد وبطنها– يُصوّر كثير عزّة، حُزن البلاد بسهولها وهضابها على موت الخليفة عمر بن عبد العزيز، في حين يستبشر بطنها بقدومه إليها، وتُشرق بالنور، بعد أن كانت حزينةً لأنّها لم تَنَلْ منه ومن عدله ما ناله ظهْرُها. فيقول[2]:

بَكَتِ الضَّوَاحِي وَاقْشَعَرَّتْ لِفَقْدِهِ بِحُزْنٍ عَلَيْهَا سَـهْلُهَا وَحَزُوْنُهَـا
فَكُلُّ بِـلَادٍ نَالَهَا عَـدْلُ حُكْمِـهِ شَدِيْدٌ إِلَيْهَا شَـوْقُهَا وَحَنِيْنُهَـا
فَلَمَّا بَكَتْهُ الصَّالِحَـاتِ بِعَدْلِه وَمَـا فَاتَهَا مِنْهُ، بَكَتْـهُ بُطُوْنُهَـا
وَلَمَّا اقْشَعَرَّتْ حِيْنَ وَلَّى وَأَيْقَنت لَقَدْ زَالَ مِنْهَا أُنْسُـهَا وَأَمِيْنُهَـا
وَقَالَتْ لَهُ أَهـلاً وَسهْلاً وَأَشْرَقَتْ بِنُورٍ لَـهُ مُسْتَشْرِفَاتٍ بُطُوْنُهَـا
فإن أشرقت منها بطون وأبشرت له إذْ ثَـوى فيهـا مُقيماً رهينهـا

(1) شرح ديوان جرير، محمد إسماعيل الصاوي، 304، وينظر إتجاهات الشعر في العصر الأموي، صلاح الدين الهادي : 160 .

(2) ديوانه : 177 – 179 .

وقـد زانـهـا زينـاً لـه وكرامـةً كما كان في ظهْرِ البِلادِ يَزِيْنُها
لقد ضمّنته حفـرةٌ طاب نشْرها وطـاب جنيناً ضمّنتـهُ جَنينها

وفي نماذج رثائية أُخرى، اتّجه الشعراء فيها نحو التخصيص في تحديد الأشياء التي أبدت حزنها وبُكاءها على فِراق من ألِفها. فلم نعُد نجد في بعضها ذِكراً للعموميات كالجبال والسهول والشمس والقمر والنجوم، إذ بدأنا نسمع ذكر المواقع التي كان الخليفة كثير الترداد عليها، وفجأة حال الموت بينه وبينها ومنها: المنابر، كما جاء في رثاء يحيى بن أبي حفصة لعبد الملك بن مروان، حينما أنشد ابنه الوليد قصيدةً -هنّأه فيها بالخلافة وعزّاه بأبيه – إذ اعتادت هذه المنابر أن يعتليها الخليفة يصول ويجول عليها. وَصِفَةُ الخطابة والفصاحة مقترنة عند العربي بالشجاعة والرّجولة، لذلك كانت العرب تقدّم من يتصف بالشجاعة وطلاقة اللسان، وتندب للحوادث ذا الجرأة والبيان، لكنها لم تكف عن البكاء، إلّا عندما اعتلاها الوليد فسكنت وسكتت، ولو أنّ غيره حاول امتطاءها لأنكرته وطرحته أرضاً. فقال[1]:

بَكَتِ المَنابِرُ يَوْمَ مَاتَ وَإِنَّمَا بَكَتِ المَنَابِرُ فَقْدَ فَارِسِهُنَّهْ
لَمَّا عَلَاهُنَّ الوَلِيْدُ خَلِيْفَةً قُلْنَ ابْنُهُ وَنَظِيْرُهُ فَسَكَنَّهْ
لَوْ غَيْرُهُ قَرَعَ المَنَابِرَ بَعْدَهُ لنَكِرْنَهُ فَطَرَحْنَهُ عَنْهُنَّهْ

ومن عادة الشُعراء الدعاء لقبر الميّت بالسُّقْيا، لكنّ ابن عرّاده أرادها سُقْيا من نوعٍ آخر، إذ جعل الغيمة التي تُظَلّل قبر يزيد بن معاوية لا تنفكّ تأتي وتروح تبكي عليه فقال[2]:

وَمُزْنَةٍ تَبْكِي عَلَى نَشَوَاتِهِ بِالصُّبْحِ تَقْعُدُ تَارَةً وَتَقُومُ

ولبيان مدى الخسارة التي لحقت بالأُمّة جرَّاء موت هؤلاء الخلفاء فقد أَبَّنَهُم

---

(1) تاريخ دمشق: 65/ 63.
(2) الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام: 2/ 141.

الشعراء بالفضائل الموروثة، من شجاعة، وكرم، وحلم، وصدق، ووفاء، وعفّة ... إلى غيرها من القيم والفضائل التي اعتاد الشعراء أن يؤبّنوا موتاهم بها. لكنهم زادوا إليها قيماً جديدةً مستوحاة من عقيدتهم «يتّضح ذلك من تأبين الخلفاء، إذ كانوا أصحاب الدّولة الإسلاميّة والقائمين على نشر تعاليمها، واحترام سُننها في الجزيرة العربية وخارج الجزيرة. فطبيعي أن يفكر الشاعر أوّل ما يفكر حين يلم برثائهم في الدولة من بعدهم، وما سلكوه في حكمهم من عدل، وما أخذوا به أنفسهم من طاعة الله ورسوله والعمل بدعوته. فهم خُلفاؤه وهم أُمناؤه على المسلمين»[1].

ومن هذه القيم التي رثى الشعراء موتاهم بها: الشجاعة والكرم، والحلم، والعدل، والعفة، والصدق، والسيادة، والشرف وحماية الجار وإغاثة الملهوف، وحسن سياسة الرعية والاهتمام بشؤونها إلى غير ذلك من القيم ... وتتصدّر قيمة الشجاعة باقي القيم، لأنها تأتي متضمنة مجموعة من الفضائل والقيم، متقدّمة على غيرها، محتويةً لكلِّ ما يجله العربي من صفات، الكرم، والحلم، والصبر. وهي تمثل ذروة هذه المناقب التي تكتسب خصوصيتها من اقترانها بها. فالكرم قوّة في السلم، كما الشجاعة قوّة في الحرب. وهي بَعْدُ من القيم الخُلقيّة، والفضائل الكريمة التي تخلّق بها العربي منذ جاهليّته ونشأ على حبها وتعلّمها، إذ كان للعوامل الاقتصادية ودواعي الأخذ بالثأر، أكبر الأثر في تنميتها والإشادة بها. وهي شجاعةٌ فيها قوّةٌ وتحدٍّ للموت. ولكن لا تخلو من إنسانيّة وإنصاف للأعداء ووفاء للوعد[2] .

لكن هذه الشجاعة قد اكتست ثوباً إسلاميّاً جديداً، فلم تعُد لأخذ الثأر أو للإغارة على الغير بقصد السلب والنهب فقط، إنما برزت هذه القيمة في الفتوحات الإسلامية كعامل له أهميته في نشر دين الإسلام، والذَّود عن ديار المسلمين. ناهيك عما يتطلّبه منصب ولاة الأمر من اتصاف بهذه الخصلة الحميدة. فقد نصّ الماوردي على وجوب توافر الشجاعة فيمن يتصدّى لأمر المسلمين لأنّها المؤدّية

---

(1) الرثاء، د. شوقي ضيف : 56 .

(2) ينظر الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي : 314 .

إلى حماية البيضة، وجهاد العدو. وجعلها شرطاً فقال: لا تنعقد ولايةٌ لجبان[1].

وهناك أمورٌ متعدّدة يجب أن تتوافر فيمن يتّصف بالشجاعة، منها: الكرم والحلم والحكمة وثبات الإرادة. وأشجع الناس الذي يصمد طويلاً ولا يلقي بنفسه إلى التهلكة، وقد أوضح هذا الأمر، أبو هلال العسكري بقوله: «ليس الشجاعة أن يحمل الرجل نفسه على الهلكة، إنما ذلك هوج، والشجاعة أن يتقدّم، وغالب ظنّه أن يظفر، فأمّا إذا علم أنّه إذا أقدم هلك، ثم أقدم، فإن ذلك جنون، لأن كل أحدٍ يقدر أن يقدم على الهلكة فيهلك، وإنما الشأن في أن يُحمد غب أقدامه»[2]. وقد سأل عمرو بن العاص، معاوية بن أبي سفيان: والله لا أدري يا أمير المؤمنين، أشجاعٌ أنت أم جبان؟ فأجابه معاوية قائلاً[3]:

شُجَاعٌ إِذَا أَمْكَنَتْنِي فُرْصَةٌ ... وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لِي فُرْصَةٌ فَجَبَانُ

وإذا كانت الشجاعة في نظر البعض مقتصرةً على الضرب بالسيف والإغارة على العدو، والكر والفر في ميدان القتال، فقد يصدق ذلك في بعض المواطن وعلى بعض أُولي الشأن، كالقادة في سوح الوغى. وهذا ما سنلحظه في المبحث الثاني من هذا الفصل عندما نتطرّق إلى رثاء الشعراء للقادة. لكن الشجاعة في رثاء الخلفاء قد تتسع دائرتها لتشمل مفاهيم أعمّ: كقوّة المُلْك وهيبته في نظر الرّعيّة، ونفاذ البصيرة، حتى ليغدو الخليفة معقلاً يُلجأ إليه في الشدائد، وسوراً منيعاً تُحمى بِهِ الثغور. كما جاء في رثاء حُمَيْد بن ثور للخليفة عبد الملك بن مروان، فقال[4]:

يَابْنَ الخَلِيْفَةِ ثُمَّ أَنْتَ خَلِيْفَةٌ ... وَخَلِيْفَةٌ مَا أَنْتَ إِذْ تَتَخَيَّرُ

بَحْرَانِ تَنْتَسِبُ البُحُوْرُ إِلَيْهِمَا ... لاَ بَحْرَ بَعْدَهُمَا يُهَارُ وَيُغْمَرُ

أَنْتُمْ أَسِدَّةُ كُلِّ ثَغْرٍ خَائِفٍ ... وَخَلاَئِفُ اللهِ الَّتِي نَتَخَيَّرُ

---

(1) الأحكام السلطانية للماوردي : 17 .

(2) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري : 1/ 112 .

(3) العقد الفريد : 1/ 64 .

(4) منتهى الطلب من أشعار العرب : 7/ 393 .

وكثيراً ما تقترن صفة الشجاعة بالكرم، إذ «إنّ السَّخاء أخو الشجاعة، وهما في أكثر الأمور موجودان في ذوي بعد الهمّة والإقدام والصولة»[1]، فعبد الملك وابنه كالبحر في سعة كرمهما وكثرة معروفهما، ثم إنهما بشجاعتهما وبأسهما يسدّان كل ثغرٍ ويحميانه ويمنعانه من كل عدو، وقد يتأتى ذلك من حسن سياستهما في اختيار القادة، وسداد الرأي ونفاذ البصيرة .

ثمّ تتكرر الصورة، لكنّها في هذه المرّة صورة الموت وهو ينتقي ضحاياه بعناية، فأي فتىً لاقى في طريقه! إنّه السيد الشريف، المدافع عن قومه، والمقدّم في اللسان واليد عند الخصومة والقتال، والكريم الذي لا يضنّ بماله عند الشدائد، جاء ذلك في رثاء أحد الشعراء للخليفة معاوية بن أبي سفيان فقال[2]:

مُعَاوِيُ إِنْ تَلْقَ الَّـذِي كُنْتَ لاَقِيَا ... وَتُمْـسِ بِكَ الدُّنْيَا مَضَتْ فَتَوَلَّتِ
فَـأَيُّ فَتَىً لاَقَـتْ شُـعُوبٌ وَمُـدْرِهٍ ... وَأَيُّ كَرِيْـمٍ فِـي قَلِيْبِـكَ دَلَّـتِ[3]

وممن شُهر بشجاعته وكرمه، الخليفة الوليد بن يزيد، كما جاء في رثاء ابن ميادة له إذ يصفه بفتى قريش، وأجودها إذا ما عُدّ أهل الجود، وهو جودٌ مقترنٌ بالحاجة، هذه الحاجة التي تجعل الإبل ذوات الألبان تضنّ بلبنها، وقد أشار أبو هلال العسكري إلى هذا النوع من الكرم عند العرب فقال: «وأفضلُ الكرم عندهم ما كان مع الحاجة»[4] .ثم ينتقل الشاعر إلى بيان شجاعته، فيصفه بالأسد العفير، الذي لا يحتمي بشيء يقيه طعن الرماح. وإذا ما علمنا أن التوقي من الموت بلبس الجنّة[5] في الحرب أمرٌ واقعي لا يغيب عن بال أشجع الشجعان؛ أدركنا

---

(1) صبح الأعشى في صناعة الإنشا : 2/ 15 .
(2) أمالي اليزيدي : 51 .
(3) مدره القوم، هو المدافع عنهم، والمدره الشريف، سمي بذلك لأنه يقوى على الأمور ويهجم عليها، والمدره المقدم في اللسان واليد عند الخصومة والقتال. لسان العرب، مادة (دَرَهَ) :13/ 448، وتاج العروس : 9/ 386 .
(4) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري : 1/ 107 .
(5) الجُنّة : هي الدرع أو ما يحمي صدر الفارس من سهام الموت .

شجاعة الوليد الذي بقي حاسراً يواجه السهام بمنكبيه. فيقول[1]:

أَلاَ أَبْكِي الوَلِيْدَ فَتَى قُرَيْشٍ وَأَسْمَحَهَا إِذَا عُدَّ السِمَاحُ
وَأَجْبَرِهَا لِذِي عَظْمٍ مَهِيْضٍ إِذَا ضَنَّتْ بِدُرَّتِهَا اللِقَاحُ
لَقَدْ فَعَلَتْ بَنُو مَرْوَانَ فِعْلاً وَأَمْراً مَا يَسُوغُ بِهِ القُرَاحُ
فَظَلَّ كَأَنَّهُ أَسَدٌ عَقِيْرٌ يُكَسَّرُ فِي مَنَاكِبِهِ الرِّمَاحُ

وقد يأخذ الكرم صوراً أُخرى لا تكون بالضرورة إطعام الطعام فقط. إذ إنّ إعمار البلاد وما يوفّره ذلك من رزقٍ للعباد، صورةٌ أُخرى جسّدها الفرزدق في رثائه للخليفة سليمان بن عبد الملك. فهو بهذا العمل أغنى طلاب المعروف وصان ألسنتهم عن المسألة، ولشدّة تدفّق هذا الجود، استحقّ ثناء الناس، إذ كانوا يتبركون به ويسمّونه مفتاح الخير[2]. فقال الفرزدق[3]:

أَغْنَى العُفَاةَ بِنَائِلٍ مُتَدَفِّقٍ مَلأَ البِلاَدَ دَوَافِعاً فَأَسَالَهَا

وهذا ما حدى بعويف القوافي إلى تعظيم حق هذا الخليفة على رعيته لما يسّره لهم من سبل الخير والعيش الرّغيد، فاستحق كل منْكرٍ لهذا المعروف صفتي العقوق والجحود، فيقول[4]:

قَبْرُ امْرِئٍ عَظَّمَ رَبِّي حَقَّهْ
قَبْرُ سُلَيْمَانَ الَّذِي مَنْ عَقَّهْ
وَجَحَدَ الخَيْرَ الَّذِي بَقَّهْ
فِي المُسْلِمِيْنَ جلّه وَدقَّهْ
فَارَقَ فِي الجُحُوْدِ مِنْهُ صِدْقَهْ

وممن أكثر الشعراء تأبينه بالخصال الحميدة والفضائل الكريمة الخليفة

(1) الأغاني : 2/ 306 – 307، وتاريخ دمشق : 18/ 202 .
(2) ينظر وفيات الأعيان : 2/ 420.
(3) ديوانه : 2/ 83 .
(4) شعراء أمويون : 3/ 149 .

عمر بن عبد العزيز، إذ رثاه كثيّر عزّة بقصيدة بلغت ثلاثين بيتاً، ضمنها الكثير من المآثر لهذا الخليفة العادل، ولنا في إجابته عن سؤالٍ لزوجه فاطمة، خير دليلٍ على سياسته في الحكم. فقد دخلت عليه في مصلّاه وإذ بدموعه تسيل على لحيته، فقالت: «يا أمير المؤمنين ألشيء حدث؟ قال: يا فاطمة إنّي تقلّدت من أمر أمّة محمد ﷺ أسودها وأحمرها، فتفكّرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعلمت أن ربي سائلي عنهم يوم القيامة، فخشيت أن لا تثبت لي حجّة فبكيت»[1]. وفي الجانب العملي، لا يفتأ يُذكّر ولاتَه بالعدل، كما جاء في وصيته لبعض ولاته بعد أن شكى له خراب مدينته وأراد أن يقطع له مالاً فكتب إليه: «إذا قرأت كتابي هذا فحصّنها بالعدل ونقّ طرقها من الظلم فإنه مرمتها والسلام»[2]. وفي وصية أخرى لأحد قادته بعد أن استأذنه بإصلاح رعيته بالسيف والصوت فأجابه: «بل يصلحهم العدل والحق فابسط ذلك فيهم»[3]. والأمثلة على عدله أكثر من أن تحصى. مما حدى بالشعراء أن يتمثّلوا تلك الصّفة وغيرها في تأبينه، ومنهم كثيّر عزّة إذ استلهم أبرز المعاني التي وردت في إجابة الخليفة عمر بن عبد العزيز لزوجه فاطمة، فهو ناصرٌ المظلوم، وسند الفقير الجائع، والأرملة مع أطفالها، الذين استبدَّ الجوع بهم ولا مأوى لهم، فيقول [4]:

لَقَدْ كُنْتَ لِلْمَظْلُوْمِ عِـزّاً وَنَاصِراً ... إِذَا مَا تَعْيَـا فِي الأُمُـورِ حُصُونُهَا
كَمَا كَـانَ حِصْناً لاَ يُـرَامُ مُمَنَّعـاً ... بِأَشْـبَالِ أُسْـدٍ لاَ يُـرَامُ عَرِيْنُهَـا

(1) تاريخ الخلفاء للسيوطي : 236 .

(2) ينظر سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي : 131، والمستطرف في كل فن مستظرف : 1/ 228 .

(3) تاريخ الخلفاء : 242 .

(4) ديوانه : 177 – 179، وينظر المصدر نفسه : 179، والتعازي والمراثي : 63، وأخبار القضاة: 3/ 33 .

وَلِيْتَ فَمَا شَانَتْكَ فِيْنَا وِلاَيَـةٌ ... وَلاَ أَنْـتَ فِيْهَـا كُنْتَ مِمَّنْ يَشِيْنُهَا
فَعَفَّتْ عَنِ الأَمْـوَالِ نَفْسُكَ رَغْبَةً ... وَأَكْـرِمْ بِنَفْـسٍ عِنْدَ ذَاكَ تَصُونُهَا
وَعَطَّلْتَهَا مِنْ بَعْدَ ذَلِـكَ كَالَّـذِي ... نَهَى نَفْسَهُ إِنْ خَالَفَتْهُ يُهِينُهـا
كَدَحْتَ لَهَا كَـدْحَ امرِئٍ مُتَحَرِّجٍ ... قَدْ أَيْقَنَ أَنَّ اللهَ سَـوْفَ يَدِيْنُهـا
فَعِشْتَ حَمِيْداً فِي البَرِيَّةِ مُقْسِطاً ... تُـؤَدِّي إِلَيْهَـا حَقَّهَا مَا تَخُوْنُهَـا
وَمُـتَّ فَقِيْداً فَهْيَ تَبْكِي بِعَوْلَـةٍ ... عَلَيْكَ وَحُـزْنٍ مَـا تَجِفُّ عُيُوْنُهَا
إِذَا مَا بَـدَا شَجْواً حَمَامٌ مُغَرِّداً ... عَلَى أَثْلَةٍ خَضْـرَاءَ دَانٍ غُصُوْنُهَـا
بَكَتْ عُمَرَ الخَيْرَاتِ عَيْنِي بِعَبْرَةٍ ... عَلَى إِثْرِ أُخْـرَى تَسْتَهِلُّ شُؤُوْنُهَـا
تَـذَكَّـرْتُ أَيَّامـاً خَلَـتْ وَلَيَالِيـاً ... بِهَا الأَمْنُ فِيْهَا العَدْلُ كَانَتْ تَكُوْنُهَا
فَـإِنْ تُصْبِـحِ الدُّنْيَا تَغَيَّرَ صَفْوُهَا ... فَحَالَتْ وَأَمْسَتْ وَهْيَ غَثٌّ سَمِيْنِهَا
فَقَدْ غَنِيَـتْ إِذْ كُنْـتَ فِيْهَا رَخِيَّةً ... وَلَكِنَّهَـا قِدْمـاً كَثِيْـرٌ فُنُوْنُهَـا
فَلَو كَانَ ذَاقَ المَوْتُ غَيْرُكَ لَمْ تَجِدْ ... سَخِيّاً بِهَا-مَاعِشْتَ فِيْهَا- يَمُوْنُهَا
فَمَنْ لِليَتَامَى وَالمَسَـاكِيْنِ بَعْدَهُ ... وَأَرْمَـلَـةٍ بَـاتَتَ شَـدِيْداً أَنِيْنُهـا
وَلَيْسَ بِهَا سُقْمٌ سِوَى الجُوعِ لَمْ تَجِدْ ... عَلَى جُوعِهاَ مِنْ بَعْدِهَا مَنْ يُعِينُهَـا
وَكُنْتَ لَهَا غَيْثـاً مَرِيْعاً وَمَرْتَعاً ... كَمَا فِي غِمَـارِ البَحْرِ أَمْـرَعَ نُوْنُهَا
فَـإِنْ كَـانَ لِلدُّنْيَا زَوَالٌ وَأَهْلِهَـا ... - لِعَدْلٍ إِذَا وَلَّى- فَقَدْ حَـانَ حِيْنُهَا
أَقَامَتْ لَكُمْ دُنْيَا وَزَالَ رَخَاؤُهَـا ... فَلاَ خَيْرَ فِي دُنْيَا إِذَا زَالَ لِيْنُهَـا

لقد كان الخليفة عمر بن عبد العزيز خليقاً بهذه الصفة، فهو القائل: «لو أقمت فيكم خمسين عاماً ما استكملت فيكم العدل»[1]. وقد ذهب بعضُ الشعراء إلى تشبيه حكمه وعدله، بحكم وعدل الخلفاء الراشدين، مما حدى بسفيان الثوري أن يعدَّه منهم[2]، لِما أحياه من سُنَنٍ دُرِسَتْ، فعمّ عدلُهُ البريّة أجمع. يقول محارب بن

(1) تاريخ الخلفاء للسيوطي: 235 .

(2) ينظر سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي: 91– 92، وتاريخ الخلفاء للسيوطي: 228 .

دثار[1]:

تُقَسِّطُ بَيْنَهُـمْ حُكْماً وَعَـدْلاً ... بِـهِ حَكَمَ الـوُلاَةُ الأَوَّلُوْنَـا

أَمِيْـرَ المُؤْمِنِيْـنَ جُزِيتَ خَيْراً ... فَلَنْ نَنْسَـاكَ آخِـرَ مَا بَقِيْنَـا

لأَنَّـكَ بِالرَّعِيَّـةِ كُنْتَ رَأْفـاً ... وَعَـدْلاً فِـي البَرِيَّـةِ أَجْمَعينَا

وَكَـمْ مِـنْ سُنَّةٍ دَرَسَـتْ وَحُكْمٍ ... رَفَعْـتَ لَـهُ مَنَاراً مُسْتَبِيْنـا

وإذا كانت صفة العدل ملازمةً لسيرة الخليفة عمر بن عبد العزيز، فضلاً عن اتصافه بالفضائل الأخرى، فإن صفة الحلم كانت الأبرز في سلوك الخليفة معاوية بن أبي سفيان، مع رعيّته، إذ أكثر الشعراء من وصفه بها. وقد قيل: «دُهاة العرب أربعة: معاويـة، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شـعبة، وزياد، فأمّا معاويـة فللحلم والأناة...»[2]. وقال قُبيصة بن جابر: «صَحِبْتُ معاوية فما رأيت رجُلًا أثقل حلماً ولا أبطأ جهلاً ولا أبعد أناةً منهُ»[3]. وسُئِلَ الأحنف بن قيس يوماً؟ «من أحلم، أنت أم معاوية؟ فقال: تالله ما رأيت أجهل منكم، إن معاوية يقْدر فيحلُم، وأنا أحلم ولا أقدر، فكيف أُقاسُ عليه أو أُدانيه»[4]. وقول الأحنف: يقدر ولا أقدر أي يحكم ولا أحكم. إذ إنّ العرب لم تجد صفة أعز من صفة الحلم لذوي السلطان «وما نحسَبُها غالت قطُّ بمحمدةٍ من محامد الرئاسة مغالاتها بالحلم وقرينُهُ «الحكمة» وربّما مدحوا الكرم والشجاعة فأكثروا في مديحهما إكثارهم في القول المُعاد من قِبَلِ تحصيل الحاصل. فأمّا الحلم فقد كانوا يُغالون في الثناء عليه، لأنّه محمدةٌ يُغلِّبونها في الرؤساء، ولا تجري مجرى الصفات المبذولة لسائر المتّصفين»[5]. ومن كانت هذه صفاتُهُ وشمائله، وجب على الشُعراء أن يؤبّنوه بها. فالأحوص

---

(1) أخبار القضاة : 3/ 33 .

(2) تاريخ الخلفاء : 203 .

(3) المصدر نفسه : 204 .

(4) ينظر العقد الفريد : 2/ 34.

(5) معاوية بن أبي سفيان، عباس محمود العقاد : 53 .

الأنصاري يرى فيه القاضي العادل، الذي يتأنّى في إصدار أحكامه، ولو وُزِنَ بِحلمِهِ الجِبالُ لَرَجَحَ أو زاد عليها. وهو لذلك ثابتٌ متأصّلٌ، حتّى لا يُظَنّ لمُلْكِهِ عنه تحويلُ. ولم يأتِ هذا الثبات من فراغ، فهو الذي كان حريصاً على التحبب إلى النّاس. وقد سُئِلَ يوماً: «أي الناس أحبُّ إليك؟ قال: أشدُّهم تحبباً إلى النّاس»[1]. يقول الأحوص[2]:

يَقْضِي فَلاَ خَرِقٌ وَلاَ مُتَتَعْتِعٌ ... لِغَبَاوَةٍ فِي القَوْلِ حِيْنَ يَقُولُ[3]

لَوْ أَنَّهُ وُزِنَ الجِبَالُ بِحِلْمِهِ ... لَوَفَّى بِهَا ثِقْلاَنَهَا وَتَمِيلُ

مُتَأَثِّلٌ {...} يُظَنُّ لِمُلْكِهِ ... عَنْهُ وَلاَ لِسُرُوْرِهِ تَحْوِيلُ

ولِعِظَم حِلْمه، قال عنه عبد الله بن عباس حينما نعي له: «لله درُّ ابن هندٍ! ما كان أجمل وجهه، وأكرم خلْقه، وأعظم حلمه»[4]. وكثيراً ما ضُرِبَتْ بِحِلْمِ معاويَةَ الأمثال، فقد قيل: ... قتله حِلْمُ معاوية[5].

وليس معنى الحلم تجرُّدُ الطبع من الشعور بالغضب، إذ الحزم مطلوبٌ في بعض الأحيان، وهو حزمٌ محكومٌ بإرادةٍ قويّة، ثابتةٍ، أمينة، تكبح جماح النفس وتوقفها عند حدّها، عند ذاك تكون أحكامها سديدةً ومتأنية غير متسرّعة، تظهر آثارها الإيجابية في الرعية محبّةً ورضىً. جاء ذلك في رثاء عبد الله بن همام السلولي لمعاوية بن أبي سفيان، وهو يخاطب بني حرب قائلاً[6]:

---

(1) ينظر أُسد الغابة لابن الأثير: 5/ 247، ومعاوية بن أبي سفيان لعباس محمود العقاد: 52 .

(2) ديوانه: 220، وقد رجّح محقق الديوان أن سياق الكلام في البيت الثالث يقتضي وضع حرف نفي «قد لا» مكان الخرم .

(3) الخَرِقُ : المُتحيّر المدهوش ، المتتعتع: الذي يعي في الكلام .

(4) الأغاني: 17/ 214 .

(5) وهو إشارةٌ إلى قصّة تُروى، أن رجلًا شتم معاوية، فأعرض عنه ولم يُجبه، فكرر ذلك الرجل فِعلته مع رجُلٍ آخَر لم يحتمله فضربَهُ فقتلـه. فلما سمع معاويـة بالخبر قال: قتله حِلْمُ معاوية. وللمستزيد، ينظر: معاوية بن أبي سفيان، عباس محمود العقاد: 52 – 78 .

(6) شعره: 188–189، ومقطّعات مراثٍ لابن الأعرابي : 83–84، مع بعض الاختلاف.

لَقَدْ وَارَى قُلَيْبُكُمُ بَياناً وَحَزْماً لاَ كِفَاءَ لَهُ وُجُودَا
وَجَدْنَاهُ بَغِيْضاً فِي الأَعَادِي حَبِيْباً فِي رَعِيّتِهِ حَمِيْدَا
أَمِيْنَاً مُؤْمِناً لَمْ يَقْضِ أَمْراً فَيُوجَدُ غِبُّهُ إلا رشِيْدا
فَقَدْ أَضْحَى العَدوُّ رَخِيَّ بَال وَقَدْ أَضْحَى التَّقِيُّ بِهِ عَمِيْدَا[1]

وقد سُئِلَ معاوية يوماً، «هل ذممت عاقِبَةَ حِلمٍ قطْ، أم حمدْتَ عاقِبَةَ إقدامٍ قط؟ قال: ما حلمت عن لئيم وإن كان ولياً إلاّ أعقبني ندماً، ولا أقدَمْتُ على كريم وإن كان عدوّاً إلاّ أعقبني أسفاً»[2]. ويقول عنه صاحب الفخري في الآداب السلطانية: كان معاوية عاقلاً في دنياه لبيباً عالماً حليماً، ملكاً، قوياً جيد السياسة، حسن التدبير لأُمور الدنيا، حكيماً فصيحاً، بليغاً، يحلم في موضع الحلم، ويشتد في موضع الشدة، إلاَّ إن الحلم كان أغلب عليه[3]، وهو الذي أكد هذه الخلة الكريمة في نفسه، فقال[4]:

إِذَا لَمْ أَجُدْ بِالحِلْمِ مِنِّي عَلَيْكُم فَمَنْ ذَا الَّذي بَعْدِي يُؤَمَّلُ لِلحِلْمِ

وفي كرمه وشجاعته، يقول عبد الله بن الزبير وقد نُعِي له: «رحم الله معاوية، إن كنّا لنخدعه فيتخادع لنا، وما ابن أُنثى بأكرم منه، وإن كنّا لنعرفه يتفارق[5] لنا، وما الليث المجرب بأجرأ منه»[6] .

أَمَّا في العزاء، فيحاول الشاعر التطرُّقَ إلى المعاني التي تخفف من وقع المصاب على أهل الفقيد، وقد يأخذ طرقاً وألواناً متعددة تبعاً لطبيعة الشاعر،

---

(1) العميد، وهو المريض الذي لا يستطيع أن يثبت على المكان حتى يُعمد من جوانبه لطول اعتماده في القيام عليها. اللسان، مادة (عمد): 3/ 303.
(2) الجوهر النفيس في سياسة الرئيس: 80.
(3) ينظر الفخري في الآداب السلطانية: 104 – 106.
(4) العمدة: 1/ 35، الدر الفريد وبيت القصيد: م2، الورقة:42، صبح الاعشى: 1/ 308.
(5) يتفارق: يتظاهر بالفرق وهو الحزن.
(6) الأغاني: 17/ 214، وينظر تاريخ دمشق: 59/ 185.

وقدراته الفنّية، ومزاجه الشخصي، وتأثّره بالموقف وعلاقته بصاحب المصيبة، وهذا ما لمسناه في رثاء الشعراء للخلفاء، إذ نجد من الشعراء من يقوم بين يدي الخليفة الجديد يُعزّيه بأبيه، ويُهنّئه بما آل إليه من خلافة الله، وطاعة أهل الأرض[1]. جاء ذلك في معرض تعزية عبد الله بن همام السلولي ليزيد بن معاوية بأبيه وتهنئته بالخلافة. إذ حثّه على الصبر من جهة، والشكر على ما أعطاه الله من الملك من جهةٍ أُخرى، فما أصيب به لا يمكن أن توازيه مصيبة – والشاعر هنا لا أظنّه يقصد التعبير بمطلقه – لأن أعظم مصيبة هي فقد الرسول ﷺ. لقوله: «إذا أصابَ أحدكم مصيبةً، فليذكر مصيبته بي، فإنها من أعظم المصائب»[2]. وإنما أراد الشاعر من عظم المصيبة في زمنه، لإردافه بالقول: ولا عقبى كعقباكا. فجنح إلى التخصيص لا التعميم فقال[3]:

إِصْبِرْ يَزِيْدُ فَقَدْ فَـارَقْـتَ ذَا ثِقَـةٍ ... وَاشْكُرْ عَطَاءَ الَّذِي بِالمُلْكِ أَصْفَاكَا

أَصْبَحْتَ لاَ رزءَ فِي الأَقْـوَامِ نَعْلَمُهُ ... كَمَا رُزِئْـتَ وَلاَ عُقْبَى كَعُقْبَاكَـا

أُعْطِيْتَ طَاعَةَ أَهْلِ الأَرْضِ كُلِّهِمُ ... فَـأَنْـتَ تَـرْعَـاهُـمْ وَاللهُ يَرْعَاكَـا

وَفِـي مُعَاوِيَـةَ البَاقِي لَنَا خَلَفٌ ... إِذَا فُقِدْتَ وَلاَ نَسْمَعْ بِمَنْعَاكَا[4]

وقد ذهب الشاعر أبعد من تعزية يزيد وتهنئته، إذ حدد خليفته من بعده وهو ابنه معاوية. وفي مرثيّةٍ أُخرى يخاطب بني حرب، طالباً منهم التسلّح بالصبر، فمن ذا الذي يرجو الخلود في هذه الدّنيا إذ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[5]. ويعود ابن همّام

---

(1) أطلق النويري على هذا النوع من الرثاء اسم (شواذ التهاني) وهو الجمع بين التهنئة والتعزية ينظر: نهاية الأرب : **5/ 163**، فيما أسماه ابن حجّة الحموي، «بالافتنان» وهو «أن يتفنن الشاعر فيأتي بفنين متضادّين من فنون الشعر العربي». خزانة الأدب : **1/ 138** .

(2) سنن الدارمي : **1/ 40**، ومجمع الزوائد للهيثمي : **3/ 2** .

(3) شعره: **203–204**، وفي أنساب الأشراف : **5/ 163**، ويعدُّ عبد الله بن همام السلولي أوّل من فتق هذا الموضوع في الرثاء.

(4) المقصود به ، معاوية بن يزيد بن أبي سفيان ، ويكنى بأبي ليلى .

(5) سورة الرحمن، الآية : **26**.

السلولي إلى تأكيد المعاني التي عزّى فيها يزيد بن معاوية، وكأنّه يريد أن يقول لبني حرب: لاتجزعوا فإنّ في عَقِبِ معاوية ما يُسَلّيكم عن مصيبتكم ويخففها عنكم، فاليوم يزيد وغداً ابنه معاوية، فيقول[1]:

تَـعَـزُّوا يَـا بَنِـيْ حَـرْبٍ بِصَبْـرٍ فَمَـنْ هـذَا الَّـذِي يَرْجُو الخُلُوْدَا
تَلَقَّاهَـا يَـزِيْـدُ عَـنْ أَبِـيْـهِ فَخُذْهَـا يَا مُـعَـاوِيُ عَـنْ يَزِيْـدَا

وحذا بعض الشعراء حذو عبد الله بن همام السلولي، ومنهم حُمَيْد بن ثور الهلالي حينما هنّأ الوليد بن عبد الملك بالخلافة، وعزّاه بموت والده، بقصيدةٍ طويلةٍ صوّر الشاعر فيها رحلته وما واجهه من مشاق إلى أنْ وصل إليه، وكلّه أملٌ أنْ لا يخيب رجاؤه فيه. وكان عزاؤه للوليد، تذكيره بأنّ من تحين ساعته، لا يمكن لأحدٍ أن يمنعه أو يؤخره عنها. فهي مُطالبَةٌ بتنفيذ ما أُمرت به. قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ [2]. يقول حُمَيْد[3]:

نَضَعُ الـزِّيَـارَةَ حَيْثُ لاَ يُـزْرِي بِنـَا شرَفُ المُلُوكِ وَلاَ يَخِيْبُ الـزُّوَّرُ
يَابْنَ الخَلِيْفَـةِ ثُـمَّ أَنْـتَ خَلِيْفَـة وَخَلِيْفَـةٌ مـاَ أَنْـتَ إِذْ تَتَخَيَّـرُ
إِنَّ المَنِيَّةَ حِيْنَ أُرْسِـلَ سَهْمُهَا لأَبِيْ الوَلِيْدِ قَدْ أَنْفَذَتْ مَا تُؤْمَرُ[4]

ونستطيع أن نلمح بوضوح أثر التكسّبية التي دَفعت الشاعر على قطع الفلوات وتحمّل المشاق إلى أن وصل إلى الخليفة الجَديد وكلُّه أمل أن لا يخيْبَ رجاؤهُ في نوالهِ وعطائه .

ومن الأساليب الجديدة في التأسي والعزاء، تذكير أهل الفقيد بمنزلته الجديدة في الجنّة، إذ إنها أشرف المنازل، جاء ذلك في خطبة غيلان بن مسلمة الثقفي التي ألقاها بعد وفاة الخليفة عبد الملك بن مروان، فهنّأه فيها وعزّاه بموت

(1) أنساب الأشراف : 5/ 304 .
(2) سورة الأعراف، الآية : 34 .
(3) منتهى الطلب في أشعار العرب : 7/ 393 .
(4) أبو الوليد هو : عبد الملك بن مروان .

والده، وحثّه على الصبر فقال: «يا أمير المؤمنين أصبحت قد رزئت خير الآباء، وسُمِّيتَ خير الأسماء، وأُعطيتَ أفضل الأشياء، فعظّمَ الله لك على الرزية الصبر، وأعطاك في ذلك نوافل الأجر، وأعانك على حُسن الولاية والشكر، ثم قضى عبد الملك بخير القضيّة، وأنزله بأشرف المنازل المرضيّة وأعانك من بعده على الرّعية»(1).

والمنيّةُ حين تأتي لا تضع في اعتبارها أحد، فلا فرق لديها بين عِلْيَةِ القومِ وبين عامّتهِم، بين من يلبَسُ دِرعَهُ وبين من يمشي حاسِراً، وإذا كانَ لذلك اعتبار – وهذا مُحال – لكانَ الخليفةُ أولى النّاس بالإفلات من قبضَتِها، كما جَاءَ في رثاء يحيى بن أبي حفصة لعبد الملك بن مروان قائلاً(2):

إِنَّ المَنَايَا لاَ تُغَادِرُ وَاحِداً ... يَمْشِي بِبِزَّتِهِ وَلاَ ذَا جِنَّهْ
لَوْ كَانَ خَلْقٌ مُفْلَتاً ... كَانَ الخَلِيْفَةُ مُفْلِتاً مِنْهُنّهْ

ومن الشُعراء من تَوجّه بالعزاء إلى نفسه، فبعد أن بكت صفيّة بنت عبد الملك أباها بدموعٍ غِزار، خلصت إلى نتيجة مفادها: أنّ الخلود في هذه الدّنيا مُحال، ولو كان خلود الإنسان تَبَعٌ لشَرَفه وحسبه ونسبه، لكان نصيب والدها من ذلك وافراً. لكن الموت لا يضع في اعتباره من هذا شيء. فتقول(3):

فَلَو خَلَدَ امرُؤٌ لِقَدِيْمِ مَجدٍ ... وَلَكِنْ لاَ سَبِيْلَ إِلَى الخُلودِ
لَكَانَ مُخَلّداً أُخْرى اللَّيَالِي ... لِفَضْلِ المَجْدِ والحَسَبِ التّليدِ

وتمنّى بعض الشَعراء لو يستطيع دفع الموت عن الخليفة، لكنّه لا يلبث أن يرجع إلى قناعةٍ راسخة، أنَّ الأقدار غالبة ولا مجال لمعاكستها أو صدّها. جاء ذلك في رثاء محارب بن دثار للخليفة عمر بن عبد العزيز بقوله(4):

(1) جمهرة خطب العرب : 2/ 265 .
(2) تاريخ دمشق : 65/ 63 .
(3) حماسة الظرفاء : 1/ 93 .
(4) البداية والنهاية : 9/ 237، وفي أنساب الأشراف : 15/ 199، منسوبة للجمحي برواية أخرى.

لَو كُنْتُ أَمْلِكُ وَالأَقْـــدَارُ غَالِبَةٌ   تَأْتِــي رَوَاحــاً وَتِبْيَانــاً وَتَبْتَكِرُ
صَرَفْتُ عَنْ عُمَرِ الخَيْراتِ مَصْرَعَـهُ   بِدَيْرِ سَـمْعَانَ لَكِنْ يَغْلِبُ القَـدَرُ

ومن الشعراء من كان عزاؤه كلّه مواساة، وفلسفة للموت والحياة، وتذكيراً برحلة الآخرة، وتمجيداً للصابر على الموت، ومواصلة المسيرة حتى يحين الحين، ويأتي القضاء. كما أنهم عمدوا إلى ذكر من هلك من الملوك والأقوام للتّعزّي بهم عن الموت، وبيان أن داعيه لا يقلع عن المطالبة بهم، وكأنّ الزّمان ليس له عملٌ إلاّ ملاحقتهم والقضاء عليهم. ويريدون بذلك أنَّ الموت الذي اخترم أولئك الأقوياء هو الذي اخترم هؤلاء القادة، وهو الذي يخترم الناس جميعاً، وهذا ما كان شائعاً في أشعار الجاهليين كما قال ابن رشيق القيرواني «وكان من عادة القدماء أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك، والأعزة، والأمم السالفة»[1]. جاء ذلك في رثاء محمد بن خالد بن عقبة للخليفة عمر بن عبد العزيز، إذ يسأل فيه عن مصير هؤلاء الملوك وما قد جمعوا من أموال، ثم يعود ليقرر أننا سنؤول إلى هذا المصير جميعاً، فيقول[2]:

أَيْـنَ المُلُوكُ وَعَيْشُهُمْ فِيْمَا مَضَى   وَزَمَانُهُمْ فِيْـهِ وَمَـا قَـدْ جَمَعُـوا
ذَهَبُوْا وَنَحْنُ عَلى طَرِيقَةِ مَنْ مَضَى   مِنْهُمْ فَمَفْجُوْعٌ بِــهِ وَمُفَجَّـعُ

ومن الباحثين من جعل للتعزية معنىً ثانٍ، وذلك بأن يقوم الشعراء بتحويلِ التعزية إلى بكاء على الفقيد والإشادة به ... وكأنّهم يُداوون القرح بالقرح، فهم يبكون ويسترجعون حتى تسكن فورة الدُّموع وثورة النّواح والأنين، وكأنّ الشاعر يقول: إِنَّ الناس فِداءُ هذه الخلال، وليس بينهم إلاّ من يَفْدي الرّاحل الكريم[3]. ولعمري كيف تكون التّعزيةُ بُكاءً؟ إذ إن أولى مهام التّعزية، حثُ أهل الفقيد على الصّبر وعدم البُكاء والنّواح، فإذا ما بكى الإنسان وناح حتّى جفّت دموعه، فما

(1) العمدة لابن رشيق : 2/ 150 .
(2) معجم الشعراء للمرزباني : 345.
(3) ينظر الرثاء، شوقي ضيف : 90 .

فائدة العزاء حينها!؟ – اللهمَّ إلاّ إذا كانَ البُكاءُ بِقَدَرْ – فقد ورد عن الرسول ﷺ قوله بعد وفاة ولـده إبراهيم: «تَدمعُ العين، ويحزَنُ القلب، ولا نقولُ إلا ما يُرضِي ربّنا عزّ وجل»[1] .

أستطيعُ الاطمئنان إلى هذا الاستنتاج اعتماداً على ما مضى من نصوصٍ شعريّة وردت في التعزية، لم أقف في أيّ منها ولو على لفظة بُكاء أو دموع واحدة، خلا بعض القصائد التي مرّت بأساليب الرثاء الثلاثة النّدب والتأبين والعزاء، إذ كان البُكاءُ فيها مقدمةً يخلُصُ الشاعر منها إلى العزاء .

وقد وردت لفظة النّعي في رثاء الشّعراء للخلفاء، وذلك بصيغة الإخبار، في خمسة مواضع فقط، قطع الشّاعر أبو الدّرداء العنبري في أحَدِها عهداً على نفسه أن ينعي الخليفة معاوية بن أبي سُفيان، كيف لا ينعيه وقد نعته الأشهر الحِلُّ والحُرُمُ، حتّى الإبل نعته في كلّ حي، وعلامة نعيِها، خضُوعُها وذِلّتُها وسهولة قيادها، بعد أن كانت عصيَّةً على القياد. فقال[2]:

أَلاَ أَنْعَـي مُعَاوِيَةَ بْـنَ حَـرْبٍ نَـعَـاهُ الحِلُّ وَالشَّـهْر الحـرامِ
نَعَتْهُ الـنَّـاعِجَـاتُ لِكُـلِّ حَـيٍّ خَـوَاضِـعُ فِي الأَزِمَّـةِ كَالسِّهَامِ

وهذا جرير، ما إن سمع بوفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز من أفواه النّعاة حتّى ارتسمت صورته في ذهنه – صورةُ الرّجلِ العادل، القائم بأمر الله في رعيّته – خير من حجّ بيت الله واعتمر، لأنّه حمل أمانة عظيمة فصبر لها وقام بأدائها على أتّم وجه. وقول جرير يوحي بأنّ الذي أخبر عن وفاته مجموعة من النّعاة، يقول[3]:

تَنْعَى النُّعَاةُ أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْـنَ لَنَا يَا خَيْرَ مَنْ حَـجَّ بَيْتَ اللهِ وَاعْتَمَرَا
حُمِّلْتَ أَمْراً عَظِيْماً فَاصْطَبَرْتَ لَهُ وَقُمْـتَ فَيْهِ بِـأَمْـرِ اللهِ يَا عُمَـرَا

---

(1) مسند أحمد : 3/ 194، وينظر المستدرك للحاكم النيسابوري : 4/ 40 .

(2) أنساب الأشراف : 5/ 163، وفي البداية والنهاية :8/ 154، أبو الورد العنبري.

(3) ديوانه : 304 .

ويأتي ذكر النعاة بصيغة الجمع، ليُبين عموم المُصيبة وشمولها جميع الأُمة، وهو ما عبَّر عنه كثيّر عزّة بقوله: [1]

جَلَّتْ رَزِيْئَتُهُ فَعَمَّ مُصَابُهُ فَالنَّاسُ فِيْهِ كُلُّهُمْ مَأْجُوْرُ
وَالنَّاسُ مَأْتَمَهُمْ عَلَيْهِ وَاحِدٌ فِيْ كُلِّ دَارٍ رَنَّةٌ وَزَفِيْرُ
عَمَّتْ مُصِيْبَتُهُ فَصَارَتْ أُسْوَةً لِلنَّاس كُلِّهم فَلَيْسَ صَبُوْرُ

وتكثر أصوات النّعاة لهذا الخليفة العادل، فهذا كثيّر عزّة، يُعْلِن صراحةً بعد أن سمِع نعي النّعاة، أسفه على موته، لا لشيء دنيوي، بل لغياب الدّين والعدل، الذي اختطّه الخليفة منهجاً في حياته فقال [2]:

أَقُوْلُ لَمَّا نَعَى النَّاعُوْنَ لِي عُمَراً لاَ يَبْعُدَنَّ قِوَامُ العَدْلِ وَالدِّيْنِ
قَدْ غَادَرَ القَوْمُ بِاللَّحْدِ الَّذِي لَحَدُوا بِدَيْرِ سَمْعَانَ قِسْطَاسُ المَوَازِيْنِ

ويؤكّد محارب بن دثار السدوسي، المعنى نفسه في مرثيّةٍ أُخرى، بعد أن أتاه نعي الخليفة من دمشق، فبكاه للدين والدنيا معاً. فقال[3]:

أَتَانَا مِنْ دِمَشْقَ لَهُ نَعِيٌّ فَلَمَّا أَنْ أَنَاخَ بِنَا دُعِيْنَا
وَأَسْمَعَنَا المُنَادِي مِنْ بَعِيْدٍ سِرَاعاً رَاغِبِيْنَ وَرَاهِبِيْنَا
نُبَكِّي الدِّيْنَ وَالدُّنْيَا جَمِيْعاً لِخَمْسٍ كُنَّ مِنْ رَجَبٍ بَقِيْنَا

أمّا عبد الله بن همام السلولي فلا يريد أن يسمع بنعي يزيد بن معاوية، لأنّ هذا الصوت يذكّره بالموت، فيقول[4]:

وَفِي مُعَاوِيَةَ البَاقِي لَنَا خَلَفٌ إِذَا فُقِدْتَ وَلاَ نَسْمَعْ بِمَنْعَاكَا

ويتجاوز الشاعِر هنا حدث الموت، لِيُنظِّر لِما بعده. إذ حدَّد من سيخلف

---

(1) ديوانه : 529.

(2) ديوانه : 538 .

(3) أخبار القضاة :3/ 33 .

(4) شعره: 204.

يزيد ابن معاوية في حالة موته، وهو ابنه معاوية بن يزيد.

وخلاصة القول: إنَّ رثاء الشعراء للخلفاء قد مرَّ بألوان الرثاء الثلاثة، الندب والتأبين والعزاء، إذ جاء بكاءهم على نوعين: مادي ومعنوي، فالمادي كالبكاء وذرف الدموع، والمعنوي كبكاء مظاهر الطبيعة بجمادها وحيوانها، وركَّزوا في تأبينهم على الصفات الخُلُقيَّة أكثر من الصفات الخَلْقِيَّة، إذ نوَّهوا بعدلهم وإنصافهم للرعيَّة، ودفع الظلم عنها وحُسن سياستها، والدفاع عنها بوجه الأعداء الطامعين، وقد شكلت بعض الفضائل والقيم علامةً مميزة في سيرة بعض الخلفاء، فكان الحلم من أبرز صفات الخليفة معاوية بن أبي سفيان، في حين اتصف الخليفة عمر بن عبد العزيز بالعدل. وفي جانب العزاء، شاعت روحٌ إسلامية تَكِلُ ما يُصيبها إلى قضاء الله وقدره، وفي ذلك ما يُخفف من آلامهم وأحزانهم، كما برز نوعٌ جديد من التعزية، وهي التعزية المقترنة بالتهنئة، إذ يبدأ الشاعر بتسلية الخليفة الجديد عن مصابه، بما أفاء الله عليه من الخلافة والطاعة، وما أعطاه من الأجر والثواب، أمَّا ما جاء من نعي الخلفاء فإنه كان يهدف إلى إشاعة خبر الموت، ولم يخرج إلى ما كان يُراد له قبل الإسلام من الدعوة للثأر أو الحرب.

المبحث الثاني
رثاء الشعراء للقادة

أَدَّى القادةُ دوراً مهمّاً وبارزاً على مسرح الأحداث في حياة الدّولة الأمويّة، إذ كانوا اليد الطولى للخلافة في تنفيذ سياستها على الصعيد الدّاخلي والخارجي، مما أكسبهم شهرةً واسعةً طبّقت الآفاق، وخلّدت ذكرهم على مرِّ الأجيال. فهُم بحق «حُماةُ الخِلافة، وهم المُدافعون عنها، وهم المُخْضِعُون الأقاليم البعيدة لسُلطانِها، المؤدِّبون كل من تسوّل له نفسه من أصحاب الأطماع - وما أكثرهم- تهديدها أو الخروج عليها»[1].

وفضلاً عن كونهم حُماة الخلافة والمُدافعين عنها، فقد كانوا دُعاة عقيدةٍ وحمَلَةَ رِسالةٍ قبل أن يكونوا قوّاد جيوشٍ وحمَلَةَ سُيوف، وهذا هو السّر في انتشار الإسلام، وإقبال الناس عليه واحتضانه، حتّى امتدّت الدولة العربية الإسلامية خلال العصر الأموي من حدود الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، لذلك سُمّيَ العصر الأموي بحق عصر الفتوح [2] .

وقد واكب الشِّعْرُ جميع هذه الفتوح، فصوَّر أحداثها ووثَّقها، وخلَّدَ ذكر قادتها، فكان من ضمن ما صوّره شجاعتهم وإقدامهم، وحمايتهم للثغور من هجمات الأعداء، فكانت صوراً صادقةً تعبِّرُ عن روح البطولة والفداء في شخصيّة هؤلاء القادة، ولذلك عندما تُصابُ الأُمّةُ بأحِدِهم، نجد أنَّ الشعراء يبكون فيهم هذه القدرات التي تضمنت فضلاً عن شجاعتهم ونكايتهم في العدو، كرمهم

---

(1) الأدب في موكب الحضارة (كتاب الشعر): 194. مصطفى الشكعة.

(2) ينظر تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي: 214.

وسخاءهم، وتقواهم وحسن سيرتهم في الرّعيّة، «إذ ينبغي لصاحب الحرب أن يجعل رأس سِلاحِهِ في حربه، تقوى الله وحده، وكثرة ذكره والاستعانة به والتّوكّل عليه، والفزع إليه، ومسألته التأييد والنّصر، والسّلامة والظّفر، وأن يكون حَسَنَ السِّيرة عفيفاً صارماً، حَذِراً، متيقِّظاً شُجاعاً، سخيّا»[1] .

وإذا كان من فضلٍ لهؤلاء القادة فيما يؤدّونه تجاه الرّعيّة، فإنّما يعود ذلك الفضل إلى حُسْنِ اختيارهم من لدن الخُلفاء. فمُهمة اختيار القادة، ليست بالمهمة السهلة أبداً، لأنّهم كانوا يَحْرِصُون على توافُر صِفات الفُروسيّة والمُروْءَة والسّخاء فيمن يولّونه القيادة .

ولنا في أُسلوب اختيار الخليفة هشام بن عبد الملك للقائد نصر بن سيّار، خير دليلٍ على هذه السياسة، التي حدّد بموجبها الصفات المطلوبة في القائد، إذ استشار أحد العارفين في شؤون خراسان فقال له: إنّي أراك رجلاً عاقِلاً عالماً بخُراسان، فَسَمِّ لي رِجَالَها، ومن ترى أنّ منهم يصلُحُ لها، قال: يا أمير المؤمنين بِها عبد السّلام بن مزاحم السلمي، وهو شيخُ خراسان وسيدها في سنِّهِ وفضله وعقله من رجُلٍ فيه خصلة، قالَ وما هي، قال: بُخْلٌ لا يُنادي وليده، فقال هشام: لا يستقيم بِخُراسان رجُلٌ يوصفُ بالبُخْلِ، سَمِّ لي غيره، قال: يحيى بن الحُصين ابن المنذر الذّهلي، فتى خُراسان سخاءً وبأساً من رجُلٍ فيهِ خصلَة قال وما هي، قال: يشرَبُ بالليل. قال: ليس هذا من أصحابِها. سَمِّ غيره، قال: قطن بن قتيبة ابن مسلم الباهلي، رجل خراسان عفافاً وعقلاً وحلماً وسخاءً وكمالاً، قال: فيه شيء؟ قال نعم، موتور[2] وتره قومه. قال سمِّ غيره، قال: فثمَّ أخوه سلَم بن قتيبة وليس بدون من سُمِّي لك سخاءً وحلماً وسؤدداً، ما رأينا شيخاً في نُسُكِ شابٍّ غيره، قال: فَسَمِّ لنا غيره، قال: نصر بن سيّار رجل خراسان بأساً وحزماً وتجرُبَةً وشدّة رأي من رَجُلٍ لا عشيرَةَ له بِها، قال وممن هو، قال من بني ليث بن بكر بن كِنانة، قال: فأنا عشيرته

---

(1) مختصر سياسة الحروب للهرثمي: 15.

(2) الموتور : هو الذي قُتِلَ لهُ قتيل فلم يدرك بدَمِه، ينظر اللسان مادَّة (وَتَرَ) : 5/ 274 .

ولن يذلَّ من أكون عشيرته[1] .

نتبين مما سبق، دقَّةُ المعايير التي يتَّبعها الخليفة في اختيار من سيوليه أمر المسلمين. لما ورد من الحديث الشريف: «من تولَّى من أمر المسلمين شيئاً فاستعمل عليهم من هو أولى بذلك، وأعلم منه بكتاب الله وسنة رسوله، فقد خان الله ورسوله وجميع المؤمنين»[2] .

ولذلك كان الخطب جليلاً والخسارة عظيمةً عندما يستشهد أحد هؤلاء القادة أو يموت، فيندبه الشعراء، ويبكونه بحرقة وألم جعلت دُموع أبي عطاء السّندي تفيضُ على وجنتيه لِفراقِ القائد نصر بن سيّار، ويتساءل؟ مَنْ للقاء الحرب إذا اشتجرت بعده، أو للضيف والجار. فيقول[3]:

فَاضَتْ دُمُوْعِي عَلَى نَصْرٍ وَمَا ظَلَمتْ ... عَيْنٌ تَفِيْضُ عَلَى نَصْرِ بْـنِ سَيّارِ

يَا نَصْرُ مَنْ لِلِقَاءِ الحَرْبِ إِنْ لَقَحَتْ ... يَانَصْـرُ بَعْدَكَ لِلضَّيْفِ وَالْجـَّار

الخَنْدَفِيُّ الَّـذِي يَحْمـي حَقِيْقَتَـهُ ... فِي كُلِّ يَـوْمِ مخوِفُ الشَّر والعَارِ

وَالقَائِـدُ الخَيْـلَ قُبّـاً فِي أَعِنَّتِهَا ... بِالقَوْمِ حَتَّى تَلُفَّ القَارُ بِالقَـارِ

ومن القادة البارزين الذين عُرِفواَ بِشجاعَتِهم وحزمهم، الحجّاج بن يوسف الثّقفي، إذْ كان اليد الطُّولى للخليفة حينَ تشتدُّ الأمور، وهو القبضة الحديديّة التي ضَرَبَتْ بها الخلافة كِبار الخارجين عليها، وهو كما وصف نفسه للخليفة حينما أحسَّ بدنو أجله قائلاً: «... كنت أرعى غنمك، أحوطها حياطة الناصح الشفيق برعية مولاه، فجاء الأسد فبطش بالراعي، ومزَّقَ المرعى كُلَّ ممزَّقْ»[4]، فقد كان لوفاته أكبر الأثر في نفوس الشعراء، ومنهم الفرزدق الذي بكاه بحرقة، إذ مزج هذا

(1) يُنْظَرْ الأخبار الموفَّقيَّات للزبير بن بكَّار : **127 – 128**، والأخبار الطِوال للدينوري : **340 –342**، وتاريخ الطّبري : **5/ 477 – 478**، برواية أخرى .

(2) مجمع الزوائد للهيثمي : **5/ 211** .

(3) شِعْرُهُ : **283**، والأغاني : **17/ 333** .

(4) ذيل الأمالي والنوادر، لأبي علي القالي : **172** .

البُكاء بذكر الدّين وحمايته. من خلال تصوير أهل الفِتَنِ، وكيف كان لحزمه وشدّته الأثر الفاعل في الخلاص منها ومن أهلِها، ثمَّ انتقل إلى الحديث عن الثُّغور التي حماها القائد حِفاظاً على عقيدته وأُمَّتِه، ونَوّه بدوره في خدمة بني أُميّة، وخاصَّةً البيت المرواني. كما صَوَّر أرض العراق وكيف سَعِدتْ بِهِ، واطمأنَّ بها كلُّ خائف. فيقول[1]:

لِيَبْكِ عَلَى الحَجَّاجِ مَنْ كَانَ بَاكِيَا ... عَلَى الدِّيْنِ أَوْ شَارٍ عَلَى الثَّغْرِ وَاقِفْ
وَمَا ضَمِّنَتْ أَرْضٌ فَتَحْمِلُ مِثْلَهُ ... وَلاَ خَطَّ يَنْعَى فِي بُطُونِ الخَلاَئِفْ
لِحَزْمٍ ولاَ تَنْكِيْلِ عِفْرِيْتِ فِتْنَةٍ ... إِذَا اكْتَحَلَتْ أَنْيَابُ جَرْبَاءَ شَارِفْ
وَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَانِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ... عَلَى مِثْلِهِ إِلاَّ نُفُوْسُ الخَلاَئفْ
فَلَمْ أَرَ يوماً كَانَ أَنْكَى رَزِيَّةً ... وَأَكْثَر لَطّاً لِلْعُيُونِ الذَّوَارِفْ
مِنَ اليَوْمِ لِلحَجَّاجِ لَمَّا غَدَوا بِهِ ... وَقَدْ كَانَ يَحْمِي مُضَلَّعَاتِ المَكَالِفْ
فَإِنْ يَكُنِ الحَجَّاجُ مَاتَ فَلَمْ تَمُتْ ... قُروْمُ أَبِي العَاصِ الكِرامِ الغضارِف
وَلَمْ يُعْدَمُوا مِنْ آلِ مَرْوَانَ حَيَّةً ... تَمَامُ بُدُورِ وَجْهِهِ غيْر كاسِفْ
لَهُ أَشْرَقَتْ أَرْضُ العِرَاقِ لِنُورِهِ ... وأُومِنَ مِنْ ذَنْبِهِ كُلُّ خَائِفْ

ومن قبله نوَّه الفرزدق بالواجبات التي كان أخوه محمد بن يوسف الثقفي يؤدِّيها تجاه الخلافة ووقوفه الحازم بوجه أعدائها، لذلك طلب من عينيه إنْ هُما أنفذا الدَّمع من كثرة البكاء، أن يجودا بالدَّمِ عليه، فليس كل الأموات في ذلك سواء، كيف لا وقد بكته السهول والهضاب. فيقول[2]:

فَعَيْنِيَّ مَا المَوتَى سَوَاءٌ بُكَاهُمُ ... فَبالدَّمِ إِنْ أنزَفْتُما الماءَ فَأَدْمِعَا
وَمَا لَكُمَا لا تَبْكِيَانِ وَقَدْ بَكَى ... مِنَ الحُزْنِ الهُضُبُ الَّذِي قَدْ تَقَلَّعَا
فَقَدْ كُنْتَ ضَرَّاباً بِها يابْنَ يُوسُفٍ ... جَماجِمَ مَنْ عَادَى الإِمَامَ وَشَيّعَا
جَماجِمَ قَوْمٍ نَاكِثِينَ جَرى بِهِمْ ... إِلَى الغَيِّ إِبْلِيسُ النِّفَاقِ وَأَرْضَعَا

---

(1) ديوانه: 2/ 5 – 7.

(2) ديوانه: 1/ 398 – 399.

لقد برزت شخصيّة القائد بشكلٍ واضحٍ وجلي، من خلال تصوير المهام التي يقوم بتأديتها تجاه رعيته وتجاه الخليفة، فهو الذي يحافظ على النظام، ويقمع أهل الفتن والتمرد والاضطراب، وهو الذي يحمي الثغور، حتى أَمِنَ الخائف واطمأنَّ الملهوف .

وفي مرثية أخرى، صوِّر الشاعر فيها أثر موته في القبائل، وعلى قبيلته ثقيف تحديداً، إذ ترك العيون سادمةً[1] بَعْدَهُ لا تعرف للنوم طعماً، كيف لها وهي تبكي عليه كلما دجى ليلٌ ولاح نهار. فيقول[2]:

إِبْكِ عَلَى الحَجَّاجِ عَوْلَكَ مَا دَجَا ... لَيْـلٌ بِظُلْمَتـهِ وَلاَحَ نَهَـارُ
إِنَّ القَبَائِلَ مِـنْ نِـزَارٍ أَصْبَحَتْ ... وقُلُوْبَهَا جَزَعَـاً عَلَيْكَ حِـرَار
لَهْفِي عَلَيْكَ إِذَا الطِّعَانُ بِمَأزَقٍ ... تَـرَكَ القَنَا وَطِوالُـهـُنَّ قِصَار
إِنَّ الـرَّزِيَّـةَ مِـنْ ثَقِيْـفٍ هَـالِكٌ ... تَـرَكَ العُيُونَ وَنَـومَـهُـنَّ غِـرَارُ

وفي المعنى نفسه، يرسم الفرزدق في رثاء بشر بن مروان، صورة القائد الذي يحمي ثغور بلاده ويذود عنها، ويُنقِذ الرَّعية من مغبَّة الوقوع في الفِتَنْ، ولا ينسى الشاعر عراقة نسبه وأصالته، كما سجل دوره البارز في الخلاص من أهل الفتن وإسكاتهم مشبِّهاً إياهم بالحيَّات. ومن الطبيعي بعد ذلك، أن يأمن الناس عدوَّهم، ويستغني الفقير عن فقره. فَأَنَّى له بعد ذلك أن يجد عذراً لعينيه كيف لا تجود بالبكاء عليه، ويُطالبها بأن تسعِفُه بِعبرةٍ تطفئ حرارة صدره اللاهبة، وإلاّ سيوجه لها اللوم والعتاب. ويستمر الشاعر – كعادته في المبالغة – فيجعل الكواكب تبكي والجبال الراسيات تزول لفقده، والنجوم تتوقف ولا تسري من بعده. فيقول[3]:

أَعَيْنَيَّ إِلاَّ تُسْـعِدَانِي أَلُمْكُمَـا ... فَمَا بَعْدَ بِشْرٍ مِنْ عَـزَاءٍ وَلاَ صَبْر

(1) السدْمُ: الندم والحزن، وقيل همٌّ مع ندم، وقيل غيظٌ مع حزن. اللسان، مادة (سَدَمَ): 12/ 283، وتاج العروس: 8/ 334.
(2) ديوانه : 1/ 295 .
(3) ديوانه:1/ 217.

وَقَـلَّ جـدَاءً عَـبْـرَةٌ تَسْـــفَحَانِهَا ... عَلَى أَنَّهَا تَشْفِي الحَرَارَةَ فِي الصَّدْرِ

فَإِنْ لاَ تَكُـنْ هِنْدٌ بَكَتْهُ، فَقَدْ بَكَتْ ... عَلَيْهِ الثُّـرَيَّا فِي كَوَاكِبِها الزُّهْرِ

عَلَى مَلِكٍ كَـادَ النُّجُومُ لِفَقْــدِهِ ... يَقَعْنَ، وَزَالَ الرَّاسِيَاتُ مِنَ الصّخْرِ

أَلَـمْ تَرَ أَنَّ الأَرْضَ هُـدَّتْ جِبَالُهَا ... وَأَنَّ نُجُومَ اللَّيْلِ بَـعْدَكَ لاَ تَسْرِي

نَمَتْهُ الرَّوابي مِنْ قُرَيْشٍ وَلَمْ تَكُنْ ... لَهُ ذَاتُ قُرْبىَ فِي كُلَيْبٍ وَلاَ صِهْر

وَقَـدْ كَـانَ حيَّاتُ العِرَاقِ يَخَفْنَـهُ ... وَحَيَّاتُ مَا بَيْنَ اليَـمَامَةِ وَالقَهْـرِ

وَقَدْ أُوثِـرَتْ أَرْضٌ عَلَيْنَا تَضَمَّنَتْ ... رَبِيْعُ اليَتَامَى وَالمُقِيْمُ عَلَى الثَّغْـرْ

وَكُنَّـا بِبِشْـرٍ قَـدْ أَمِنَّـا عَـدُوَّنَـا ... مِنَ الخَوْفِ واستَغْنى الفَقِيرُ عَنِ الفَقْرِ

وفضلاً عن بُكاء السهول والجبال، فقد نجد الخيل التي كان القائد يستخدمها، تبكي عليه عندما يموت أو يستشهد. كما جاء في رثاء الفرزدق لعمر بن عبيد الله ابن معمر التيمي. إذْ يقول(1):

إِنَّ الأَرَامِــلَ وَالأَيْتَـامَ إِذْ هَلَكُـوا ... والخَيْلَ إِذْ هُزِمَتْ تَبْكِيْ عَلَى عُمَرَا

وكما جاء أيضاً في رثاء سوادة بن عبد الله السلولي لهبيرة بن مشمرج. إذْ قال(2):

بَكَتِ الجِيَادُ الصَّافِنَاتُ لِفَقــدِهِ ... وَبَكَــاهُ كُــلُّ مُثَقَّـفٍ عَسّـالِ

وقد حثَّ الفرزدق الخيل على بُكاء الجرَّاح، لأنَّ مَن كان يمتطي صهوتها قد مات، فقال(3):

لِتَبْكِ عَلَى الجَرَّاحِ خَيْــلُ إِغَـارَةٍ ... وَيَــوْمُ تَـرَى فِيْـهِ النُّجوم التَّوائِمُ

وهذا الأُسلوب من البُكاء، لا يوافق عليه قدامة بن جعفر، فيقول: «ليس من إصابة المعنى أن يُقال في كل شيءٍ تركه الميت أنه يبكي عليه، لأن مثل ذلك ما إن

---

(1) المصدر نفسه: 1/ 235.

(2) تاريخ الطبري: 5/ 271.

(3) ديوانه: 2/ 251.

قيل إنه بكى عليه كان سبّاً وعيباً لاحقين به، فمن ذلك مثلاً أن قال قائلٌ في ميت: بكتك الخيل إذ لم تجد لها فارساً مثلك، فإنه مخطئ، لأن من شأن ما كان يوصف به في حياته بكدِّه إياه أن يذكر اغتباطه بموته، وما كان يوصف بالإحسان إليه في حياته أن يذكر اغتمامه بوفاته»[1]. والحقيقة أنَّ الشعراء لم ينظروا للأمر كما نظر إليه قدامة، وإنما نظروا إليه من وجهة نظر الوظيفة التي كانت تؤديها الأشياء الباكية، فالخيول والسيوف والرِّماح تكمن وظيفتها في الكر والفر والضرب والطعن، فإذا مات مَنْ كان يقودها لأداء مهمتها فإنها تصبح مغمومة وكئيبة لفقده، ولا يُقال فيمن جعلها تقوم بدورها إنه كان مُسيئاً لها، والشعراء حين يصوِّرون حزن تلك الأشياء على القادة فإنهم يسعون إلى إبراز دورهم في الجهاد ومقارعة الأعداء، وإلى انعدام مَنْ يقوم بهذه المهمة بعدهم، وبذا يَصلون إلى ما ينشدون من اكتمال دائرة الحزن .

وفي أسرة عريقة شُهرت بقادتها، يتصدَّر اسم المهلب بن أبي صفرة كواحدٍ من ألمع قادتها، فهو شيخ الحروب وإمامها[2]. فضلًا عن أبنائه الذين لا يقلون عنه شجاعةً ومهارة[3]. إذ لم تَخْفَ على الخليفة عبد الملك بن مروان المزايا القيادية الفريدة لهذا القائد، فقد غَضِبَ على والي البصرة خالد بن عبد الله بن أُسيد بسبب إرساله أخاه عبد العزيز لقتال الخوارج وانهزامه، وإهماله للمهلب ابن أبي صفرة، فكتب إليه: «... قبح الله رأيك حين بعثت أخاك أعرابياً من أهل مكّة على القتال، وتدع المهلب إلى جنبك يجبي الخراج، وهو الميمون النقيبة، الحسن السياسة، البصير بأُمور الحرب، المُقاسي لها، ابنها وابن أبنائها ... فإذا أنت لقيت عدوّك

(1) نقد الشعر : **112** .

(2) ينظر تفريج الكروب للأنصاري : **44** .

(3) كان للمهلب بن أبي صفرة عشرةٌ من الأبناء، منهم ثمانية ذكور كلهم من القادة الشجعان. وهم: يزيد، وزياد، والمفضل، ومدرك، وحبيب، والمغيرة، وقبيصة، ومحمد، ومن الإناث: هند، وفاطمة. ينظر البداية والنهاية لابن كثير: **9/ 52**، والمستطرف في كل فن مستظرف للإبشيهي: **255**.

فلا تعمل فيه برأي حتى تحضر المهلّب»[1]. ولنا أن نتصوَّر عِظَم المُصاب الذي حلَّ بالأُمَّة حينما توفي المهلب وهو غازٍ بمرو الرّوذ[2] إذ انطلقت النوائح يندُبْنه ويبكينه حاسرات لايتوقفن عن البكاء، فالمصائبُ تترى، فأمسِ المغيرة واليوم أبوه المهلب[3]. وإذا ما قيل لهُنَّ مهلًا قُلْنَ ما بعْده مهْلُ. والغريب حقاً أن نجد في هذه المرثية ذِكْرا لأَفعالٍ قد نهى الإسلام عن القيام بها، كشقّ الجيوب ولطم الخدود[4]. ولعلَّ الشاعر أراد من ذلك كله، تصوير هول الفاجعة التي حلَّت بهنَّ فقال[5]:

نَـوائِـحُ يَنْدُبْنَ المُهلَّبَ حُسَّـراً ... تَوَالَى عَلَيْهِنَّ المَصَائِبُ وَالتَّبْـلُ

يُطاوِعْنَ مَنْ أودى وأَوجَف فِي البكا ... وَإِنْ قِيْلَ مَهْلاً قِيْلَ مَا بَعْدَهُ مَهْـلُ

وآلَـيْـنَ لا ينكُبْنَ وَجْـهـاً لحُـرَّةٍ ... عَنِ اللَّطْمِ حَتَّى تَمْحَلَ الحَدَقُ النُجْلُ

يُشَقِّقْنَ عنهنَّ الجُيوب كآبَــةً ... وَلَهْفاً عَلَى أُسْـدٍ أُتِيحَ لَهَا القَتْـلُ

إذا شَـتَّ شعْبٌ أَوْ تَشَاجَرَ مَنطِقٌ ... فَعِنْدَهُم فِيْـهِ الحُكُومَـةُ وَالفَصْلُ

مَعَاطِيْرُ يُسْتَسْقَى الفَقِيْرُ بِسَيْبِهم ... كَـأَنَّ أدِيـمَ الأرْضِ بَعْدَهُـم مَحْلُ

لقد كان المهلب وأولاده كما وصف الشاعر، فهم الكرماء الذين يُسْتَسقَى بِهِمْ، فالأرضُ من بعدهم محْلُ. ولنا في وصف بِشر بن مالك الحرشي لآل المهلب حينما سأله الحجَّاج عنهم خير دليل. فقال: كيف كان بنو المهلب؟ قال: كانوا أعداء الأبيات حتى يأمنوا، وأصحاب السرج حتى يردوا. قال: فأيهم أفضل؟ قال: ذلك

---

(1) تاريخ الطبري : 6/ 171، والكامل في اللغة والأدب : 2/ 277، وذيل الأمالي والنوادر : 32.

(2) وهي من مدن خراسان، تقع على نهر عظيم، خرج منها خلقٌ من أهل الفضْل، ومات فيها المهلب بن أبي صفرة. ينظر معجم البلدان : 5/ 112، والبداية والنهاية: 9/ 52 .

(3) توفي المغيـرة بن المهلب سـنة (82) هـ، قبل والده بسـنة. ينظـر فتوح البلـدان للبلاذري: 1/ 360 – 361، والكامل لابن الأثير : 4/ 206 .

(4) ورد في الحديث الشريف : «ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية» صحيح البخاري : 2/ 82 .

(5) الأبيات لرجلٍ من بني هلال يرثي بها المهلب بن أبي صفرة. ينظر كتاب الوحشـيات لأبي تمام : 148.

إلى أبيهم أيهم شاء يستكفيه أمره كفاه ... هم كالحلقة المفرغة لايدري أين طَرَفُها. قال: أين هم من أبيهم؟ فقال: فضله عليهم كفضلهم على سائر الناس[1]. لقد استحقَّ المهلب كل هذا الفضل، فهو الكريم الذي يعفو عند المقدرة، ويصفح عن المسيء، فقد قيل له: «إِن فُلاناً عَيْنٌ للخوارج في عسكَرِكْ، وإنه يتكفَّن بالسلاح إذا دُعوا للحرب لِيَغْتالك ويلحق بالخوارج؛ فبعث إليه، فَأُتي به فقال له: قد تقرر عِندَنا كَيدُكَ لنا، ولم نُقْدِم من أمرك ما عزمْنا عليه إلاَّ بعْد ما لم يَدَع اليقين للشك معتَرَضاً، فاختر أي قتلةٍ تُحب أن أقتلك إياها؟ فقال: سَيْفٌ مَجْهِزٌ، أو عطفةُ كريمٍ محْتَقِرٍ لِضِغْنِ ذوي الضَّغائن، قال: فإِنَّها عَطفة كريم محتقِرٍ للذنوب، فخلاّ سبيله، فكان بعد ذلك من أوثق أصحابه»[2]. لذلك عَدَّ نهار بن توسعة أن هذا الكرم والجود قد مات بموت المهلب؛ بل إن هذا الغزو الذي أباح لنا سهول البلاد وجبالها في الشرقِ والغربِ، قد ذهب أيضاً بذهابه، وليس أدلَّ على ذلك من ضريحه الذي دُفِنَ فيه (بمرو الرُّوذ). فقال[3]:

ألا ذَهَـبَ الغَزْو المُقَرِّبُ للغِنـى ... وماتَ النَّدى والجـودُ بَعْدَ المُهلَّب

أقامَا بِمَرْوِ الـرُّوذِ رَهْنَي ضَرِيْحِهِ ... وَقَـدْ غَيَّبا عَنْ كُلِّ شَـرُقٍ وَمَغْرِبِ

إذا قِيْلَ أيُّ النَّاسِ أولـى بِنِعْمَـةٍ ... علـى النَّاسِ قُلْنَاهُ وَلَـمْ نَتَهَيَّـبِ

أبـاحَ لَنا سَهْلَ البِلادِ وَحَزْنَهـا ... بِخَيْلٍ كإرسـالِ القَطا المُتَسَـرِّبِ

يُعَرِّضُها للطّعْـنِ حتى كأَنَّمـا ... يُجَلِّلُهـا بالأرجـوان المُخَضَّـبِ

وكما تقدَّم، فقد كان أولاد المهلب بن أبي صفرة من القادة الأفذاذ، الذين أكثر الشعراء من مديحهم والثناء عليهم في حياتهم وبعد مماتهم، إذ برز منهم: المغيرة ابن المهلب الذي كان «أبرع ولد المهلب وأوفاهم، وأعفَّهم، وأسخاهم»[4]. فضلًا

---

(1) أنساب الأشراف : 5/ 304 .

(2) الأمالي لأبي علي القالي : 1/ 264 – 265 .

(3) شعره : 96.

(4) بُغية الطالب : 9/ 3932 .

عن أنَّه «كان جواداً، ممدحاً، شجاعاً، له مواقف مشهورة»[1]. خلَّدت هذه المواقف ذكره بعد موته، مما دعى زياد الأعجم أن لايعتد بنوح النائحين عليه، وإنَّما تعدّاه إلى ما أصاب الدين وأهله من خسارة فادحة، فقد كان مِلاك الدِّين، والملاذ من كلِّ خطب. وهذا ما يمكن أن نعدَّه جديداً في هذا الإطار، إذ نرى الشاعر يتجاوز التأثير الإجتماعي للفقيد بما تركه وراءه من الأرامل والأيتام، ولوعة الناس وحزنهم عليه، إلى ما هو أعم وأشمل وهو الجانب العقدي الذي يشمل جميع المسلمين، وهو ما تمثل الشاعر به في قوله: يبكي المغيرة دِيْنَنَا وَزَمَانَنَا وكان الملاكَ لِدِيْنِنَا وَزَمَانِنَا. فقال[2]:

وإذا يُناحُ على امرئ فتعلَمَنْ ... أَنَّ المُغِيْرَةَ فَوْقَ نَوحِ النَّائحِ
يَبْكِي المُغيرَةَ دِيْنَنا وَزَمَانَنا ... والمُعولَاتُ بِرَنَّةٍ وَتَصايحِ
ياعَيْنُ فابكي ذَا الفِعالِ وذا النَّدى ... بِمَدامِعَ سكبٍ تجيء سَوافِحِ
وابكيهِ في الزَّمَنِ العَثُورِ لِكُلِّنا ... وَلِكُلِّ أَرمَلَةٍ ورهبٍ رازِحِ
كانَ المِلاكَ لِدِيْنِنا وَرَجَائِنا ... وَمَلاذَنا في كُلِّ خَطْبٍ فادِحِ

وتمضي الأيام والسنون ....، فيحل قائد آخر بعد آل المهلب في خراسان لا يقل عنهم كفاءةً ومقدرة؛ إنه القائد قتيبة بن مسلم الباهلي وأبناؤه[3]، إذ كان بطلًا شُجاعاً هُزِم الأعداءُ على يديه غيرَ مرَّة. وافتتح من المدن والأقاليم الكثير. ولو قُدِّرَ للموت أن يُمهِلَهُ لحقّقَ ما كان يراوده من فتح الصِّين[4]. لكنَّ إرادةَ الله نافِذَة لا محالة، مما جعل عبد الرحمن بن جمانة الباهلي يستذكر صورة هذا القائد بعد أن دعته المنايا فاستجاب لربِّه، وكأنه لم يكن في يومٍ من الأيام على رأس جيشٍ تخفق الرايات حوله. ويطلب من ولده عبهر أن يبكيه. فما أُصيب الإسلام وأهله

(1) البداية والنهاية: 9/ 43، وينظر النجوم الزاهرة: 1/ 205.
(2) شعره: 60، 68 – 69. والأبيات منتقاة من قصيدةٍ طويلة قالها في رثائه.
(3) وهم: قطن بن قتيبة بن مسلم، وأخوه سلم بن قتيبة بن مسلم.
(4) ينظر شذرات الذهب: 1/ 112، وتاريخ الطبري: 5/ 285.

بعد محمد بمثله، لأنه كان حاملاً لرايته وناشراً لسُلطانِه، وهي مصيبةٌ في حقيقة أمرها حلَّت بالإسلام والمسلمين جميعاً فيقول[1]:

كَأَنَّ أَبَا حَفْصٍ قُتَيْبَةَ لَمْ يَسْرِ ... بِجَيْشٍ إِلَى جَيْشٍ وَلَمْ يَعْلُ مِنْبَرَا

وَلَمْ تَخْفِقِ الرَّايَاتُ وَالقَوْمُ حَوْلَهُ ... وُقُوفاً وَلَمْ يَشْهَدْ لَهُ النَّاسُ عَسْكَرَا

دَعَتْهُ المَنَايَا فَاسْتَجَابَ لِرَبِّهِ ... وَرَاحَ إِلَى الجَنَّاتِ عِفّاً مُطَهَّرا

فَمَا رُزِئَ الإِسْلَامُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ... بِمِثْلِ أَبِي حَفْصٍ فَبَكِّيهِ عَبْهَرَا

والحقيقة إِنَّ مقتل القائد قتيبة بن مسلم الباهلي لم يَكُنْ مصيبةً حلَّت بالإسلام وأهله فحسب؛ بل إِنَّها عمَّت جميع البلاد التي نالها حُسْنُ سياسته ورعايته. فلنستمع إلى ما قاله رجلٌ من أهل خراسان بحقِّه مخاطباً قومه، قائلاً: « يا معشر العرب، قتلتم قتيبة، والله لو كان منَّا فمات لجعلناه في تابوت فكنَّا نستسقي به، ونستفتح إذا غزونا، وما صنع أحدٌ بخراسان قط ما صنع قتيبة» [2].

وقد تتجاوز المرثية مرحلة البكاء بشقّيه: المادي والمعنوي، فيجنح الشاعر إلى وصف القيم والفضائل التي تحلى القائد بها في حياته. إذ تأتي الشجاعة في مقدمة تلك القيم؛ لأن القادة الناجحين في التاريخ كله «كانوا ممن عُرفوا بجرأة الجنان والشجاعة، فإن ذلك منهم يجعل الجندي الجبان شجاعاً، وقوة اندفاعهم تجر الجند وراءهم فيأتون بالأعاجيب، فإذا أضيفت إلى شجاعتهم قوة الإيمان بالله، والاعتقاد الراسخ بأن الموت بيده وحده؛ كانوا مثالاً في المضاء، ودانت لهم البلاد. وهكذا كان كثير من قادة المسلمين، الذين عُرِفوا بيُمن الطالع، فكانت تسبقهم شهرتهم، ويسارع الناس للتطوع معهم، لثقتهم بالنصر في ظلال الفن الحربي الذي شُهر به هؤلاء الأبطال، وفاقوا به معاصريهم»[3].

كما أن من القادة مَنْ تملَّكَتْ هيبته نفوس أعدائه، وإن كانت تفصله عنهم

---

(1) البداية والنهاية : 9/ 190 – 191، وفي النقائض : 363 «وما رزئ الأقوام ...» .

(2) الكامل في التاريخ لابن الأثير : 4/ 298 .

(3) الشرق في حكم الخلفاء «فون كريمر» :314، عن: الفن الحربي في صدر الإسلام: 78–79.

المسافات، وهذا أحد أهم أسباب النصر كما يقول ابن خلدون: «من أقوى أسباب الانتصار، ورفع روح الجند، ذيوع الشهرة، وبعد الصيت»[1]. وقد جاء في وصف أحد ملوك العجم للقائد قتيبة بن مسلم – بعد أن خاطب قاتليه قائلاً: «قتلتم قتيبة ويزيد بن المهلب وهما سيدا العرب، فقيل له: أيهما كان أعظم عندكم وأهيب؟ فقال: لو كان قتيبة بأقصى جحرٍ في الغرب مُكبَّلاً، ويزيد معنا في بلادنا والٍ علينا، لكان قتيبة أهيب في صدورنا وأعظم من يزيد»[2].

فهو الذي أباح الحصون المنيعة، وغزا البلاد التي استعصت على الغير، حتى أن خيله استمدت جُرأتها من شجاعته، فأصبحت تخوض في الوغى لهب الجمر. وامتدَّت فتوحاته حتى جاوزت قطب الأرض عند مطلع الفجر، ولولا المنايا تعجَّلته لفتح حصن (ذي القرنين)[3]. كما جاء في رثاء الأصم بن الحجاج لقتيبة بن مسلم الباهلي إذ يقول[4]:

وَكَمْ مِنْ حُصُوْنٍ قَدْ أَبَحْنَا مَنِيْعَةً ... وَمِنْ بَلَدٍ سَهْلٍ وَمِنْ جَبَلٍ وَعْرِ
وَمِن بَلدَةٍ لَمْ يَغْزُهَا النَّاسُ قَبْلَنَا ... غَزَوْنَا نَقُودُ الخَيْلَ شَهْراً إِلَى شَهْرِ
مَرَنَّ عَلَى الغَزْوِ الجَرُوْرِ وَوَقَرَتْ ... عَلَى النَّفْرِ حَتَّى مَا تَهَالُ مِنَ النَّفْرِ
وَحَتَّى لَوْ أَنَّ النَّارَ شبَّتْ وَأَكْرَهَتْ ... عَلَى النَّارِ خَاضَتْ فِي الوَغَى لَهَبَ الجَمْرِ
تُلاَعِبُ أَطْرَافَ الأَسِنَّةِ وَالْقَنَا ... بِلِباتِها وَالمَوْت فِي لُجَج خُضْر
بِهِنَّ أَبَحْنَا أَهْلَ كُلِّ مَدِيْنَةٍ ... مِنَ الشِّرك حَتّى جَاوَزَتْ مَطْلِعَ الفَجْرِ
وَلَوْ لَمْ تُعَجِّلْنَا المَنَايَا لَجَاوَزَتْ ... بِنَا ردمَ ذِي القَرْنَيْنِ ذَا الصَّخْر
وَلكنَّ آجالاً قَضَيْنَ وَمُدَّةً ... تَنَاهَى إِلَيْهَا الطَّيِّبُونَ بَنُو عَمْرِ

---

(1) المقدمة: 233.

(2) الكامل في التاريخ لابن الأثير: 4/ 298.

(3) وهو حصن يقع في مدينة آمد من بلاد ديار بكر. ينظر معجم البلدان: 1/ 56، 2/ 441.

(4) تاريخ الطبري: 5/ 285، وينظر في المعنى نفسه، ديوان الفرزدق: 1/ 163، في رثائه لمخلد بن يزيد. أبوك الذي تستهزم الخيل باسمه ..... شهر مطرد.

لقد اتَّسَمَ رثاء الشعراء للقادة بالفُروسية والبطولة، فأصبحنا نجد ذكْرَ الخيل، والفرسان، والسيف والقتال، مما يلامس طبيعة المهمّة التي يليها القائد في المعركة، ومن ذلك ذكْرُ الأماكن التي جرت عليها المعارك والتي كان للقائد فيها صولات وجولات. ولا ينسى الشاعر أن يُقرن ذلك كله بالكرم الذي مثّل الوجه الآخر للشجاعة ضمن صفات هذا القائد. فيداه يداً سيفاً، وأُخرى غيثاً يُنبِتُ الشجَرا. جاء ذلك في رثاء الفرزدق للقائد عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي الذي «كان من أجود العرب كفَّاً»[1]. وعن شجاعته يقول الخليفة عبد الملك بن مروان حينما وقف على قبره: «أما والله لقد فقدت قريش ناباً من أنيابها»[2]. أمَّا عندما تَصْدُرُ الشهادة عن الخصم، فتكون دلالتها أوقع في النفس وأدل. إذ وصف قطري بن الفجاءة القائد عمر بن عبيد الله قائلاً لقومه: «... إن جاءكم عمر بن عبيد الله، أتاكم شجاعٌ بطلٌ فارسٌ جادٌّ، يقاتل لدينه ومُلْكِهْ، بطبيعةٍ لم أرَ مثلها لأحد، فقد شَهدته في وقائع، فما نودي في القوم لحربٍ إلاَّ كان أوَّل فارسٍ حتَّى يشُدَّ على قرنه فيضربه»[3]. ولذلك، لم يجد الفرزدق من يماثل هذا القائد في شجاعته وكرمه، فقد كان وجوده في أرض المعركة عامل تثبيت للجند لما يلمسون فيه من صبرٍ وجَلَد. فقال[4]:

مَا مَاتَ مِثْل أَبِي حَفْصٍ لِمَلْحَمَةٍ ... وَلاَ لِطَالِبِ مَعْرُوْفٍ إِذَا افْتَقَرَا

كَمْ مِنْ فَوَارِسَ قَدْ نَادُوا إِذْ لَحِقُوا ... بِالْخَيْلِ بِاسْمِكَ حَتَّى يُطْعَمُوا الظَّفَرَا

حَرْبٌ إِذَا لَقَحَتْ كَانَ التَّمَام لَهَا ... مِنْهُ إِذَا نتِجَتْهُ الأَبْلق الذَّكَرَا

كَمْ مِنْ جَبَانٍ لَدَى الهَيْجَا دَنَوْتَ بِهِ ... إِلَى القِتَالِ وَلَوْلاَ أَنْتَ مَا صَبرَا

مِنْهُنَّ أَيَّامَ صِدْقٍ قَدْ بُلِيْتَ بِهَا ... أَيَّامَ فَارِسَ وَالأَيَّامَ مِنْ هَجَرَا

كَانَتْ يَدَاهُ يَداً سَيْفَاً يُعَاذُ بِهِ ... مِنَ العَدُوِّ وَغَيْثاً يُنْبِتُ الشَجَرَا

(1) أنساب الأشراف: 10/ 144.

(2) الأغاني: 15/ 378، وتاريخ دمشق: 45/ 295.

(3) الكامل في اللغة والأدب: 2/ 259، والكامل في التاريخ لابن الأثير: 4/ 74، مع اختلاف في الرواية.

(4) ديوانه: 1/ 235.

تَستَخْبِرُ الخَيْلُ فِي الهَيْجَا إِذَا لَقَحَتْ وَالمُعْتَرُوْنَ قُـدُوْرَ النَّاسِ وَالحَجَرَا
مَنْ يَقتُلِ الجُوْعَ بَعْدَ ابْنِ الشَّهِيْدِ وَمَنْ بِالسَّيْفِ يَقْتُلُ كَبْشَ القَوْمِ إِذَا عَكَرَا

ومن الصفات المعنوية التي تقترن بالشجاعة: الفصاحة وقوة البيان، إذ لا يخفى أثرُها في إنجاح مهمة القائد في السلم والحرب، وكثيراً ما جُمِعَ بين الرِّياسة والفصاحة. فقد قيل: «مُروَّتان ظاهرتان: الرِّياسة والفصاحة»[1]. من ذلك ما تحقق للقائد هبيرة بن مشمرج الكلابي، الذي كان مع قتيبة بن مسلم حين غزا الصين، فأوفده إلى مَلِكِها رسولاً ونذيراً. فأدَّى مهمته على أتمِّ وجه، وجَنَّبَ – بفطنته وذكائه– قومه حرباً قد تكلِّفهم الكثير. فقد كان «مُفوّهاً بسيط اللسان»[2]. وكان من إجابته للمَلِكْ حينما استخفَّ بِهِ وَبِقومه: «... كيف يكون قليل الأصحاب مَنْ أوَّل خيله في بلادك، وآخرها في منابت الزَّيتون، وكيف يكون حريصاً مَنْ خلف الدُّنيا قادِراً عليها وَغَزاكْ. وأمّا تخويفك إيّانا بالقتل؛ فإنَّ لنا آجالاً إذا حضَرَتْ فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه ولا نخافه. قال: فما الَّذي يُرضي صاحبك؟ قال: إنَّه قد حَلَفَ أن لاينصرف حتّى يطأ أرضكم، ويختم ملوككم، ويُعْطى الجزية. قال: فإنّا نُخرجه من يمينه، نبعث إليه بترابٍ من تراب أرضِنا فَيَطَأه، ونبعثُ إليه بعض أبنائنا فَيَخْتِمَهُمْ، ونبعَثُ إليه بجزيةٍ يرضاها»[3]. فقال سوادة بن عبد الله السلولي في ذلك[4]:

لاَ عَيْبَ فِي الوَفْـدِ الَّذِيْنَ بَعَثْتَهُـمْ لِلصِّيْنِ إِنْ سَـلَكُوْا طَرِيْقَ المَنْهَجِ
كَسَرُوْاالجُفُوْنَعَلَىالقَذَىخَوْفَالرَّدَى حَاشَا الكَرِيْمَ هُبَيْـرَةَ بْنَ مُشَمْرِجِ
لَمْ يَرْضَ غَيْرَ الخَتْمِ فِي أَعْنَاقِهِـمْ وَرَهـائـِنٌ دَفَـعْـتَ بجمـلٍ سُـرَّجِ
أَدَّى رِسَـالَتَكَ الَّتِــي استَرْعَيْتَـهُ وَأَتَـاكَ مِنْ حِنْثِ اليَمِيْـنِ بِمَخْرَجِ

وعندما أوفده قتيبة بن مسلم إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، لِيُخْبِرَهُ بِما

(1) الجوهر النفيس في سياسة الرئيس : 50، والقول للقائد مسلمة بن عبد الملك .
(2) تاريخ الطبري : 5/ 272 .
(3) المصدر نفسه : 5/ 270، وتنظر بقية القصة في الصفحات : 5/ 271 – 272 .
(4) المصدر نفسه : 5/ 271.

تم، تُوفي في الطريق بقرية من قرى فارس. فرثاه سوادة منوِّهاً بصفاته التي تحلّى بها، إذ كان من أبرزها: بديهته الحاضرة التي لا تتوفر لأحد في كل الظروف. فقال[1]:

لله قَبْرُ هُبَيْرَةَ بْنِ مُشَمْرِجٍ ... مَاذَا تَضَمَّنَ مِنْ نَدَىً وَجَمَالِ
وَبَدِيْهَةٍ يَعْيَا بِهَا أَبْنَاؤُهَا ... عِنْدَ احْتِفَالِ مَشَاهِدِ الأَقْوَالِ
كَانَ الرَّبِيْعُ إِذَا السُّنُوْنُ تَتَابَعَتْ ... وَاللَّيْثُ عِنْدَ تَكَعْكُعِ الأَبْطَالِ
فَسُقَتْ بِقَرِيَةٍ حَيْثُ أَمْسَى قَبْرُهُ ... غُرٌّ يَرُحْنَ بِمُسْبِلٍ هَطَّالِ

ومن القادة الأجواد المعدودين في الجود، القائد طلحة الطلحات[2] « إذ كان أجود أهل البصرة في زمانه»[3]. قال عنه قُبيصة بن جابر: «صَحِبْتُ طلحة بن عبيد الله، فما رأيت رجلاً أعطى للجزيل من مالِ الله عن غير مسألة منه»[4]. وهذا ما حَمَلَ الشاعر عُبيْد الله بن قيس الرقيات على تمثّل هذه المعاني في رثائه. إذ شبَّهَهُ بالبحر في سِعَةِ كرمه، وهو كَرَمٌ مقترن بالحاجة الماسَّة وقت هبوب الرياح الباردة، وقد أصاب الناس القحط والجدب، وانجحرت كِلابهم حتى ما تستطيع الهرير من شدَّة الزمهرير. في هذه الأحوال الصَّعبة نَجِدُ جِفانَهُ مملوءَةً بالطعام، ثم ينتقل الشاعر إلى تصوير شجاعته، فيصفه بالليث - إذا ما راية الموت بالمنايا تدور - يُقْدِمُ ولا يهاب الرَّدى، ولشجاعته تتفاداه الأُسود. فيقول[5]:

---

(1) تاريخ الطبري: 5/ 271.

(2) وهو طلحة بن عبيد الله بن خلف الخزاعي. والطلحات المعروفون بالكرم هم: طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمي، وهو الفيَّاض. وطلحة بن عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي، وهو طلحة الأجواد. وطلحة بن عبد الله بن عوف، وهو طلحة النَّدى. وطلحة بن الحسن بن علي، وهو طلحة الخير. وطلحة بن عبيد الله بن خلف الخزاعي، وهو طلحة الطلحات. وسُمي بذلك لأنه أجودهم. ينظر المعارف لابن قتيبة: 419، وتهذيب الكمال: 9/ 243، وتهذيب التهذيب: 5/ 16.

(3) معجم ما استعجم للبكري : 2/ 508 .

(4) تاريخ دمشق : 19/ 183 .

(5) ديوانه : 17 – 18 .

إِنَّمَا كَانَ طَلْحَةُ الخَيْرِ بَحْراً شَقَّ للمعْتَفِينَ مِنْهُ بُحُوْر[1]
ثُمَّ كَانَ الَّذِي تَلقَّاكَ مِنْهُ نَائِلٌ وَاسِعٌ وَسَيْبٌ غَزِيْرُ
حَمِسٌ بِاللِّوَاءِ لَيْثٌ إِذَا مَا رَايَةُ المَوْتِ بِالمَنَايَا تَدُوْرُ
حِيْنَ لاَ يَقْدُمُ الجَبَانُ وَلاَ يَصْـ ـبِرُ إِلاَّ المُشَيَّعُ النِّحْرِيْرُ
تَتَفَادَى مِنْهُ إِذَا عَرَفَتْهُ خَشْيَةَ المَوْتِ أُسْدُهَا والنُّمُوْر
فَهْوَ سَهْلٌ لِلأَقْرَبِيْنَ كَمَا يُرْ تَادُ غَيْثٌ عَلَى البِلاَدِ مَطِيْرُ
وَيُبَارِي الصِّبَا بِجَفْنَتِهِ الشِّيْـ ـزى إِذَا هَاجَتْ الصِّبَا الزَّمْهَرِيْرُ[2]
حِيْنَ لاَ يَنْبَحُ العَقُوْرُ مِنَ القَـ ـرِّ وَلاَ يُغبقُ الوَلِيْدُ الصَّغِيْرُ

لقد كان طلحة الطلحات كما وصفه الشاعر كُثَيِّر عزَّة بقوله: «... كان بحراً زاخِراً وغيماً ماطِراً، ولقد كان هطَل السَّحاب، حلو الخطاب، قريب الميعاد، صعبَ القياد، إذا سُئِلَ جاد، وإن جاد عاد، وإن حبا غَمَرْ، وإن ابتلى صَبَرْ، وإن فُوخِرَ فَخَرْ، وإن صارعَ بَدَرْ، وإن جُنِيَ عليه غَفَرْ، سَليط البيان، جريء الجنان، بالشرف القديم والفرع الكريم، والحسب الصَّميم، يبذلُ عطاءَهُ، ويرفِدُ جلساءَه، ويُرْهِبُ أعداءَه»[3].

وقد تكررت صورة الكرم في أيام الشتاء الباردة، حينما يحتَبِس المطر، ويستبد الجوع بالناس. وإنما جاء تأكيد الشعراء لهذه القيمة، وفي هذه الأوقات بالذَّات؛ لتأكيد أهمية هذا القائد في مجتمعه، وتصوير الفراغ الذي تركه بعد موته. فضلاً عن اتِّصافه بالعفَّة، والشجاعة، إذ كان ممن يُتَّقى به العدو ويُحمى الثَّغر. جاء ذلك في رثاء الشمردل ابن شُريك لأخيه وائل. إذ يقول[4]:

لَعَمْرِي لَئِنْ غَالَتْ أَخِي دَارُ غُرْبَةٍ وَآبَ إِلَيْنَا سَيْفُهُ وَرَوَاحِلُهُ

---

(1) المعتفون: ذوو الحاجة من الفقراء وغيرهم.
(2) الشّيز: خشبٌ تُعمل منه الجِفان.
(3) تهذيب الكمال: 13/ 401.
(4) شعراء أمويون: 2/ 450، وقد عدها أبو عبيدة من مختار المراثي.

وَحَلَّتْ بِهِ أَثْقَالَهَا الأَرْضُ وَانْتَهَى بِمَثْوَاهُ مِنْهَا وَهُوَ عِفٌّ مَآكِلُهْ
لَقَدْ ضَمَّنَتْ جَلِدَ القُوَى كَانَ يُتَّقَى بِهِ جَانِبَ الثَّغْرِ المُخَوِّفِ زَلَازِلُهْ
وَصُولٌ إِذَا اسْتَغْنَى،وَإِنْ كَانَ مُقتراً مِنَ المَالِ لَمْ يجْفِ الصَّدِيْقَ مُسَائِلُهْ
هضومٌ لأَضْيَافِ الشِّتَاءِ كَأَنَّمَا يَرَاهُ الحَيَا أَيْتَامُهُ وَأَرَامِلُهْ
رَخِيْصٌ نَضِيْجُ اللحْمِ مُغْلٍ بِنَيِّئِهِ إِذَا بَرَدتْ عِنْدَ الصَّلاَءِ أَنَامِلُهْ

وفضلاً عن عقر الذَّبائح وتقديمها للجياع في أيام الشتاء الباردة، فقد امتدح الشعراء خلَّةً أُخرى لاتقلُّ عن سابقتها أهميّةً. وهي تَحَملُ الدَّين عن الغارمين ودفع الدّيات عمن يعجز عن دفعها. فقد قيل: «الزَّعيم غارم»[1]. ومن هؤلاء الزعماء والقادة: المنذر بن الجارود العبدي، إذ عدَّ الشاعر خُلَيْد عَينين أن الجود والندى قد انقطع عن السّائلين بعد موته. فقد كان ممن يعقر النوق، ويحمل الدَّيْن عن الغارمين. فأيُّ فتىً – أجنَّت هذه الأرضُ في بطنها – لِدِيْنٍ وَدُنْيا. فيقول[2]:

قَدْ ذَهَبَ الجُوْدُ وَأَوْدَى النَّدَى وَانْقَطَعَ العُرْفُ عَنِ السَّائِلِيْنِ
لله قصْدَار وَأَكْنَافهَا أَيُّ فَتَى دُنْيَا أَجَنَّتْ وَدِيْن[3]
عَقْرَةُ البَيْتِ إِذَا مَا شَتَا حملةُ النَّقلِ عَنِ الغَارِمِيْنِ

وهذا حُمَيْد بن مسلم يبين أثر موت القائد عبد الرحمن بن مخنف في قومه. بعد أن توجه بالخطاب إلى قَتَلَتِهِ قائلاً: إذا قتلتم أبا حكيم! فلطالما شَدَّ عليكم وقتل منكم الأبطال. ولا يُخْفِي مدى الفاجعة التي حلَّت بقومه. إذ كان يحملُ عنهم الأثقال. فقال[4]:

إِنْ يَقْتُلُوكَ أَبَا حَكِيْمٍ غُدْوَةً فَلَقَدْ تَشُدُّ وَتَقْتُلُ الأبطالا

(1) اللسان مادة (غَرَمَ) : 12/ 346، والنهاية في غريب الأثر : 3/ 363 .
(2) تاريخ دمشق : 60/ 285 .
(3) قصدار : وهي ناحية مشهورة قرب غزنة من بلاد الهند ، وقيل بلاد السند . ينظر معجم البلدان للحموي : 4/ 353 .
(4) تاريخ الطبري : 5/ 48 – 49 .

أَو يَتْكُلونا سَيِّداً لِمُسَوِّدٍ سَمحُ الخَليقَةِ ماجِداً مِفْضَالا
فَلِمِثْلِ قَتْلِكَ هدَّ قَومُكَ كُلَّهُمْ مَنْ كانَ يَحمِلُ عَنهُمُ الأثقالا
مَنْ كَانَ يَكْشِفُ غُرمَهُمْ وَقِتالَهُمْ يَوْماً إذا كانَ القِتَالُ نِزَالا

وإذا كان للندب والتأبين نصيبٌ وافرٌ في قصيدة الرثاء؛ فإنها لم تخلو من العزاء لما له من أَثَرٍ مهم، إذ يساعد في الصبر على محنة الموت ومواساة أهل الفقيد ودعوتهم إلى السلو ونسيان المصيبة. فالصبر محمود والجزع مذموم، فقد كان العرب «يتحاضُّون على الصبر ويعرفون فضله ويعيرون بالجزع أهله، إيثاراً للحزم، وتزيناً بالحلم، وطلباً للمروءة، وفراراً من الاستكانة إلى حُسن العزاء»[1] .

وكثيراً ما عاد الشعراء بعد البكاء والأنين واللوعة إلى أنفسهم، ورأوا أن كل ما يصنعونه لا يُغني عنه شيئاً، لأن المحنة في حقيقتها محنة الناس جميعاً .

وقد أخذ العزاء والتأسي ضروباً مُتَعدِّدة، فمن الشعراء من أَسَرَّ حُزنه ولم يبح به واحتسب أمره عند الله وصبر لما أصابه، ثمَّ عاد ليؤكد قيمة صبره في أشد المواقف تأثيراً في النفس، ساعة يُهالُ التراب على الفقيد، فلا يُرى بعدها أبداً. كما جاء في رثاء جرير لعبد العزيز بن الوليد. إذ يقول:[2]

وكُلُّ بَني الوَلِيْدِ أسرَّ حُزْناً وَكُلُّ القَوْمِ مُحْتَسِبٌ صَبُورُ
وَكَيْفَ الصَّبْرُ إذ نَظَروا إليْه يُرَدُّ على سَقَائِفِهِ الحَفِيْرُ[3]

ومنهم من حثَّ أهل الفقيد على الصبر، لأن ما أصاب فقيدهم سَيَصيرُ إليه كل الناس. إذ دخل الشاعر عبد الله بن ذكوان على عبد الله بن خازم يُعزِّيهِ بابنه محمد، فأنشأ يقول[4]:

أبا صالحٍ صَبْراً فكُلُّ مُعَمَّرٍ يَصِيْرُ إلى ما صَارَ فيهِ مُحمَّدُ

---

(1) التعازي والمراثي للمبرد: 4 .
(2) ديوانه: 225 .
(3) الحفير: وهو القبر ، ينظر اللسان مادة (حَفَرَ): 4/ 207 .
(4) تاريخ دمشق: 28/ 9.

فأجابه عبد الله بن خازم مؤكِّداً أن الصبر من أخلاقه وسجاياه قائلاً:

أَعْــزَى عَلَيهِ وَالـعَـزاءُ سَـجِيَّتِي وَمَا أَنَا بِالآسِي عَلَى حَدَثِ الدَّهْرِ

ومن الشعراء مَنْ لم يُظهر صبراً لا لأنه أنكر جدوى الصبر وفضله على المصاب؛ بل لأنه اعتبر أن البكاء قد يطفئ حرارة صدره اللاَّهبة. ويُظهر معها عمق الجرح الذي كُلِمَ بِهِ، ويبين منزلة هذا القائد في قومه، وكأن الجزع أصبح عند هذا الشاعر دواءٌ له، ووفاءً لهذا القائد. فهذا الفرزدق يُعلِنُ صراحةً أنْ لا عزاء ولا صبر بعد القائد بشر بن مروان؛ لأنه ميمون النقيبة قوي العزيمة فيقول[1]:

أعينيَّ إلاَّ تُسْـعِداني أَلُمْكُما فما بَعْدَ بِشْرٍ من عَـزاءٍ ولا صَبْر
وَقَـلَّ جـداءً عَبـرَةٌ تَسْفَحَـانِهـا عَلى أنَّها تَشفي الحَرارَةَ في الصـَّدْرِ

ثُمَّ يعود بعد أن أطفأت هذه الدموع حَرارة صدره، وهدأ انفعاله واستقرَّت نفسه إلى الإقرار بحقيقةٍ واقعة، وهي أن لا شيء يقف في وجه الموت أو يمنعه فيقول[2]:

وَلَـوْ أَنَّ قَوْماً قَاتَلوا المَوتَ قَبْلَنَا بِشَيْءٍ لَقاتَلْنَا المَنِيَّةَ عَـنْ بِشْـرِ
وَلكِنْ فُجِعْنَـا وَالرَّزِيْئَـةُ قَبْلَنَا بِأَبْيَضَ مَيْمُوْنِ النَّقيبَةِ وَالأَمْـرِ

أما الحكم بن عبدل[3]، فقد رأى أن صبره على وفاة بشر بن مروان، دواءٌ في حد ذاته، للهم الذي أصابه. فحثَّ نفسَهُ عليه وأخذها به، وهنا يكون العزاء للنفس أبلغ أثراً وأكثر صدقاً، ويدل على جانب مضيء ومشرق يستطيع أن ينتشل النفس من الهم واليأس الذي ولَّدته الفجيعة إلى الطمأنينة والرَّاحة النفسيَّة فيقول[4]:

أَصْبَـحْـتُ جَـمَّ بـلابِلِ الصَّـدْرِ مُتَعَجِّبـاً لِـتَصَــرُّفِ الدَّهْـرِ

---

(1) ديوانه: 1/ 217 .

(2) ديوانه : 1/ 217.

(3) شـاعرٌ مقدَّم، هجَّاء، من شـعراء بني أُمية، كان أعرج أحدب، مولده ومنشـأه فـي الكوفة، (ت نحو 100) هـ. ينظر الأعلام للزركلي: 2/ 296 .

(4) شعره: 108.

مَـا زِلْـتُ أطلُبُ في الـبِـلادِ فتـىً ... لِيَكُون لِـي ذُخْـراً مِـنَ الذُّخْـرِ
حَـتَّـى إذا ظَـفَـرَت يَـــداي بِـهِ ... جَـاءَ الـقَـضـاءُ بِحِيْنِهِ يَـسْـري
وإنِّـــي لفي هـــمٍّ يُباكِرُني ... مِـنْـهُ وَهــمٍّ طـارقٍ يَسْـــري
فَـلأصـبـــرنَّ وَمــا رأيـــتُ دوىً ... لِـلـهـمِّ غَـيْــرَ عـزيـمَــةِ الـصَّـبْـرِ

وهذا زياد الأعجم لا يجد له حيلَةً إلاَّ الصبر، بعدما تركه المغيرة بن المهلب، إذ كان في حياته الغياث له. فأصبح بعد موته في زمن كالح، فيقول[1]:

كُنْتَ الغِيـاثَ لأرْضِـنَـا فتَرَكْتَنَا ... فَاليَـوْمَ نَصْبِـرُ لِلزَّمَانِ الكَالِحْ[2]

ويتوجَّه الفرزدق إلى قومه بني تميم، فيطلب منهم الصبر على موت القائد وكيع ابن أبي سود الغدَّاني، لأن الموت وكما يصفه منهلٌ يصِيرُ إليه كل صابرٍ وجزوع فيقول[3]:

فَصَبْراً تَمِيْمُ إنَّمَا المَوْتُ مَنْهَـلٌ ... يصِيْـرُ إلـيْـــهِ صَـابِـرٌ وَجَــزُوعُ

ومن الشعراء مَنْ يجد لنفسه عُذْراً إن غلبه البكاء، كما فعل نصيب بن رباح، لأنَّ عبد العزيز بن مروان يستحق كل هذا البكاء في نظره، لكنه يستدرك فيفتخر بأنه يغلب الأسى والحزن بالصبر فهو لذلك أهلٌ إذ يقول[4]:

فَإِنْ أَبْكِهِ أُعْـذَرْ وَإِنْ أَغْلِبِ الأَسَى ... بِصَبْرٍ فَمِثْلِي عِنْدَمَا اشْتَدَّ يَصْبِرُ

كما اتخذ بعض الشعراء من موت الرسول ﷺ وأصحابه مبعث عزاء له ولأهل الفقيد، إذ جاء في الحديث الشريف: «إذا أصابت أحدكم مصيبة فليتذكّر مُصابه بي، فإنها من أعظم المصائب»[5]. لقد تمثَّل الفرزدق بهذه المعاني حينما

---

(1) شعره : 67 .
(2) الكالح : الأسود . ينظر اللسان مادة (كَلَحَ) : 2/ 209 .
(3) ديوانه : 1/ 409 .
(4) ديوانه : 87 .
(5) سنن الدارمي : 1/ 40 .

خاطب الحجاج بعد موت أخيه وابنه اللذَيّنِ ماتا في جمعةٍ واحدة. بقوله[1]:

لإن جَـزَعَ الحجَّاجُ مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تَكُوْنُ لِمَحْزُونٍ أَجَـلَّ وَأَوْجَعَا
مِنَ المُصْطَفَى وَالمُصْطَفَى مِنْ خِيَارِهِمْ جَنَاحَيْـهِ لَمَّـا فَارَقَـاهُ فَوَدَّعَـا

وقد صدق من قال[2]:

إصْبِـرْ لِكُلِّ مُصِيْبَـةٍ وَتَجَلَّـدِ واعْلَـمْ بِـأَنَّ الـمَـرءَ غَيْرَ مُخَلَّدِ
واصْـبِـرْ كَما صَبَرَ الـكِـرَامُ فَإِنَّهـا نُوَبٌ تَنُوبُ اليَومَ وَتُكْشَفُ في غَدِ
وإِذا أَتَتْكَ مُصِيبَـةٌ تُسْجَى لَهـا فاذْكُـرْ مُصَابَكَ بالنَّبِيِّ مُحَمَّدِ

وفي مناسبةٍ أخرى يذكُرُ موت الخليفة أبي بكرٍ الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويجعله عزاءً لبني تميم في فقدِ فارسهم وكيع بن أبي سود الغدَّاني، فلو كان منصب الخلافة دافِعاً لموت أبي بكر؛ لكان لشرف وكيع على قومه دافعاً له من الموت أيضاً فيقول[3]:

فَـإِنَّ الَّـذي نَـادَى وَكِيْعـاً فَنَالَهُ تَـنَـاوَلَ صِدِّيـقَ النَّبِيِّ أَبَـا بَكْـرِ
فَلَوْ أَنَّ مَيْتـاً لاَ يَـمُـوْتُ لِعِـزِّهِ عَلَى مَوتِهِ مَا مَاتَ صَاحِبُ ذا القَبْرِ

ومنها أيضاً، التأسِّي والعزاء بذكر مَنْ هلك مِنَ الملوك والأمم البائدة، وهذا ما تمثَّله الفرزدق في تعزيته للحجَّاج عن أخيه وابنه، إذ عَدَّ أن موت الخليفة هو وحده أكبر من مصيبة الحجاج. ولا صبر يوازي صبره بعد ذلك، ثم ذكَّرَهُ بأن الموت الذي أفنى من كانوا قبلنا من الأمم، كقوم عادٍ وتُبَّعْ، هو الذي أفنى أخاك وابنك، ثم أضاف الفرزدق معنىً جديداً في العزاء هو (فقد الدِّين) إذ إنه مصيبةٌ لا توازيها مصيبة أُخرى، إذا ما قورنت بفقد أخيه وأبنه، والهدف من ذلك إنما هو التخفيف من مصاب أهل الفقيد وحثِّهم على الصبر، وهذه هي الغاية من العزاء، فيقول[4]:

(1) ديوانه : 1/ 397 .
(2) وردت هذه الأبيات في كتاب سبل الهدى والرشاد : 12/ 273، بدون نسبة .
(3) ديوانه : 202-203.
(4) ديوانه : 1/ 202.

فَـلاَ يَـوْمَ إلاَّ يَـومُ مَـوْتِ خَلِيْفَـةٍ عَلى النَّاسِ مِنْ يومَيْهِما كَانَ أفْجَعا
وَفَضْلاهُما مِمَّـا يُعَدُّ كِلاَهُمَـا عَلى النَّاسِ مِنْ يومَيْهِما كَانَ أوسعا
فَلاَ صَبْرَ إلاَّ دُوْنَ صَبْرٍ عَلَى الَّذِي رُزِئْـتَ على يَـوْمٍ مِنَ البأسِ أشْنَعا
على ابنك وابن الام إذ أدركتهما الـ ـمَنَايَا وقـَدْ أَفْنَيْنَ عـاداً وَتُبَّعا
ولم يكن الحجَّاج إلاَّ علـى الَّـذي هُوَ الدَّيْنُ أَوْ فَقْدُ الإِمـامِ لِيَجْزَعا

وقد جعل بعض الشعراء ما يناله الفقيد من جزاء في الآخرة، خير عزاءٍ له ولأهله، فقد ذهب المرثي إلى رحمة الله ... إلى الرفيق الأعلى حيث النعيم المقيم، رفيق النبي محمد وصحبه، جاء ذلك في رثاء الفرزدق للجرّاح بن عبد الله الحكمي. إذ يقول[1]:

لَقَدْ صَبَرَ الجَرّاحُ حَتَّى مَشَتْ بِهِ إلَـى رَحْـمَـةِ الله السُّيوفُ الصَّوارِمُ
فَأَصْبَحَ فِي القَوْمِ الَّذِيْنَ مُحَمَّـدٌ أَخُوْهُمُ وَمَنْ يَلْحَقْ بِهِمْ فَهْوَ سَالِمُ
جُزُوا بالسَّرِيْرَاتِ الَّتِي فِي قُلُوْبِهِم جَزَاهُمْ بِهَا مُحْصِي السَّرَائِرِ عَالِمُ
إِلَـى الغُرْفَةِ العُلْيَـا رَفِيْق مُحَمَّد مُقِيْماً وَلاَمِنْهَا هُوَ الدَّهْرُ رَائِـمُ

وشـبيهٌ بذلك قول عبد الرحمن بن جمانة الباهلـي في رثاء قتيبة بن مسـلم الباهلي، إذْ دعته المنايا فاستجاب لربِّه، وراح إلى جنَّاتٍ عرضُها السماوات والأرض. فقال[2]:

دَعَـتْـهُ المَنَايَـا فَاسْـتَجَابَ لِرَبِّهِ وَرَاحَ إِلَـى الجَنَّاتِ عِفّاً مُطَهَّرَا

أمَّا جرير فقد ذكر أجر الشَّهيد وما أعدّه الله له من الحور العين، إذ هي في انتظاره، فقد جاء في الحديث الشريف: «للشهيد عند الله ست خِصال ...{ منها} ويُزوَّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين»[3]. قالها وهو يُخاطِبُ قَتَلَة قتيبة،

---

(1) ديوانه : 2/ 251.
(2) البداية والنهاية : 9/ 190 – 191 .
(3) سنن الترمذي : 3/ 106، وينظر سنن ابن ماجه : 2/ 936 .

فَقال[1]:

عَلَى أَنَّـهُ أَفْـضَـى إِلَـى حُـوْرِ جَنَّةٍ وَتُطْبِقُ بِالبَلْوَى عَلَيْكُمْ جَهَنَّمُ

هذا وقد تعددت الوسائل التي يُعلَنُ فيها عن موت القادة أو استشهادهم، ولعلَّ من أبرز هذه الوسائل وأشهرها، ما شاع عند العرب من نعي الميت وذلك بالمناداة بصوت مرتفع حتى يسمع الجميع، وهو ما يطلق علية اسم الناعي، أمَّا النوع الآخر وهو ما يرسل بالبريد من صحف يكتب فيها خبر الموت. كما جاء في نعي القائد عبد الملك بن بشر بن مروان. إذ يذكر الفرزدق أنَّ خبر موته سيأتي أباه في صحيفةٍ مدرجةٍ بيضاء، تحوي خبراً عظيماً تكاد تذوبُ له الجِبال. فيقول[2]:

سَيَأْتِي أَبا مَـروَانَ بِشْراً صَحِيْفَةٌ بِها مُحْقَبَاتٌ سَـيْرُهُنَّ خَبِيْـبُ
كَـأَنَّ حُـزُونَ الأَرضِ حِينَ يَطَأْنَهُ سهُوْلٌ وَمـا يُصْعِدْنَ فِيْهِ صَبُوبُ
وَمُـدْرَجَـةٍ بَيْضَاءَ فِيْهَـا عَظِيْمَةٌ تَكَادُ لَها الصُّمُّ الصِّلابُ تَـذُوبُ

ومما جاءَ نعيه في البريد، خبر موت القائد محمد بن يوسف الثقفي أخي الحجَّاج وواليه على اليمن، وابن الحجاج محمد، إذْ تمنَّى الفرزدق لِحامِل البريد أنْ يُسقى السُمّ الزُعاف، ولا يصل بهذا الخبر المفجع الذي تخشع له الجبال. فيقول[3]:

وَمَـا رَاعَ مَنْعِياً لَـهُ مِـنْ أَخٍ لَـهُ وَلاَ ابْن مِنَ الأَقْـوَامِ مِثْلاَهُمَا معَا
فَلَيْتَ البَرِيْدَيْنِ اللذَيْـنِ تَتَابَعَـا بِمَا خَبَّرا ذَاقَـا الزُّعَافَ المُسَلَّعا[4]
أَلاَ سَلَتَ اللهُ ابْـنَ سَلْتَى كَمَا نَعَى رَبِيْعاً تَجَلَّى غَيْمُهُ حِيْنَ أَقْلَعَـا

ومما يُلاحظ أنَّ صورة الناعي قد تبدو غيرَ مرغُوبٍ فيها في بعض الحالات،

---

(1) حماسة الظرفاء : 1/ 119، والبداية والنهاية : 9/ 191، وقد أخل بهما ديوانه المنشور .

(2) ديوانه : 1/ 40 .

(3) ديوانه : 1/ 398 .

(4) الزعاف: الموت، ويقال : موت زعاف ، ينظر اللسان مادة (زعف) : 9/ 134 ، والسلع : السُّم. المصدر نفسه مادة (سلع) : 8/ 160 – 161 ، أي يُسْقى السُّم القاتل .

لِمَا يُذِيْعُهُ من الأخبار المُحْزِنة، وقد يُدْعَى عليه كما سبق، وربَّما يُسَبُّ وَيُلْعَنْ، وَغالِباً ما يرافق ذلك إظهار الجزع وعدم الصبر على المُصيبة، وإلاَّ فما ذنبُ النَّاعي؛ هل يستطيع دفع المَوت عمَّن يَنْعاهُ؟ فعبيد الله بن قيس الرُّقَيِّات يَعُد أن اليوم الذي سَمِعَ فيه نعي طلحة الطلحات كانَ يوماً طويلاً غابَ عنه فيهِ صبرُهُ وَكَثُرَتْ لوعتُهُ وحسْرَتُهُ فيقول[1]:

لَـعَـنَ اللهُ مَـــنْ نَـعَـــاكَ إلِيْنَـا ... إذْ لَقِيْنَا هُـبَـيْـرَةَ بـنَ فُـراتِ

ظَـلَّ لِـيْ عِـنْـدَ ذَاكَ يَـوْمٌ طَـوِيْـلٌ ... غَائبَ الصَّبْرِ شَـاهِـدَ الحَسَرَاتِ

وَمِثْلُهُ ما صَرَّحَ بِهِ كُثَيِّر عزَّة عندما سمع بنعي عبد العزيز بن مروان، إذْ ضاق ذرعاً وقلَّ صبراً. فقال[2]:

أَتَـانِـي وَدُونِــي بَطْنُ غُــوْلٍ وَدُونَـهُ ... عِمَادُ الشَّبا من عَيْنِ شَمْسٍ فَعَابِدِ

نَعْيُ ابْـنِ لَيْلَى فَأتبعْـت مُصِيْبَةً ... وَقَـدْ ضِقْتُ ذَرْعـاً وَالتَّجَلُّدُ آيِـدُ[3]

وهناك من تلقى نبأ الموت من الناعي فلم يجزع، وإنَّما ردَّ ذلك إلى قضاء الله وقدره، إذ ليس لقضائه من دافع. كما جاء في رثاء ابن عرس العبدي لأسد بن عبدالله فقال[4]:

نَـعـى أســد بن عـبـد الله نــاعٍ ... فَـرِيْـعَ القَلْـبُ للمَـلِكِ المُطَـاعْ

بِبَلَـخٍ وَافَــقَ المِقْـدَارَ يَسرِيٍ ... وَمَـــا لِـقَـضَـاءِ رَبِّــكَ مِـنْ دِفَـاعْ

وعلى النقيض من ذلك، وُجِدَ مَنْ يفرح لسماع صوت الناعي، لأنه ينعى الخصم في نظر الشاعر، مما يدخل ضمن الرثاء الهجائي، ومن أمثلته، ما قاله الفرزدق لمسكين الدَّارمي بعد أن رثى الأخير، زياد بن أبيه، فأجابه قائلاً[5]:

---

(1) ديوانه: 21 .

(2) ديوانه: 320 – 321.

(3) التجلُّد آيِد: أي ثقيل . ينظر اللسان مادة (أَيَدَ): 3/ 77 ، ومجمع البحرين: 1/ 130.

(4) البداية والنهاية لابن كثير:9/ 356، وتاريخ دمشق: 8/ 320.

(5) ديوانه: 1/ 201.

أَمِسْكِيْنُ أَبْكَى اللهُ عَيْنَيكَ إِنَّما جَرى فِي ضَلالٍ دَمْعُها فَتَحَدَّرا
أَقُولُ لَهُ لَمَّا أَتَاني نَعْيهُ بِهِ لا بِظَبْيٍ بِالصَّرِيْمَةِ أَعْفَرا

ولم يكن الناعي وحده الذي يقوم بالإبلاغ عن خبر الموت، إذ نجد من الطيور أيضاً من تنعى الميت، ولكن بطريقتها الخاصَّة، مثلما نعَتْ خالد بن خالد بن الوليد، كما يقول إسماعيل ابن عمار[1]:

سَنَحَتْ لِي يَوْمَ الخَميسِ غَداةَ الفِطْرِ طَيْرٌ بالنَّحْسِ لا بالسُّعودِ
فَتَعيَّفْتُ أَنَّهُنَّ لأَمْرٍ مُفْظِعٍ مَا جَرَيْنَ فِي يَوْمِ عِيدِ
فَنَعتْ خالد بن أروى وَجَلَّ الخَطبُ فِقْدَانُ خالد بن الوليد

وبالمقابل أيضاً، لم تكن مهمَّة النَّاعي مقتصرةٌ على إبلاغ الناس بهذا الخبر، إذ تعدَّاهم فنعى القائد إلى خيله التي فقدته إذا اشتعلت الحرب واشتدَّ أُوارُها، وألجأت كُلَّ مَنْ يُواجِهها إلى جُحرِه. كما جاء في رثاء زياد الأعجم للمغيرة بن المهلب. إذْ يقول[2]:

فَانْعِ المُغِيرَةَ لِلمُغِيْرَةِ إذْ غَدَتْ شَعْواءُ مُجْحِرَةٌ لِنَبْحِ النَّابِحِ[3]

وخلاصة القول: إنَّ مضامين رثاء الشعراء للقادة، لم يختلف عن رثاء الخلفاء؛ إلاَّ ما كان من اختلاف المهام الموكلة إلى كلٍّ منهما، ففي رثاء القادة يكثر الحديث عن الواجبات التي كان يؤديها هؤلاء القادة تجاه الدولة والخليفة، من حفظ النظام، والقضاء على الفتن، وحماية الثغور، وشمل الحديث عن البلاد التي افتتحوها والحصون التي أباحوها. كما اتسم رثاء القادة بالفروسية والبطولة، فأصبحنا نجد ذكر الخيل والفرسان، والسيف والقتال، مما يلامس طبيعة المهمة التي يليها القائد في المعركة. في حين كان التركيز في رثاء الخلفاء على المهام السياسية التي يؤدونها، والخسارة الكبيرة التي لحقت بالدين والدنيا لفقدهم .

---

(1) الأغاني: 11/ 376 .

(2) شعره : 64.

(3) المغيرة الأول هو المغيرة بن المهلب ، والثاني الخيل المغيرة .

المبحث الثالث

رثاء الخلفاء للخلفاء والقادة

كان للتبدُّل الذي حصل في طبيعة الحكم في العصر الأُموي، أثرٌ في تقرير مبدأ الوراثة بدلاً من نظام الخلافة الراشدة، إذ إن الخليفة معاوية بن أبي سفيان أول من أحدث نظام ولاية العهد، فعهد بها في حياته لابنه يزيد[1]. ثم تبعه الكثير من الخلفاء على هذا المنهج الجديد الذي لم يكن متبعاً في السابق .

ولكن هذه الوراثة لم تتقيد بأن يتْبع الابن أباه في ولاية العهد كما كان ليزيد ابن معاوية، أو لمعاوية الثاني بعد يزيد، فقد كان الوليد الأول وسليمان ويزيد الثاني وهشام أخوة. أي أنهم أبناء الخليفة عبد الملك بن مروان، كما أن خلافة عمر بن عبد العزيز كانت بين خلافة سليمان ويزيد الثاني. وكان العهد الذي يكتبه الخليفة الحاكم يُحترَم من البيت الأموي بصورة عامّة[2]. وكانت العلاقة التي تربط هؤلاء الخلفاء مع ولاة عهدهم بين الإيجابية في أكثر الأحيان، وبين السلبية في أحيانٍ أُخَرْ. فمن الحال الإيجابية ما كان سائداً بين الابن وأبيه كما في حال يزيد مع معاوية، إذ حظي باهتمامه ورعايته منذ صغره، فأسكنه معه في سقيفته «وكان باب يزيد في سقيفة معاوية»[3]. وأشرف على إعداده وتربيته على نحوٍ مباشر حتى يتولى المسؤولية ويتحمل أعباء الخلافة، فاختار له المؤدبين[4]. فضلًا عن

---

(1) ينظر نسب قريش للزبيري : 127، ومآثر الأنافة في معالم الخلافة للقلقشندي : 1/ 111، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا : 1/ 471.

(2) ينظر النظم الإسلامية، د. عمر فاروق وآخرون : 26 .

(3) الأغاني : 8/ 151 .

(4) كان مؤدب يزيد يدعى «دغفل السدوسي».

إشراكه في الحملات الحربية الموجهة إلى الثغور[1]. وتنصيبه أميراً للحج سنة (51 هـ)[2]. واستمرت هذه الحال عند الخلفاء الآخرين إلاَّ في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك الذي خلع ولي عهده الوليد بن يزيد لأسباب تتعلَّق بتصرُّفاته، وعدم أَهليته لمنصب ولاية العهد[3].

وقد انعكس هذا الوضع بين الخلفاء وولاة عهدهم بإيجابيته وسلبيته على ما قيل فيهم بعد موتهم من ولاة عهدهم والخلفاء من بعدهم. فمن الحال الإيجابية ما رثى به يزيد بن معاوية أباه بعد أن أتاه خبر موته وهو بالصائفة. فصوَّر حزنه وألمه على وفاة والده، حتى أن الأرض شاركته حزنه فكادت تتحرك، وجبالها تقلع لهول الحدث. وكثيراً ما يُلجأ إلى مثل ذلك للتدليل على أن شيئاً عظيماً قد فُقِدَ وَزَال، وبأن حادِثاً جَلَلاً قد وقع. ولم يكن يزيد وحده! فما إن وصل إلى داره حتى سمع صوت أُخته رمْلة تبكي والدها فتفطر قلبه لذلك، ثُم مالبث أن هدأت نفسه وارعوى قلبه، فاتجه إلى تأبينه بما يليق به كخليفة، وبالتالي ما سيورثه هو بعده. فركَّزَ على هذا المجد التالد والحسب الرفيع، فهو الماجد في فعله، العريق في محتده، وريث حَسَبٍ لو قارع الناس جميعاً لَغَلَبَهُمْ. وهو المبارك الذي يُسْتَسْقى الغمام بِهِ ويُسْتَفْتَحْ بِهِ لكلِّ خَيْر. فيقول[4]:

جَـاءَ البَرِيْدُ بِقِرْطَاسٍ يَخـبُّ بِهِ ... فَأوجَسَ القَلْبُ مِنْ قِرْطَاسِهِ فَزَعَا

قُلْنَا لَكَ الوَيْلُ مَاذَا فِي صَحِيْفَتكُـمْ ... قَـالَ الخَلِيْفَةُ أَمْسَى مُثْبَتاً وَجِعَا

فَمادَتِ الأرْضُ أو كَـادَتْ تَمِيْدُ بِنَا ... كَـأنَّ أَغبَرَ مِـنْ أركَـانِـهِ انْقَلَعَا

لَمَّا انتَهَيْنَا وَبَـابُ الـدَّارِ مُنْصَفِـقٌ ... لِصَوْتِ رَمْلَةَ رِيعَ القلبُ فانْصَدَعا

---

(1) ينظر تاريخ الطبري : 5/ 232، في سنة (49) هـ، غزا يزيد بن معاوية الروم حتى بلغ القسطنطينية، ومعه عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والصحابي أبو أيوب الأنصاري.

(2) ينظر تاريخ الطبري : 5/ 286 .

(3) ينظر العقد الفريد: 4/ 214.

(4) شعره: 25، وأنساب الأشراف : 5/ 161.

ثُمَّ ارعَوى القَلْبُ شَيْئاً بَعْدَ طَيْرَتِهِ ... وَالنَّفْسُ تَعْلَمُ أنْ قَدْ أُثْبِتَتْ جَزَعَا
أودى ابنَ هِنْدٍ وأودى المَجد يتبَعُـهُ ... كَانَـا خَلِيْطـاً قَاطِنَيْـنِ مَعـاً
أَغـرَّ أبلَجَ يُسْتَسْقى الغَمَامُ بِـهِ ... لَو قارَعَ النَّاسَ عَنْ أحْسابِهِم قَرَعَا

وتُؤكد هذه المرثية أسلوب النعي الذي أشرنا إليه في المبحث السابق، وهو أن يُرْسَل خبر الموت في البريد. علماً أن معاوية كما قال العسكري في كتابه الأوائل: «أن معاوية أول من وضع البريد في الإسلام»[1]. ومن المظاهر الأخرى التي تكررت أيضاً، الدعاء على الناعي لما يأتي به من أخبار مفجعة. كقول يزيد لِمن نعى له معاوية: قلنا لك الويل ...

ومن الحال السلبية التي تنشأ بين الخليفة وولي عهده، ما حصل بين هشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد، مما دعى الوليد أنْ يُظهِر الفرحة حينما أتاه خبر موت هشام كما قال ابن أعثم: «إن الوليد أُغشِيَ عليه فرحاً ساعةَ سماعِهِ النَّبَأ»[2]. وذلك أن هشام لَمّا وجد من ولي عهده ما يُسيء إلى منصب ولاية العهد، حاول خلعه منها وتولية ابنه مسلمة بن هشام. فجعل يذكر الوليد بن يزيد وتَهَتُّكَهُ وإدمانَهُ على الشَّراب ويذكر ذلك في مجلسه [3]. وكان الوليد بن يزيد يقول لأصحابه: هذا المشؤوم قدَّمهُ أبي على أهل بيته فصيَّرهُ ولي عهده ثُمَّ يصنع بي ما ترون، وكان يتوعَّد بأخذ ثأره منه[4]. ولذلك عبَّر الوليد عن سروره لمهلك هشام فقال[5]:

هَـلَـكَ الأَحْـوَلُ المَشـؤُو ... مُ فَـقَـدْ أُرْسِـلَ الـمَطَر
وَمَـلَـكْـنَـا مـن بَـعْـدِ ذا ... كَ فَـقَـدْ أَوْرَقَ الشَّـجَر

---

(1) الأوائل، للعسكري: 1/ 344، الفخري في الآداب السلطانية: 106، تاريخ الخلفاء للسيوطي:200.
(2) الفتوح لابن اعثم : 8/ 139 .
(3) ينظر الأغاني : 7/ 7، وتاريخ الطبري : 7/ 209 .
(4) ينظر تاريخ مختصر الدول، لابن العبري : 202 .
(5) شعره : 55 .

فَاشْكُروا اللهَ إنَّهُ زَائِدٌ كُلَّ مَنْ شَكَرَ

ويبدو أنَّ ما وصف به هشام الوليد من الإدمان على الشَّراب كان صحيحاً، وهو ما عبَّر بِهِ عن نفسه حينما أتاهُ البريد ينعى هشام فقال[1]:

طَالَ لَيْلِي فَبِتُّ أُسْقى المُدَامَا إذْ أَتانِي البَرِيْدُ يَنْعَى هِشَامَا

وَأتانِي بِحُلَّةٍ وَقَضِيْبٍ وَأَتَانِي بِخَاتَمٍ ثُمَّ قَامَا

فَجَعَلْتُ الوَلِيَّ مِنْ بَعْدِ فَقْدِي يَفْضُلُ النَّاسَ نَاشِئاً وَغُلامَا

ذَلِكَ ابنِي وَذَاكَ قَرمُ قُرَيْشٍ خَيْرُ قرمٍ وَخَيْرهم أَعْمَامَا

ويتَّضح من الأبيات السَّابقة أن الوليد استبق الأحداث، وأعلن عن نيَّته إسناد ولاية العهد لابنه من بعده، وهو ما كان يُعِيْبُهُ على هشام.

وعندما توفي الخليفة معاوية بن يزيد، صلَّى عليه مروان بن الحكم، وشهد دفنه ثم قال: أتدرون من دفنتم؟ قالوا يزيد بن معاوية، فقال مروان: هو أبو ليلى[2]. ثم رثاه ببيتٍ من الشعر تنبَّأ به بما سيحدُثْ بعد موته من فِتَنْ، وفعلاً فقد كان لموت معاوية بن يزيد بعد تنازله عن الخلافة، أثرٌ في اضطراب حبل الأمن في بلاد الشام[3]. ويرى أحد الباحثين أنَّ وفاة يزيد واعتزال ابنه معاوية كان له تطوُّر في نظام الخلافة، مما ترك مجالاً واسعاً لِتصادُم القوى بعد موته[4]. وقد صدقَ مروان في تَنَبُّؤه حينما قال[5]:

---

(1) المصدر نفسه : 77 .

(2) ينظر مروج الذهب للمسعودي : 3/ 88، وأبو ليلى كنية كانت تطلق على المستضعف من العرب والعاجز عن القيام بالأمر. ينظر نهاية الأرب: 20/ 500 .

(3) ينظر الطبقات لابن سعد : 7/ 410 .

(4) ينظر الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية في القرنين الأول والثاني: 99.

(5) الإمامة والسياسة لابن قتيبة : 1/ 11، وفي الحلَّة السيراء : 1/ 29، لمروان بن الحكم قاله بين يدي خلافته، وينسب في الطبقات لأزنم الفزاري : 5/ 33 .

إنِّـي أَرَى فِتْنَةً تَغْلِـي مَرَاجِلُهَـا فَالْمُلْكُ بَعْدَ أَبِي لَيْلَى لِمَنْ غَلَبَا

وقد دالت الأيام فأصبح مروان بن الحكم، الخليفة بعد معاوية بن يزيد، إذ كانت بيعته في الجابية[1]. يوم الأربعاء لثلاثٍ خلون من ذي القعدة سنة (64) هـ[2].

أمَّا في رثاء الخلفاء للقادة: فنجد أن الخلفاء الأمويون منذ اختيارهم لقادتهم يحرصون على أمورٍ مهمة. إذ كانوا يختارون للقيادة شديد الإيمان بدولتهم، الذي يفني نفسه في تدعيمها، ويكون سباقاً إلى تحقيق أهدافها، كآل المهلّب وآل الحجّاج وغيرهم[3]. ولكنهم في الوقت نفسه لم يُهملوا الشروط الأخرى الواجب توافرها في القائد، كالشجاعة والصبر والنجدة ... إلخ. وأرادوا منه أن يكون ذا شخصّية قوية لها رأيها وحضورها. فالخليفة معاوية عندما أراد أن يولِّي عبد الرحمن بن خالد بن الوليد إحدى الصوائف في بلاد الروم، كتب له عهده ثم قال: «ما تصنع بعهدي يا عبد الرحمن، قال: أتخذه إماماً ولا أعصيه، قال: أُردد عليَّ عهدي ... ثم بعث إلى سفيان بن عوف الغامدي فكتب عهده ثم قال: ياسفيان ما تصنع بعهدي، قال: أَتخذه إماماً ما أم الحرم، فإذا خالفه خالفته، فقال معاوية: هذا والله الذي لا يكفكف عن عجلة ولا يدفع في ظهره من بطاء»[4]. ولذلك كان الخطب جليلًا والخسارة فادحة عندما يموت أو يستشهد أحدهم. كما حصل بعد موت سفيان بن عوف إذْ بَكَتْ عليه العرب جميعاً حتَّى كأنه لهم والداً، فلما بلغ معاوية وفاته «كتب إلى أمصار المسلمين وأجناد العرب ينعاه لهم، فبكى عليه كل مسجد ... وكان

---

(1) الجابية : الحوض الذي يجبى فيه الماء للإبل، وهي قرية من أعمال دمشق. ينظر معجم البلدان لياقوت الحموي : 2/ 91 – 92 .

(2) الطبقات لابن سعد : 5/ 41، وتاريخ خليفة بن خياط : 194، وفيه كانت البيعة في النصف الثاني من ذي الحجة .

(3) ينظر الفن الحربي في صدر الإسلام : 77/ 78، وينظر تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي : 214.

(4) الأخبار الموفقيات : 113 – 114 .

معاوية إذا رأى في الصوائف خللاً قال: واسـفياناه ولا سـفيان لي»[1].

ولم يكن حرص الخلفاء في اختيار قادتهم إلاَّ لحرصهم على رعيَّتهم، وذلك من خلال الوصايا التي يوصونهم بها وهم سائرون إلى أرض العدو. من ذلك ما أوصى به الخليفة عبد الملك بن مروان أحد قادته وقد سيَّره إلى أرض الرُّوم قائلاً: «أنت تاجر الله لعباده، فكن كالمضارب الكيِّس الذي إن وجد ربحاً تَجَرَ وإلاَّ تحفَّظَ برأس المال»[2].

إذن فعملية اختيار القادة ليست مهمَّة سهلة، وبالتالي فإنَّ استشهاد أحدهم أو موته ليس سهلاً أيضاً. فكثيراً ما افتخر الخليفة وتباهى بقادته. فمعاوية عندما سمع بوفاة القائد عبد الله بن عامر بن كريز[3]. قال: «يرحم الله أبا عبد الرحمن بمن نفاخر ونباهي»[4]. وعندما نُعِيَ إليه القائد عبد العزيز بن زرارة قال: مات فتى العرب[5]. ومثله ما قاله الخليفة عبد الملك بن مروان عندما توفي القائد عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي. إذ قام على قبره وقال: «أما والله لقد عَلِمَتْ قريش أنْ فَقَدَتْ اليوم ناباً من أنيابها »[6]. وأنشد بيتين من الشعر أَشَارَ فيهما إِلى أَنَّ المعروف قد ذهب بذهابه، فمن يسأل المحتاج بعده؟ مَنْ كانَ يحتاجه الغني والفقير على السواء. فقال[7]:

أَلاَ ذَهَـبَ الـعُـرْفُ والنَّائِـلُ وَمَـنْ كَـانَ يَـعْـتَـمِـدُ السَّائـلُ

---

(1) تاريخ دمشق : 21/ 352 .

(2) نهاية الأرب للنويري : 6/ 170 .

(3) عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة الأموي. أمير فاتح، ولّاهُ معاوية البصرة، كان شجاعاً سخيَّاً وصولاً لقومه رحيماً محباً للعمران، (ت 59 هـ). ينظر المعارف لابن قتيبة: 320، الطبقات لابن سعد: 5/ 30 – 35. والكامل لابن الأثير : 3/ 206، والأعلام للزركلي: 4/ 94.

(4) الطبقات لابن سعد: 5/ 48.

(5) ينظر تاريخ دمشق: 18/ 448.

(6) الأغاني : 15/ 378، وينظر تاريخ دمشق : 45/ 295.

(7) أنساب الأشراف: 11/ 228.

وَمَــنْ كَــانَ يَطْمَــحُ فِــي سَيْبِــهِ غَنِــيُ الــعَشِيْــرَةِ والعَــائِلُ

ولم تكن فجيعة عبد الملك بعمر بن عبيد الله وحده، إذْ خطف المنون ثلاثةً من القادة الذين كان يأنس بهم، فاستحالت حياته بعدهم إلى ظلام دامس. وهم أميَّة بن عبد الله ابن خالد بن أسيد[1]، وخالد بن يزيد بن معاوية، وروح بن زنباع[2]، الذين توفوا في سنةٍ واحدة[3]. فعندما توفي خالد بن يزيد بن معاوية خاطب عبد الملك بني أمّية قائلاً: لِتلق بنو أميّة الأردية على خالد فلن يتحسَّروا على مثله[4]. أمّا رَوْحُ بن زِنباع فقد كان من أجلّ الناس عند عبد الملك وكثيراً ما استشاره وأخذ برأيه[5]، وكان يقول عنه: جمع أبو زرعة- يعني روح بن زنباع – طاعة أهل الشام ودهاء أهل العراق، وفقه أهل الحجاز[6]. فكيف له أن ينساهم، إذْ عدَّ أنّ الأرض والسماء أظلمت لموتهم. ومن شدّة انهمار دموعه تبلل رداؤُه، وهو وإن كان في غمرة حزنه عليهم وبيان أثر ذلك في نفسيتة، لم ينْسَ أنْ يذكّر بأن أوطانهم وبلادهم التي أمِنَتْ بهم قد أوحشت بفقدهم، كما حصل لمجلسه أيضاً، ونتبين من خلال هذه المرثية مدى أهميّة القائد في حياة الخليفة، إذ أنه كان يشدّ ركنه بهم فكيف له أن يصبر بدونهم. فيقول[7]:[8]

(1) أميّة بن عبد الله بن خالد بن أسيد الأموي القرشي: وآلٍ من أشراف عصره، وَلِيَ خراسان لعبد الملك بن مروان، (ت 87 هـ). ينظر الكامل لابن الأثير: 4/ 204، والأعلام: 2/ 23 .

(2) روح بن زِنْبَاعْ بن روح بن سلامة الجذامي، أمير فلسطين، وسيد اليمانية في الشام وقائدها، وخطيبها وشجاعها، له مع عبد الملك بن مروان أخبار،(ت 84 هـ). البداية والنهاية: 9/ 54، والأعلام: 3/ 34 .

(3) ينظر تهذيب الكمال: 3/ 336 .

(4) ينظر المصدر نفسه: 8/ 207 .

(5) ينظر نهاية الأرب للنويري:21/ 275.

(6) ينظر البيان والتبيين: 1/ 253، وثمار القلوب في المضاف والمنسوب: 1/ 546 .

(7) أنساب الأشراف: 11/ 234 .

(8) الرشاش: الرش للماء والدمع. وأرشّت الماء والدمع: أي نصحته. ينظر اللسان مادة (رشش): 6/ 303، ومجمع البحرين: 4/ 326.

لَعَمْرِي لا أنسَى أُمَيَّةَ أَظْلَمَتْ عَلَيَّ بِهِ أَرْضِي مَعاً وَسَمَائِيا
وَمِنْ يَوْمِ رَوْحٍ عَلَتْنِي كَآبَةٌ وَبَلَّ دُمُوعي بالرّشاش ردائيا
وَقَدْ كَانَ يُنْسِينيهما يَومُ خَالِدٍ أَبِي هَاشِمٍ إذْ كِدْتُ أَنْسَى حَيَائِيَا
أُلاكَ الأخِلاءُ المُصَافُوْنَ مَا بَقوا وَكُنْت لَهُمْ مَا صَبَّحُونِي مُصفِيَا
فَقَدْ أوحَشَتْ أَوطَانُهُمْ وَبِلادَهُمْ وَأَوْحَشَ مِنْهُمْ مَجْلِسِي وَفَنَائِيَا
أَشُدُّ بِهِمْ رُكْنِي سَرِيْرِي وَمَوْكِبِي فَكَيْفَ بِصَبْرِي بَعْدَهُمْ وَعَزَائِيَا

وَعندما كتب بعضُ عمومة الخليفة عبد الملك بن مروان يعزِّيه في موت ولده مروان بن عبد الملك. ردَّ عليه بأنَّه سيصبِر ويحتسِبُهُ عند الله، فالحزن لا يمكن مهما بلغ أن يكون مساوٍ لموته. فقال[1]:

كَتَبْتَ تَسْأَلُ عَنْ صَبْرِي لِتَعْلَمَهُ عَلَى الرَّزِيئَةِ بِالمَأمُولِ مَرْوَانِ
فَقَدْ صَبَرْتُ بِعَوْنِ الله مُحْتَسِباً لِمَوعِدِ الله مِنْ فَوْزٍ وَرِضْوَانِ
وَلَوْ حَزِنْتُ وَلَمْ أَصْبِرْ لِفُرْقَتِهِ مَا كَانَ فِي فَقْدِهِ مَنْهاةُ أَحْزَانِي

وحينما نظر إلى ولده نظرة الوداع، لم يزد على قوله: «الحمد لله الذي يقتُلُ أولادنا ونحبه»[2].

وكثيراً ما كان موت أو استشهاد القادة مناسبةً تُذكِّر الخليفة بأنه سيصير إلى ما صار إليه هؤلاء. فعِندما نُعِيَ سعيد بن العاص[3]. وعبد الله بن عامر بن كريز، لمعاوية استرجع وقال[4]:

---

(1) التعازي والمراثي للمبرد: 143.

(2) المصدر نفسه: 143.

(3) سعيد بن العاص بن أمية الأموي القرشي، صحابي من الأمراء الولاة الفاتحين، ولي المدينة لمعاوية إلى أن مات، وهو فاتح طبرستان (ت 59 هـ). ينظر الطبقات لابن سعد: 5/ 19، الأعلام: 3/ 96 .

(4) التعازي للمدائني: 39، وفي البداية والنهاية : 8/ 87 تمثَّل قول الشاعر، وقوله: من خلف امرئ وأمامه: يقصد مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ وَمَنْ هُوَ أَصْغَرْ .

إِذَا مَـاتَ مِنْ خَلْفِ امْـرِئٍ وَأَمَامهُ   وَأَوْحَــشَ مِـنْ جِيْرَانِهِ فَهُوَ سَائِرُ

وفي مناسبةٍ أخرى يرثي معاوية القائد عمرو بن العاص. الذي كان أحد أقوى الأركان التي اعتمد عليها الخليفة في حكمه لما يتمتع به من شجاعةٍ وحكمةٍ ودهاء. يقول الشعبي: «دهاة العرب في الإسلام أربعة، فَعَدَّ منهم عمراً وقال: فأمَّا عمرو فللمُعْضِلات»[1]. ولذلك نوَّه معاوية بهذه الصِّفة التي تمتع بها عمرو. إذ كنَّى عن شجاعته وشدَّته بالحيَّة الذَّكر، وَعن دهائه بالصلّ. فقال[2]:

مــاذَا رُزِئْـنَـا بِـهِ مِـنْ حَيَّــةٍ ذَكَـرٍ   نَضْناضَةٍ لِلمَنايا صِـلٍّ أَصْـلاَلِ
ولّاجّـةٍ مِنْ ذَوي الأهْـوالِ إن نَزَلَتْ   خَــرَّاجَـةٍ مـنْ ذراهــا غيرِ زَيَّــالِ

وَلَمَّا حَضَرَ أيوب بن سليمان بن عبد الملك الوفاة، وهو يومئذٍ ولي عهد والده. دخَلَ عليه سليمان فجعل ينظر في وجهه فخنقته العبرة ... ثم قال: إنَّهُ مايملك العبدُ أن يسبق إلى قلبه الوجدُ عند المصيبة. والنَّاسُ في ذلك أضرابْ، فمنهم مَنْ يغلب صبره على جزعه، فذلك الجَلِدُ الحازم المُحْتَسِبْ، ومنهم مَنْ يغلِبُ جَزَعَهُ على صبْرِه، فذلك المغلوبُ الضَعيفْ ... فَلَمَّا دُفِنَ ابنه وحُثِيَ عليه التُّراب، وقفَ قليلاً لِيَنْظُرَ إليه ثم قال[3]:

وُقُــوفٌ عَلى قَبْرٍ مُقِيْمٍ بِقَفْـرَةٍ   مَتَاعٌ قَلِيْلٌ مِـنْ حَبِيْبٍ مُفَـارِقْ

ثُمَّ قال: السلام عليك يا أيوب وأنشأ يقول:

كُنْت لَنَــا أُنْـســاً فَفَارَقْتَنَــا   فَالعَيْشُ مِـنْ بَـعْـدِكَ مُرُّ المَـذَاقْ

---

(1) ينظر الإصابة: 4/ 539، وتهذيب الكمال: 22/ 82.

(2) تاريخ دمشق: 46/ 200، والتذكرة الحمدونية: 4/ 230، والحيَّة الذَّكَرْ: الرَّجل الشجاع الشديد، وصلُّ أصلال: تقال للرجل ذي الدَّهاء والأرب. ينظر تاج العروس: 10/ 109، واللسان : 11/ 385.

(3) أنساب الأشراف : 8/ 116، وتاريخ دمشق : 10/ 108.

وقبْلَ أن يُغادر المكان، عطف رأس دابَّته إلى القَبْر وقال:

لَئِنْ صَبَرْتُ فَلَمْ أَلفُظْكَ مِنْ شَبَعٍ وَإن جَزعتُ فَعِلْقٌ منفِسٌ ذَهَبا

وإذا كانت العلاقة التي تربط الخلفاء بقادتهم علاقة تسودها المحبة والاحترام المتبادل كما سبق؛ فقد تنقلب أحياناً إلى العكس تماماً، وذلك عندما يخلع بعض القادة طاعةَ خلفائهم لسببٍ أو لآخر، كما في حالة القائد عمرو بن سعيد الأشدق، حينما استعمله عبد الملك بن مروان على دمشق لَمَّا خرج منها ليحاصر زفر بن الحارث الكلابي، الذي أعان سلمان بن صرد على جيش مروان في عين وردة[1]. فتحصَّن بها وخلع طاعة عبد الملك ودعى لنفسه. فحاصره عبد الملك إلى أن تمكَّن منه وقتله[2]. ومن المسوغات التي ساقها عبد الملك قوله: «لقد كان عمرو ابن سعيد أحبَّ إليَّ من دَمِ النَّواظِرِ، ولكن والله لا يجتمع فحلان من الإبل إلَّا أخرج أحدهما الآخر. وإنَّا لَكما قال أخو بني يربوع»[3]:

أُجَازي مَنْ جَزَانِي الخَيْرَ خَيْراً وَجَـازِي الخَيْرِ يُجزى بالنَّوالِ
وأُجْـزي مَـنْ جَـزانِـي الشَرَّ شـرّاً كَمـا تُحْذا النِّعَالُ على النِّعـالِ

وقد خاطب عبد الملك أبناء عمروٍ قائلاً: «إنَّ أباكم خيَّرني بين أن يقتلني أو أقتله، فاخترت قتله على قتلي، وأمَّا أنتم فما أرغبني فيكم وأوصلني لقرابتكم وأرعاني لحقِّكم، فأحسن جائزتهم وقرَّبهم»[4]. وكان مما قاله عبد الملك بعد قتله عمرواً[5]:

---

(1) عين وردة : وهو رأس عين المدينة المشهورة بالجزيرة، كانت فيها وقعة للعرب ويوم من أيامهم ينظر معجم البلدان : 4/ 180 .

(2) ينظر تفاصيل القصة في البداية والنهاية : 8/ 337 – 338.

(3) ينظر المصدر نفسه: 8/ 324، والكامل لابن الأثير: 4/ 88، وفيه ما اجتمع رجلان في بلدة قط على ما نحن عليه إلَّا أخرج أحدهما صاحبه.

(4) البداية والنهاية: 8/ 340.

(5) ريحان الألباب وريعان الشباب (مخطوط) الورقة: 340، وينظر قصيدة أخرى في المعنى نفسه قالها الوليد بن يزيد في مقتل القائد خالد بن عبد الله القسَّري. ينظر الأخبار الطوال: 348، وتاريخ الطبري: 5/ 541، وتاريخ دمشق: 68/ 217.

مَــازَالَ عَـمْـرُوُ مُعْلِـناً حِقْـدَهُ عَلى عُهيـداهُ الَّـذي أَعْـرِفُ
حَـتَّـى لَـقـى الله على بَغيــهِ والله مـن ذِي البَغْي يسْتَنصِفُ

نخلص مما تقدم، إلى أنَّ رثاء الخلفاء للخلفاء، اهتمَّ بالتركيز على أصالة المَنْبَتْ وعراقة المَحْتَد، والحسب الرفيع والمجد التالد، الذي كان يتمتع به الخليفة، وكل ما من شأنه تدعيم أحقيته في الحكم، وهو ما يمهد الطريق للراثي نفسه، كونه وليّاً للعهد والوريث الشرعي للخلافة. أمَّا رثاء الخلفاء للقادة، فنتبين من خلاله مدى الأهمية التي كان القائد يمثلها في حياة الخليفة، إذ كانوا يعتمدون عليهم في تثبيت أركان الدولة، وفي الفتوحات التي عمَّت مشارق الأرض ومغاربها، وبالمقابل فقد تنقلب الصورة تماماً عندما يحاول أحد هؤلاء القادة التمرد أو الخروج على طاعة الخليفة .

المبحث الرابع
رثاء القادة للقادة وللخلفاء

اتخذ رثاءُ القادة للقادة اتجاهين، إذ تراوح بين الحديث عن الحزن والدموع، وبين تصوير الفراغ الذي أحدثه موت أو استشهاد هؤلاء القادة، وأثر ذلك على سياسة الخليفة، الذي كان يعتمد عليهم في فرض هيبة الدولة ومواجهة الأعداء. كما تكرَّر الحديث عن الثغور التي حموها والحروب التي خاضوا غمارها. فالقائد الحارث بن عبد الأزدي[1] يطلب من عينيه أن تجود بالدم إن هي أنفدت دمعها على القائد سفيان بن عوف الغامدي الذي أذاق الأعداء مُرّ الهزيمة، وهو إذا ما تجمعت فلول الروم وعلا ضجيجها، كان المجيب لداعي الجهاد. فمن يدعو معاوية بعده؟ وكان كثيراً ما يقول إذا رأى خللاً في الجيوش: واسفياناه، ولا سفيان لي[2]. وقد كان لخصوصية العلاقة التي تربط هذين القائدين مع بعضهما أثرٌ في صدق رثاء الحارث لسفيان بن عوف، فقد اختاره الأخير خدناً له ورفيقاً، لِما شهر به من فروسيةٍ ونجدةٍ وعفاف وسياسةٍ في الحرب[3]. فقال يرثيه[4]:

أَعَيْنَيَّ إنْ أَنْفَدْتُما الدَّمْعَ فَاسْكُبَا دَماً بِأَنَّ سُفْيَانَ بنَ عَوْفٍ فَوَدَّعا
مُعَاوِيُ مَنْ للرُّومِ جَاشَتْ وَأَطَنَّتْ عليْكَ وَلاَ سُفْيَانَ للدَّاعِ إن دَعَا[5]

(1) الحارث بن عبد الأزدي : أحد القادة الشجعان، ولّاه معاوية البصرة سنة (45)هـ. ينظر تاريخ الطبري : 4/ 164، وتاريخ دمشق : 27/ 102 .
(2) تاريخ دمشق : 21/ 351 .
(3) المصدر نفسه :11/ 453 .
(4) المصدر نفسه : 11/ 454 .
(5) جاشت وأطنَّت : جاش القوم للنفير أي كثروا واستعدّوا ، ينظر اللسان مادة (جَيَشَ) : =

لِيَبْكِ عَلَى سُفْيَانَ شَعْثٌ أَرَامِلٌ وَأَرْمَلَةٍ شَعْثَاءَ فِي الثَّغْرِ ضَيَّعا
وَيَبْكِ عَلَى سُفْيَانَ كُلَّ طمرَةٍ وَكلَّ طِمرٍ سُرَّحٍ قَدْ تَخَلَّعَا
أَقَامَ التُّقى والجِدَّ والحَزْمَ والنُّهَى بِحُرْقَةٍ ما غَنَّى الحَمامُ وَسَجَعا

ومن حديث الثغور وما أصابها بموت القائد من وهنٍ وضعف، ما قاله الوليد ابن يزيد في رثاء عمه القائد مسلمة بن عبد الملك وهو يخاطب الخليفة هشام بقوله: «يا أمير المؤمنين: إن عُقْبَى مَنْ بَقِي لحوقُ مَنْ مَضَى، وقد أقفر بعد مسلمة الصيد والمرمى، واختلَّ الثغر فوهى، وعلى إثر مَنْ سلف ما يمضي من خَلَفْ، وتزودوا فإنَّ خير الزاد التقوى. فلم يحر هشام جواباً، وسكت الناس فلم يترهسم أحد بشيء، فأنشأ يقول[1]:

أَهَيْنَمَةٌ حَدِيْثُ القَوْمِ أَمْ هُم نِيَامٌ بَعْدَمَا مَتَعَ النَّهار
عَزِيْزٌ كانَ بينَهُمُ نبِيّاً فَقَوْلَ القَوْمِ وَحيٌ لا يُحار
كَأَنَّا بَعْدَ مَسْلَمَةَ المُرَجى شَرُوبٌ طَوَّحَتْ بِهِمُ عقَار
أَوْ أُلَّافُ هِجَانٍ فِي قُيُودٍ تَلَفَّتُ كُلَّمَا حَنَّتْ ظُؤَارُ[2]

وتعود العلاقة الشخصية بين القادة – من جديد – لتلقي بظلالها على أجواء المرثية، فمسلمة بن عبد الملك كان يمثل في حياة الوليد بن يزيد المدافع عنه في وجه المضايقات التي كان يلقاها من الخليفة هشام بن عبد الملك. «وكان له دورٌ في إطفاء نار الغضب بينه وبين الخليفة، إذْ كان خير عون للوليد على تحمُّل إهانات الخليفة، وكان يدافع عن الوليد ويعاتب هشام، فكان هشام يحترمه ويأخذ بنصحه،

= **4/ 321**، وأطنَّت: الطنين وهو صوت الشيء الصلب ، وأطن ذراعه بالسيف أطنَّت ، ينظر اللسان مادة (طَنَنَ) : **13/ 286** .

(1) تاريخ دمشق : **58/ 44 – 45**.

(2) ظؤار: جمع الظئر من الإبل ظؤار، وناقة ظؤور لازمة للفصيل، ينظر اللسان مادة (ظأر): **4/ 514**، وتاج العروس: **3/ 366** .

لكن وفاته حرمت الوليد من مؤازر كبير له وصدر واسع يفزع إليه»[1]. فقد كان مسلمة بمثابة النور الذي يستضيء به الوليد بن يزيد، فلمَّا انطفأ هذا النور استحالت حياته إلى ظلام دامس. فقال يرثيه[2]:

أَتَانَا بَرِيْدَانِ من واسطٍ ... يَخبَّانِ بِالكُتُبِ المُعْجَمَهْ
أَقُوْلُ وَمَا البُعْدُ إِلَّا للردى ... أمسْلِمُ لا تَبْعُدَنْ مَسْلَمَهْ
فَقَدْ كُنْتَ نُوْراً لَنَا فِي البِلادِ ... تُضِيْءُ فَقَدْ أَصْبَحَتْ مُظْلِمَهْ

وقد تخلو بعض المراثي من ذكر الدموع والبكاء، لا لأنَّ الراثي لم يحزن؛ ولكن لأنه بلغ درجةً من الصبر والاحتساب، جعله يتمالك نفسه ويرضى بما كتبه الله عليه، إذ إن مرضاة الله عز وجل في الآخرة هي خير عزاءٍ للنفس. وتكبر أهمية هذا الصبر عندما يكون المرثي ابنا أو أخاً، كما جاء في رثاء الحجاج بن يوسف لابنه وأخيه إذْ قال[3]:

إِذَا مَا لَقِيْتُ الله عَنِّي رَاضِياً ... فَإِنَّ سُرُوْرَ النَّفْسِ فِيْمَا هُنَالِكْ
فَحَسْبِي حَياةُ الله مِنْ كُلِّ هَالِكٍ ... وَحَسْبِي بَقَاءُ الله مِنْ كُلِّ هَالِكْ

كما أظهر الصبر والجلد نصر بن سيار[4]، عندما استشهد ولده القائد تميم بن نصر الذي لم يدَّخر جهداً في قتال الأعداء، وعدَّ ذلك من الوفاء للخليفة فقال[5]:

نَفَى عَنِّي العَزَاءُ وَكُنْتُ جلِداً ... غَدَاةَ جَلى الفَوارِسُ عَنْ تَمِيْمِ
وَمَا قَصُرَتْ يَدَاهُ عَنِ الأعَادِيْ ... ولا أضحى بمنزِلَةِ اللَّئِيْمِ

---

(1) تاريخ بغداد: 11/ 367، وتهذيب الكمال: 27/ 564 .
(2) الأغاني: 7/ 12، وتاريخ دمشق: 58/ 45 .
(3) الدر الفريد وبيت القصيد لا يدمر (مخطوط) المجلد الرابع: 182.
(4) نصر بن سيار بن رافع بن حري بن ربيعة الكناني: أمير من الدهاة الشجعان، كان شيخ مضر في خراسان ووالي بلخ، ثم ولي أمرة خراسان سنة (120)هـ. لهشام بن عبد الملك، (ت 131هـ). ينظر المعارف لابن قتيبة: 409، الكامل لابن الأثير: 5/ 148، والأعلام: 8/ 23.
(5) ديوانه : 45، الأخبار الطوال: 355 .

وَفَــــاءً لِلْخَلِيْفَــةِ وابْتِــذالاً لِمُهْجَتِــهِ يُـدَافِـعُ عَـنْ حَرِيْـمِ

أمَّا في رثاء القادة للخلفاء، فإننا نجد أن هؤلاء القادة قد حفظوا لخلفائهم كثيراً من المودَّة والاحترام والوفاء، في حياتهم وبعد مماتهم، لِمَا لهم من فضلٍ عليهم، إذْ قلَّدوهم المناصب وأقطعوهم الولايات؛ حتى أن منهم مَنْ تولَّى شؤونَ الدولة بشكل مؤقَّت بعد موت الخليفة، كما حصل للضَّحَّاك بن قيس الفهري[1]، عندما توفي الخليفة معاوية فقام بخلافته إلى أنْ حضر يزيد من الصائفة[2].

وقد تجلَّت مظاهر هذا الوفاء الذي يكنَّه القادة لخلفائهم في تأبينهم بعد موتهم والثناء عليهم والتنويه بأفعالهم وأعمالهم الحميدة. فبعد أن توفي الخليفة معاوية قام الضَّحَّاك بن قيس خطيباً فقال: «إن معاوية كان عود العرب وحدّ العرب، قطع الله عزّ وجلّ به الفتنة وملَّكه على العباد، وفتح به البلاد، إلاّ أنه قد مات، فهذه أكفانه فنحن مدرجوه فيها ومدخلوه قبره، ومخلُّون بينه وبين عمله، ثم هو البرزخ إلى يوم القيامة»[3].

وعندما حضر يزيد بن معاوية من الصائفة وقد ووري والده الثرى؛ تجلَّت أهمية القائد وأَثره في إسداء النصح للخليفة الجديد وحثه على الصبر وعدم الجزع؛ لأنه أمل الأُمة ومحط رجائها. إذْ خاطب الضحاك يزيدَ قائلاً: إن أباك قد ذهب فرداً لشأنه أمَّا أنت فقد أصبحت خليفته فانظر في أمرك وكيف تصنع. وطلب منه أن يقيم الأمَّة على المنهاج القويم قائلاً[4]:

مَضَى ابْنُ أَبِي سُفْيَانَ فَـرْداً لِشَأْنِهِ وَخُلِّفْتَ فَانْظُرْ هَذَا وَكَيْفَ تَصْنَعُ

---

(1) الضَّحَّاك بن قيس بن خالد الفهري القرشي، سيد بني فهر في عصره، وأحد الولاة الشجعان، ولّاه معاوية على الكوفة سنة (53)هـ. بعد موت زياد بن أبيه، ثم نُقِلَ إلى ولاية دمشق. فتولّى الصلاة على معاوية يوم وفاته، وقام بخلافته إلى أن قدم يزيد. ينظر المعارف لابن قتيبة: 412، الكامل لابن الأثير:3/ 468، والأعلام: 3/ 214.

(2) ينظر الكامل لابن الأثير:3/ 468.

(3) تاريخ الطبري: 4/ 242، والبداية والنهاية: 8/ 152، وقد ورد برواية أخرى في الأخبار الطوال: 226، وتاريخ دمشق: 59/ 231.

(4) الفتوح لابن أعثم : 2/ 71 .

أَقِيْمَنَا عَلَى المِنْهَاجِ فَارْكَبْ مَحَجَّة ... سَـدَاداً فَأَنْتَ المُرْتَجَى كَيْفَ تَفْزَع

وقد بلغ الوفاء ببعض القادة حدّاً جعله يرى موت ولده وأقرب الناس إليه، لا يساوي شيئاً مادام الخليفة سالماً معافى. فهذا الحجاج بن يوسف الثقفي يُجِيْب الخليفة عبد الملك بن مروان على رسالةٍ كان بعثها إليه يُعَزِّيه عن موت ابنه وأخيه، ويحثُّه على الصَّبر، فأجابه الحجَّاج: ... كيف لا أصبر وقد أبقى الله أمير المؤمنين لي[1].

وقد انطبعت صورة الخليفة في ذهن قادته وما كان عليه من تقىً وهدى وحسن سيرة في الرعيَّة مما أكسبهم فخراً وعِزّاً على مَرِّ الأيام. فهذا القائد مَسْلَمَة بن عبد الملك[2] يقف عند رأس الخليفة عمر بن عبد العزيز، وقد أُدْرِجَ في كَفَنه قائلًا: «رَحِمَكَ الله يا أمير المؤمنين، فقد أورثْتَ صالحينا بك اقتداءً وهدى. وملأت قلوبنا بمواعظك وذكرك خشيةً وتقىً، وأثلت لنا بفضلك شرفاً وفخراً، وأبقيت لنا في الصالحين بعدك ذكراً »[3].

ومن القادة مَنْ كان رثاؤه للخلفاء رثاءً تقليدياً، لم نلمح فيه أي جديد على صعيد العلاقة بين القائد والخليفة، سوى الجانب الإنساني الذي ساد معظم المراثي، كإبداء الحزن والبكاء. ففي رثاء مروان بن الحكم للخليفة معاوية تجسيدٌ لِما ذُكِرْ، إذْ نجده يطلب من عينه أن تجود بالدموع ولا تبخل على خير البرية، مَنْ يَهَبْ العَطايا، ويرعى الأرامل في وقت الشدائد، وهو الحليم الذي طالما تجاوز عن المسيء، وتحمل الأذى. ومن ذلك ما حصل لمروان بن

(1) ينظر تاريخ دمشق : 52/ 265 .

(2) مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم : أمير قائد، من أبطال عصره من بني أمية، يلقب بالجرادة الصفراء، له فتوحات مشهورة، (ت 120 هـ). ينظر تهذيب التهذيب : 10/ 144، ونسب قريش : 165، والأعلام : 7/ 224 .

(3) الأغاني : 9/ 303 .

الحكم نفسه مع معاوية عندما علم بنيته إسناد ولاية العهد لابنه يزيد، وإغفاله لمروان. إذ دخل عليه وخطب خطبةً ملخصها: عِتابٌ وتطاولٌ ومقارنة سياسته مع سياسة الخلفاء الراشدين في كيفية توليته الحكم. وكيف أن معاوية لم يأخذ رأي الرَّعية ويستأثر بكل شيء[1]. مما أغضب الخليفة؛ ولكنه امتلك نفسه وأخذ بيده وقد وصفه بأحسن الأوصاف: بالنسب، والكرم، والشجاعة، ثم قال: «وبك يابن العم نرجو استقامة أودها»[2]. ثم زاد قائلًا: «أنت نظير أمير المؤمنين بعده وفي كل شدة عضده»[3]. وهنا تجلى حلمه الذي اتصف به، وانطبق مع ما قاله مروان على أرض الواقع. فقال[4]:

يَا عَيْنُ جُـودِي بِالدُّموْعِ الذَّارِيَـة	جُـوْدِي فَـلاَ زَالَـتْ غُرُبُكِ بَاكِيَـة
وَابْـكِ عَلَى خَيْرِ الـبَرِيَّة كُلِّهَـا	فَلَقَدْ أَتَتْكِ مَعَ الـحَوادِثِ دَاهِيَـة
بَكَّرَ النَعِّيُّ مَـعَ الصَّبَـاحِ بِقَوْلِـهِ	يَنْعِي رَبِيْعَ المُسْـلِمِيْنَ مُعاوِيَـة
فَاسْتَكَّ مِنِّي السَّمْعُ حِيْنَ نَعَاهُ لِـي	جَزَعاً عَلَيهِ واسْتُطِيْرَ فُؤَادِيَـة
فأَجَبْتُهُ أَنْ لاَ حَييتَ مُسـلمـاً	مَـاذَا تَـقُـوُلُ الـيَـوْمَ أُمـُّكَ عَاوِيَة
مَـنْ لِلهِبَاتِ والأَرَامِـلِ بَعْـدَهُ	عِنْدَ القُحُوُطِ ولِلْعُتَاةِ الـطَّاغِيَـة
أَيْـنَ النَّدَى يَبْكِيهِ وَالحِلْـمُ الَّـذِي	شَمَخَتْ بِـذَروَتِـهِ الفُرُوعُ السَّامِيَة

ونستطيع أن نلمح في هذه المقطوعة إشادةً بمن سيخلف معاوية على الرغم من عدم تصريحه بذلك، إذ اكتفى بذكر الفروع السَّامية التي شمخت بهذه الصفات العالية.

ومن القادة مَنْ باشر في رثائه للخلفاء غرضاً سياسياً بعيداً عن أجواء الحزن والبكاء، إذ نرى خالد بن يزيد بن معاوية يبدأ مرثيته لأبيه وجدّه

---

(1) ينظر التفاصيل في الإمامة والسياسة لابن قتيبة: 1/ 152.

(2) الإمامة والسياسة: 1/ 152.

(3) المصدر نفسه: 1/ 152.

(4) تاريخ دمشق: 57/ 275.

وأخيه معاوية، بالتأسي والعزاء، لأنه أليق بذي المروءة وأدعى لذي السيادة، ويسعى من خلال التركيز على الصفات التي تمتَّعوا بها للتدليل على حقِّهم في الخلافة، فهم الرجال الكاملون، والحماة المطعمون، والذَّائدون عن الدِّين، وحماة المسلمين. وكأنه بذلك يريد أن يربط بين عناصر السيادة الاجتماعية والمعاني الدينية. فهم المتمسكون بحبل الله والجماعة، والسَّاعون فيما يشرف أمر المسلمين. فقال[1]:

تَجَلَّدْ لِلْعُدَاةِ الشَّامِتِيْنَا ... وَلا تُرَ لِلْحَوادِثِ مُسْتَكِيْنَا

وَعَزِّ النَّفْسَ إِن سَخَطَتْ بِصَبْرٍ ... يُنْسِيها التَشكِّي وَالأَنِيْنَا

فَقَدْ صَكَّتْ قَنَاتِي بِالمُرادِي ... شُعُوبٌ صَدَعَتْ مِنْهَا المُتُونَا

وَغَالَتْ مِنْ بَنِي حَرَبٍ رِجَالاً ... هُمْ كَانُوا الرِّجَالَ الكَامِلِيْنَا

وَهُمْ كَانُوا الحُمَاةَ مِنَ المَخَازِي ... وَهُمْ كَانُوا السُعَاةَ المُطْعِمِيْنَا

بِإِذْنِ الله والسَّاعِيْنَ فِيْما ... يُشَرِّفُ أَمْرَ دِيْنِ المُسْلِمِيْنَا

فَغَالَتْهُمْ شُعُوبٌ غَيَّبَتْهُمْ ... وَهُمْ عُمُدٌ لآلِ المُسْلِمِيْنَا

فَلَوْ بَقِيتْ نُفُوسُهُمْ عَلَيْهِمْ ... وَلَمْ تَجْزُرْهُمْ الدُّنْيَا المَنُونا

لأَصْبَحَ مَاءُ أَهْلِ الأَرْضِ عَذْباً ... وَأَصْبَحَ لَحْمُ دُنْيَاهُمْ سَمِيْنَا

رَأيْتُ النَّاسَ لاقوا بَعْدَ جَدِّي ... مُعَاوِيَةَ الَّذِي أَبْكَا العُيُوْنَا

وَبَعْدَ أَخِي مُعَاوِية ابْنَ أُمِّي ... وَبَعْدَ أَبِي يَزِيْدَ الأَنْوَرِيْنا

ويبدو أنَّ خالد بن يزيد اتخذ من موت أخيه معاوية مناسبة لذكر أبيه وجدِّه الذين مثلوا الفرع السفياني في شجرة النسب الأموية. إذ أكد حقَّهم في الخلافة، وكيف آلت بعد موت أخيه إلى الفرع المرواني بزعامة مروان بن الحكم[2]. وهو الذي حال بينه وبين الخلافة في حينها صغر سنِّه[3].

---

(1) تاريخ دمشق: 16/ 314.

(2) ينظر الطبقات لابن سعد: 5/ 41.

(3) ينظر تاريخ الطبري: 5/ 531 – 532، والكامل لابن الأثير: 4/ 146 .

ومن القادة مَن اتخذ من موت الخليفة فرصةً ليعبِّر عن رفضه لحالة الصراع التي شهدتها بعض مراحل العصر الأُموي، إذْ حاول يزيد بن الوليد قتل الخليفة الوليد بن يزيد وتسنم الخلافة، وهو ما تمَّ له فعلاً، لأسبابٍ كثيرة يقصر المقام عن ذكرها[1]. إذ مثَّل مقتل الخليفة الوليد بن يزيد مرحلة خطيرة وُصِفت بأنها بداية النهاية لحكم الأمويين[2]. وهو ما دعى بشر بن الوليد بن عبد الملك[3] إلى الاستنكار والتعجُّب لهذا الفعل. قائلاً[4]:

عَجَبٌ لا يَنْقَضِي ... عَجَبٌ قَتْلُ الوَلِيدِ
سَمَا المُلْكُ لَهُ ... زَالَ فَأَمْسَى لِيَزِيْدِ
أَسْلَمَتْهُ عَبْدُ شَمْسٍ ... وَالبَقَايَا مِنْ ثَمُوْدِ
قَالَ يَوْمَ الدَّارِ لَمَّا ... مَسَّهُ حَرُّ الحَدِيْدِ
اتَّقُوا اللهَ وَكُفُّوا ... أَيْنَ عَقْدِي وَعُهُودِي
قَتَلُوهُ ثُمَّ قَالوا ... هَالِكٌ غَيْرُ فَقِيْدِي

وخلاصة القول: إنَّ رثاء القادة للقادة، اتسم بصدق العاطفة التي كان للعلاقة الحميمة التي ربطت بينهم على المستوى الشخصي، أثرٌ فيها، إذ تحوَّل الدمع في بعضها إلى دم، كما اتجهوا إلى تصوير الفراغ الذي أحدثه موت هذا القائد وما اعترى الثغور بعده من وهنٍ وضعف. في حين عاب بعض القادة على بعضهم الآخر ودانوا محاولة الخروج على الخليفة، فذمُّوهم بعد موتهم، مبينين أثر ذلك في إلحاق الذُّل والعار بقبائلهم.

أمَّا رثاء القادة للخلفاء، فقد غلب عليه الطابع العام، إذ نوَّه القادة في رثائهم

---

(1) ينظر تاريخ خليفة بن خياط: **290**، وتاريخ الطبري: **5/ 570**، والكامل لابن الأثير: **4/ 487**.

(2) ينظر الأيام الأخيرة للدولة الأموية: **191** .

(3) بشر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي، ولّاه أبوه الموسم والغزو، كان يقال له: هذا عالم بني مروان. ينظر تاريخ دمشق: **10/ 268**.

(4) تاريخ دمشق: **10/ 270** .

بالإنجازات التي تحققت، كالتوسع في الفتوحات، والاستقرار الذي شهدته الدولة في عهدهم، كما تطرقوا إلى شؤون الحكم، والتأكيد على حقهم في الخلافة، كما ضمَّنوا رثاءهم الإشادة بمن سيخلفهم، وذلك لضمان استمرارهم في أعمالهم من جهة، وحثِّهم على سلوك الطريق القويم من جهة أُخرى .

الفصل الثالث
مضامين المراثي

- المبحث الأول: مضامين جاهلية
- المبحث الثاني: مضامين إسلامية

المبحث الأول
مضامين جاهلية

تمهيد:

ارتبط الشعر في العصر الأموي، بتقاليد شعر ما قبل الإسلام في كثيرٍ من مضامينه وأُطُرِهِ العامّة، لشدّة تأثره وقرب العهدِ به، ولم يستطع الإفلات من عقال تلك التقاليد ؛ إلَّا ما كان من أثر الإسلام الذي حارب بعض تلك التقاليد والمعتقدات التي تتنافى مع دعوته، ونهى عن ممارستها والإيمان بها، في حين هذَّب بعضها الآخر بما زاده إليها من معانٍ وقيم لتتوافق وتعاليمه الجديدة، من ذلك مثلاً الوقوف على قبر المرثي والإقامة عليه مدَّة طويلة قد تصل إلى حولٍ كامل، وما يتصل بذلك من عقر الإبل وإراقة الخمور على القبر، ومناداة صاحبه وكأنه حيٌّ يسمع، في حين اقتصر الوقوف على القبر في الإسلام على الدعاء والاستغفار للميت وطلب الرحمة له، فضلاً عن ظهور أفكار ومعتقدات جديدة مستمدَّة من صميم دعوته، ساعدت على وضع حدٍّ لحالة التيه والضياع الذي عاشه المجتمع آنذاك تجاه بعض القضايا التي أرَّقته ولم يجد لها تفسيراً منطقيّاً كالموت وما يليه، ومن هو المسؤول عنه؟ هل هو الدهر كما كانوا يزعمون؟ أم شيء آخر، وعن البعث والحشر، والقضاء والقدر ... وغيرها مما سنفصل القول فيه في المبحث الثاني من هذا الفصل.

وشعر الرثاء ينطبق عليه ما ينطبق على أغراض الشعر الأُخرى، كالفخر والمدح والهجاء ... إلخ، وإنَّ مما يعين على توضيح الصورة وبيان أبعادها، محاولة الوقوف على الماضي لبيان أثره في الحاضر. إذ «إنَّ أيَّة دراسة لشعر ذلك

العصر لا تكتمل وتُعمَّق إلَّا إذا رَبَطَتْ بينه وبين تراثه السابق، ووازنت بين عناصر التقليد والتجديد فيه، وبين ما هو رصيد عام مشترك»[1] .

ومن هذا المنطلق: رأيت أن أتتبع تلك المضامين الموروثة من عصر ما قبل الإسلام والتي استمرَّت في رثاء الخلفاء والقادة في العصر الأموي، مع ما تحمله من معتقدات وأفكار، قد لا تتفق مع تعاليم الإسلام وقيمه. وما الموقف الذي اتخذه منها؟ وما الأسباب والدَّوافع التي حدت بالشعراء على تمثُّلها وتكرارها في أشعارهم! هل هو الإيمان بتلك المعتقدات والأفكار؟ أم هو التقليد الفني والسير على نهج القدماء لمجرد التقليد!! أم هو ضعف تأثير الإسلام في نفسية بعض الشعراء، «وهو تأثيرٌ يقوى ويضعُف حسب نفسية الشعراء، إذ كان بينهم من تعمَّقه الإسلام، ومن لم يتغلغل إلى أعماقه، على أنَّهم كانوا يستظلُّون بظلاله»[2]. وهذا ما سيتكفَّل الفصل القادم بالإجابة عنه. وكانت هذه المعتقدات على النحو الآتي: الدَّهر، شق الجيوب ولطم الخدود، الوقوف على القبر وعقر الناقة، الدعاء بالسقيا لقبر الميت، الهامة والصدى، التطيُّر وزجر الطير، والدعاء للميت بعدم البعد.

الدَّهْـر:

نظر الإنسان العربي قبل الإسلام، إلى مَنْ حَولَه من البشر وقد خطفتهم يد المنون، وأحسَّ بأنَّه سيكون يوماً من الأيام ضحيةً لهذه القوة العاتية المجهولة التي تأتي على حين غرَّة فتلتهم مَنْ تشاء وتترك مَنْ تشاء، ولم يكن هناك ما يوضح له ماهيَّتها ويفكَّ رموزها ويحل ألغازها. فحاول أن يجد لها تفسيراً يشبع طموحه الذي يبحث فيه عن الحقيقة. فأوجد لها مُحدِثاً وهو الدهر، ومنحه السلطة والقوة ونَسَبَ إليه الموت والتدمير والإفناء، وكل ما يعرض للمرء من سوءٍ في حياته[3]. وجاءت الآية الكريمة لتؤكد هذا الاعتقاد في قوله تعالى:

(1) في الشعر الإسلامي والأموي: 39 .
(2) العصر الإسلامي، د. شوقي ضيف: 176 .
(3) ينظر الحياة والموت: 98 – 101 .

﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾[1]. ولذلك انتهت به عقيدته إلى سبِّه وشتمه والتشكي منه، إذ «كان الرجل في الجاهلية إذا أُصيب بمصيبةٍ أو رزءٍ أغرى بذم الدهر»[2].

هذا ما كان من عقيدتهم في الجاهلية، فلمّا أطلَّ الإسلام بنوره، ألغى كل هذه الأوهام المتعلقة بالدهر وما ينتج عنها من كرهٍ للموت وسخطٍ منه وقلقٍ على مصير الإنسان، فالله سبحانه وتعالى هو الذي قدَّر الأقدار. قال تعالى: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[3]. وقد جاء في الحديث النبوي الشريف قوله ﷺ: «لا تسبُّوا الدَّهر، فإنَّ الله عز وجل قال: أنا الدَّهر»[4]. ومعناه أن ما أصابك من الدهر فالله فاعله وليس الدهر، فإذا شتمت الدهر فكأنك أردت به الله سبحانه وتعالى .

ومن هذا المنطلق يمكننا أن نجد مُسوِّغاً لوجود مثل هذا المعتقد في رثاء الخلفاء والقادة، إذ إن الاختلاف الحاصل بينه وبين ما جاء على لسان الجاهليين، هو إيمانهم بأن الله سبحانه هو الدهر، كما ورد في الحديث الشريف، وبالتالي لم يكن ذكرهم له في معرض حديثهم عن الموت إلَّا في ضوء ما جاء في حديث الرسول ﷺ، ثم إن الإيحاءات التي تضيفها النصوص والدلالات التي تشير إليها، تؤكد تغيُّر نظرة الشعراء الأمويين عن غيرهم، بدليل أنَّ مِنَ النماذج الرثائية التي أتى الشاعر فيها على ذكر الدَّهر وتعجّبَ من تصرُّفه؛ لم يلبث أن عاد لِيُقِرَّ بحقيقة حتميةٍ مفادها: أنّ ما يحدث للإنسان إنما هو مقدَّرٌ من الله سبحانه وتعالى، ولا يملك أي مخلوق إذا ما حانت ساعته إلَّا الإيمان والتسليم لإرادة الله. ومن ثمرات هذا الإيمان، الصبر، الذي لم يجد الشاعر أفضل دواءً منه لمصابه. كما جاء في رثاء

---

(1) سورة الجاثية، الآية: 24.

(2) جمهرة اللغة لابن دريد: 2/ 258، و3/ 19، وينظر الحياة والموت: 96 – 98.

(3) سورة الواقعة، الآية: 60.

(4) مسند الإمام أحمد بن حنبل: 2/ 496 .

الحكم بن عبدل لبشر بن مروان إذ يقول[1]:

أَصْبَحْتُ جَمَّ بَلابِلِ الصَّدْرِ مُتَعَجِّباً لِتَصَرُّفِ الدَّهْرِ
مَازِلْتُ أَطْلُبُ فِي البِلَادِ فَتىً لِيَكُوْنَ لِي ذُخْراً مِنَ الذُّخْرِ
حَتَّى إِذَا ظَفِرَتْ يَدَايَ بِهِ جَاءَ القَضَاءُ بِحِيْنِهِ يَسْرِي
فَلأَصْبِرَنَّ وَمَا رَأَيْت دَوىً لِلهمِّ غَيْرَ عَزِيْمَةِ الصَّبْرِ

إذاً لا يمكن لمن يفهم الأبيات السابقة بشكلٍ شامل أن يظن أنَّ ذكر الدَّهر، يعني الاعتقاد به، كما كان الجاهليون. وكيف يجتمع الإيمان بقدر الله وقضائه، والاعتقاد بالدهر وأثره في أبياتٍ واحدة؟ وهذا في حدِّ ذاته ردٌّ على بعض آراء الباحثين الذين ذكروا أن ورود «الدهر» و«الحوادث» في بعض الأشعار يحمل تفكيراً ذا طابعٍ وجودي[2].

وقد تكرر ذكر «الدهر» بمفهومه الجديد الذي استمده من الدعوة الإسلامية، حينما أحال الشاعر أيمن بن خريم مُصَابَ نساء بني حرب إلى القدر الذي رماهنَّ بموت الخليفة معاوية بن أبي سفيان. وعاد في موقع آخر لذكر الدهر، وذلك ضمن الإطار الذي بدأه بذكر القدر إذ ألبس المعتقد القديم ثوباً إسلامياً جديداً. علماً أن رثاءهم لم يخلو من ذكر بعض المعتقدات الجاهلية التي نهى الإسلام عنها. كلطم الخدود وشق الجيوب وغيرها، مما سنفصل القول فيه لاحقاً. يقول أيمن بن خريم الأسدي في رثاء معاوية[3]:

رَمَى المِقْدَارُ نِسْوَةُ آلِ حَرْبٍ بِحَادِثَةٍ سَمَدْنَ لها سُمُودا[4]

---

(1) الأغاني: 2/ 411، والتذكرة الحمدونية: 202.

(2) ومنهم إيليا حاوي في كتابه «ابن الرومي، فنه ونفسيته من خلال شعره»: 202–207، إذِ اعتمد الباحث على بيتٍ لابن الرومي في رثاء ولده إذ يقول:

ولا بِعْتُهُ طَوْعاً وَلَكِنَّ غُصِبْتُهُ وَلَيْسَ عَلَى ظُلْمِ الحَوَادِثِ مِنْ مُعْدِي

(3) أنساب الأشراف: 5/ 163، وفي معجم الشعراء: 177، رمى الحدثان، وفي تاريخ دمشق: 48/ 284، تنسب الأبيات لفضالة بن شريك الأسدي.

(4) السُّمُود: يكون للحزن والسرور، ينظر اللسان مادة (سَمَدَ): 3/ 219، =

فَرَدَّ شُعُورَهُنَّ السُّودَ بِيْضاً ... وَرَدَّ خُدُودَهُنَّ البِيْضَ سُودَا

فَإنَّك لَو سَمعت بُكاءَ هِنْدٍ ... وَرَمْلَةَ إذْ يُلَطِّمنَ الخُدُودا

بَكَيْت بُكَاءَ مُوجَعَةٍ بِحُزْنٍ ... أَصَابَ الدَّهْرُ واحِدَهَا الفَرِيْدا

كما تزامن ذكر الدهر وصروفه مع القدر في آنٍ واحد، ليرسخ القناعة بأنَّ الشعراء في العصر الأموي لم يفصلوا بين المعنيين. كما جاء في رثاء عباس بن أنس بن مرداس السلمي لعبد الله بن خازم، إذ يقول[1]:

حَامَى وَخَاضَ حِيَاضَ المَوْتِ مُعْتَرِمَاً ... بِالسَّيْفِ يَخْطُرُ حَتَّى عَزَّهُ النَّغرُ

وَفَرَّ أَصْحَابُهُ عَنْهُ وَأَسْلَمَهُ ... لِلشَّائِنِيْنَ صُرُوفُ الدَّهْرِ وَالقَدَرُ

ومما يعزز القول إن ذكر الدهر في رثاء الخلفاء والقادة لم يُقصد به المعنى الذي أراده الجاهليون؛ أنَّنَا لم نجد في رثائهم ما يشير إلى سبِّه وشتمه والتشكي منه، كما كانوا يفعلون؛ إلَّا ما كان للتعجب وأخذ العبرة. فقد تعجَّب الفرزدق من صنيع الدَّهر وكيف جمع بين موت الأحبَّة، إذْ يقول في رثاء وكيع بن أبي سود الغدَّاني[2]:

يَا لَيْلَةَ السَّبْتِ إنْ ألقَتْ كَلاكِلَهَا ... عَلَى تَمِيْمٍ وَعَمَّتْ بَعْدَهَا مُضَرَا

مُحَمَّدٌ وَوَكِيْعٌ لَيْسَ بَيْنَهُما ... عَامَانِ يَا عَجَباً للدَّهْرِ إذْ عَثَرَا

كما جاء ذكر الدّهر في معرض الإقرار بأنَّ داعي الموت لا ينفك عن ملاحقة الإنسان حتى يظفر به، فهو الرامي الذي لا تطيش سهامه، ولا ينفع معه الرّد والمقاومة. جاء ذلك في رثاء الفرزدق لوكيع بن أبي سود، إذ يقول[3]:

كَيْفَ بِدَهْرٍ لا يَزَالُ يَرُومِني ... بِدَاهِيَةٍ فِيْهَا أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ

وَكَيْفَ بِرَامٍ لا تَطِيْشُ سِهَامُهُ ... وَلا نَحنُ نَرْمِيْهِ فَنُدْرِكَ بِالنُّبْلِ

= وتاج العروس: 2/ 380.

(1) معجم الشعراء للمرزباني: 103-104.

(2) ديوانه : 1/ 312.

(3) ديوانه: 2/ 84، وشعرعبد الله بن الزبير الأسدي: 79، وأنساب الأشراف: 6/ 335، وتاريخ دمشق: 28/ 8، وزهر الآداب: 3/ 702.

إِذَا ابْـنُ أَبِـي سُـوْدٍ خَلاَ مِنْ مَكَانِهِ فَقَد مَالَتِ الأَيَّامُ بِالحـَدَثِ المُجْلِي

وقد جاء ذكر الدّهر بصيغٍ مختلفةٍ تصبُّ جميعها في المعنى نفسه، منها: «الأيَّام» و«الزَّمان» ولذلك قالوا: «دهر كلِّ قومٍ زمانُهُم»[1]. كما جاء في رثاء ثابت قطنة ليزيد بن المهلب. إذْ خاطب الشاعر الشامتين بمقتله قائلاً: إنَّ ما وقع له كان أمراً لا بُدَّ منه، فمن يفلت منه اليوم لا بُدَّ أن يدركَهُ غداً، فلا استثناء لأحدٍ حتَّى مَنْ كان يعيش حياةً رخيَّة، فالكلُّ عنده سواء. يقول[2]:

قُلْ لِمَنْ كَـانَ شَامِتاً بِيَزِيـْدٍ مَـا جَنـَاهُ الزَّمَـانُ شَـيْئاً بدِيـّاً
وَكَــذَاكَ الزَّمَـانُ يَعْصِفُ بِالمَر ءِ وَإِنْ كَـانَ قَبْـلَ ذَلِـك رَّخِيَّـا

ومِنَ الصيغ الأُخرى: «الأيام» إذْ جاءت على لسان الفرزدق في رثاء وكيع بن أبي سود، يفتخر فيها بالجبال التي هدّتها الأيام له. فيقول[3]:

وَكَـمْ هَـدَّتِ الأيَّـامُ مِـنْ جَبَلٍ لَنَـا وَسَابِغَةٍ زَعْـفٍ وأبيَض ذِيْ أَثْـرِ
وَإنَّـا عَلَى أَمْثَـالِـهِ مِـنْ جِبَالِـنَا لأَبْقَـى مَعـدٍّ للنَّوائِبِ وَالدَّهْـرِ

وقُرِنَ ذكر الدهر بالأيام في موضعٍ آخر. كما جاء في رثاء عبد الملك بن مروان لمعاوية بن أبي سفيان. إذْ يقول[4]:

وَمَـا الدَّهْرُ والأَيَّـامُ إِلَّا كَمَا تَرَى رَزِيَّـــةَ مَـــالٍ أَو فِـــرَاقُ حَبِيْـبِ

يُلاحظ مما سبق، أنَّ ألفاظ: الدَّهر، الأيَّام، الزَّمان، الحدثان، جاءت على لسان الشعراء في رثاء الخلفاء والقادة في العصر الأموي، على سبيل التمثُّل، لا الاعتقاد بأنَّها هي التي تُميت، أو تنفع وتضر، وتعزَّز ذلك الاعتقاد في ضوء ما جاء في الأمثلة السابقة، والحديث النبوي الشريف.

(1) جمهرة اللغة لابن دريد: 2/ 258.
(2) حماسة البحتري: 150، وقد أخل بهما شعره المجموع، وينظر مثله، ديوان الأحوص الأنصاري: 219، وتاريخ الطبري: 5/ 614 .
(3) ديوانه: 1/ 202، وينظر مثله، الأغاني: 2/ 248.
(4) العقد الفريد: 3/ 14.

الوقوف على القبر وعقر الناقة:

يُمَثِّل الوقوف على القبر وعقر الناقة، أحد العادات الاجتماعية الجاهلية التي أكثر الشعراء من استعمالها في رثاء موتاهم. إذْ وقفوا على قبورهم وأقاموا عندها، وخاطبوها وكأنها إنسانٌ حي يسمع. كما عقروا عليها الإبل، لاعتقادهم أن لها علاقة بروح الميت. وكأنهم يرمون بهذا العمل محاولة استرضاء تلك الأرواح التي تطوف أرجاء الكون، تريد بالأحياء الأذى والمرض والنكبات[1]. فقد «كان أهل الجاهلية يعقرون الإبل على قبر الرجل، يقولون نجازيه على فعله لأنه كان يعقرها في حياته فيطعمها الأضياف، ونحن نعقرها عند قبره حتى تأكلها السباع والطير، فيكون مطعماً بعد وفاته كما كان يطعم في حياته. ومنهم مَنْ كان يذهب إلى أنه إذا عُقِرَتْ راحلته عند قبره حُشِرَ في القيامة راكباً. ومن لم يُعْقَرْ عنده حُشِرَ راجِلاً. وكان هذا على مذهب مَنْ يقول منهم بالبعث، فهذا جاهليٌّ محرَّم»[2].

وتُحدِّثنا الروايات التاريخية والأدبية، عن نماذج من وقوف الشعراء على قبور موتاهم. فقد مات ابنٌ لأرطأة بن سهيَّة المرِّي يُقال له عمرو، فأقام على قبره حولاً يأتيه كل غداةٍ فيقول: يا عمرو هل أنت غادٍ معي ... حتى كاد عقله يذهب[3].

أمَّا وقوف الشعراء في رثاء الخلفاء والقادة على قبور موتاهم، فإنَّه وقوفٌ للدُّعاء وطلب المغفرة. لأنَّهم يؤمنون بأنَّ صاحب القبر لا يمكن أن يتكلَّم أو يرد عليهم، فكثيِّر عزَّة يُقِرُّ بهذه الحقيقة فعندما توفي عبد العزيز بن الوليد، وكثيِّر بعيداً عنه، وَعَدَ بزيارة قبره والوقوف عليه وقراءة السلام على روحه، مع إيمانه بأن المُخَاطَبْ لا يمكن أن يردَّ عليه أو يتكلَّم معه. قائلاً[4]:

فَإِنِّي لآتٍ قَبْـرَهُ فَمُسلَمٌ وَإِنْ لم تَكلّم حُفْرَةٌ مَن يزورها

---

(1) ينظر الإبل في الشعر الجاهلي: 1/ 117 وما بعدها.

(2) سبل السلام للكحلاني: 2/ 118، وينظر عون المعبود: 9/ 31.

(3) ينظر التعازي والمراثي: 51، وينظر الأغاني: 13/ 44.

(4) ديوانه: 145.

وإذا كانت إقامة الشاعر الجاهلي على قبر الميت قد تمتد إلى حولٍ كامل؛ فإنها في رثاء الخلفاء والقادة لا تزيد على الوقوف للدعاء والاستغفار وطلب الرحمة. وهذا ما كان رسول الله ﷺ يفعله إذا دفن الرجل وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنَّه يُسْأل»[1]. فهذا الفرزدق يصف المشيعين بعد أن فرغوا من دفن عبد العزيز بن مروان، وقد التفوا حول قبره يستغفرون له. فقال[2]:

ظلُّوا عَلَى قَبْرِهِ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ ... وَيَقُولُونَ تَارَاتٍ لَنَا العِبَرُ

وقد جاء في وصيّة القائد عمرو بن العاص لِمَنْ حضر وفاته ما يعين على معرفة المدَّة التي كانوا يستغرقونها على قبور موتاهم إذْ قال: «اجلسوا عند قبري قَدَر ما ينحر الجزور ويُقَسَّم. فإنِّي أستأنس بكم »[3].

وهو ما عدَّه الخليفة سليمان بن عبد الملك بالمتاع القليل من حبيبٍ مفارقٍ لن يراه أبداً. إذ جاء ذلك في رثائه لابنه وولي عهده أيوب فقال[4]:

وُقُوْفاً عَلَى قَبْرٍ مُقِيْمٍ بِقَفْرَةٍ ... مَتَاعٌ قَلِيلٌ مِنْ حَبِيْبٍ مُفَارِقْ

وقد أكثر الشعراء في وقوفهم على قبور موتاهم من الدعاء لهم. إذْ جاء بصيغٍ مختلفة منها: «صلَّى الإله». فهذا الفضل بن العباس يطلُب من صاحب العيس التي أضناها التعب وأهلكها الجوع، أن يأتي قبر الوليد بن عبد الملك فيقف عليه، ويدعو له بقوله[5]:

يَا صَاحِبَ العِيْسِ الَّتِي ... رَحَلَتْ مَحْبُوسَة لِعَشيَّةِ النَّغْر

أُمْرُرْ عَلَى قَبْرِ الوَلِيْدِ فَقُلْ لَهُ ... صَلَّى الإِلهُ عَلَيْكَ مِنْ قَبْرِ

---

(1) سنن أبي داود: 2/ 84، والمستدرك للحاكم النيسابوري: 1/ 370، والسنن الكبرى للبيهقي: 4/ 56.

(2) ديوانه: 1/ 186.

(3) الطبقات لابن سعد: 4/ 259، وينظر الثقات لابن حبان: 3/ 267، وتاريخ دمشق: 46/ 194.

(4) تاريخ دمشق: 10/ 108.

(5) شعره: 50.

وَلَمَّا دَخَلَ الضحاك بن قيس الكوفة، سأل عن قبر زياد بن أبيه، فدل عليه، فأتاه حتَّى وقف به ثمَّ قال[1]:

أَبَا المُغِيْرَةِ وَالدُّنْيَا مُفَجِّعَةٌ ... وَإِنَّ مَنْ غَرَّتِ الدُّنْيَا لَمَغْرُوْرُ
قَدْ كَانَ عِنْدَكَ لِلْمَعْرُوْفِ مَعْرِفَةٌ ... وَكَانَ عِنْدَكَ لِلتَّنْكِيْرِ تَنْكِيْرُ
لَوْ خَلَدَ الخَيْرُ وَالإِسْلامُ ذَا قدم ... إِذاً لَخَلَّدَكَ الإِسلامُ وَالخَيْرُ

أمّا بالنسبة لعقر الناقة، فقد ذهبوا فيه مذاهب شتَّى، يَحْسُنُ بنا الوقوف على أهم تلك المذاهب. فمنهم مَنْ عدَّها صدىً لحالةٍ نفسيَّةٍ مُتأزِّمة مُنِيَ بِها الرَّاثي عند فقده، وكانت هذه الإبل قد هانت عليهم لعظم المصيبة، إذْ إنَّ النَّفِيْس عند العرب يتعدَّى الإبل إلى الخيل[2]. ومنهم مَنْ عَدَّ العقر على قبر الميت مُكافأةً لَهُ على ما كان يَعْقِرُهُ في حياته من الإبل وما ينحره للأَضياف[3]. وارتبطت عند البعض الآخر بخرافاتٍ وأساطيرَ تشير إلى علاقة هذا المعتقد بأرواح الأموات وكيف أنها تطوف أرجاء الكون تريد إيقاع الأذى والمرض بالأحياء[4]. وكأنها تهدأ وتسكن عندما تُعْقَر هذه الإبل على قبورها، ومنهم من قال: إنما كانوا ينحرون الإبل إعظاماً للميت، كما كانوا يذبحون للأصنام، وقيل إنما كانوا يفعلونه لأن الإبل كانت تأكل عظام الموتى إذا بليت، فكأنهم يثأرون لأنفسهم منها في حياتهم[5].

وقد يأخذ العقر أكثر من معنى، إذ إِنَّ أصلُه: «ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف وهو قائم»[6]. وهذا ما نهى الإسلام عن فعله. فقد جاء في الحديث

(1) العقد الفريد:3/ 54، وتنسب في تاريخ دمشق: 18/ 57، لمسكين الدارمي، وفي مكانٍ آخر من المصدر نفسه: 19/ 208، لحارثة بن بدر الغدَّاني.
(2) ينظر بلوغ الأرب: 2/ 310 – 311.
(3) ينظر خزانة الأدب للبغدادي: 4/ 193، وعون المعبود: 9/ 31.
(4) ينظر الإبل في الشعر الجاهلي: 1/ 117.
(5) ينظر خزانة الأدب للبغدادي: 4/ 193.
(6) ينظر اللسان مادة (عَقَرَ): 4/ 592.

الشريف: «لا عقر في الإسلام»[1]. وورد في وصيَّةٍ لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأحد قادة الجيوش قوله: «ولا تعقرنَّ شاةً ولا بعيراً إلَّا لمأكلة. وإنما نهي عنه لأنه مثلةٌ وتعذيب للحيوان»[2]. فكيف لنا أن نجد مثل هذا الفعل في رثاء الخلفاء والقادة! والحق أن للعقر معنيين: المعنى الأول يُراد به المثلة بالحيوان فقط. والآخر يراد به التمكن من الناقة لأجل نحرها، كما ورد في وصيَّة أبي بكر. وقد جاء في اللسان: عَقَرَ الناقة يعْقُرُها وَيَعْقُرْها عقْراً، وعقَّرَها إذا فعل بها ذلك حتى تسقط فينحرها متمكناً منها. وقول امرئ القيس: ويوم عقرت للعذارى مطيتي ... معناه نحرتها[3]. ويُقال «للنحر عقرٌ لأنَّ العقر سبب النحر في الغالب»[4]. وعلى هذا الأساس يمكننا أن نجد مُسوِّغاً لوجود مثل هذا المعتقد في رثاء الخلفاء والقادة. ومما يزيد هذا الرأي تأكيداً، ما ورد في رثاء زياد الأعجم للمغيرة بن المهلب. فبعد أن طلب من القوافل والغزاة إذا مرُّوا بقبر المغيرة أن يعقروا الإبل، أردفه ببيتٍ آخر يذكر فيه الذبائح التي كان المغيرة ينحرها في حياته. وهو بذلك يوافق رأي مَنْ قال: إنَّ فعلهم هذا كان مكافأةً للميت على ما كان ينحره للأضياف في حياته. فقال[5]:

قُـلْ لِلقَوافِلِ والـغُـزَّى إِذَا غـزَوا ... وَلِلبَاكِرِيْـنَ وَلِلمَجـدِ الرَّائِـحِ
إِنَّ السَّـمَاحَةَ وَالشَّجاعَةَ ضُمِّنَا ... قَبْراً بِمَرْوٍ عَلَـى الطَّرِيْقِ الوَاضِحِ
فَـإِذَا مَـــرَرْتَ بِقَبْـرِهِ فَاعْقُر بِهِ ... كُوْمَ الهِجَانِ وَكُـلَّ طَرْفٍ سَابِحِ[6]
وَانْضَحْ جَوَانِبَ قَبْـرِهِ بِدِمَائِهَا ... فَلَقَـدْ يَكُوْنُ أَخَـا دَمٍ وَذَبَائـحِ

ويُقال: إن المهلّب حين سمع البيت (فإذا مررت به ...) قال لزياد: هل عقرت

(1) مسند الإمام أحمد: 3/ 197.
(2) السنن الكبرى للبيهقي: 9/ 86، وقد ورد في اللسان: 4/ 593، وتاج العروس: 3/ 415.
(3) ينظر اللسان مادة (عَقَرَ): 4/ 592 .
(4) تفسير الطبري: 7/ 241، وينظر فيض القدير: 1/ 523.
(5) ينظر شعره: 56 – 58.
(6) الناقة الكوماء: عظيمة السنام طويلته، ينظر اللسان مادة (كَمِيَ): 15/ 232، والطرف: الجواد الكريم الطرفين من جهة الأب والأم ، وتاج العروس: 6/ 176 – 177.

عليه يا أبا أُمامة فرسك؟ قال: لا، قال: وَلِمَ؟ قال: لأنّي كنت على مقرف[1]. ولو كنت على عتيق[2]، لفعلت، فاستحسن المهلب قوله هذا وقال لمن حضر مجلسه من ولده ومواليه: لِيَهْدِ كلَّ واحدٍ منكم إلى زياد فرساً من خيله، فيقال إنه انصرف بأكثر من مئة فرس[3].

وكما يكون العقر للنَّاقة، فقد يكون للفرس أيضاً، ولكننا في هذه المرة نقف على أُنموذَجٍ للعقر جرى فيه الشاعر على سنة الجاهليين. وربما أراد بذلك من خلال مخاطَبته لفرسه، أنَّه لم يعد يرغب بركوبه. وكيف له ذلك بعد وفاة بشر بن مروان، إذْ يخاطبه بقوله: أتصهل عندي بعد بِشْر؟ ويحلف له أنْ لا يتبع الخيل بعدها حتى يُعْقَر على قبره، جاء ذلك في رثاء الفرزدق لبشر بن مروان قائلاً[4]:

أَقُـــوْلُ لِمَحْبُوكِ السُّراةِ كَأَنَّهُ ... مِنَ الخَيْلِ مَجْنُونُ الإِطَاقَةِ وَالحُضْرِ
أَغَـــرُّ صَرِيْحـــي أبـــوه وَأُمـُّــهُ ... طَوِيْلٌ أَمَّرَتْهُ الجِيـادُ عَلَى شَـزْرِ
أَتَصْهِلُ عِنْدِي بَعْدَ بِشْـرٍ وَلَمْ تَذُقْ ... ذُكُــورَةَ قَطَّاعِ الضَّريبَـةِ ذِي أَثْـرِ
غَضِبْتُ وَلَـمْ أَمْلِكْ لِبِشْـرٍ بِصَارِمٍ ... عَلَى فَرَسِي عِنْدَ الجَنَازَةِ وَالقَبْـرِ
حَلَفْتُ لَهُ لا يَتْبَـعِ الخَيْلَ بَعْدَهـاً ... صَحِيْحُ الشُّوى حَتَّى يَكُوُسَ مِنَ العَقْرِ[5]
أَلَستُ شَـحِيْحاً إِنْ رَكِبْتُكَ بَعْـدَهُ ... لِيَوْمِ رِهَـانٍ أَو غَـدَوْتَ مَعِي تَجْرِي

ويبدو أن ما فعله الفرزدق من عقر فرسه، ينطبق تماماً مع ما قيل، من أنَّ هذا الفرس قد هان على صاحبه لِعِظَمِ المُصِيْبَة التي أَلَمَّت به. ومما يلاحظ خلو رثاء الخلفاء والقادة من الأساطير والخرافات التي تُرْجِعُ سَبَبَ العَقْرِ إلى أَنَّه إرضاءٌ

---

(1) المقرف من الخيل الهجين، وهو الذي أمه برذونة وأبوه عربي، وقيل العكس. ينظر اللسان: 9/ 281، وتاج العروس: 6/ 220.
(2) العتيق الكريم من الخيل، الخفيف، السبَّاق، ينظر اللسان: 9/ 214، وتاج العروس: 1/ 298.
(3) ينظر الأغاني: 15/ 372، وبغية الطلب: 9/ 3922، بروايةٍ أُخرى .
(4) ديوانه: 1/ 218.
(5) كَأَسَ البَعيرَ: إذا مشى على ثلاث قوائم وهو معرقب، وذلك من عقر إحدى قوائمه، ينظر اللسان مادة (كَوَسَ): 6/ 199، وتاج العروس: 4/ 236.

لهذه الأرواح، كي لا توقع الأذى والشر بالأحياء.

الدُّعاءُ بالسُّقْيَا للقُبُور:

يُعَدُّ الماءُ في حياة العرب رمزاً من رموز الحياة والبقاء، وذلك بسبب طبيعة الجزيرة العربية الصحراوية ومناخها الحار، فضلاً عن قلَّته في هذه الأرض المُجدِبة. وما إفراطهم في حبِّه إلى درجة التقديس وكثرة ذكره في أشعارهم؛ إلَّا نوعاً من التعويض عن ندرته في أرضهم إذْ يبدو مزيجاً من القدسيَّة والأسرار. ولذلك أسموه غيثاً وحياً كما فعل أسلافهم السَّاميُّون[1].

والجاهليون إنَّما استمطروا السماء بالماء لأنهم «أرادوا من ذلك محاربة الفناء وحب البقاء وتجدُّد الحياة، لذا كان الماء عند الجاهليين غيثاً لهم»[2].

وقد ارتبط الدعاء بالسقيا لقبر الميت عند العرب بتقليدٍ قديم، لم يستطع الشعراء الإفلات من عقاله عبر عصور الأدب المختلفة، إذْ مثَّل أصلاً في بناء قصائد الرثاء[3]. واتصلت السقيا قبل الإسلام بأُسطورة «الصدى والهامة» إذ اتخذ الموت صورة الماء الناضب، لأنَّ الماء مانح الحياة، والعطش يعني الموت والفناء، فاعتقدوا بذلك أنَّ الموت ذهاب ماء الحياة، إذ يخرج من هامة القتيل طائرٌ يطلب الماء، وسمُّوه هامة دلالة على هيام الروح وعطشها، ورغبتها الشديدة في الماء، من الهيام وهو جنون العطش، ويشبه الحمَّى إذا أصابت الإبل فلا تُرْوى أبداً، وسمُّوه الصدى وهو شدَّة العطش أيضاً[4].

واستمرَّ الدعاء لقبر الميت بالسقيا تقليداً شعرياً عند الشعراء في العصور الإسلامية. إذْ يرى الشاعر اخضرار القبر ورشِّه بالماء بعد دفن الميت أثراً من عادةٍ

(1) ينظر مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي: **48**.

(2) الحيوان في الشعر الجاهلي: **48**.

(3) ينظر شعر الرثاء في العصر الجاهلي: **259**.

(4) ينظر اللسان مادة (هَيَمَ): **12/ 625**.

قديمة ظلَّت تعيش في أذهان الناس، ففي الماء والخضرة معنى الحياة والبهجة، وفي الفقر والجفاف معنى الموت والعَدَم [1]. فالماء في المفهوم الإسلامي والأموي رمز الحياة، إن لم يكن هو الحياة نفسها، وهو ما تبينه الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [2].

كما خلَّصوه من أبعاده الأسطورية «فأصبحت تلك السحب التي تسقي قبر الميت، سحب رحمةٍ وغفران غزيرة المياه، ودائمة الانهمار، وكأنها وكلما زاد تدفقها نال الميت الأجر والثواب العميم»[3].

ويرى الدكتور نوري القيسي: «أنَّ في الدعاء للميت بالسقيا، وما يعلل به هذا الموقف الديني من أخبار، وما يتصل به من معتقدات، ويداخله من أسباب تقديس الماء، صورة من صور الرضا، ووجهاً من وجوه القناعة التي تُدْخِل إلى النفس إحساس الرَّاحة وهي تدعو إلى الله أن يسقي قبر الميت بالماء السُّحِّ من كل جانب، لترتوي به الأرض ويظل القبر نديّاً رطباً تزهو فوق حفافيه خضرة الجنَّة، وترتوي من مياهه النفوس العطشى»[4].

والشواهد على استعمال هذا الدعاء في رثاء الخلفاء والقادة كثيرة، وتكاد تكون سُنَّة متَّبعة، ينهجها الشعراء تقليداً لغيرهم، وهو دعاءٌ بالخير. يقول ابن سيده: «وقولهم سُقْيا ورُعْيا، أي سقاك الله ورعاك، أي حَفِظَك. وهو مما يُدعى به للإنسان»[5].

فمن دعائهم بالسقيا، قول كثيِّر عزَّة في رثاء الخليفة عمر بن عبد العزيز، إذْ يدعو الله أن يسقي قبره بسُحُبٍ لا تنفكُّ تصبح مملوءةً بالأمطار، وتغدو وقد

---

(1) ينظر شعراء أمويون: 4/ 21.
(2) سورة الأنبياء، الآية: 30.
(3) شعر الرثاء في العصر الجاهلي: 159.
(4) شعراء أمويون: 4/ 21.
(5) المخصص لابن سيده: 4/ 21.

أفرغت حِمْلَها. فيقول[1]:

سَقَى رَبُّنَا مِنْ دَيْـرِ سَمْعَانَ حُفْرَةً بِهَا عُمَرُ الخَيْرَاتِ رَهْناً دَفِيْنُهَا
صَـوَابِـحُ مِـنْ مُـزْنٍ ثِقَالٍ غَوَادِيـاً دَوَالِـجُ دهْماً مَاخِضَاتٌ دُجُوْنَهـا

ويقول أيضاً في رثاء عبد العزيز بن مروان[2]:

فَلَسْتُ طِوَالَ الدَّهْرِ مَا عِشْتُ نَاسِياً عِظَاماً وَلا هَاماً لَـهُ قَـدْ أَرَمَّـتِ
جَرَى بَيْنَ بَابِلِيُّونَ والهضْبُ دُوْنَهُ رِيَاحٌ أَسـفَّتْ بالنَّقَـاءِ وأَشـمَّتِ[3]
سَقَتْهَا الغَوَادِي والرَّوائِحُ خِلْفَـةً تَدَلَّـيْنَ عُلُـوّاً وَالضَّريحَـةُ لَمَّتِ

فهو يدعو بأن تتناوب السحب على قبره، وتخلف الواحدة الأخرى، تسقيه من مائها، وقد تنزَّلت من عليائها لتلمَّ شعث ما فرَّقته الرِّياح فتجمعه وتضمَّه .

ولم يخصَّ الشعراء بالدعاء قبر الميت فقط، إذ إنهم شَمِلوا الأرض التي دُفِنَ فيها وما جاورها. كما جاء في رثاء ذي الشامة لعبد العزيز بن مروان وابنه فقال[4]:

سَـقَـى اللهُ قَبْرَيْهِمـَا وَالصَّـدى وَمَـــا جَـــاوَرَا دَيْمَـةً مُغْدِقَـهْ

وتتسع الدّائرة في رثاء سليمان بن قتَّة لأسد بن عبد الله، إذ لا يكتفي بالدعاء للقبر وما حوله؛ فيشمل جبال بلخ وسهولها، ويزيد فيشمل خراسان كلها. بقوله[5]:

سَقَى اللهُ بَلَخَا حُـزْنَ بَلَخٍ وَسَهْلَهَا وَمَرْوِي خُرَاسَانَ السحَابَ المُجَمَّمَا[6]

---

(1) ديوانه: 177.
(2) المصدر نفسه: 323، وينظر في المعنى نفسه: ديوان جرير: 166-167، في رثاء المرار بن عبد الرحمن، وديوان الأخطل: 358، في رثاء يزيد بن معاوية، والطبري: 5/ 271، في رثاء هبيرة بن مشمرج.
(3) بابليون: وهو اسم عام لديار مصر بلغة القدماء ، وقيل هو اسم لموضع الفسطاط خاصَّة. ينظر معجم البلدان للحموي: 1/ 311.
(4) ولاة مصر للكندي: 78.
(5) تاريخ دمشق: 8/ 321 .
(6) بلخ: وهي مدينةٌ مشهورةٌ في خراسان ، وهي من أجمل مدنها ، وأكثرها خيراً وأوسعها=

وَمَا بِـيِ لِتُسْقَاهُ وَلَـكِـنْ حُفْـرَةٌ بِهَـا غَيَّبُوا شِلْواً كَرِيْماً وأعْظُمَا[1]

وبعد أن كانت السُّقيا تختص بقبر المرثي والأرض التي دُفِنَ فيها، نرى أن الشاعر أخذ يتوجَّه إلى الله تعالى ويطلب الغيث منه لا للأرض والقبر، بل للمرثي نفسه، إذ يقول عبيد الله بن قيس الرقيات في رثاء طلحة الطلحات[2]:

نَـضَّـــرَ الله أَعْـظُـمــاً دَفَنُوْهــا بِسَجِسْتَانَ طَلْحَـةَ الطَّلْحـات

وكما يقول بعضُ آلِ المهلب في رثاء أولاد المهلب بن أبي صفرة، حبيب وحمَّاد ومحمد ومدرك ويزيد[3]:

سـقَى الله أَجْـدَاثـاً بِبَابِلَ كَسَرُوا سـيُوفَهُمْ والأَثْــرَى العَضُــدَا

حَبِيْباً وَحَمَّادَ وَذَا البأسِ وَالنَّدى يَزِيْـدَ واسْقِي مُدْرِكـاً وَمُحَمَّدَا

وقد يدعو الراثي بالسقيا للأرض التي دُفِنَ فيها المرثي، ثم يؤكِّد أنَّ دُعاءَهُ ليس حُبّاً فِيْها، فهي بغيضَةٌ إليه؛ لأنها غَيَّبَتْ عنه مَنْ يُحِب. ولكن يدعو لِمَنْ ثَوى تحتها. جاء ذلك في رثاء الفرزدق لمحمد بن العاص بن سعيد بن أميَّة. فقال[4]:

سـقَى أَرِيْحَاء الغَيْثَ وَهْيَ بَغِيْضَةٌ إِلَـيَّ وَلَكِنْ بِـيْ لِيُسْقَاهُ هَمُّهَـا[5]

مِنَ العَيْنِ مُنْحَلُّ العَزَالِي تَسُوْقُهُ جَنُوبٌ بِأَنْضَـادٍ يَسحُّ رِكَامُهَــا

=غِلَّةً، افتتحها الأحنف بن قيس من قبل عبد الله بن عامر في أيام عثمان بن عفَّان رضي الله عنه. ينظر معجم البلدان للحموي: **1/ 479 – 480**.

(1) الشلو والشَّلا: الجلد والجسد من كلِّ شيء. ينظر اللسان مادة (شَلَا): **14/ 442**، وتاج العروس: **10/ 203**.

(2) ديوانه: **20**.

(3) الفتوح لابن أعثم: **2/ 209**.

(4) ديوانه: **2/ 190**.

(5) أريحاء: وهي بُلَيْدَةٌ من نواحي حلب ، أنزه بلاد الله وأطيبها، ذات بساتين وأشجار وأنهر، وليس في نواحي حلب أنزه منها، وهي تختلف عن مدينة (أريحا) في غور الأردن. ينظر معجم البلدان للحموي: **3/ 111**.

إِذَا أَقْلَعَتْ عَنْهَا سَمَاءٌ مُلِحَّة تَبَعَّجَ مِنْ أُخْرَى عَلَيْكَ غَمَامُهَا[1]

وقريبٌ من هذا المعنى، قول الشمردل بن شريك في رثاء أخيه وائل. إذْ يقول[2]:

سَقَى الضَّفَرَاتُ الغَيْثَ مَادَامَ ثَاوِياً لَهُنَّ وَجَادَتْ أَهْلُ شَوْكٍ مَخَايِلهْ
وَمَا بِيْ حُبُّ الأَرْضِ إِلَّا جِوَارُهَا صَدَىً وَقَوْلُ ظَنٍّ أَنِّي قَائِلُهْ

ورُبَّما تضمَّنَ الدعاء بالسقيا لقبر المرثي على معانيَ متعدِّدة، منها: الإشارةُ إلى معنى الكرم في ذات المرثي الذي كان يغيث المحتاجين في حياته بعطاياه وكرمه، والراثي عندما يعمم الغيث على الأراضي كلها، فهو يؤكد بصورة غير مباشرة شمول هؤلاء المحتاجين بكرم المرثي. نتبين ذلك في رثاء الفرزدق لسعيد بن أسلم إذْ يقول[3]:

سَقَى اللهُ قَبْراً يَا سَعِيْدُ تَضَمَّنَتْ نَوَاحِيْهِ أَكْفَاناً عَلَيْكَ ثِيَابُهَا
وَحُفْرَة بَيْتٍ أَنْتَ فِيْهَا مُوَسَّدٌ وَقَدْ سُدَّ مِنْ دُوْنِ العَوَائِدِ بَابُهَا
لَقَدْ ضُمِّنَتْ أَرْضٌ بِإِصْطَخْرٍ مَيِّتاً كَرِيْماً إِذا الأَنْوَاءُ خَفَّ سَحَابُهَا

ويتَّضِح ذلك أيضاً في رثاء ابن عرس العبدي لأسد بن عبد الله. إذْ يدعو له بأن يُسْقَى الغيث. لأنَّه كان غيثاً للمحتاجين. فيقول[4]:

سُقِيْتَ الغَيْثَ إِنَّكَ كُنْتَ غَيْثاً مَرِيْعاً عِنْدَ مُرْتَادِ النِّجَاعْ

كما دعا الطرمَّاح ليزيد بن المهلب بالسُّقيا، لأنه كثير البذل والعطاء، عفيف الخلق، ولشدَّة حزنه تمنى أن لا تحمل أزديةٌ بعده. فقال[5]:

---

(1) تبَعَّجَ السَّحابُ وانبعج بالمطر، انفرج عن الودق والوبل الشديد. ينظر اللسان مادة (بَعَجَ):2/ 214.

(2) شعراء أمويون: 2/ 545.

(3) ديوانه: 1/ 89.

(4) تاريخ الطبري: 5/ 466.

(5) ديوانه:338-339.

فَقَائِلَةٍ تَنْعَى يزِيْدَ وَقَائِلٌ سَقَى اللهُ جَزْلَ السِّيْبِ عِفَّ الخَلائِقِ
فَلا حَمَلَتْ أزديَّةٌ بَعْدَ مَوْتِهِ جَنِيْناً وَلا أَوَّلْنَ سِيْبَ الغَوَادِقِ[1]

وإذا كان الدُّعاء بالسقيا مقصوراً على قبر المرثي وما حوله، والأرض التي أجنَّته؛ فقد يكون في بعض الأحيان طلباً معنوياً عندما يتوجَّه به الشاعر إلى ذكر مآثر هذا المرثي التي ماتت بموته. وكأنه يدعو لها أن تستمر وتبقى ولا تزول. جاء ذلك في رثاء محارب بن دثار للخليفة عمر بن عبد العزيز إذ يقول[2]:

يَا لَهْفَ نَفْسِي وَلَهْفَ الواَجِدِيْنَ مَعِي عَلَى العُدُولِ التِي تَغْتَالُهَا الحُفَرُ
ثَلاثَةٌ مَا رَأَتْ عَيْنِي لَهُمْ شَبَهاً تَضُمُّ أَعْظُمَهُمُ فِي المَسْجِدِ الحُفَرُ
وأَنْتَ تَتْبَعهُمْ لَمْ تَأْلُ مُجْتَهِداً سُقْياً لَهَا سُنَناً بِالحَقِّ تُفْتَقَرُ

وقد تتحوَّل الأمطار إلى دموعٍ تبكي على المَرثي. فتجمع حينها بين شدَّة الحزن عليه، وبين تمني الخير إليه. جاء ذلك في رثاء ابن عرَّادة ليزيد بن معاوية. فقال[3]:

وَمُزْنَةٍ تَبْكِي عَلَى نَشَوَاتِهِ بِالصُّبْحِ تَقْعُدُ تَارَةً وَتَقُوْمُ

وقد يكون الدعاء بالسقيا سلبياً، وذلك عندما يريد الشاعر أن يعبِّر عن ألمه وحزنه لموت المرثي، فيتمنَّى أن لا تمطر السماء بعده ولا يخضرَّ في الأرض عود. جاء ذلك في رثاء الفرزدق ليزيد بن المهلب إذ يقول[4]:

فَلا قَطَرَتْ بالرَّيِّ بَعْدَكَ قَطرَةٌ وَلا اخْضَرَّ بِالمَروِيينِ بَعْدَكَ عُوْدُ

وقد يحتَبِسُ المطر بعد موت المرثي حُزْناً عليه، كما جاء في رثاء الفرزدق

(1) السِّيب: العطاء، والعُرف، والنَّافِلة. ينظر اللسان مادة (سَيَب): 1/ 477، وتاج العروس: 1/ 304.
(2) حلية الأولياء: 5/ 321، والبداية والنهاية: 9/ 237، وتنسب الأبيات في أنساب الأشراف: 8/ 199، للجمحي. وفيها: سُبُلاً بالعدل .
(3) الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام: 2/ 141، وينظر نهاية الأرب: 20/ 513.
(4) ديوانه: 1/ 137.

لعمر بن عُبيد الله. فقال[1]:

أَمَّا قُرَيْشُ أَبَا حَفْصٍ فَقَدْ رُزِئَتْ بِالشَّامِ إِذْ فَارَقَتْكَ البأسَ والمَطَرَا

وفي بعض الأحيان يتوجَّه الشاعر بالدُّعاء على الشامتين بموت مَنْ يرثيه أَنْ لا ينتفعوا بلذَّة ولا يَبُلَّ هامَهُم المطر، كما جاء في رثاء أبي صخر الهذلي لعبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أُسيد. فقال[2]:

فَلا نَفَعَ الفِتْيَانَ بَعْدَكَ لَذَّةً وَلا بَلَّ هَامَ الشَّامِتِيْنَ بِكَ القَطْرُ

وقد يكون قبر المرثي - لعِظَمِ قَدْرِه ومكانته - سَبباً في نزول المطر، إذ اعتقد العرب بقدرة بعض القبور على إنزال المطر، وبخاصَّةٍ قبور الملوك والسَّادة والأشراف، إذْ مارسوا طقوساً سحرية على عظام الموتى وقبورهم للاستسقاء بها، واستمرَّ هذا الطقس حتى بعد مجيء الإسلام[3]. فقد كان أهل بلنجر يستسقون بتابوت قتيبة بن مسلم، كما جاء في قول أحدهم: «يا معشر العرب، قتلتم قتيبة، والله لو كان منَّا فمات لجعلناه في تابوت فكنَّا نَسْتَسْقِي بِهِ»[4]. وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن جمانة الباهلي في رثاء قتيبة[5]:

وَإِنَّ لَنَا قَبْرَيْنِ، قَبْرُ بَلَنْجَرٍ وَقَبْراً بِصِيْنِ أُسْتَانَ يَا لَكَ مِنْ قَبْرِ[6]
فَهَذَا الذِي بِالصِّيْنِ عَمَّتْ فُتُوحُهُ وَهَذَا الَّذِي يُسْقَى بِهِ سُبُلَ القَطْرِ

وهذا قبر الخليفة معاوية - يُسْتَسْقَى الغمامُ بِهِ - كما جاء في رثاء ابنه يزيد.

---

(1) المصدر نفسه: 1/ 235.
(2) منتهى الطلب من أشعار العرب: 9/ 376.
(3) ينظر الكامل لابن الأثير: 4/ 298.
(4) المصدر نفسه: 4/ 298.
(5) معجم البلدان للحموي: 1/ 490.
(6) بلنجر: بفتحتين وسكون النون، وجيم مفتوحة، وراء مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب، قالوا فتحها عبد الرحمن بن ربيعة، وقال البلاذري: فتحها سلمان بن ربيعة الباهلي. ينظر معجم البلدان للحموي: 1/ 489.

إذْ يقول[1]:

أَغَرُّ أَبْلَجُ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِهِ ... لَوْ قَارَعَ النَّاسَ عَنْ أَحْسَابِهِمْ قَرَعَا

ويسترسل الشاعر عويف القوافي في وصف السُّحُب، وكيف لاحت له من بعيد تسوقها الريح، ثمَّ تدانت وتجمعت فسمع أصوات الرَّعد والبرق تنذر بالمطر. وما هي إلَّا لحظات حتَّى انهمرت تسقي قبر الخليفة سليمان بن عبد الملك حتَّى أَرْوَتْهُ. يقول[2]:

لاحَ سَحَابٌ فَرَأَيْنَا بَرْقَهُ
ثُمَّ تَدَانَى فَسَمِعْنَا صَعْقَهُ
وَرَاحَتِ الرِّيْحُ تُزْجِي وُرْقَهُ[3]
ذَاكَ سَقَى قَبْراً فَرَوَّى وَدْقَهُ
قَبْرُ امرِئٍ عَظَّمَ رَبِّي حَقَّهُ

ومثلُهُ قول جرير في رثاء المرَّار بن عبد الرحمن، إذْ يصفُهُ بالبدر تسقى بِهِ الأمطار. فيقول[4]:

لَمَّا غَدَوْا بِأَغَرَّ أَرْوَعَ مَاجِدٍ ... كَالبَدْرِ تُسْقَى بِهِ الأَمْطَارُ
صَلَّى الإِلَهُ عَلَيْكَ مِنْ ذِي حُفْرَةٍ ... خَلَتِ الدِّيَارُ لَهَ فَهُنَّ قِفَارُ
وَسَقَاكَ مِنْ نَوْءِ الثُّرَيَّا عَارِضٌ ... تَنْهَلُّ مِنْهُ دِيْمَةٌ مِدْرَارُ

وخلاصة القول: إنَّ دعوة الشعراء لقبور مرثييهم بالسُّقيا، كانت تقليداً سار عليه الشعراء في مختلف العصور، وأرادوا من خلاله رؤية هذه القبور وقد ملأتها الخضرة والرياحين. وبذلك تستكمل الصورة التي رسموها لتلك القبور إذْ

---

(1) معجم البلدان للحموي: **1/ 490**.

(2) شعراء أمويون: **3/ 148 – 149**.

(3) تُزجي: تسوق ، والأبلق من السحاب، ما فيه سواد وبياض. والأوْرَق الذي بين الخضرة والسواد. والودق: المطر.

(4) ديوانه: **215–216**.

تضحي رياضاً من الداخل والخارج. فضلاً عن تضمين هذه الدعوة لمعان أُخرى، كالإشارة إلى معنى الكرم في ذات المرثي الذي كان في حياته غيثاً للمحتاجين، فاستحقَّ أن يدعى له بالغيث. كما أصبحت هذه السُّحُب التي تسقي قبر المرثي سُحُب رحمةٍ ومغفرة. وبعد أن كان استنزالُ الغيثِ بِمخاطبة السَّحاب والسَّيْل، أَخذ الشاعر يتوجه إلى الله تعالى ويطلب الغيث منه، إذ أصبحنا نجد ألفاظاً مثل: سقى الله، وسقى ربُّنا ... الخ. وهناك معنىً إسلاميٌّ جديدٌ لم أعثر عليه في رثاء الخلفاء والقادة، يحسُن بنا ذكره، وهو أنَّ وجود النباتات والأشجار على قبر الميت يُخَفِّفُ عن صاحبه العذاب، كما جاء في فِعْلِ النبي ﷺ حينما مرَّ على قبرٍ يُعَذَّبُ صاحبه فقال: «إنَّهُ يعذَّبُ في غير كبيرة، فأَمَرَ بجريدَةٍ فوُضِعَتْ على قبره فقال: عَسى أن يُخَفَّفَ عنه ما دامت رَطبة»[1].

التطيُّر وزجْر الطَّيْر:

ارتبط الطير في الفكر القديم وفكر ما قبل الإسلام على السواء، بمعتقدات دينية غيبية اتصلت جذورها بالفكر القديم وامتدَّت إلى الفكر الجاهلي، إذ آمن الجاهليون واعتقدوا بمعتقدات، ومارسوا طقوساً وشعائر، وفقاً لإيمانهم ومعتقداتهم المتجانسة مع واقعهم الاجتماعي والبيئي في تاريخهم الطويل، حتى غدا عالمهم قبل بزوغ فجر الإسلام زاخراً في كثير من جوانبه بحشدٍ هائلٍ من المضامين الأُسطورية التي ورثوها عن الأسلاف [2]. ومِنْ هذه الأساطير والمعتقدات: التطير وزجر الطير.

قال الجوهري: «تَطَيَّرْتُ مِنَ الشَّيْء وبالشَّيْء، والاسمُ منه الطِيَرَة مثال العِنَبَة، وهو ما يُتَشاءَمُ بِهِ مِنَ الفَأَلِ الـرَّدِيء»[3]. وأصله فيما يقال: «التطير

(1) مسند الإمام أحمد: 4/ 172، ومجمع الزوائد للهيثمي: 9/ 7.

(2) ينظر دراسات في الشعر الجاهلي: 177، وما بعدها إذ تحدث الدكتور نوري القيسي عن الأساطير وانتفاع الشاعر الجاهلي بها.

(3) تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (طَيَرَ): 2/ 728 .

بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم، فنهاه الشرع وأبطله ونهى عنه، وأخبر أنه ليس له تأثير في جلب نفعٍ أو دفع ضرر»[1]. والمقصود بالسانح ما ولّاك ميامنه، والبارح ما ولّاك مياسره، والجابه ما استقبلك من تجاهك، والقعيد الذي يأتيك من خلفك[2]. ولم يتفق العرب على أمر السانح والبارح. فأهل نجد يتيمنون بالسانح، وأهل الحجاز يتشاءمون منه[3].

وكثيراً ما جُمِعَ بين الطيرة والزجر؛ حتى عُدَّا بمنزلةٍ واحدة. قال القلقشندي: «والزجر والطيرة، وهما في معنىً واحد، وأصله أنهم كانوا إذا أرادوا فِعْلَ أمرٍ أو تركه زجروا الطير حتَّى تطير، فإن طار يميناً كانَ له حكم، وإن طار شمالاً كان له حكم، وإن طار أماماً كان له حكم، وإن طار من فوق رأسه كان له حكم، ومن ثم سُمِّيَت الطيرة أخذاً من اسم الطير، وأكثر ما عوَّلوا عليه من ذلك الغراب، ثمَّ تعدوه إلى غير الطير والحيوان، ثم جاوزوا ذلك إلى ما يحدث في الجمادات من كسْرٍ أو صدع أو نحو ذلك، وربَّما انتهى بعض الزَّجْر إلى حدِّ الكهانة»[4].

وقد حدد القرآن الكريم موقفه من تلك الظاهرة، وخصَّ المشركين بلغة التطير، إذْ جاءت في قوله تعالى يصف قوم موسى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [5]. وأوضحته السنَّة النبوية الشريفة بقوله ﷺ: «ليس منَّا من تحلَّم أو تكهَّن أو ردَّه عن سفره تطيُّر»[6].

(1) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: 3/ 152 .

(2) ينظر المصدر نفسه: 1/ 114.

(3) ينظر العمدة: 2/ 262–263، وللمزيد، بلوغ الأرب: 3/ 212، وما بعدها.

(4) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: 1/ 456.

(5) سورة الأعراف، الآية: 131، وينظر تفاصيل أوفى في: «الطير ودَلالته في الشعر العربي قبل الإسلام «أُطروحة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة بغداد، كامل الجبوري: 10 وما بعدها.

(6) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 7/ 266.

والتطير عكس الفأل، إذْ «فرَّق حُذَّاقُ أهل النَّظر في المقال بين الطيرة والفأل، فقالوا: الطِّيَرَةُ كانت العرب ترجع إلى ما تمضيها، وتجري على تقضِّيها، وكان الذي يَهُمُّ بِهِمْ إذا ما رأى ما يُتَطَيَّر منه رَجَعَ عَنْهُ، وفي ذلك ما يصرف عن الإحالة إلى المقادير الجارية بِيَد مُمْضِيْهَا، النَّازِلَةِ على حكم قَاضِيْهَا، والفأل لا يردّ المُريد عمَّا يريد، إنَّما يُقَوِّي مِنَّتَهُ، وَيَسُرُّ مُهْجَتَه»[1]. ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن الطِّيَرة، وحثَّ على الفأل. فقال: «لا طِيَرَةَ وخَيْرُهَا الفأْلُ»[2].

والطِّيَرَةُ مما لا بُدَّ من وجوده في طبائع البشر. «فالطِّيَرَةُ موجودةٌ في الطِّباع، قائمةٌ فيها، وإن بعض الناس هي في طباعهم أظهر منها في بعض»[3]. وهذا ما أكّده الحديث الشريف بقوله ﷺ: «ثلاثةٌ لا يسلمُ منهنَّ أحد، الطِّيَرَةُ، والظَّنُّ، والحَسَدْ، فإذا تطيَّرت فلا ترجِعْ، وإذا حسدت فلا تَبغْ، وإذا ظَنَنْتَ فلا تُحَقِّق»[4]. وقال في حديثٍ آخر: «الطِّيَرَةُ من الشِّرك، وما منَّا (إلَّا) ولكنَّ الله يُذْهِبُهُ بالتَّوكُّل»[5].

ولم يكن الشعراء بعيدين عن ممارسة هذه المعتقدات في أشعارهم حتَّى بات الطير عندهم مقسوماً إلى طيرٍ للشُّؤم، وطيرٍ للفأل[6]. ومنهم الشعراء الإسلاميون، إذ استمرُّوا في توظيف هذا المعتقد في شعرهم[7].

فهذا طائر النَّحْسِ يُؤْذِنُ لإسماعيل بن عمار في يوم العيد بحدوث شأنٍ جَلل، فكان ما توقَّعه من وفاة خالد بن الوليد. فقال[8]:

سَنَحَتْ لِيْ يَـوْمَ الخَمِيْسِ غَـدَاةَ الفِطْرِ طَيْرٌ بالنَّحْسِ لا بالسُّعُودِ

(1) زهر الآداب للحصري: 2/ 227 – 228.

(2) صحيح البخاري: 7/ 175.

(3) زهر الآداب للحصري: 2/ 226.

(4) فتح الباري: 10/ 213.

(5) مسند الإمام أحمد: 1/ 438.

(6) ينظر الحيوان للجاحظ: 3/ 440.

(7) ينظر الطير ودلالته في البنية الفنية والموضوعية للشعر العربي قبل الإسلام: 10 .

(8) الأغاني: 11/ 376 .

فَتَعَيَّفْتُ أَنَّهُنَّ لأَمْرٍ مُفْظِعٍ ... ما جَرَيْنَ فِيْ يَوْمِ عِيْدِ[1]
فَنَعَتْ خَالِدَ بنَ أروى وَجَلَّ ... الخَطْبُ فِقْدَانُ خَالِدِ بنِ الوَلِيْدِ

مع العلم أنَّ «العِيافة والطِيرَةَ مِنَ الشِركْ»[2]. كما جاء في الحديث الشريف. وهو مما يُستغرب وجوده في عصرٍ إسلاميٍّ نهى الشَّرْعُ فيه عن الإيمان بمثل تلك المعتقدات. فما تفسيرُ وجودِها في شعرهم؟ نقول: إنَّه لمَّا كانت الطِّيَرةُ من الأمور التي تصدُّ الإنسان عن مقصده، وتمنعه من إتمام عمله، بصرف النظر عن الآلية التي تتم فيها؛ فإنَّ وجودها في رثاء الخلفاء والقادة ربَّما يكون على سبيل التقليد لا الإيمان والاعتقاد. إذْ كيف يمكن للشاعر بعد موت المرثي أن يتعيَّف أو يتنبَّأ بحدثٍ ما، والحدث قد وقع فعلاً. إلَّا ما كان على سبيل التمثُّل بهذا المعتقد لما يحمله من معاني الشؤم والدلالة على المصائب.

فهذا الفرزدق يُشير صراحةً إلى أنَّ قومه بني تميم قد أُصيبوا بموت القائد وكيع ابن أبي سود الغداني يوم خلَّى مكانه. ثم يشير إلى مرور الطيور البوارح، وذلك بقوله: أُصيبت ... ومرَّت فقدَّم الإصابة على المرور. وكأنَّ مرورها يعني الشُّؤم وحدوث المصائب. وهو ما أراد أن يخلص إليه. فقال[3]:

أُصِيْبَتْ تَمِيْمٌ يَوْمَ خَلَّى مَكَانَهُ ... وَمَرَّتْ لَهُمْ بِالنَّحْسِ طَيْرٌ بَوَارِحُ
وَمَا كَانَ وَقَّافاً إذا اشتَجَرَ القَنَا ... وَلاحتْ بِأَيْدِي المُصلِتِيْنَ الصَّفائِحُ
فَلِلَّهُ هَذَا الدَّهْرُ كَيْفَ أَصَابَنَا ... بِمُرْزِئَةٍ تَبْيَضُّ مِنْهَا المَسَايِحُ

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه، ما جاء على لسان كثيّر عزّة في رثائه لعبد العزيز بن مروان من رفضٍ لهذا المعتقد، قائلاً: إذا ما الطير جرت من اليسار توهمني بالشر،

---

(1) العيافة: زجر الطير، وهو أن ترى طيراً أو غراباً فتتطير، تقول: ينبغي أن يكون كذا، فإن لم تر شيئاً قلت بالحدس فهو عيافة. ينظر اللسان ، مادة (عَيَفَ): 9/ 261 .

(2) صحيح ابن حِبَّان: 13/ 502 .

(3) ديوانه: 1/ 122.

فلن أزجرها، ولن أتشاءم منها. فقال[1]:

فَأَصْبَحْتُ لَو أَلْمَمْتُ بِالحُوفِ شَاقَنِيْ مَنَازِلُ مِنْ حَلْوَانَ وَحْشٌ قُصُورُهَا
أَقُـوْلُ إِذَا مَا الطَّيْرُ مَـرَّت مُخِيْفَـةً سَوَانِحُهَا تَجْرِي وَلا أَسْـتَثِيْرُهَا
فَدَتْكَ ابْنُ لَيْلَى نَاقَتِي حَدَثَ الرَّدى وَرَاكِبُهَا إِنْ كَانَ كَـوْنٌ وَكُوْرُهَا[2]

كما يؤكِّد في موضعٍ آخر، وفي رثاء عبد العزيز بن مروان أيضاً، عدم إيمانه بالتطير وتكذيبه للزاجرين، وذلك في معرض الحديث عن مناقبه. فيقول[3]:

حَلِيْمٌ كَرِيْـمٌ ذُو أَنَـاةٍ وَأُرْبَـةٍ بَصِيْرٌ إِذَا مَا كَفَّهُ الحَبْـلِ جُـرَّتِ
وَشعْثَاءِ أَمْـرٍ قَدْ نَـزَتْ بيْنَ غَالِبٍ تَلافَيْتَهـا قَبْلَ التَّنَائِي فَلُمَّـتِ
وَأَبْرَأْتَهَا لَمْ يَجْرَحِ الكلْمُ عَظْمَهَا وَلَـو غِبْتَ عَنْهَا رُبِّعَتْ ثـمَّ أُمَّتِ
غَـمُـوْمٌ لِطَيْـرِ الزَّاجِرِيها أَرِيْبـة إِذا حَاوَلَتْ ضُرّاً لِذِي الضِّغْـنِ ضَرَّتِ

يقول: إنَّها لا تأبه للطير وزاجِريها، وهي الذَّكية الحصيفة، إذا ما أرادت أن تضُر المُبغِض الحافِظ للضَّغينة، أَضَرَّته وكذَّبت كلّ زاجِر طيرٍ مُتَفائل .

كما جاء التطير في مرحلةٍ لاحقةٍ لسماع خبر وفاة الخليفة معاوية بن أبي سفيان، كما جاء في رثاء مروان بن الحكم له. وليس تَنَبُّأً بِهِ. فيقول[4]:

بَكَّرَ النَّعِيُّ مَـعَ الصَّبَاحِ بِقَوْلِـهِ يَنْعَى رَبِـيْـعَ المُسلِمِيْنَ مُعَاوِيَـهْ
فَاسْتَكَّ مِنِّي السَّمْعُ حِيْنَ نَعَاهُ لِيْ جَـزَعـاً عَلَيْهِ وَاسْتُطِيْرَ فُؤَادِيَـهْ

وقد وظَّف الشعراء هذا المعتقد في مناحي الحياة كافَّة، منها ما جاء في شؤون القتال والحرب. كما جاء في رثاء زياد الأعجم للمغيرة بن المهلب. فهو الذي يدفع ألوية الحروب بطيورٍ سانحةٍ لقومه، بارحةٍ لعدوِّه، وكأنَّه هو الذي يُحدد

(1) ديوانه: 144 .

(2) ابن ليلى: هو عبد العزيز بن مروان والي مصر .

(3) ديوانه: 73 .

(4) تاريخ دمشق: 57/ 275 .

مسارها. فيقول[1]:

مَلِكٌ أَغَــرُّ مُتَـوَّجٌ يَسْمُو لَـهُ   طَرْفُ الصَّدِيْقِ وَغَضَّ طَرْفُ الكَاشِحِ
دَفَّـاعُ أَلْوِيَةِ الحُرُوْبِ إِلى العِدَى   بِسُعُوْدِ طَيْرٍ سَوَانِحٍ وَبَــوَارِحِ

وعلى العكس مما مضى، فإنَّ من الشعراء من عبر عن تأثُّره بهذا المعتقد، كما ورد في رثاء أبي صخر الهذلي لعبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أَسَيْد، إذ أظهر خوفه من الطير المشيحة فقال[2]:

وَكُنْتُ إِذا ما الطيرُ جَاءَتْ مُشِيْحَةً   أَقُوْلُ وَفِيْ صَدْرِي بِمَا زُجِرَتْ وَجْرُ[3]
أَبَا خَالِدٍ نَفْسِي وَقَتْ نَفْسَكَ الرَّدى   وَكَـانَ بِهَا مِنْ قَبْلِ عَثْرَتِكَ العَثْرُ

وفضلاً عن تطيرهم بحركة الطيور، وأصواتها، وألوانها. فقد تطيَّروا ببعض الأيام، كيوم السبت. «إذ كان العرب يتطيرون بمن يموت يوم السبت»[4]. كما جاء في رثاء الفرزدق لوكيع بن أبي سود الغدَّاني، مخاطباً ليلة السبت. بقوله[5]:

يَا لَيْلَةَ السَّبْتِ إِنْ أَلْقَتْ كَلاكِلَهَـا   عَلَى تَمِيْمٍ وَغُمَّتْ بَعْدَهَـا مُضَرَا
مُحَمَّـدٌ وَوَكِيــْعٌ لَيْسَ بَيْنَهُما   عَامَانِ يَا عَجَباً للدَّهْرِ إِذْ عَثَــرَا

نخلص مما سبق إلى أنَّ التطيُّر وزجر الطير، من العقائد القديمة التي ورِثها العرب عن أسلافهم من الأمم. وقد استمرَّ هذا المعتقد حتَّى بعد مجيء الإسلام؛ وذلك لأَنَّه مركوز في طِباع البشر. لكنَّ ما يميز المسلم من غيره، أنه يُذْهِبُهُ بالتَّوكل كما جاء في الحديث. وعلى الرغم من نهي الشرع عن الاعتقاد به، إلَّا أنَّ ما وجدناه في رثاء الخلفاء والقادة ينقسم على قسمين: قسمٌ تمثَّل به الشعراء لا على سبيل الإيمان والاعتقاد به. والدليل على ذلك إعلانهم صراحةً عن تكذيب زاجري

---

(1) شعره: 67 .
(2) شعراء أمويون: 4/ 87، ومنتهى الطلب من أشعار العرب: 9/ 375 .
(3) الوَجْرُ: الخوف، والطير المشيحة : المقبلة إليك .
(4) كشف الخفاء: 10/ 364 .
(5) ديوانه: 1/ 312 .

الطير. والقسم الآخر ما ذُكِرَ في أشعارهم ودلَّل على تأثرهم به. كما أنَّ التطير لم يقتصر على حركة الطيور أو شكلها أو أصواتها، كونها أصل التسمية، إذ تعدَّاه إلى التطير من أمورٍ أخرى، كبعض أيام الأسبوع، ومنها السبت مثلاً. وبذلك يكون التطير أقربُ معنىً إلى التشاؤم وهو ما أرادوا أن يعبِّروا عنه.

الهامَةُ والصَّدى:

ارتبطت أُسطورة (الهامة والصَّدى) عند العرب في الجاهلية بمسألة الثأر، إذْ تزعم العرب أَنه إذا قُتِلَ الرجل ولَم يُدرَك بثأره، خرج من هامته طائرٌ يسمَّى (الصَّدى) يُنادي الليل كله اسقوني، اسقوني، حتَّى يُقْتَلْ قَاتِلُه فيسكُن ... ويسمُّونه أيضاً الهامة[1]. ومنه قول ذي الإصبع العدواني[2]:

يَا عَمرُ إِلَّا تَـدَعْ شَتْمِي وَمَنْقَصَتِي أَضْرِبْكَ حَتَّى تَقُوْلَ الهَامَةُ اسْقُوْنِي

وقد تعددت الآراء حول معنى (الهامة والصَّدى). لكنَّ أكثر تلك الآراء تُجْمِعُ على أَنَّه اسمٌ لِطائرٍ مُتَخَيَّل يخرُجُ من رأس الميت. إذْ شبَّهُوا هذا الطائر بالبومة[3]. وذهب القلقشندي إلى تحديد جنس تلك البومة. فقال: الصدى هو الذكر، والهامة هي الأُنثى[4]. ورُبَّما أُطلِقَ أَحدُ الاسمين، وأُريدَ به معنىً واحداً. إذْ «كانت العرب تقول: إنَّ عظام الموتى، وقيل أرواحهم تصير هامة فتطير، وقيل: كانوا يسمون ذلك الطائر الذي يخرج من هامة الميت الصدى. فنفاه الإسلام عنه»[5]. وجاء النفي في قوله ﷺ: «لا هام، لا هام»[6]. وفي حديثٍ آخر «لا عَدْوىَ ولَا طِيَرَةَ ولا صَفَرْ ولَا

(1) ينظر البيان والتبيين: 1/ 284، الشعر والشعراء: 2/ 708، الأمالي للقالي: 1/ 129 المستطرف: 2/ 176.

(2) الكامل للمبرد: 1/ 325، الأمالي للقالي: 1/ 129.

(3) ينظر المستطرف: 2/ 176.

(4) ينظر صبح الأعشى في صناعة الإنشا: 2/ 93.

(5) لسان العرب، مادة (هَوَمَ): 12/ 624، وينظر النهاية في غريب الأثر: 5/ 282.

(6) مسند الإمام أحمد: 2/ 421.

هام»[1].

وفضلاً عن كون (الهامة والصدى) تُدَلِّلُ على رسوخ عادة الثأر في نفوس الجاهليين؛ فإِنَّها تُبَيِّنُ تأَثُّرَهُمْ بالخيالات والأوهام التي نسجوها في هذا المجال. «وقد تكون فكرة الهامة تبريراً ودافِعاً لهُم في إِدراكِ ثأرهم في أَقربِ وقت، بشكلٍ يُحقق الرَّاحة والاطمئنان لهامة القتيل، فَيُسْكِتَها عن طلب ثأرِها»[2].

ولم نقف في رثاء الخلفاء والقادة إِلاَّ على نماذج قليلة، يُشِيْرُ أَحدُها بوضوح إلى فكرة الثأر، وما يُعبَّر عنه بالهامة والصدى. إِذْ جاءَت على لسان الشاعر خلف ابن خليفة الباهلي، يشمت فيها بمقتل الخليفة الوليد بن يزيد بعدما قتلته قبيلة كلب، ثأراً لمقتل القائد خالد القَسْري على يد الوليد. فقال[3]:

لَقَدْ سَكَّنَتْ كَلْبٌ وَأَسْبَاقُ مُذْحِجٍ ... صَـدَىً كَـانَ يَزْقُو لَيْلُهُ غَيْرُ رَاقِـدِ
تَرَكنَ أَمِـيْـرَ المُؤْمِنِيْـنَ بِخَالـدٍ ... مُكِبـّاً عَلَى خَيْشُومِهِ غَيْرُ سَاجِدِ

أَمَّا ثابت قطنة، فيفتتح مرثيَّته للمهلب بن أبي صُفرة بِنِداء ابنته هند، ثُمَّ يقُصُّ عليها آلامَهُ وأَحزانه التي أَصابَتْهُ بموت أَبيها، ويُشَبِّه ليلَهُ وقد هَجَدَتْ الأصداء وَسَكَنَتْ، بِليل السَّليم الذي استعصى داؤُهُ وأَعيا الأَطِبَّاءَ دواؤُه. فيقول[4]:

يَا هِنْدُ كَيْفَ بِنُصُبٍ بَاتَ يُبْكِيْنِي ... وَعَائِرٍ فِي سَـوَادِ اللَّيْلِ يُؤْذِيْنِي[5]
كَـأَنَّ لَيْلِـي والأَصــدَاءُ هَاجِـدَةٌ ... لَيْلَ السَّلِيْمِ وَأَعْيَـا مَنْ يَدَاوِيْنِي[6]

ويقول الفرزدق في رثاء محمد بن العاص بن سعيد بن أميَّة، منوِّهاً

(1) المصدر نفسه: 1/ 269، وينظر صحيح البخاري: 7/ 17، وصحيح مسلم: 7/ 30.
(2) ينظر الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام: 41 .
(3) تاريخ الطبري: 5/ 563 .
(4) شعره: 64.
(5) العائر: وهو الرَّمَدْ، والقَذى، والحَكَّة. ينظر اللسان: 10/ 445، وتاج العروس: 3/ 428 .
(6) السَّليم: الَّديغ .

بالصَّدى[1]:

فَهَلْ تَرْجِعُ النَّفْسُ التي قَدْ تَفَرَّقَتْ حَيَاةُ صَدَىً تَحْتَ القُبُوْرِ عِظَامُهَا

وَبِما أنَّ ذِكْرَ الصَّدى يَأتي مُتَزامِناً مَعَ مسألة الثأر كما تقدَّم؛ فلم ينسَ ثابت قطنة أن يُهدِّد قاتلي المهلب بِحربٍ يثأرُ فيها لِمَقْتَلِهِ، ويشفِي صَدْرَه بِها. فيقول[2]:

لاَ خَيْرَ فِي العَيْشِ إنْ لَمْ يَجْنِ بَعْدَهُمْ حَرْبَاً تَبِيءُ بِهِمْ قَتْلَى فَتَشْفِيْنِي

وقد يَأتِي الصَّدى بمعنى الجسم والبدن، كما جاء في في اللسان: والصَّدى الجَسَدْ مِنَ الآدَمِي بعْدَ مَوْتِه[3]. وقد ورد بهذا المعنى في مواضع متعدِّدة. منها ما قاله الشَّمَردل بن شُريك في رثاء أخيه وائل[4]:

سَقَى الضَّفَرَاتُ الغَيْثَ مَـادَامَ ثَاوِياً لَهُنَّ وَجَـادَتْ أَهْـلُ شَـوْكٍ مَخَايِلُهْ
وَمَـا بِيْ حبُّ الأَرْضِ إلَّا جِوَارُهَا صَـدىً وَقَـوْلُ ظَـنٍّ أَنِّـي قَائِلُـهْ

وقول ذي الشَّامة في رثاء عبد العزيز بن مروان[5]:

سَـقَـى اللهُ قَبْرَيْهِمَـا وَالصَّـدَى وَمَـا جَـاوَرَا دَيْـمَـةً مُغْدِقَـهْ

وخلاصة القول: إنَّ أسطورة الهامة والصَّدى كان لها ارتباطٌ وثيقٌ بعملية الثأر التي انتشرت في عصر ما قبل الإسلام، واستمرَّت وإن كانت بنسبةٍ أقل في العصر الأموي. وكانت النماذج الشعريَّة مِنَ القلَّة بحيث لم تُسعِفنا النصوص بأكثر من مثالين اثنين، ذُكِرَ الصدى فيهما مُتَزامِناً مع عملية الأخذ بالثأر، في حين استغرقت بقية الأمثلة في الحديث عن المعنى الآخر للصَّدى، وهو ما قُصِدَ به جسم الإنسان بعد موته.

---

(1) ديوانه: 2/ 192.
(2) شعره: 64.
(3) اللسان، مادة (صدى): 14/ 453 .
(4) شعراء أمويون: 2/ 545.
(5) ولاة مصر للكندي: 78 .

شـقُّ الجُيوبِ ولطمُ الخُـدُود:

وهي من السنن المتَّبعة في مواقف الحزن عند النساء قبل الإسلام، إذْ تُعبِّرُ المرأة بهذه الأفعال عمَّا يجيشُ في صدرها من الحزْن الشَّديد والألم العميق الذي ينتابُها تجاه فقيدها. وفضلاً عن الدَّافع الذَّاتي الذي يدفع المرأة للقيام بهذه الأفعال؛ فقد نجد أحياناً مَنْ يوصي أهله بالقيام بها بعد موته. إذْ كان العرب قبل الإسلام يوصون أهليهم بأن يبكوا عليهم إذا ماتوا، وكان ذلك مشهوراً من مذاهبهم، وهو موجودٌ في شعرهم[1]. كقول طَرَفَة بن العبد[2]:

إِذَا مِـتُّ فَانْعِيْنِي بِمَا أَنَـا أَهْـلُهُ وَشُـقِّي عَلَيَّ الجَيْبَ يابْنَةَ مَعْبَدِ

وَجَرَتِ العادة في مثل هذه الظروف والمواقف المُحْزِنَة، أَن تتنادى النِّساءُ إلى بكاء الميت. و«كان من عاداتهم عند البكاء على الميت، شقّ الجيوب، ولطم الخدود، وتعفير الرؤوس بالتراب، واجتماع النسوة لندب الميت وذكر مناقبه»[3]. وكأنَّ الدموع وحدها لا تكفي للتعبير عن الحزن والألم!

وقد أطلقوا بعض الأسماء على النسوة اللائي يقُمْنَ بهذه الأعمال، فـ «التي ترفع صوتها بالنِّياحة تُعْرَفْ بالصَّالقة، أمَّا التي تحلق شعرها عند نزول المصيبة، فكان يقال لها: الحالقة، وأمَّا التي تشُقُّ جيبها، فيُقال لها الشَّاقَّة»[4].

ونهى الإسلام عن القيام بهذه الأفعال، لِمَا فيها من إيذاءٍ للنفس والبدن، فضلاً عمَّا تُحْدِثُهُ مِنْ تشويهٍ لخلقِ الله. إذْ جاء في الحديث قوله ﷺ: «ليسَ منَّا مَنْ لَطَمَ الخُدودَ، وشَقَّ الجُيوبَ، أو دعا بدعوى الجاهلية»[5]. كما برئ الرسول مِنَ

---

(1) ينظر بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: 3/ 11 .

(2) ديوانه: 54.

(3) ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: 5/ 154 .

(4) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: 5/ 285 .

(5) مسند الإمام أحمد: 1/ 456، وينظر صحيح البخاري: 2/ 82، والسنن الكبرى للبيهقي: 4/ 64 .

الصَّالقة والحالقة والشَّاقَّة. فقال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ صَلَقَ أو حَلَقَ أو خَرَقَ»[1]. أي ليس منا مَنْ رفع صوته، أو حلق شعره، أو شقّ جيبه .

ومِنَ الأمثلة على ذلك، ما جاء في رثاء أيمن بن خريم الأسدي للخليفة معاوية ابن أبي سفيان، إذْ يصوِّر فيها بُكاء بناته هند ورملة على أبيهما، وهي صورة – إن صَحَّت – لا تتوافق مع المُثُل الإسلاميَّة. فيقول[2]:

فَإِنَّكَ لَو سَمِعْتَ بُكَاءَ هِنْدٍ وَرَمْلَـةَ إِذْ تُلَطِّمْنَ الخُدُوْدَا
بَكَيتَ بُكَاءَ مُوْجَعَةٍ بِحزْنٍ أَصَابَ الدَّهْرُ واحِدَهَا الفَرِيْدَا

وقد يرافق شقَّ الجيوبِ ولطمَ الخدودِ عملية النواح، التي تُعْقَد في المآتم من لدُن النساء. ولابن قتيبة رأيٌ في علَّة التسمية بالمأتم. إذْ «يذهب الناس إلى أنه المُصِيْبَة، ويقولون كُنَّا في مأتم، وليس كذلك، إنما المأتم للنساء يجتمعن في الخير والشر، والجمع مآتم، والصواب أن يقولوا كنَّا في مناحة، وإنما قيل لها مناحة من النوائح لِتَقابُلِهِنَّ عند البُكاء. يقال: الجبلان يتناوحان إذا تقابلا»[3]. ومن ذلك ما جاء في رثاء أبي عطاء السندي ليزيد بن عمر بن هبيرة. إذ يقول[4]:

أَلا إِنَّ عَيْناً لَمْ تَجِدْ يَوْمَ وَاسِطٍ عَلَيْكَ بِجَارِيْ دَمْعُهَا لَجَمُوْدِ
عَشِيَّةَ قَامَ النَّائِحَاتُ وَشَقَّقَتْ جُيُوْبٌ بِأَيْدِي مَأتَمٍ وَخُدُوْدِ

وإذا كان النُّواح على الميت يعبِّر عن حزن أهله عليه؛ فإنَّ المغيرة بن المهلب فوق هذا النواح، وأكبر منه، إذْ لم يوفِّيَهُ حقَّهُ، حتَّى بكاهُ الدين والدُّنيا معاً. جاء ذلك في رثاء زياد الأعجم للمغيرة بن المهلب. فقال[5]:

(1) صحيح مسلم: 1/ 70، وينظر السنن الكبرى للبيهقي: 4/ 64 .
(2) أنساب الأشراف: 5/ 163، والفتوح لابن أعثم: 2/ 71، وفي معجم الشعراء للمرزباني: 177، تنسب الأبيات لفُضالة بن شُريك في رثاء يزيد بن معاوية، وفيه ... تصكّان الخُدودا .
(3) أدب الكاتب لابن قتيبة : 20 – 21 .
(4) شعره: 281 – 282، والتذكرة الحمدونية: 203، وفيها : ... عشية قام النادبات .
(5) شعره: 60، وينظر في المعنى نفسه: ديوان الفرزدق:1/ 410، في رثاء وكيع بن أبي سود =

وَإِذَا يُنَاحُ عَلَى امرئٍ فَتَعْلَمنْ ... أَنَّ المُغِيْرَةَ فَوْقَ نَوْحِ النَّائِحِ

يَبْكِي المُغِيْرَةَ دِيْنَنَا وَزَمَانَنَا ... وَالمُعْوِلاتُ بِرَنَّةٍ وَتَصَايُحِ

وغالباً ما يُزادُ إلى شقِّ الجيوب ولطم الخدود عملية حَسْرِ الوجه واليدين، أي كشفُهُما. «ويبدو أَنَّ حَسْرَ الوجهِ للمرأةِ الكريمةِ كانَ شيئاً مُرِيْعاً في وقتٍ لا يحْصَلْ إلَّا عندَما يَكونُ الخَطْبُ جَلَلاً والمُصَابُ أَلِيْماً، يُذْهِلُ الحُرَّة عن حَيَائِهَا وَسِتْرِهَا»[1]. يؤكِّدُ ذلكَ ما جاءَ في وصفِ رَجُلٍ من بني هِلال للنَّوائح وهُنَّ يبكيْنَ على المهلب بن أبي صُفرة. فقال[2]:

نَوَائِحُ يَنْدُبْنَ المُهَلَّبَ حُسَّراً ... تَوَالَى علَيْهِنَّ المَصَائِبُ والتَّبْلُ[3]

يُطَاوِعْنَ مَنْ أَوْدَى وَأَوْجَفَ فِي البُكَا ... وَإِنْ قِيْلَ مَهْلاً قِيْلَ مَا بَعْدَهُ مَهْلُ

وَآلَيْنَ لا يَنْكُبْنَ وَجْهاً لِحُرَّةٍ ... عَنِ اللَّطْمِ حَتَّى تَمْحَلَ الحَدَقُ النُّجْلُ

يُشَقِّقْنَ عَنْهُنَّ الجُيُوْبَ كَآبَةً ... وَلَهْفاً عَلَى أَسَدٍ أُتِيْحَ لَهَا القَتْلُ

وفي صورةٍ تبدو متناقضة، يرسمها الأخطل لأُمِّ خالد، زوجة يزيد بن معاوية، وهي مسلوبةٌ باكية، وسِرْبُ النِّساء يَعُدْنَهَا وقد شَقَقْنَ وتعرَّيْنَ من جلابيبهنَّ وَخُمُرِهِنَّ. إذْ يَقول[4]:

تَصِيْحُ المَوَالِيْ أَنْ رَأَوا أُمَّ خَالِدٍ ... مُسلَّبَةً تَبْكِي عَلَى المَاجِدِ الغمْرِ

إِذَا جَاءَ سِرْبٌ مِنْ نِساءٍ يَعُدْنَهَا ... تَجَرَّدْنَ إِلَّا مِنْ جَلابِيْبٍ أَوْ خُمْرِ

= الغذَّاني، والمصدر نفسه: 1/ 235، في رثاء عمر بن عبيد الله التيمي القرشي، والمصدر نفسه: 2/ 253، في رثاء محمد بن موسى بن طلحة.

(1) الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام: 132 .

(2) كتاب الوحشيات، وهو الحماسة الصغرى لأبي تمَّام: 240، وينظر في المعنى نفسه، ديوان الفرزدق :2/ 252، في رثاء يزيد بن المهلب يوم العقر. إذا المزونيات ..... غير نائل.

(3) التَّبْلُ، يُقالُ : تَبَّلَهُمُ الدَّهْرُ وأَتْبَلَهُمْ أي أفناهُمْ، وَتَبَّلَهُمُ الدَّهْرُ تَبْلًا، رَمَاهُمْ بِصُرُوْفِهِ، اللسان، مادَّة (تبَلَ): 11/ 76، وتاج العروس: 7/ 239 .

(4) شعره: 359 .

فكيف يدَّعي الشاعر تعرِّي سرب النساء، ويُثْبِتْ عليهنَّ جَلابيبهن! والجلباب هو ما يُلبس فوق الثياب! وكذلك يُثْبِتْ على رؤوسهنَّ الخِمار، والخِمار هو ما يُسْتَرْ بِهِ رأس المرأة ووجهها، وليس فوق الجلباب والخِمار من لِباسٍ آخرَ للمرأة[1]. وربَّما يكون لنصرانيَّة الأخطل دورٌ في هذا التناقض الذي وقع فيه .

وبالمقابل فهناك من هجا المرثي وتمنى أن لا يُشَقَّ عليه جيبٌ ولا يُلطم له خدٌّ، ولا تَنُحْ عليه نائحة. وكأنَّ التعبير عن الحزن والألم لا يكون إلَّا بالقيام بهذه الأفعال! جاء ذلك في رثاء ابن مفرغ الحميري لعُبيد الله بن زياد. إذْ يقول[2]:

مَا شُقَّ جَيْبٌ وَلا نَاحَتْكَ نَائِحَـةٌ   وَلا بَكَتْكَ جِيَـادٌ عِنْدَ أَسْـلابِ

نخلص مما سبق إلى أنَّ عادة شق الجيوب ولطم الخدود، مِنَ عادات عصر ما قبل الإسلام، التي ترافقت مع البكاء والنُّواح على الميت. إذْ وصل الأمر ببعضهم أنْ يوصي أهله أنْ يقوموا بمثل تلك الأعمال بعد موته. أمَّا ذكر هذه العادة في رثاء الخلفاء والقادة، فإنه يندرج في إطار تصوير حالة الحزن والجزع والذُّهول التي تنتاب أهل المُصاب فلا يُدْرِكُون معها تصرُّفاتِهِمْ. ولا أَستبعد أن يلجأ الشعراء – كعادتهم في المبالغة – إلى مثل تلك الصور في هكذا ظروف.

الدُّعـاءُ للمَيِّتِ بِعَـدَمِ البُعْـد:

استعمل الشعراء في رثاء الخلفاء والقادة بعض صيغ الدعاء التي شاع استعمالها قبل الإسلام، ومنها قولهم: «لا تبعد» وشعراء ما قبل الإسلام إنَّما أرادوا التعبير عن رغبتهم في التواصل مع الميت، وأن يبقى ذكره بينهم ولا يذهب، لأنَّ بقاء ذكر الإنسان بعد موته بمنزلة حياته[3]. وهو وإن بَعُدَ عنهم بجسمه ؛ فإنه يعيش بينهم بروحه. أي أنه إذا ذهب عنهم سيكون دائماً معهم وفي قلوبهم. ولعلَّ هذا

(1) ينظر أبعاد الالتزام في القصيدة الأموية: **189 – 199** .

(2) ديوانه: **83** .

(3) ينظر بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: **3/ 14** .

التفكير هو الذي حملهم على إخراج حصةٍ مما كانوا يأكلونه ويشربونه يسمُّونها باسم الميت، وعلى زيارة قبور الموتى والجلوس عندها، وضرب الخيام حولها، وعلى مناجاة صاحب القبر بذكر اسمه وتحيَّته [1].

وإذا كان الدُّعاء للميت بعدم البعد يضمن بقاء ذكراه في الحياة الدنيا، فإن بعض الشعراء كانوا يعرفون تماماً ويؤمنون بأن لا عودة للميت أبداً. ولكنها الرغبة الممزوجة بالإيمان والتسليم بأن لكلِّ إنسانٍ وقتاً ومقداراً لا بُدَّ وأن يستوفيه. تجلى ذلك في رثاء جرير للمرار بن عبد الرحمن. فقال[2]:

رَاحَ الرِّفَاقُ وَلَمْ يَرُحْ مَرَّارُ ... وَأَقَامَ بَعْدَ الظَّاعِنِيْنَ وَسَارُوا
لا تَبْعُدَنْ وَكُلُّ حَيٍّ هَالِكٌ ... وَلِكُلِّ مَصرَعِ هَالِكٍ مِقْدَارُ

ويلاحظ أن بعض الرُّثاة قَرَنَ اسم المرثي بالدعاء، كخطابٍ مباشرٍ له، وتوكيداً لدُعائه. من مثل قول الجعد بن قيس في رثاء زياد بن أبيه[3]:

كَانَ زيَادُ جَبَلاً صَعْبَ الذُّرا ... شَهْماً إذا سِيْمَ نَقِيْصَاتٍ أَبى
لا يُبْعِدُ الله زِيَاداً إذْ ثَوَى

ومثْلُ ذلك ما جاء في رثاء الوليد بن عبد الملك لعمه مسلمة بن عبد الملك، لكنَّهُ أَتبعَ دُعاءَهُ بحكْمَةٍ تؤكِّدُ حتمية الموت. إذ يصفه بالبُعْد الحقيقي الذي لا يُرجى إِيَابُه. فيقول[4]:

أَتَانَا بَرِيْدَانِ مِنْ وَاسطٍ ... يَخُبَّانِ بِالكُتُبِ المُعْجَمَه
أَقُوْلُ وَمَا البُعْدُ إِلَّا للرَّدَى ... أَمَسْلَمَ لا تَبْعُدَنْ مَسْلَمَهْ

---

(1) ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: 5/ 285 .

(2) ديوانه: 215.

(3) الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام: 1/ 316 – 317 .

(4) ديوانه 78، وينظر في المعنى نفسه، أنساب الأشراف: 13/ 38، في رثاء أحد الشعراء للمسور ابن عبد عمر بن عبَّاد، وشعراء أمويون: 2/ 523، في رثاء الشمردل بن شريك لعمر بن يزيد بن هبيرة .

أمَّا أبو عطاء السندي في رثاء عمر بن يزيد بن هبيرة، فيذكر أنَّ كل مَنْ تحت التراب قَدْ بَعُدْ. فيقول[1]:

فَـإنْ تُمْسِ مَهْجُوْرَ الفَنَاءِ فَرُبَّمَا   أَقَـامَ بـهِ بَعْدَ الـوُفُـوْدِ وُفُـوْدُ
فَـإِنَّـكَ لـمْ تَبْعُـدْ عَلَـى مُتَعَهِّـدٍ   بَلَـى كُلُّ مَنْ تَحْتَ التُّرَابِ بَعِيْدُ

ويقول المرزوقي في شرح البيتين: «إنْ متَّ وَصِرتَ مهجور الساحة مرفوض الخدمة، وربما كانت الوفود فيما مضى من حياتك تزدحم على بابك وتتلاقى في فنائك، فإنك الساعة لم تبعد على من يتعهَّدك ويرى قضاء حقِّك وإقامة الرسم في واجبك، ثم قال مستدركاً على نفسه: بلى كل مَنْ تحت التراب فقد بَعُدَ عن ذلك كله»[2].

وقد استعمل الشعراء أسلوباً جديداً في الدعاء بعدم البعد للمرثي، إذْ توجهوا بالدعاء لفضائله وأعماله التي تمثلها في حياته، وتمنوا لها البقاء وعدم البعد. كما جاء في رثاء كُثَيِّر عَزَّة للخليفة عمر بن عبد العزيز. إذْ كان العدل من أبرز الصفات التي تحلى بها. فقال[3]:

أَقُـوْلُ لَمَّا نَعَى النَّاعُوْنَ لِي عُمَراً   لا يُبْعِـدَن قَـوَامُ العَـدْلِ والدِّيـْنِ
قَدْ غَادَرَ القَوْمُ بِاللَّحْدِ الذِي لَحَدُوا   بِدَيْرِ سَمْعَانَ قِسْطَاسَ المَوَازِيْنِ

وكذلك فعل الشمردل بن شُريك في رثاء إخوته قدامة ووائل، إذْ تذكَّر الجياع الطارقين، والأيتام المحرومين، وقد اغبرَّ آفاق السماء من المحل. فدعى لإخوته بعدم البعد، حتى يكونوا دائماً بالقرب من هؤلاء المحتاجين. فقال[4]:

فَـلا يَبْعُـدَا للدَّاعينَ إِلَيْهِمَا إِذَا   اغبـرَّ آفَـاقُ السَّمَاءُ مِـنَ المَحْلِ

(1) شعره: **282**، والتذكرة الحمدونية: **203** .
(2) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: **2/ 800**.
(3) ديوانه: **179**.
(4) شعراء أمويون: **2/ 548**.

وإِذَا كَانَ مِنَ المتَعارَفِ عليهِ بينَ الشُّعَرَاءِ، دَعْوَتُهم بِعَدمِ البُعد للمَرثي أو لفضَائِله؛ فقد يكون العكسُ تَماماً، وذلك فيما يدخُل ضِمنَ الرِّثاءِ الهجائي، إذ دَعَا ابنُ مفْرِغ الحِميَري عَلى عُبيد الله بن زِياد بَعْدَ مَوتِه بِالبُعدِ والسُّحْق. قَائِلاً[1]:

أَقُــوْلُ بُعْداً وَسُحْقاً عنْدَ مَصْرَعهِ لابْنِ الخَبيْثَةِ وابْنِ الكَوْدَنِ الكَابِي[2]

لقد دعا الشعراء لموتاهم بعدم البعد، وأرادوا من ذلك بقاء ذكرهم، لأنَّ بقاء ذكر الإنسان بعد موته بمنزلة حياته. ولم يقتصروا في دُعائهم على شخصية المرثي؛ إذْ تعدُّوها إلى ذكر فضائله ومآثره، وتمنوا لها الدَّوام والبقاء وعدم البُعْد ... ولكن هيهات فلن يعود مَنْ مات في هذه الدنيا.

(1) ديوانه: **84**.

(2) الكَوْدَن: البرذون، والكودني من الفيلة أيضاً، اللسان، مادة (كَدَنَ): **13/ 356**، وينظر تاج العروس: **9/ 319**، والكابي: الفرس الذي إذا أَعيا فلم يتحرك من الإعياء، السان: **15/ 214**.

المبحث الثاني
مضامين إسلاميَّة

تمهيد:

تبين فيما سبق الأثر القوي للموروث الجاهلي في رثاء الخلفاء والقادة، بأبعاده المختلفة؛ لكن وبعد أن جاءت دعوة الإسلام بما تحمله من قيمٍ ومبادئ جديدة، راح الشعراء يستمدُّون منها مادّةً تعبيريةً وتصويريةً على قدرٍ كبيرٍ من الجِدّة، أعطت عملية المزاوجة هذه ما كانوا يريدونه لها من رصيد جديد يتزوَّدون به في حركتهم نحو التجديد[1]. فجاءت تلك القيم لتضع حدّاً لحالة التيه والضياع التي كان يعيشها الإنسان قبل الإسلام. وعلى الأخص فيما يتعلَّق بحدث الموت، ذلك المجهول الذي أرعبهم، فوقفوا إزاءه مشدوهين. وفي محاولة ساذجة لتفسير ما يحدث، فقد أوجدوا له مُحدِثاً وهو الدَّهر، وحمَّلوه جريرة كل ما يحدث لهم من كوارث ومحن، وأحاطوه بأساطير وخرافات تنمُّ عن حالة من التخبط وعدم الوضوح. في حين كانت الصورة عند الشاعر المسلم واضحةً جليَّة، إذْ آمن أن كلَّ ما يحدث له في هذه الدُّنيا، إنما هو مقدَّرٌ من الله سبحانه، إذا قضى أمراً فلا رادَّ لقضائه .

ومن تلك القيم الجديدة التي وضَّحَتْ ما استغلق فهمه على الجاهليين بشأن الموت – ومن هو المسؤول عنه؟ وفي أي وقتٍ يحين؟ وما الذي يليه؟ – قيمة الإيمان بالقضاء والقدر. كما كانت فكرتهم عن البعث والحياة

(1) ينظر التيار الإسلامي في القصيدة الأموية: 7 .

الآخرة مشوَّشَةً يكتنفها الغموض، فمنهم من آمن بالبعث والحشر، لكنه خلط ذلك بأساطير وخرافاتٍ سبق الحديث عنها. ومنهم من أنكر البعث والحياة الأخرى واعتقد بفناء الإنسان وعدمه بعد موته. ولا أدلَّ على ذلك من قول امرئ القيس[1]:

تَـمَـتَّـعْ مِـنَ الـدُّنْـيَـا فَـإِنَّـكَ فَـانٍ ... مِنَ النَّشَوَاتِ وَالنِّسَاءِ الحِسَانِ

من البِيْضِ كَـالآرامِ والأُدْمِ كالدُّمى ... حَوَاضِنُهَـا وَالمُبْرِقَـاتُ رَوَانِ

فجاء الإسلام ليبيِّن أن الموت لم يكن فناءً وعَدَماً، بل إنَّ الإنسان سيبعث من جديد ويُحشَر يوم القيامة ليعيش حياةً أبديَّة، إمَّا في الجنَّة وإمَّا في النَّار. وقد رأينا جزع الجاهليين من الموت وعدم صبرهم على مصائبه. في حين لمسنا صبر الشاعر المسلم واحتساب ما أصابه عند الله، وذلك لعلمه بما أعدَّه له من أجرٍ عظيم وخيرٍ عميم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾[2]. فكانت قيمة الصبر والاحتساب.

وفضلاً عن هذه القيم، فقد ظهرت قيمٌ أُخرى مستمدة من طبيعة الدعوة الإسلامية التي فرضت على المسلمين تبليغ دعوته وإيصالها إلى الناس كافَّة، والذَّود عنها بوجه الأعداء. فبعد أن كان القتال في الجاهلية لطلب الثأر أو الإغارة على الغير بهدف السلب والنهب. فقد أصبح في ظل الإسلام موجَّهاً لإعلاء رايته ونشر دعوته والذَّود عن حِياضِه، فكانت قيمة الجهاد والاستشهاد.

لقد شكَّلت هذه القيم الجديدة، معيناً ثَرّاً استقى الشعراء الرثاة مادَّتهم الشعريَّة منه، فضلاً عن كثيرٍ من الأمور التي تتعلَّق بشؤون الدِّين، كالحثِّ على العمل الصالح، وحماية الدين، والدُّعاء والاستغفار ... إلى غيرها من القيم التي جاءت مستمدَّةً في معانيها من القرآن الكريم والحديث الشريف.

---

(1) ديوانه: 87، 88.

(2) سورة البقرة، الآية: 156 .

القَضَاءُ وَالقَدَر:

مثَّل الإيمان بالقضاء والقدر، أحد الأركان المهمَّة التي يُبْنَى عليها إيمان المسلم، إذْ لا يتم إيمانه إلَّا به. فكلُّ شيءٍ في هذا الكون يسير بمقدار على وفق نظامٍ متناهٍ في الدِّقةِ والاتزانْ. قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[1]. والله سبحانه وتعالى هو الذي قدَّر الموت على البشرية وكتب لهم آجالهم. قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [2].

والإيمان بالقضاء والقدر من القيم الإسلامية التي وجَّهت أعمال المسلم في الحياة، ورسَّخت في ذهنه أنَّ كل ما يحدث له إنَّما هو مكتوبٌ في لوح القدر منذ أن خُلِقَ الإنسان، وبذلك آمَنَ أن لا رادَّ لحكم الله ولا مُبدِّل لكلماته إلّا هو[3]. قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [4]. وقد مضى الشعراء في رثاء الخلفاء والقادة يوضِّحون في شعرهم إيمانهم بالله عز وجل، وبما جاء في كتابه العزيز، وأنه سبحانه وتعالى قادرٌ على كلِّ شيء، بيده الأمر، جعل لكلِّ إنسانٍ أجلاً مُقَدَّراً إذا حان أجلُهُ فلا يمكن أن يتأخَّر أو يتقدَّم. قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [5].

لقد وعى الشعراء هذه الحقيقة، فأكثروا من تضمينها في رثائهم. إذ جاءت في معرض تعزية النفس والغير. لأن من شأن التذكير بهذه الحقيقة ما يُساعِدُ على تخفيف المُصاب. و«على المسلم أنْ لا يتخوَّف من المجهول، وإن ساوره خوفٌ أو قلق؛ فإنَّه يدفعه بتذكرة أنَّ ما يحدث للإنسان مُقدَّرٌ مسجَّلٌ باللوح المحفوظ»[6]. من ذلك ما جاء في رثاء عبد الله بن خازم لولده محمد، إذ يُقسم لو أن الحذر ينفع

(1) سورة القمر، الآية: 49.
(2) سورة الواقعة، الآية: 60 .
(3) ينظر أثر القرآن في الأدب العربي في القرن الأول الهجري: 80 .
(4) سورة الأحزاب، الآية: 38.
(5) سورة الأعراف، الآية: 34 .
(6) أثر القرآن في الأدب العربي في القرن الأول الهجري: 81 .

في ردِّ الموت عن ابنه لفعل؛ ولكن من المقدور لا ينجو الحَذِرْ. فقال[1]:

لَعَمْري لَقَدْ حَاذَرْتُ لَو كَانَ نَافِعِي   حَذَار على العفِّ الجَوَادِ مُحَمَّدِ
وَلَكِنَّهُ مَا قَدَّرَ الله كَائِنٌ   وَرَيْبُ المَنَايَا للرِّجَالِ بِمَرْصَدِ
وَلَيْسَ بِناجٍ مِنَ المَوْتِ وَرَيْبِهَا   فَتىً باحتيال لا وَلا بِمُخَلَّدِ

وقد تكررت محاولات الإنسان لرد الموت عمن يحب، لكنها لم تأت على سبيل الحقيقة ؛ إنما جاءت على سبيل المجاز. إذْ تمنَّى محارب بن دثار لو يملك دفع الموت عن الخليفة عمر بن عبد العزيز، لكنه أَيقَنَ بأن الأقدار غالبة وكرر ذلك مرَّتين، حتى لا يدع في نفسه والسامعين مجالاً للشك. فقال[2]:

لَو كُنْتُ أَمْلِكُ - والأَقْدَارُ غَالِبَةٌ -   تَأْتِي رَوَاحاً وَتِبْيَاناً وَتَبْتَكِرُ
رَدَدْتُ عَنْ عُمرَ الخَيْرَاتِ مَصْرَعَهُ   بِدَيْرِ سَمْعَانَ لَكِنْ يَغْلِبُ القَدَرُ

وكذلك أَيقن ابن عرس العبدي، في رثاء أسد بن عبد الله القسري، أنَّ قضاء الله إذا وقع فلا دافع له. فقال[3]:

نَعَى أَسَدُ بنِ عَبْدِ الله نَاعٍ   فَرِيْعَ القَلْبُ لِلمَلِكِ المُطَاعْ
بِبَلَخٍ وَافَقَ المِقْدَارَ يَسْرِي   وَمَا لِقَضَاءِ رَبِّكَ مِنْ دِفَاعْ

ومن ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر، أَنه يشيع روح الرضى والاستسلام في نفس الإنسان بما كتبه الله عليه. فالأصم بن الحجَّاج، كان يتمنَّى لو أن المنايا تأخَّرت قليلاً عن قتيبة بن مسلم حتى يتمكَّن من تحقيق ما كان يراوده من فتح الصِّين، ولكنه وبإيمانه المطلق أَنَّ لكلِّ إنسانٍ أَجلاً مكتوباً ومدَّةً معيَّنةً، لا يمكن تقديمها أو تأخيرها، استطاع أن يُرْضي طُمُوح نفسه، ويستسلم لقضاء الله وقدره. فقال[4]:

(1) تاريخ دمشق: 28/ 8.
(2) شعر الدَّعوة: 210 .
(3) تاريخ الطبري: 5/ 466 .
(4) تاريخ الطبري: 5/ 285 .

وَلَوْ لَمْ تُعَجِّلْنَا المَنَايَا لَجَاوَزَتْ بِنَا رِدْمَ ذِي القَرْنَيْنِ ذا الصَّخْرِ وَالقَطْرِ[1]

وَلَكِنَّ آجَالاً قَضَيْنَ وَمُدَّةً تَنَاهَى إِلَيْهَا الطَّيِّبُونَ بَنُو عَمرِو

وتتجلَّى أهمية الإيمان بالقضاء والقدر، في صرف الإنسان عن فعل ما لا يليق به كمسلم، من مثل لطم الوجوه وخمشها عند وقوع المصيبة، كما جاء في نصيحة الشمردل ابن شريك لبنات عبد الله بن حصن[2]، إذْ قال لهُنَّ متسائلًا: ما جدوى لطم الوجوه وخمشها وقد وقع قدَرُ الله؟ فقال[3]:

إِنْ تَفْرِيَا يَابْنَتَيْ حِصْنٍ وُجُوهَكُمَا إِلى النُّحُوْرِ فَقَدْ شَوَاكُمَا القَدَرُ

قُوْمَا فَعُدَّا عَلَيْهِ مِنْ فَضَائِلِهِ قَوْلاً يُصَدِّقُهُ البَادُوْنَ وَالحَضَرُ

وقد عبَّر الشعراء عن إيمانهم بالقضاء والقدر بصيغٍ مختلفة، منها أنَّهُم عَدُّوا موت المرثي استجابةً لدعوةٍ تلقَّاها من ربِّه، وَمَنْ منَّا يرفضُ دعوةِ ربِّه! جاء ذلك في رثاء عبد الرحمن بن جمانة الباهلي لقتيبة بن مسلم الباهلي. إذْ يقول[4]:

دَعَتْهُ المَنَايَا فَاسْتَجَابَ لِرَبِّهِ وَرَاحَ إِلى الجَنَّاتِ عِفّاً مُطَهَّرا

فَمَا رزئ الإسلامُ بَعْدَ مُحَمدٍ بِمثْلِ أَبِي حَفْصٍ فَبَكِّيْهِ عَبْهَرا[5]

وشبيهٌ بذلك ما قاله ثابت قطنة في رثاء يزيد بن المهلَّب، إذْ لم يملك يزيد حيال دعوة رَبِّه إلَّا الاستجابة والتسليم. ومما يلاحظ على هذا النوع من الصيغ التي يستعملها الشعراء في معرض إقرارهم بالقضاء والقدر، أنها قيلت فيمن ذهب

(1) ذي القرنين: وهو حصنٌ بجبل آمد من بلاد الترك، تخرج من تحته عين دجلة، ينظر معجم البلدان للحموي 2/ 441.

(2) عبد الله بن حصن، ويكنَّى أبا الشعثاء، كان على شرطة زياد، وعبيد الله بن زياد، وإليه نسبت مقبرة ابن حصن بالبصرة، ينظر أنساب الأشراف: 12/ 198 .

(3) أنساب الأشراف: 12/ 198 .

(4) تاريخ الطبري: 5/ 285 .

(5) عبهر: وهو ولد قتيبة بن مسلم الباهلي، ينظر البداية والنهاية: 9/ 190، وقيل: أم ولده، والكامل في التاريخ لابن الأثير: 4/ 298 .

ضحيّةً لصراعات قبلية، وهو ما حدث لقتيبة ويزيد بن المهلب[1]، مما حدى بالشعراء أن يعدُّوهم من الشهداء. فقال ثابت[2]:

أَبى طُوْلُ هَـذَا اللّيْلِ أَنْ يَتَصَرَّمَا وَهَـاجَ لَكَ الهمُّ الفُـؤَادَ المُتَيَّمَـا
عَلى هَالِكٍ هَـدَّ العَشِيْرَةَ فَقْـدُهُ دَعَتْهُ المَنَايَا فاستَجَابَ وَسَـلَّمَا

والموت عندما يداهم الإنسان، فإنَّه يُنفِّذ ما أُمِرَ به، كما جاء في رثاء حُمَيْد بن ثور الهلالي للخليفة عبد الملك بن مروان. إذ يقول [3]:

إِنَّ المَنِيـَّةَ حِيْـنَ أُرْسِـلَ سهْمُهَا لأَبِـيْ الوَلِيْدِ قَدْ أَنْـفَـذَتْ مَا تُؤْمَرُ

ولم يغب عن بال الشعراء – وهم يتحدَّثون عن أثر الإيمان بالقضاء والقدر في التخفيف من ألم المصاب – أن يُضَمِّنوا أشعارهم بعض معاني القرآن الكريم والحديث الشريف، ويُصيغوها بطريقتهم الخاصَّة، مثلما فعل الفرزدق في رثاء محمد بن موسى بن طلحة، إِذْ عَدَّ أَنَّ المنايا تلاحق الإنسان وترتقي لذلك كل سُلَّم. فقال[4]:

ولكِنْ رَأى أَنَّ الحَيَـاةَ ذَمِيْمَـةٌ وَأَنَّ المَنَايَـا تَرْتَقِي كُـلَّ سُـلَّمِ
وَأَنَّ فِـرَارَ المُسْلِمِيْنَ خِزَايَـةَ وَأُحْـدُوثَـةٌ تَنْمـي إلى كُـلِّ مَوْسمِ

وهذا يذكِّرنا بالآية الكريمة ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [5]. وفي معنى الآية السابق أيضاً، ما جاء في رثاء الفرزدق لعبد العزيز بن مروان، من أن الموت أدركه وهو بأرض النيل. فقال[6]:

إِنَّ الأرامِـلَ وَالأَيْـتَـامَ قَـدْ يَئِسُـوا وَطَالِبِي العُرْفِ إِذْ لاقَاهُمُ الخَبَرُ

---

(1) ينظر تفاصيل ذلك في الفتوح لابن أعثم: 2/ 205، وما بعدها.

(2) شعره: 57.

(3) منتهى الطلب من أشعار العرب: 7/ 393 .

(4) ديوانه: 2/ 253.

(5) سورة النساء، الآية : 78.

(6) ديوانه: 1/ 186 .

أَنَّ ابْـنَ لَيْلَى بِـأَرْضِ النِّيْلِ أَدْرَكَـهُ وَهُـمْ سِـرَاعٌ إِلـى مَعْرُوفِهِ القَـدَرُ

وهكذا نجد الشعراء قد أحالوا كلَّ ما أَصابهم من كوارث ومحن إلى قضاء الله وقدره، إذ تعددت الأساليب التي أوصلوا لنا من خلالها هذا الإيمان، فتارةً يصرِّحون به علانيةً، وأُخرى يضمِّنونه معاني توحي بهذا الإيمان، كأن يعدُّوا موت أو استشهاد المرثي دعوةً تلقَّاها من الله، فلبَّى هذه الدَّعوة واستجاب طائعاً. ولم يخف أثر الإيمان بالقضاء والقدر في التخفيف من ألم المُصاب؛ فإذا ما كان الموتُ مقدَّراً على الإنسان، فلماذا الجزع وعدم الصبر!

الصبر والاحتساب:

برزت قيمة الصبر والاحتساب في رثاء الخلفاء والقادة بصورةٍ واضحةٍ وجليَّة. ولا غرابة في ذلك؛ فالشعراء الرُّثاة عاشوا في جوٍّ إسلاميٍ استمدُّوا من معينه الثَّر أفكارهم، وترجموها إلى واقعٍ عملي. فكان إيمانهم بهذه القيمة ذا بُعْدٍ جديد، تمثَّل فيما يؤمِّله الرَّاثي ويرجوه عند الله من أجرٍ عظيمٍ أعدَّه للصَّابرين. وهو بذلك يختلف عن صبر الجاهليين، إذْ كان صبرهم لأغراضٍ دنيوية بحتة، أرادوا به تجنُّب شماتة الأعداء. كما جاء في رثاء أبي ذؤيب الهذلي لأبنائه الخمسة. إذْ يقول[1]:

وَتَجَلُّـدِي لِلشَّـامِتِيْنَ أُرِيْهُـمُ أَنِّـي لِـرَيْـبِ الدَّهْـرِ لا أَتَضَعْضَعُ

ومما يؤكِّد هذا المعنى عندهم، ما جاء في خطاب أبي سفيان بن حرب لقريش يحثهم على عدم البكاء، وإظهار الجَلَدْ حتَّى لا يشمَتْ المسلمون بهم. فقال: «يا معشر قريش، لا تبكوا على قتلاكم، ولا تَنُحْ عليهم نائحة، ولا يبكهم شاعر، وأظهِروا الجَلَدَ والعزاء، فإنَّكم إذا نحتم عليهم وبكيتموهم بالشعر؛ أذهب ذلك غيظكم ... مع أنَّه إن بلغ محمداً وأصحابه شمتوا بكم فيكون أعظم المصيبة

(1) شرح أشعار الهذليين: 1/ 10، وينظر في المعنى نفسه، المصدر نفسه: 1/ 102.

شماتتهم ... فمكثت قريش شهراً لا يبكيهم شاعر، ولا تنوح عليهم نائحة»[1].

وممن أكَّد قيمة الصَّبر عند الجاهليين بالمعنى الذي سبق ذكره، المبرد في كتابه التعازي والمراثي، إذ أقرَّ بصبرهم على النَّوائب؛ لكن بمعزلٍ عن المعنى الذي ورد عند الإسلاميين، ألا وهو طلب الأجر والثواب من الله، والخوف من عقابه، لأنهم يجهلون ذلك، فقال: «كانت العرب في الجاهلية – وهم لا يرجون ثواباً، ولا يخشون عقاباً – يتحاضُّون على الصبر، ويعرفون فضله، ويعيرون بالجزع أهله، وإيثاراً للحزم وتزيناً بالحلم، وطلباً للمروءة، وفراراً من الاستكانة إلى حُسن العزاء، حتّى إن كان الرَّجُلُ منهم ليفقد حميمه فلا يُعْرَفُ ذلك منه»[2]. وصبرهم على هذا الأساس، يحتمل أمرين، إمَّا أنهم يستعينون به لإراحة أنفسهم من متاعبها وأوجاعها، أو على غيرهم فيرتاحون من شماتتهم ولومهم.

لقد كان للإسلام دورٌ كبيرٌ في الحثِّ على التَّجمُّل بالصَّبر، وتمثُّله عند وقوع المصيبة، طمعاً فيما أعدَّه الله للصاَّبرين من أجرٍ عظيمْ. من ذلك ما ورد في القرآن الكريم من آياتٍ كثيرةٍ تُبَشِّرُ الصَّابرين وتُشيرُ إلى فضل الصَّبر وبيان أجره. منها قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾[3]. وفي آيةٍ أُخرى ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾[5]. والصَّبرُ أكثر خُلُقٍ تكرَّر ذكره في القرآن الكريم إذ جاء في نيفٍ وسبعين موضعاً[6]. وورد في الحديث الشريف ما يؤكِّد ذلك، إذ جاء قوله ﷺ: «الصَّبْرُ نصْفُ الإيمان»[7].

(1) مغازي رسول الله للواقدي: 1/ 121 – 122.

(2) التعازي والمراثي للمبرِّد: 4 .

(3) سورة البقرة، الآية: 155 – 156 .

(4) سورة الزُّمَرْ، الآية: 10 .

(5) سورة النَّحل، الآية: 96 .

(6) ينظر الصبر في القرآن الكريم: 9، وإحياء علوم الدين للغزالي: 4/ 63 .

(7) المستدرك للحاكم: 2/ 284 .

ومن ثمرات هذا الصَّبر، لجوء الشَّاعر إلى ربِّه شاكياً مُصابَهُ وفقده، وبهذا التَّوجه تتمثَّل روح إسلامية عالية، نبذت الحياة الدُّنيا وراء ظهرها، واطمأنَّت إلى جِوار ربِّها. كما جاء في رثاء الشمردل بن شُريك لأَخيه عندما تلقَّى خبر استشهاده، فواجه ذلك الخبر ولأول وهلة بالصبر، وهو بهذا الفعل يتمثل قول الرسول ﷺ: «الصَّبر عند الصَّدمة الأُولى»[1]. فقال[2]:

أَقُولُ وَقَدْ رَجَمَتْ عَنْهُ فَأَسْرَعَتْ ... إِلَيَّ بِأَخْبَارِ اليَقِيْنِ مَحَاصِلُهْ

إِلى الله أَشْكُو لا إلى النَّاسِ فَقْدُهُ ... وَلَوْعَةَ حُزْنٍ أَوْجَعَ القَلْبَ دَاخِلُهْ

إنَّ صبر الشاعر على ما أصابه واحتساب ذلك عند الله؛ مرتبطٌ بما أعدَّه للصَّابرين من فوزٍ بالجنَّات ورضوان الله، فكيفَ الحالُ والمرثي فِلذَةُ كِبدِه! عندها يكون المُصَابُ عَظِيْماً والأجر أعظم. جاء ذلك في رثاء الخليفة عبد الملك بن مروان لولده مروان إذ يقول[3]:

كَتَبْتَ تَسْأَلُ عَنْ صَبْرِي لِتَعْلَمَهُ ... عَلَى الـرَّزِيَّـةِ بِالـمَأْمُوْلِ مَـرْوَانِ

فَقَدْ صَبَرْتُ بِعَوْنِ الله مُحْتَسِباً ... لِمَوْعِدِ الله مِنْ فَوْزٍ وَرِضْوَانِ

وَلَوْ حَزِنْتُ وَلَمْ أَصْبِرْ لِفُرْقَتِهِ ... مَا كَانَ فِيْ فَقْدِهِ مَنْهَاةُ أَحْزَانِي

وتتردَّد مرَّةً أُخرى قيمة الصَّبر واحتساب الأجر عند الله، وذلك في رثاء جرير لعبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك فيقول[4]:

فَهَدَّ الأرضَ مَصْرَعُهُ فَمَادَتْ ... رَوَاسِيْهَا وَنُضِّبَتِ البُحُورُ

وَأَظْلَمَتْ البِلادُ عَلَيْهِ حُزْناً ... وَقُلْتُ أُفَارِقُ القَمَرُ المُنِيْرُ

وَكُلُّ بَنِي الوَلِيْدِ أَسَرَّ حُزْناً ... وَكُلُّ القَوْمِ مُحْتَسِبٌ صَبُوْرُ

---

(1) مغازي رسول الله للواقدي: 1/ 121 – 122.

(2) الأغاني: 13/ 377 .

(3) التعازي والمراثي للمبرد: 143 .

(4) ديوانه: 225 – 226.

وَكَـيْـفَ الصَّـبْـرُ إِذْ نَظَـروا إِلَيْهِ يُـرَدُّ عَلى سَـقَائِفِـهِ الحَفِيْرُ[1]

ومن المعاني الإسلامية الأُخرى التي استمدَّها جرير في رثائه لعبد العزيز فضلاً عن الصبر والاحتساب، ما صوَّره من أحداثٍ رافقت موت المرثي، «وكأنَّهُ ينظُرُ بخياله إلى مشاهد يوم القيامة، التي حدَّثنا عنها القرآن الكريم، وواضحٌ أيضاً أنَّهُ استوحى كثيراً من عباراته وصوره من المعجم القرآني»[2]. من مثل قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[3] وقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾[4]. وقوله عزّ وجلّ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾[5].

وفضلاً عمَّا يناله الصابر من الأجر والثَّواب في الآخرة، فإنَّه يعود على صاحبه في الدنيا بالرَّاحة النفسية، وهو ما عبَّر عنه الحكم بن عبدل، إذْ عَدَّ الصبر دواءً للهموم التي ركبته جرَّاء موت بشر بن مروان. فقال[6]:

فَـلأَصْـبِـرَنَّ وَمَـا رَأَيْـتُ دَوىً لِلهَـمِّ غَـيْـرَ عَـزِيْـمَـةِ الصَّـبْـرِ

والصبر عند خالد بن يزيد بن معاوية، يُنْسِي صاحبه التَّشكِّي والأنين، جاء ذلك في معرض رثائه لجدِّه وأبيه. ولا ينسى أن يفتتح مرثيته بالحثِّ على التجلُّد والصبر كي لا يشمت الأعداء بهم. فيقول[7]:

تَجَلَّـدْ لِلعُـدَاةِ الشَّـامِتِيْنَـا وَلاَ تُـرَ لِلحَـوَادِثِ مُسْـتَكِيْنَا
وَعَـزِّ النَّفْسَ إِنْ سَخَطَتْ بِصَبْر يُنْسِـيْهَا التَّشكِّي وَالأَنِيْنَـا

---

(1) السقائف: الحجارة التي يسقف القبر بها، والحفير: التراب .
(2) ينظر التيار الإسلامي في القصيدة الأموية: **517** .
(3) سورة النحل، من الآية: **15**.
(4) سورة الأنبياء، من الآية: **31**.
(5) سورة الكهف، الآية: **109**.
(6) الأغاني: **2/ 411**.
(7) تاريخ دمشق: **16/ 313**.

وكذلك فعل عبد الله بن همام السلولي، عندما خاطب يزيد بن معاوية مُعزِّياً ومُهنِّئاً، فحثَّهُ على سلوك طريق الصبر، مُتْبِعاً طلبه بتهنئته بما آل إليه من خلافة المسلمين، وهو مما يساعد على التَّسلِّي ونسيان المُصيبة. فقال[1]:

إِصْبِرْ يَزِيْدُ فَقَدْ فَارَقْتَ ذَا ثِقَةٍ   واشْكُرْ عَطَاءَ الَّذي بالمُلْكِ أَصْفَاكَا

ويعود من جديد لِيطلب – لا من يزيد وحده، بل – في هذه المرَّة من كل بني حرب الصبر، لأنَّ الخلود لله وحده. فيقول[2]:

تَعَزُّوا يَا بَنِي حَرْبٍ بِصَبْرٍ   فَمَنْ هَذَا الَّذِيْ يَرْجُو الخُلُودا

وقد جاءت أكثر معاني الصبر عند الشعراء في معرض التذكير بمصير الإنسان الذي سيؤول يوماً إلى ما آل إليه كلُّ الناس، فما هو إلَّا واحداً منهم. جاء ذلك في رثاء أعرابي من كلاب، لعبد الملك بن عمر بن عبد العزيز. فقال[3]:

تَعَزَّ أَمِيْرَ المؤمِنِيْنَ فَإِنَّهُ   لِمَا قَدْ تَرَى يُغَذَّى الصَّغِيْرُ وَيُوْلَدُ

هل ابْنَكَ إِلَّا مِنْ سُلالَةِ آدَمٍ   لِكُلٍّ عَلَى حَوْضِ المَنِيَّةِ مَوْرِدُ

وفي المعنى نفسه يقول عبد الله بن ذكوان في رثاء محمد بن عبد الله بن خازم، يحث أباه على الصبر، ويذكره بأن كل إنسانٍ سيصيرُ إلى ما صارَ إليه ولدُه. فيقول[4]:

أَبَا صَالِحٍ صَبْراً فَكُلُّ مُعَمَّرٍ   يَصِيْرُ إِلى مَا صَارَ فِيْهِ مُحَمَّدُ

فَرَدَّ عليه والده مُبَيِّناً صبره، وأَنَّ ذلك من أخلاقه وسجاياه. فقال[5]:

---

(1) شعره: 203.

(2) المصدر نفسه:188.

(3) حلية الأولياء: 5/ 395، وينظر في المعنى نفسه: ديوان الفرزدق: 1/ 409، في رثاء وكيع بن أبي سود الغدَّاني.

(4) تاريخ دمشق: 28/ 8، وينظر في المعنى نفسه: شعر نُصيب بن رباح: 87، في رثاء عبد العزيز بن مروان.

(5) تاريخ دمشق: 28/ 8 .

أَعْــزَى عَلَيْــهِ وَالــعَــزَاءُ سَجِيَّتِي وَمَا أَنَا بِالآسِي عَلى حَدَثِ الدَّهْرِ

وَخُلاَصَةُ القَوْلِ: إِنَّ صَبْرَ الشُّعَرَاءِ واحتِسَابَ مَا أَصَابَهُم عِنْدَ الله، ثَمرَةٌ مِنْ ثَمَرَاتِ إيمَانِهِم بالله، وَبِمَا أعَدَّه للصَّابِرِين مِن أجْرٍ عَظِيم وَخَيْرٍ عَمِيْم، وَهُوَ لِذَلِكَ يَخْتَلِفُ عَنْ صَبْرِ الجَاهِليين، الذي اقتَصَرَ عَلى أغْرَاضٍ دُنْيَوِيَّة لَمْ تَزِدْ عَلَى مُحَاوَلَتِهِم تَجَنُّب شَمَاتَةِ الأَعْدَاء بِهِمْ، كَمَا عَدُّوا الصَّبْرَ عَامِلاً يُساعِد عَلَى بَقاءِ نَارِ الثَّأر مُتَّقِدَةً في نُفُوْسِهِمْ، ولولاهُ لخمدَتْ وَخَبَا لَهِيْبُهَا، كَمَا سَبَق فِي وَصِيَّةِ أَبِي سُفْيَان لِقُرَيْش.

البعث واليوم الآخر والجنة والنار:

عَرَفَ العرب قبل الإسلام البعث والحياة الآخرة، إذ جاءت هذه المعرفة من تأثرهم بالديانة اليهودية والنصرانية، أو ممن كان حنيفيّاً أقرَّ بوجود البعث واليوم الآخر، وهو ما ذهب إليه ابن حبيب، من أن العرب كانوا يؤمنون بالبعث والحساب[1].

ولم تكن معرفتهم تلك بالدرجة نفسها من الوضوح والإبانة، إذ انقسموا على فريقين، كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم. فالفريق الأول آمن بالبعث والحياة الآخرة؛ لكنه لم يقم الدليل لديه على ذلك، ومن هنا جاء إنكارهم له. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾[2]. يقول القرطبي في تفسير الآيتين: «... لقد وَعَدَنَا هذا من قبل محمد واعِدُون، وعدوا ذلك آباءنا فلم نر لذلك حقيقةً ولم نتبين لذلك صحَّة»[3].

وفضلاً عن معرفتهم تلك، فقد خلطوها بتخيُّلاتٍ ساذجة تنم عن حالةٍ من الجهل كانوا يعيشونها. ومن تلك التخيلات ما ذكره ابن حبيب من أنَّ الرجل

(1) ينظر المحبر لابن حبيب: 322، والحياة والموت: 87.

(2) سورة النَّمل، الآيات: 67 – 68 .

(3) جامع البيان: 10/ 47، وينظر الجامع لأحكام القرآن: 12/ 145، وتفسير ابن كثير: 3/ 253.

إذا مات عمدوا إلى راحلته التي ركبها فيوقفونها على قبره، معكوسة الرأس إلى يديها، ملفوفة الرأس، فلا تُعْلَفْ ولا تُسقَى حتى تموت، ليركبها إذا خرج من قبره، وتسمَّى «البليـة» و«الرَّذيَّة»[1]. وقد أوصى بعضهم أبناءه أن يعدُّوا له بعد موته بعيراً قويّاً ليركبه عندما يحشر الناس فإذا لم ينفذ الأبناء الوصية فإن أباهم سيحشر على قدميه، وفي ذلك من العذاب ما فيه. جاء ذلك في وصيِّة حريبة بن الأشيم الفقعي لابنه فقال[2]:

يَا سَعْدُ إِمَّا أَهْلِكَنَّ فَإِنَّنِيْ ... أُوصِيْكَ إِنَّ أَخَا الوُصَاة الأَقْرَبُ

لا تَتْرُكَنْ أَبَاكَ يَعْثُرُ رَاجِلاً ... فِيْ الحَشْرِ يُصْرَعُ لِلْيَدَيْنِ وَيُنْكَبُ[3]

وَاحْمِلْ أَبَاكَ على بَعِيْرٍ صَالِحٍ ... وَتَقِي الخَطِيئَةَ إِنَّ ذَلِكَ أَصْوَبُ

أمَّا الفريق الآخر، من الذين أنكروا وجود البعث واليوم الآخر، واعتقدوا بفناء الإنسان بعد موته. وذلك لأنهم «لا يريدون سماع شيء عنهما، ولا يصدِّقون عودة الرُّوح إلى الجسد بعد أن فارقته فذلك عندهم من المستحيلات، ولذلك سخروا من البعث لمَّا سمعوا به، وكيف يكون بعثاً وقد فنيت الأجساد ولم تبق منها بقيَّة»[4]. وقد أيَّد القرآن الكريم في أكثر من آية وجود مثل هذا الاعتقاد عندهم، «فقد كان أهم ما استعصى عليهم قبوله من الإسلام، عقيدته في البعث والجزاء»[5]. قال تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾[6]. وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ

---

(1) المحبر: 223، وينظر نهاية الأرب للنويري: 3/ 121، وبلوغ الأرب للآلوسي: 2/ 307 .

(2) المحبر، لابن حبيب: 323 .

(3) النَّكبُ: وهو داءٌ يأخذ الإبل في مناكبها، ينظر اللسان، مادة (نَكَبَ): 1/ 772، وتاج العروس: 1/ 494.

(4) المفصَّل في تاريخ العرب: 6/ 127 .

(5) الحياة والموت: 85 .

(6) سورة هود، من الآية: 7، وينظر في المعنى نفسه، سورة الواقعة، الآية: 47، والمطففين، الآية: 10، والانفطار، الآية: 9، والصَّافَّات، الآية: 21 .

ﭐلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ [1].

ومما يؤكد هذا الاعتقاد، ما جاء في شعرهم من مثل قول شدَّاد بن أوس في رثاء قتلى بدر، إذ يقول[2]:

يُخْبِرُنَا الرَّسُوْلُ بِأَنَّا سَنَحْيَا وَكَيْفَ حَيَاةُ أَصْدَاءٍ وَهَامِ؟
أَنُتْرَكُ أَنْ تَرُدَّ الموْتَ عَنِّي وَتُحْيِينِي إِذا بَلِيَتْ عِظَامِي!

ولعلَّ مما يلاحظ أنَّ إنكار هؤلاء للبعث واليوم الآخر، «لم يظهر ويعلو صوته إلَّا بعد أن جاء الإسلام، واصطرع مع الوثنية، فبرز الإنكار ... فالقضيَّةُ قضيَّةَ معرفةٍ وإنكارٍ، لا قضيِّةَ جهل»[3].

كانت تلك نظرة الجاهليين للبعث واليوم الآخر. وعندما جاء الإسلام برؤيته الجديدة للحياة وما يتلوها بعد الممات، مما كان له الأثر الفاعل في تعميق نظرة الشاعر إلى حقيقة الحياة الدنيا ومتاعها الزائل، إذ ليست في نظره إلَّا اختباراً لحياته الأخرى التي ينتقل إليها بالموت. وقد وصف الله سبحانه الحياة الدنيا بأنها لهوٌ ولعب. أما الدار الآخرة فهي دار الاستقرار الدائم، إذ لا موت بعدها. قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [4].

لقد استلهم الشعراء في رثاء الخلفاء والقادة هذه المضامين والأفكار كلٌّ ضمن السياق الذي ورد فيه. فجاءت ألفاظ يوم القيامة، والحشر، والنشور، والجنة والنار، لتدلل على إيمان هؤلاء الشعراء بالبعث واليوم الآخر، ولتكون دافعاً لهم على العمل الصالح الذي ينفع صاحبه بعد مماته. فأبو عبد الأعلى في رثائه للخليفة

---

(1) سورة يس، الآية: **78** .

(2) السيرة النبوية لابن هشام: **2/ 296** .

(3) الرثاء في الشعر الجاهلي: **29 – 30** .

(4) سورة العنكبوت، الآية: **64**، وينظر في المعنى نفسه الآيات من السور، الواقعة، الآية: **4**، والمطففين، الآية: **10**، والانفطار، الآية: **9**، والصَّافَّات، الآية: **21**.

هشام بن عبد الملك، يُرْهِنُ السعادةَ الحقيقيةَ للإنسانِ في الدنيا والآخرة بما يقدمه لنفسه من أعمالٍ صالحة. فيقول[1]:

فَنَفْسُكَ فَاكْسِبْهَا السَّعَادَةَ جَاهِداً فَكُلُّ امرئ رَهْنٌ بِمَا هُوَ كَاسِبُهْ

وهذا يذكِّرنا بقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾[2]. وقوله جل شأنه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾[3].

ومما ينفع الإنسان في الآخرة يوم الحساب، ما يُقدّمه لنفسه في الحياة الدُّنيا، إذْ جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾[4]. فعلى الإنسان أنْ يقدِّم لنفسه في هذه الدُّنيا ما ينفعه في الآخرة، وأن لا يغترَّ مَن امتدَّ به العمر، فليس إلى الخلود سبيل، والموت لا ينفكُّ عن ملاحقة الإنسان حتَّى يظفر به، فهو دائم الإقامةِ بيننا ولكن لا نشعر به، فَلا بُدَّ من هذا اليوم - الذي يُكمِل فيه الإنسان عِدَّتَه -. وحينها لا ينفعه إلَّا عمله الصالح، ولهذا نجد الأحوص الأنصاري يحث في رثائه للخليفة معاوية على ذلك قائلاً[5]:

قَدِّمْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ يَوْمِكَ صَالِحاً وَاعْمَلْ، فَلَيْسَ إِلَى الخُلُوْدِ سَبِيْلُ
إِنَّ الحِمَامَ لَطَالِبٌ لَكَ لاحِقٌ وَالمَوْتُ رَبْعُ إِقَامَةٍ مَحْلُوْلُ
لا بُدَّ مِنْ يَوْمٍ لِكُلِّ مُعَمَّرٍ فِيْهِ لِعِدَّةِ عُمْرِهِ تَكْمِيْلُ
وَالنَّاسُ أَرْسَالٌ إِلى أَمَدٍ لَهُمْ يَمْضِي لَهُم جِيْلٌ وَيَخْلُفُ جِيْلُ[6]

---

(1) تاريخ دمشق: 20/ 80 – 81، وبغية الطلب: 9/ 4515 .

(2) سورة الجاثية، الآية: 15.

(3) سورة المدَّثر، الآية: 38.

(4) سورة البقرة، الآية: 110، وينظر سورة المزَّمِّل، الآية: 20 .

(5) ديوانه: 219.

(6) أرسال: جمع رَسَلْ، وهو القطيع من كلِّ شيء، يقال جاءت الخيل أرسالًا، أي قطعة بعد قطعة، واستعاره هنا للإنسان. ينظر اللسان مادة (رَسَلْ) : 11/ 281، وتاج العروس: 7/ 343.

وعندما يُؤْمن الإنسان بأنَّ الله سوف يحاسبه في الآخرة عن أعماله في الدنيا، يكون سلوكه في عمله موافقاً لما يريده الله، فكيف الحال عندما يكون الإنسان مسؤولاً عن عباد الله، حينها تكون المسؤولية أعظم والخوف أشد، ولهذا كدح الخليفة عمر بن عبد العزيز في هذه الدنيا كدح المتيقِّن بأن الله سوف يدينه إن هو قصَّر في عمله. وكان دستوره في ذلك، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦﴾ [1]. لا يفارقه أبداً. جاء ذلك في رثاء كثيِّر عزة له إذ يقول[2]:

فَعَفَّتْ عَنِ الأمـوَالِ نَفْسُكَ رَغْبَةً ... وَأَكْـرِمْ بِنَفْسٍ عِنْدَ ذَاكَ تَصُونُهَا
وَعَطَّلْتَهَا مِنْ بَعْدِ ذَلِـكَ كَالَّـذِي ... نَهَى نَفْـسَهُ أَنْ خَالَفَتْهُ يُهِيْنُهَا
كَدَحْتَ لَهَـا كَـدْحَ امرئٍ مُتَحَرِّجٍ ... قَـدْ أَيْـقَـنَ أَنَّ الله سَـوْفَ يُدِيْنُهَـا

وقد أيقن الخليفة الوليد بن يزيد في رثائه لابنه مؤمن، أن مردّه إلى الله، وأنَّه إليه راجع، وهذا خير ما يعزِّي الإنسان به نفسه. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [3]. فقال الوليد[4]:

أَتَـانيْ سـنَانٌ بِالـوَدَاعِ لِمُؤْمِنٍ ... فَقُلْـتُ إِنِّـي إِلـى الله رَاجِــعُ

وجاءت مفردة (الحَشْر) في رثاء منقذ بن عبد الرحمن الهلالي لأبي عطاء السندي عندما سمع بنبأ وفاته، فتمنَّى أن تقوم السَّاعة ويسمع صيحة الحشر، عندها يُبعَث الناس من قبورهم ليبدأ الحساب. قال تعالى: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٥٣﴾ [5]. فيقول منقذ[6]:

---

(1) سورة الانشقاق، الآية: 6 .
(2) ديوانه: 177.
(3) سورة البقرة، الآية: 156.
(4) الأغاني: 7/ 81 .
(5) سورة يس، الآية: 53 .
(6) تاريخ الطبري: 6/ 109 .

عَالَى نَعِيُّهُمْ فَقُلْتُ لَهُ هَلَّا أَتَيْتَ بِصَيْحَةِ الحَشْرِ
لِلَّهِ درُّكَ مَنْ زَعَمْتَ لَنَا أَنْ قَدْ حَوَتْهُ حَوَادِثُ الدَّهْرِ

وجاء ذكر (النُّشُور) في رثاء أبي حَزَّابة (الوليد بن حنيفة) لطلحة الطلحات، وذلك في معرض تعبيره عن الخسارة الفادحة بموت هذا القائد، الذي لن نظفر بمثله إلى يوم النشور، وهذا يذكرنا بالآية الكريمة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [1]. فيقول أبو حزَّابة[2]:

وَارَاهُ عَنَّا الجدَثُ المَغْوُرُ قَدْ عَلِمَ القَوْمُ غَدَاةَ استَعْبَروا
وَالقَبْرُ بَيْنَ الطَّلحات يُحْفَرُ أنْ لَنْ يَروا مِثْلَكَ حَتَّى يُنْشَروا

ومن الألفاظ التي تدل على البعث واليوم الآخر، لفظة (القيامة). إذ جاءت في رثاء محمد بن خالد بن الوليد للخليفة عمر بن عبد العزيز، يَتَسَاءَلُ فيها عن مدة خلود الإنسان في هذه الحياة؛ وهل يمكن أن يمتد إلى يوم القيامة، فَمَهْمَا تأمَّل الإنْسَانُ وَطَمِعَ بِالبَقَاءِ فِيْهَا فلا بُدَّ لَهُ مِنْ وقتٍ معلوم، لا يمكن أن يتأخر أو يتقدَّم، مستمدّاً هذه المعاني من قوله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [3]. فيقول[4]:

هَلْ فِي الخُلُودِ إلى القِيَامَةِ مَطْمَعُ أَم لِلْمَنُونِ عَن ابْنِ آدَمَ مَدْفَعُ
هَيْهاتَ مَا للنَّفْسِ مِنْ مُتَأَخَّرٍ عَنْ وَقْتِهَا لَو أَنَّ عِلْماً يَنْفَعُ

وجاء استعمال الشعراء لألفاظ (الجنَّة والنَّار) ليصب في اتجاه تأكيد إيمانهم بالبعث واليوم الآخر، وأنَّ مَنْ يُحَدِّد مصير الإنسان، هو عمله ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [5]. فعبد الرحمن بن

(1) سورة الملك، الآية: 15 .
(2) الأغاني: 22/ 262 – 263 .
(3) سورة المنافقون، الآية: 11 .
(4) معجم الشعراء للمرزباني: 345.
(5) سورة فصِّلت، الآية: 46 .

جمانة الباهلي يؤكد في رثائه لقتيبة بن مسلم أنّه استجاب لنداء ربِّه، وهل جزاء من يستجيب لندائه إلّا الجنَة. فيقول[1]:

دَعَتْـهُ المَنَايَـا فَاسْتَجَابَ لِرَبِّهِ وَرَاحَ إِلـى الجَنَّاتِ عِفّاً مُطَهَّـرا

أَما الفرزدق في رثائه للجراح بن عبد الله الحكمي، فيبين منزلته في الجنة رفيقاً للنبي محمد ﷺ، في الغرفة العليا حيث الإقامة الأبدية. فيقول[2]:

جُزُوا بالسَّرِيْرَاتِ الَّتِي فِي قُلُوبِهِم جَزاهُمْ بِها مُحْصِي السَّرائِرِ عَالِمُ

إلى الغُرْفَةِ العُليـا رَفيق محمَّدٍ مُقِيْماً ولا مِنْها هو الدَّهْرُ رائِـمُ

وهذا يذكرنا بقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [3].

وقد ذهب جرير – في رثائه لقتيبة أيضاً – إلى بيان ما أَعدَّه الله له في الجنّة من الحور العين، وما ينتظر قَتَلَتَهُ فِي جَهَنَّم مِنَ العَذَابِ الأَلِيْم. فقال[4]:

عَلَى أَنَّـهُ أَفْضَـى إِلـى حُـوْرِ جَنَّةٍ وَتُطْبِـقُ بِالبَلْوَى عَلَيْكُـمْ جَهَنَّمُ

ودعا يحيى بن أبي الحكم بن أبي العاص على قتلة عمرو بن سعيد الأشدق بأن يكون مصيرهم إِلى النَّار. فقال[5]:

لَحَا اللهُ دُنْيَا تُدْخِلُ النَّارَ أَهْلَهَـا وَتَهْتِكُ مَا دُوْنَ المَحارِمِ مِنْ سِتْرِ

نخلُصُ مما تقدَّم إلى أنَّ إيمان الشعراء بالبعث واليوم الآخر، كان دافعاً وحافزاً قوياً لهم للعمل الصالح الذي ينفع صاحبه في الآخرة. كما جاءت ألفاظ يوم القيامة والحشر والنشور والجنة والنار، لتصب في هذا الاتجاه نفسه .

---

(1) الكامل لابن الأثير: 4/ 298، وينظر في المعنى نفسه، الفتوح لابن أعثم: 2/ 443، في رثاء كعب ابن معدان الأشقري لبشر بن مروان .

(2) ديوانه: 2/ 251.

(3) سورة سبأ، من الآية: 37.

(4) حماسة الظرفاء: 1/ 119، والبداية والنهاية : 9/ 191، وقد أخل بهما ديوانه المنشور .

(5) أنساب الأشراف: 5/ 65، وفيه أنها تنسب لبشر بن مروان أيضاً.

الجهاد والشهادة في سبيل الله:

وهو من القيم الإسلامية الخالصة، التي لم يكن للعرب قبل الإسلام أي معرفةٍ بها؛ إلَّا ما اقتصر على لفظة الشهيد، إذ كانت تعني عندهم الخبر أو الحضور، فيقال: شهد الشيء فهو شاهد، أي حضره[1]. وعندما جاء الإسلام أعطى لهذه اللفظة مدلولاً آخر، وألبسها حُلَّةً جديدة، إذ نقلها من المعنى اللغوي - الحضور والعلم أو المشاهدة - إلى المعنى الاصطلاحي الذي يعني القتل في سبيل الله. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾[2].

وقد اختلف العلماء في حكمة تسمية الشهيد شهيداً، فقيل: سُمِّيَ بذلك لأنه مشهودٌ له بالجنة، وقيل سُمِّيَ الشهداء بذلك، لأنَّ أرواحهم شهدت الجنة، وحضرت دار السلام، وهم أحياءٌ عند ربِّهم. فالشهيد بمعنى الشاهد، والشاهد هو الحاضر في الجنة. قال القرطبي: وهذا هو الصحيح[3]. والشهيد القتيل في سبيل الله، وسُمي بذلك إمَّا لأنَّ الملائكة تشهده، وإمَّا لأنه شَهِدَ على نفسه لله عزَّ وجل حين لزمه الوفاء بالبيعة التي بايع الله عليها، والتي أشار إليها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾[4]. فاتَّصلت شهادة الشهيد الحق بشهادة العبد، فسمَّاه الله شهيداً[5].

وقد اكتسبت قيمة الجهاد والشهادة في سبيل الله، أهمِّيَّةً كبيرة في العصر الأموي، عصر الفتوحات التي امتدَّت من الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً،

---

(1) ينظر اللسان، مادة (شهد) : 3/ 239 - 240.

(2) سورة التوبة، من الآية: 111.

(3) ينظر تفسير القرطبي: 4/ 218، وتهذيب كتاب مشارع الأشواق: 259 وما بعدها.

(4) سورة التوبة، من الآية: 111 .

(5) ينظر اللسان، مادة (شَهِدَ): 3/ 238، وما بعدها، وتاج العروس: 2/ 391.

ولم يكد ينتهي القرن الأول للهجرة، حتى دخلت إسبانيا المسيحيَّة تحت ظل الحكم العربي الإسلامي[1].

لقد حبَّبَ الإسلام إلى قلوب المؤمنين الجهاد في سبيل الله، بما أعدَّه الله لهم من أجرٍ عظيم، قال تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾[2]. وحذَّر في الوقت نفسه من الركون إلى الدنيا وترك الجهاد. إذ جاء في الحديث الشريف: «ما ترك قومٌ الجهاد إلَّا عمَّهم الله بالعذاب»[3]. ولذلك نجد أنَّ الشعراء يُمجِّدون الجهاد في سبيل الله إعلاءً لكلمة الله عزَّ وجل. فنقفُ على نماذجَ رثائيَّةٍ يكثُرُ فيها ذكر الجهاد والغزو في سبيل الله، وحركة الجيوش المتوجِّهة إلى أرض المعركة، حتَّى بات الشاعر يفخر بالبلاد التي غزوها والحصون التي أباحوا حماها. ولم يقف عند هذا الحدّ. إذ تمنَّى لو أن الموت أمهلهم حتى يُتابعوا الجهاد، ونشر دعوة الإسلام. جاء ذلك في رثاء الأصم بن الحجَّاج لقتيبة بن مسلم، وهو يخاطب الخليفة هشام بن عبد الملك فيقول[4]:

سُلَيْمَانُ كَمْ مِنْ عَسْكَرٍ قَدْ حَوَتْ لَكُمْ ... أَسِنَّتُنَا وَالمُقربَاتُ بِنَا تَجْرِ
وَكَمْ مِنْ حُصُونٍ قَدْ أَبَحْنَا مَنِيْعَةً ... وَمِـنْ بَلَدٍ سَهْلٍ وَمِـنْ جَبَلٍ وَعْرِ
وَمِـنْ بَلْدَةٍ لَمْ يَغْزُهَا النَّاسُ قَبْلَنَـا ... غَزَوْنَا نَقُوْدُ الخَيْلَ شَهْراً عَلَى شَهْرِ
مَـرَنَّ عَلَى الغَزْوِ الجَرُورِ وَوَقَـرَتْ ... عَلَى النَّفْرِ حَتَّـى مَا تَهَالُ مِنَ النَّفْرِ
بِهِـنَّ أَبَحْنَـا أَهْـلَ كُـلِّ مَدِيْنَةٍ ... مِنَ الشِّرْكِ حَتَّى جَاوَزَتْ مَطْلِعَ الفَجْرِ
وَلَـوْ لَمْ تُعَجِّلْنَا المَنَايَـا لَجَاوَزَتْ ... بِنَـا رِدْمَ ذِي القَرْنَيْنِ وَالصَّخْرِ

ومما يلاحظ على الشاعر تحديده للهدف من هذا الغزو والجهاد؛ ألا وهو

(1) ينظر حضارة العرب، غوستاف لوبون: **142**، والجنديَّة في عهد الدَّولة الأموية: **72**.
(2) سورة النساء، الآية: **74**.
(3) مجمع الزوائد للهيثمي: **5/ 284**.
(4) تاريخ الطبري: **5/ 285**.

تخليص هؤلاء الأقوام من الشرك والوثنيَّة بنشر كلمة التوحيد. وهذا هو الهدف الحقيقي للجهاد في سبيل الله، قال الرسول ﷺ محدِّداً الهدف من القتال بقوله: «أُمرت أن أُقاتل الناس حتَّى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلَّا بحقِّها وحسابهم عند الله»[1].

ومن ذكر الجيوش المتوجِّهة إلى قتال الأعداء، ما جاء في رثاء فُضالة بن عبد الله الغَنَوِي لقتيبة بن مسلم الباهلي، الذي يقود الجيوش إلى قتال الأعداء، شادّاً إزاره إلى حقوه، يَرِدُ حَوْمَاتِ المنايا غَيْرَ هَيَّابٍ وَلا وَجِلَ. فيقول[2]:

وَمَا زَالَ مُذْ شَدَّ الإِزَارَ بِحُقْوِهِ ... يَقُوْدُ إِلى الأَعْدَاءِ جَيْشاً عَرَمْرَمَا[3]

وُرُوداً لِحَوْمَاتِ المَنَايَا بِنَفْسِهِ ... إِذَا الجِبْسُ هَابَ المَشْرَفِيَّاتِ أَقْدَمَا[4]

ويتكرر ذكر (الجيوش والعسكر) في رثاء عبد الرحمن بن جمانة الباهلي لقتيبة أيضاً، إذ يقول[5]:

كَأَنَّ أَبَا حَفْصٍ قُتَيْبَةَ لَمْ يَسِر ... بِجَيْشٍ إِلَى جَيْشٍ وَلَمْ يَعْلُ مِنبَرَا

وَلَمْ تَخْفِقِ الرَّايَاتُ حَوْلَهُ ... وُقُفٌ وَلَمْ يَشْهَدْ لَهُ النَّاسُ عَسْكَرَا

---

(1) مسند الإمام أحمد: 3/ 332، وصحيح البخاري: 2/ 110، وسنن ابن ماجة: 1/ 27، وفيها: ... حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة.

(2) معجم الشعراء للمرزباني: 177، وينظر في المعنى نفسه، أنساب الأشراف: 10/ 211، في رثاء كعب بن جُعَيْل لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد.

(3) الحقو: وهو الخصر ومعقد الإزار، اللسان مادَّة (حَقَا): 14/ 189 ، وتاج العروس: 10/ 94.

(4) الجبس: وهو الجبان، وقيل الضَّعيف اللئيم، اللسان مادة (جَبَسَ): 6/ 34، وتاج العروس: 4/ 117.

(5) تاريخ الطبري: 5/ 285، وينظر في المعنى نفسه، البداية والنهاية: 8/ 35، في رثاء بعض الشعراء لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وتاريخ دمشق: 11/ 326، في رثاء أبي نخيلة للجُنيد بن عبد الرحمن المرِّي، والكامل لابن الأثير: 4/ 287، في رثاء حمزة بن بيض الحنفي لمحمد بن القاسم الثقفي، والمؤتلف والمختلف للآمدي: 251- 252، في رثاء القطامي الكلبي ليزيد ابن المهلب.

وجاء ذكر (الجنود) في رثاء عبد الله بن همام السلولي لعمر بن يزيد الأسيدي، ليدلل على أهمية هذه الشريحة من المجتمع. فيقول[1]:

أَيُّهَا الرّاكْبَانِ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ ... بَلِّغَا الشَّامَ أَهْلَهَا والجُنُودَا
أَنَّ خَيْرَ الفِتْيَانِ أَصْبحَ فِي لَحْدٍ ... وَأَمْسَى مِنَ الكِرَامِ فَقِيْدَا

وقد كثرت ألفاظ (الجهاد، الغزو، والثغور) في رثاء الخلفاء والقادة، والتي تدلِّل على انتشاره في شتَّى الاتجاهات، وعلى الجبهات كافَّة. فنجد ذكراً للقوافل وحركتها، والجنود وإيابَهم من الغزو. من ذلك ما جاء في رثاء زياد الأعجم للمغيرة بن المهلَّب. إذْ يقول[2]:

قُلْ لِلقَوَافِلِ وَالْغُزَّى إِذَا غَزُوا ... وَالبَاكِرِيْنَ وَللمَجْدِ الرَّائِحْ
إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالشَّجَاعَةَ ضُمِّنَا ... قَبْراً بِمَروٍ عَلَى الطَّرِيْقِ الوَاضِحْ
آبَ الجُنُودُ مُعَقِّباً أَو قَافِلاً ... وَأَقَامَ رَهْنَ حَفِيْرَةٍ وَضَرَائِحْ[3]
مَاتَ المُغِيْرَةُ بَعْدَ طُوْلِ تَعَرُّضٍ ... لِلقَتْلِ بَيْنَ أَسِنَّةٍ وَصَفَائِحْ

أمَّا في حديث الثغور وكيف حماها القائد، وردَّ كيد الأعداء عنها؛ ما جاء في رثاء الفرزدق للحجَّاج بن يوسف. إذ يقول[4]:

لِيَبْكِ عَلَى الحجَّاج مَنْ كَانَ بَاكِيَا ... عَلَى الدِّيْنِ أَو شَارٍ عَلَى الثَّغْرِ وَاقِفِ
وَمَاتَ الَّذِي يَرْعَى عَلَى النَّاسِ دِيْنَهُمْ ... وَيَضْرِبُ بِالهِنـدِيِّ رَأْسَ المُخَالِفِ

---

(1) شعره: **190**.

(2) شعره: **57**، وينظر في المعنى نفسه، ديوان الفرزدق: **1/ 217**، في رثاء بشر بن مروان، وشعراء أمويون: **2/ 545**، في رثاء الشمردل بن شُريك لأَخيه وائل، وشعر نهار بن توسعة التميمي: **96**، في رثاء المهلب بن أبي صفرة، والبداية والنهاية: **9/ 191**، في رثاء جرير لقتيبة بن مسلم الباهلي.

(3) المُعَقِّبْ: الراجع لِيَغْزو ثانيةً، والقافل العائد.

(4) ديوانه: **2/ 5**، وينظر في المعنى نفسه، تاريخ دمشق: **18/ 448**، في رثاء زرارة بن حرب لولده عبد العزيز بن زرارة.

وفي رثاء الأحوص الأنصاري للخليفة معاوية، ما يشير إلى صورة الكتائب والخيول الكثيرة، التي تُعَدُّ لغزو الأعداء. حتى بتنا نرى الحصون المخرَّبة المهجورة، والدِّماء المهدورة. فقال[1]:

وَالشَّامُ أَجْمَعُ دَارُهُ، فَبِكُلِّهِ ... تُلْفَى كَتَائِبُ جَمَّةٌ وَخُيُوْلُ

وَبِكُلِّ أَرْضٍ للعِدَى مِنْ غَزْوةٍ ... حِصْنٌ يُخَرَّبُ أَوْ دَمٌ مَطْلُوْلُ[2]

وجاء في تأبين الوليد بن عبد الملك، لعبد الملك بن مروان ما يؤكد حرص الخلفاء وعزمهم على غزو الثغور والهجوم على الأعداء. فكان مما قال: «... ونحن نرجو أن يصير إلى منازل الأبرار، للذي كان عليه من الشدَّة على المُريب، واللين على أهل الفضل والدين، مع ما أقام من منار الإسلام وأعلامه وحج هذا البيت، وغزو الثغور وشن الغارات على أعداء الله، فلم يكن فيها عاجزاً ولا وانياً ولا مُفَرِّطاً ...»[3].

ويتبع الغزو والجهاد في سبيل الله، أَن ينال المؤمن إِحدى الحُسْنَيَيْنْ، إمّا النَّصْرُ وإِمَّا الشهادة في سبيله. إذْ جاءت لفظة الشهادة والشهيد في رثاء الخلفاء والقادة بِصورةٍ تؤكِّدُ حرص المسلمين على نيلها، والدعاء إلى الله أن يرزقهم إيَّاها. فنجد الشاعر يُكَرِّرُ بِصَبْرٍ وإيمانٍ فكرةَ الجنَّةِ التي سيُثابُ بها فقيدهُ وقد استُشهِدَ دِفاعاً عن عقيدتهِ ودينهْ. «فقد كانوا لا يرون أمامهم إلَّا ما وعد الله من الجنة والأجر العظيم، ولا طِلبَةَ لهم إلَّا الموت أو النصر»[4].

فالاستشهاد في سبيل الله هو الغاية التي يسعى إليها المسلم. ولذلك أكثروا من الدُّعاء إلى الله أن يرزقهم الشهادة في سبيله. إذْ جاء في الحديث الشريف: «مَنْ

(1) ديوانه: 220.
(2) الدَّم المطلول: الذي ذهب هدْراً.
(3) جمهرة خطب العرب: 2/ 199.
(4) شعر الفتوح: 275.

طلب الشهادة بصدق بلَّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»[1]. فقد روى الذَّهبي عن سليم بن عامر قال: «دخلت على الجرَّاح بن عبد الله الحكمي، فرفع يديه، فرفع الأمراء أيدِيَهُمْ. فقال لي الجرَّاح: يا أبا يحيى هل تدري ما كُنَّا فيه؟ قلتُ لا. وجدتكم في رغبةٍ فرفعتُ يدي معكم! قال: سألنا الله أن يرزُقنا الشهادة. قال سليم بن عامر: فوالله ما بقي منهم أحدٌ في تلك الغزوة حتى استشهد»[2].

لقد صدق الجرّاح مع ربِّه فرزقه الشهادة. مما جعل الفرزدق ينوِّه بهذا الجهاد والصبر على مجالدة الأعداء، حتى ذهب إلى رحمة الله، إلى الغرفة العُليا رفيق النبي محمد ﷺ حيث منازل الشـهداء، قال تعـالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾[3]. وهذا من الكرامة التي يعطيها الله لهم في الجنَّة، إذ يجمعهم مع النبيين والصدِّيقين. فيقول سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾[4]. وجاء في الحديث الشريف: لا يَفْضُلُ الأَنبياء الشَّهيد إِلَّا بدرجة النُّبوَّة[5]. لقد مثَّلت هذه المعاني مادَّةً استمدَّ الفرزدق منها صُوَرَهُ في رثاء الجرَّاح. فقال[6]:

لَقَد صَبَرَ الجرّاحُ حتَّى مَشَتْ بِهِ	إلى رَحمةِ الله السُّيوف الصَّوارمُ
فَأصبَحَ في القَومِ الَّذينَ مُحَمَّـدٌ	أخوهم وَمَنْ يَلْحَقْ بِهِمْ فَهْوَ سَالِمُ
جُزُوا بالسَّرِيْرَاتِ الَّتِي فِي قُلُوبِهِم	جَزاهُمْ بِها مُحْصِي السَّـرائرِ عَالِمُ
إلى الغُرْفَةِ العُليا رَفيق محمَّـدٍ	مُقِيْماً ولا مِنْها هو الدَّهْـرُ رائِـمُ

وفي مرثيَّةٍ أُخرى يُؤكِّد الفرزدق فيها المعنى السـابق فيقول في رثائه للجرَّاح

(1) صحيح مسلم: 6/ 48، وسنن الدَّارمي: 2/ 205، وسنن ابن ماجة: 2/ 935 .
(2) سير أعلام النبلاء للذهبي: 5/ 190 .
(3) سورة سبأ، من الآية: 37 .
(4) سورة النساء، الآية: 69 .
(5) ينظر مسند الإمام أحمد: 4/ 185، ومجمع الزَّوائد للهيثمي: 5/ 291 .
(6) ديوانه : 2/ 25، وينظر في المعنى نفسه : الكامل لابن الأثير: 4/ 149، في رثاء سراقة البارقي لعبد الرحمن بن مخنف.

أيضاً[1]:

رَفِيْقُ نَبِيِّ الله فِيْ الغُرْفَةِ الَّتي إِلَيْهَا انْتَهَى مِنْ عَيْشِهِ كُلُّ نَاعِمِ

إِنَّ لموت المرثي شهيداً في أرض المعركة أثراً كبيراً في تعزية النفس، والحث على الصبر، لعلم الراثي بما أعدَّه الله له من أجر عظيم، فضلاً عن أنَّ الشُهداء أحياءٌ عند ربِّهم، ليسوا بأموات، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾[2]. وهذا ما عبَّر عنه خلف بن خليفة في رثائه لعاصم بن عمر بن عبد العزيز. فقال[3]:

أَلَمْ يَكُ عَاصِمٌ ذُخْرِي فَدَلَّت مَنِيَّتُهُ عَلَى ذُخْرِي المَنُوْنَا[4]

وَكَانَ مِنَ المَوَدَّةِ نُصْبَ عَيْنِي فَأَمْسَى غَابَ فِي المُتَغَيِّبِيْنَا

تَقَدَّمَ صَابِرَاً وَثَوَى شَهِيْدَا فَلَسْتُ أَعُدُّهُ فِي المَيِّتِيْنَا

كما عدَّت هند بنت المهلَّب موت أخيها المفضَّل شهادةً وليس مصيبة؛ لأنه استشهد ذابّاً عن دينه مطيعاً لربه، جاء ذلك بعد أن أنشدها ثابت قطنة مرثيته في المفضل فقالت له: «اجلس يا ثابت، فقد قضيت الحق، وما من الملاثية بُدٌّ، وكم من ميتة ميِّتٍ أشرَفُ من حياة حي. وليست المصيبة في قتل من استشهد ذابَّاً عن دينه مُطيعاً لربِّه، وإنما المصيبة فيمن قلَّت بصيرته وخمل ذكره بعد موته، وأرجو أَلَّا يكون المفضل عند الله خاملاً»[5].

ويُعَدُّ طلبُ المؤمنِ للشهادةِ بحدِّ ذاته طاعةً لله، وتنفيذاً لأوامره سبحانه، لقوله تعالى: ﴿وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ

(1) ديوانه: 2/ 238.
(2) سورة البقرة، الآية: 154 .
(3) أنساب الأشراف: 9/ 260 .
(4) دلَّتْ: أخبرت .
(5) الأغاني: 14/ 266 – 267 .

تَعۡلَمُونَ ﴾ [1]. فإِنَّ مَنْ يُقتل في سبيل الله يكون قد أُعذِرَ مِنَ الله والمسلمين، لأنَّ «مَن ماتَ ولَمْ يغزُ ولم يُحدِّث بِهِ نفسه ماتَ على شُعبةٍ مِنَ نِفَاق» [2]. والقائد عثمان بن عبيد الله بن معمر، أطاع الله رجاءَ المثوبة والمغفرة فنال الشهادة في سبيله، جاء ذلك في رثاء أحد الشعراء له إذ يقول[3]:

وَنَـالَ الشَّـهَادَةَ مِنْهُـمُ فَتـىً ... بِـدُوْلابَ كَالقَمَـرِ الأَزْهَـرِ[4]
أَطَـاعَ الكِتَـابَ رَجَـاءَ الثَّوَابِ ... فَقَاتَـلَ عَـنْ دُبُـرِ المُدْبِـرِ
لِيَعْـذُرَهُ اللهُ وَالمُسْلِمُـونَ ... وَمَـعْـذِرَةُ اللهِ لِلْـمُـعْـذِرِ

ولم يقتصر أجر الشهادة على القتل في سوح المعارك؛ إذ إنَّ من خرج من بيته بنية الجهاد فمات – لأَي سببٍ كان – فقد أدرك أجر الشهيد، لقوله عليه الصلاة والسلام: «خمسٌ مَنْ قُبِضَ فِي شَيْءٍ منهن فهو شهيد: القتيل في سبيل الله شهيد، والغريق في سبيل الله شهيد، والمطعون في سبيل الله شهيد، والمبطون في سبيل الله شهيد...»[5]. وهذا ما ينطبق على موت المنذر بن الجارود العبدي، إذ أتته منيَّتُه بقصدار. وهو خارجٌ للجهاد في سبيل الله. فقال خُلَيْد عَينين يرثيه[6]:

يَا عَيْنُ ادرِي دَمْعَةً فَأَسْعِدِيْنِي ... وَابْكِي ابْـنَ بِشْـرٍ سَيِّدَ الوَافِدِيْنِ
وَابْكِـي الأَشْـعَـثَ لَمَّـا ثَـوَى ... رَهَباً وَلَـمْ يَرْجِعْ مَـعَ القَافِلِيْنِ
جَـاوَرَ قَـصْـدَار فَأَضْحَى بِهَا ... يَسفِي عَلَيْهِ الرِّيْحُ تُرْبَ الدُّرَيْنِ[7]

---

(1) سورة التوبة، من الآية: 41 .
(2) صحيح مسلم: 6/ 49.
(3) أنساب الأشراف: 10/ 153 .
(4) دولاب: وهي مدينة في فارس، بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ، كانت بها وقعةٌ قُتل فيها نافع ابن الأزرق رئيس الخوارج. ينظر معجم البلدان: 2/ 485 .
(5) سنن النسائي: 6/ 37 .
(6) تاريخ دمشق: 10/ 285 .
(7) الدرين: وهو النبت الذي أتى عليه سنة ثم جف، والدرين حطام المرعى إذا تناثر وسقط على الأرض، اللسان ، مادة (دَرَنَ): 13/ 153، وتاج العروس: 9/ 198.

وقد عدَّ الفرزدق عمر بن عبيد الله من الشهداء على الرَّغم من موته في الطَّاعون، وذلك بعدما أرسل له الخليفة عبد الملك بن مروان، لقتال ابن الأشعث، فقدم عليه عمر، ولمَّا كان بضمِّير[1] مات بالطَّاعون، فقال يرثيه[2]:

أَمَّا قُرَيْشٌ أَبَا حَفْصٍ فَقَدْ رُزِئَتْ — بِالشَّامِ إِذْ فَارَقَتْكَ البَأْسَ والظَّفَرَا
مَنْ يَقْتُلِ الجُّوع بَعْدَ الشَّهِيْدِ وَمَنْ — بِالسَّيْفِ يَقْتُلُ كَبْشَ القَوْمِ إِذْ عَكَرَا

وخلاصة القول: إنَّ قيمة الجهاد والشهادة في سبيل الله، من ثمرات دعوة الإسلام، وهو الأداة التي يتم من خلالها نشر دعوته والذَّود عنها؛ ولذلك كَثُرَ الحديث عن الجهاد والغزو والشهادة في رثاء الخلفاء والقادة، لأنهم كانوا يمثلون ويتمثلون بهذه المعاني السامية، فكان الجهاد عندهم لنشر دعوة الإسلام، وتخليص هذه الشعوب من أدران الشرك والعبوديَّة لغير الله. ولم تكن غايتهم كسب الغنائم والأموال. فكانوا دُعاةَ عقيدةٍ وحملة رسالةٍ قبل أن يكونوا قوَّاد جيوش وحملة سيوف، فأكثرهم ممن استشهدوا في سوح الوغى، ودُفنوا فيها، فأصبحنا نجد ذكراً لبعض تلك المدن والأقاليم في رثائهم ومنها: قصدار[3]، ومرو الرُّوذ[4]، وسجستان[5]، واصطخر[6]، والخابور[7]، والصِّين[8] ... وغيرها من المدن والبلاد التي دُفِنَ هؤلاء القادة فيها. كما تبين لنا أن أجر الشهادة في سبيل الله لم يقتصر على القتل في المعركة، إذ تعدَّاه إلى حالاتٍ أُخرى سبق ذكرها وبينها الحديث

---

(1) ضمير: وهو موضعٌ قرب دمشق، قيل: هو قريةٌ وحصنٌ في آخر حدود دمشق مما يلي السماوة. ينظر معجم البلدان للحموي: 3/ 463.
(2) ديوانه: 1/ 235.
(3) دفن فيها القائد، المنذر بن الجارود العبدي.
(4) دفن فيها القائد المهلب بن أبي صفرة.
(5) دفن فيها القائد، طلحة الطلحات .
(6) دفن فيها القائد، سعيد بن أسلم.
(7) دفن فيها القائد مسلمة بن عبد الملك.
(8) دفن فيها القائد قتيبة بن مسلم الباهلي.

الشريف، ما دام صاحبها قد خرج ينوي الجهاد في سبيل الله، فله أجر الشهيد.

مضامين إسلامية عامَّة:

حفلت مراثي الخلفاء والقادة بكثيرٍ من المضامين الإسلامية التي استمدَّها الشعراء من القرآن الكريم والسنة النبوية، اللذَيْنِ يُعَدَّانِ الأساس الذي تقوم عليه دعوة الإسلام. وقد كانت هذه المضامين من الكثرة بحيثُ تعذَّرَ إدراجُها تحت عنوانٍ واحد؛ ولذلك آثرت التحدُّث عنها تبعاً لكثرة ورودها على ألسنة الشعراء. وهي إنما تدلُّ على تأثرهم بالمعجم الإسلامي الذي استمدُّوا صورهم وأخيلتهم منه. فكان أكثر تلك المضامين وروداً على ألسنتهم، ما جاء في معرض تأكيدهم على مآثر هذا المرثي من إقامة الدين وتطبيقه في المجتمع، فضلاً عن حمايته والذُّودِ عنه. لأَنَّ تلك من أُولى المهام المترتبة على أُولي الأمر، إذ حدَّدها الماوردي بعشرة أشياء قال: «أحدها حفظ الدين على أُصوله المستقرَّة»[1]. ومن تلك المعاني: ما جاء في رثاء الفرزدق للحجاج بن يوسف، فقد مات من كان يحفظ على الناس دينهم، ويحميه من كيد الأعداء وأهل المخالفات والفتن. فقال[2]:

وَمَاتَ الذي يَرْعَى عَلَى النَّاسِ دِيْنَهُمْ وَيَضْرِبُ بِالهِنديِّ رَأْسَ المُخَالِفِ
وَكَانَتْ ظُبَاتُ المَشْرَفِيَّةِ قَدْ شَفَى بِهَا الدِّينَ وَالأَضْغَانِ ذَاتِ الخَوَالِفِ

وهو الذي بكى ابن الحجاج وأخيه محمد؛ لا لشيء، إِلَّا لأَنَّ موتهما مثَّلَ خسارةً للدِّين، فلا يمكن أن يقوم بحمايته وتطبيقه على الرَّعية بعدهما أحد، إِلَّا الخلائف من بعد النبيين. فيقول[3]:

---

(1) الأحكام السلطانيَّة: **30**.

(2) ديوانه: **2/ 5-6**، وينظر في المعنى نفسه، المستدرك على صناع الدواوين: **150**، في رثاء الكميت بن زيد، لمعاوية بن هشام بن عبد الملك، وشعر زياد الأعجم: **60**، في رثاء المغيرة بن المهلب، والمصدر نفسه : **64**، في رثاء المغيرة أيضاً، وتاريخ دمشق: **65/ 64**، في رثاء يحيى ابن أبي حفصة للحجاج بن يوسف الثقفي.

(3) الكامل في اللغة والأدب: **1/ 412**، والبيت الثاني في شرح ابن عقيل: **1/ 69**، وقد أخل=

إنِّي لَبَاكٍ عَلَى ابنَي يوسُفَ جَزَعاً وَمِثْلُ فَقْدِهِمَا للدِّيْنِ يُبْكِيْنِي
مَا سدَّ حيٌّ وَلا مَيْتٌ مَسَدَّهُمَا إِلَّا الخَلائِفَ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّيْنِ

أَمَّا إِقامة الدين والحرص على تطبيقه بين الرَّعيَّة، فكان من أبرز ما تمثَّله الفرزدق في رثاء بشر بن مروان. فهو فضلاً عن تقديم الخير والمعروف للنَّاس – وهو جزءٌ من إقامة الدِّين – فإنه لا ينسى أن يُحَكِّم شرع الله في الأرض. فيقول[1]:

وَكَانَتْ يَدَا بِشرٍ يَدٌ تُمْطِرُ النَّدى وَأُخْرى تُقِيْمُ الدِّيْنَ قَسْراً عَلى قَسْر[2]

وجاء الاحتجاج بإقامة الدين وتطبيق تعاليمه لإثبات حق الخليفة في الحكم، من ذلك ما جاء في ثاء ابن هرمة للخليفة الوليد بن يزيد، فهو الذي دافع عن قناة الدِّين حتى أَقامها. فقال[3]:

خَلِيْفَةَ حَقٍّ لا خَلِيْفَةَ بَاطِلٍ رَمَى عَنْ قَنَاةِ الدِّيْنِ حتَّى أَقَامَهَا

وممن جمع بين إقامة الدين حتى عمَّ وانتشر، وبين حمايته والذَّوْدِ عنه ، حتى غدا سوراً منيعاً بوجه الأعداء، القائد مسلمة بن عبد الملك، كما جاء في رثائه من قِبل الشاعر عبد الله بن عبد الأعلى. إذ يقول[4]:

أَبَا سَعِيْدٍ أَرَاكَ اللهُ عَافِيَةً فِيْهَا لِرُوْحِكَ عِنْدَ العُسْرِ تَيْسِيْرُ
فَقَدْ أَقَمْتَ قَنَاةَ الدِّيْنِ فَاعْتَدَلَتْ إِذْ أَنْتَ للدِّيْنِ مِمَّا نَابَهُ سُوْرُ

لقد ارتبط وجود الخليفة والقائد على رأس السلطة، بتطبيق شرع الله ونشر مبادئ الدين الحنيف، إذ هي من أُولى الواجبات المناطة بهم، فكان ذلك مثار فخرٍ واعتزاز عبَّر عنه خالد بن يزيد وهو يرثي جدَّه وأباه. إذ كانوا الحُماة للأُمَّة،

= ديوانه المنشور بهما.

(1) الكامل في اللغة والأدب: 1/ 217 .

(2) القَسْرُ: وهو القهْرُ والغَلَبَة ، ينظر اللسان مادة (قَسَرَ): 5/ 91، وتاج العروس: 3/ 498.

(3) شعره: 215 .

(4) أنساب الأشراف: 8/ 363 .

والسَّاعِيْنَ فيما يُشَرِّفُ أَمر دين المؤمنين. فقال[1]:

وَهُمْ كَانُوا الحُمَاةَ مِنَ المَخَازِي وَهُـمْ كَانُوا السُّعَاةَ المُطْعِمِيْنا

بِــإِذْنِ الله والسَّـاعِيْنَ فِيْمـا يُشَرِّفُ أَمْـرَ دِيْــنِ المُسْـلِمِيْنَا

فَغَالَتْهُـمْ شُـعُوْبٌ غَيَّبَتْهـُم وَهـُمْ عُمُدٌ لأمْرِ المُسْـلِمِيْنَا

ومن المضامين الأُخرى التي استعان الشعراء بها على رسم صورهم، والتعبير عن أفكارهم، ما جاء من تمثُّلهم بقصص الأقوام الغابرة والأُمم البائدة، التي أخبرنا القرآن الكريم عنها، ففيه أخبار مَنْ قبلنا ومَنْ بَعْدَنَا. ولكثرة وجود القصص في القرآن الكريم فقد سُمِّيَتْ إحدى هذه الصور بالقصص، لِمَا في ذكرها من العبرة والعِظَة. كما ضمَّن الشعراء رثاءهم قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ للغرض نفسه. فمن تمثُّلهم بقصص الأقوام الغابرة ما جاء في قول بعض أهل الشام في يزيد بن المهلب بعد أن قُتِلْ، فشبَّهُوا مساكن قومه بمساكن ثمود وإرم ذات العِماد، فضلاً عن تمثلهم لمعاني كثيرٍ من الآيات القرآنية، فقال أحدهم[2]:

ألا تَـرَى بَطْشَةَ الله التـي بَطَشَتْ بِابْـنِ المُهَلَّـبِ إنَّ اللهَ ذُو نِقَـمِ

لَمَّا رَأَو أَنَّ مَـكْـرَ الله حَـاقَ بِهِـمْ وَإِنَّهُـمْ مِثْل ضُـلالٍ مِـنَ البَهَائِمِ

فَأَصْبَحُـوا لا تُـرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُم كَأَنَّهُنَ مِن ثَمُوْدِ الحِجْرِ أو إِرَمِ

نُلاحِظُ أنَّ معاني هذه الأبيات مستمدَّةٌ من آياتِ القرآنِ الكريم. من مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [3]، وقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [4]، وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ﴾ [5]،

---

(1) تاريخ دمشق: 16/ 313.

(2) الفتوح لابن أعثم: 2/ 209، وينظر أنساب الأشراف: 8/ 344، ويذكر فيه هاروت أيضاً.

(3) سورة الدخان، الآية: 16 .

(4) سورة آل عمران، الآية: 54 .

(5) سورة الأحقاف، من الآية: 25 .

وقوله سبحانه: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾[1]، وقوله: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾[2].

ومن ذكرهم لقصص الأنبياء. ما جاء في قصَّة سيدنا يوسف مع أبيه يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. إذ جاءت مقترنةً بشعيرةٍ إسلامية أُخرى، ألا وهي الأُضحية، والصلاة. كما جاء في رثاء كعب بن جُعيل لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد. فقال[3]:

إِنَّني وَالَّذِي أَجَارَ بِفَضْلٍ يُوْسُفَ الجُبِّ مِنْ بَنِي يَعْقُوبُ
وَالمُصَلِّيْنَ يَوْمَ خُضِّبَ الهَدَايَا بِدَمٍ مِنْ نُحُوْرِهِنَّ صَبِيْبُ[4]

ولمَّا كَانَتْ الأضاحي تُنْحَر إثر انتهاء مناسك الحج. فقد جاء ذكر الحج والعمرة في رثاء جرير للخليفة عمر بن عبد العزيز. إذ يقول[5]:

تنعى النّعاةُ أميرَ المؤمنينَ لَنا يا خيرَ من حجّ بيت الله واعتمرا
حُمِّلْتَ أمرا عظيما فاصطبرت له وقُمت فيه بأمر الله يا عُمرا

ومن مناسك الحج، تقبيل الحجر الأسود، إذ تمثل الفرزدق بهذا المعنى في رثائه لعبد العزيز بن مروان. عاقداً مقارنةً رائعةً بين جموع المشيعين، وجموع الحُجَّاج وهم يطوفون حول الكعبة، وفي هذه المقارنة ما يدل على كثرة هؤلاء المشيعين. فقال[6]:

ظَلُّوا عَلَى قَبْرِهِ يَسْتَغْفِرُوْنَ لَهُ وَقَدْ يَقُوْلُوْنَ تَارَاتٍ لَنَا العِبَرُ
يُقَبِّلُوْنَ تُرَاباً فَوْقَ أَعْظُمِهِ كَمَا يُقَبَّلُ فِي المَحجُوجَةِ الحَجَرُ

---

(1) سورة الفجر، الآية: 7.
(2) سورة الفجر، الآية: 9 .
(3) تاريخ دمشق: 34/ 331 .
(4) الهدايا: جمع هدي ، وهي الجمال التي تُنحر في يوم العيد، ينظر اللسان: 15/ 359.
(5) ديوانه: 304.
(6) ديوانه: 1/ 186 .

ومن تمثُّلهم لأركان الإسلام، ما وَرَدَ من ذكرٍ لشهر الصَّومْ، كما جاء في رثاء الجعد بن قيس لزياد بن أبيه. فيقول[1]:

قَدْ ذَهَبَ الكَرِيْمُ والظِّلُّ الدُّوَّمُ　　وَالنِّعم المَؤَثَّلُ الدّثر الحوَّمِ
وَالمَاشيَاتُ مَشْيَةً بَعْدَ النَّوْمِ　　لَيْتَ الجِيَادَ كلَّها مَعَ القَوْمِ
سُقِيْنَ سُمَّ ساعَةٍ قَبْلَ اليَوْمِ　　لأَرْبَعٍ مَضَيْنَ مِنْ شَهْرِ الصَّوْمِ

وكما جاء ذكر عيد الفطر، في رثاء إسماعيل بن عمَّار لخالد بن خالد بن الوليد. إذْ يقول[2]:

سَنَحَتْ لِي يَوْمَ الخَميسِ غَداةَ　　الفِطْرِ طَيْرٌ بالنَّحْسِ لا بالسُعُوْدِ
فَتَعيَّفتُ أَنَّهنَّ لأمْرٍ مُفْظِعٍ　　مَا جَرَيْنَ فِي يَوْمِ عِيْدِ

وجاء ذكر المسجد في رثاء محارب بن دثار، للخليفة عمر بن عبد العزيز. مشبِّهاً أعماله وأفعاله بأعمال الرَّسول ﷺ وأبي بكرٍ وعُمر. فيقول[3]:

يَا لَهْفَ نَفْسِي وَلَهْفَ الوَاجِدِيْنَ مَعِي　　عَلَى العُدُوْلِ الَّتِي تَغتَالُهَا الحُفَرُ
ثَلاثَةٌ مَا رأَتْ عَيْنِي لَهُمْ شَبَهاً　　تَضُمَّ أَعْظُمَهُم فِي المَسْجِدِ الحُفَرُ

ومن الألفاظ الإسلامية، ما جاء في رثاء كعب بن جعيل لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، إذ جاء ذكر يوم الجمعة، وقيام الليل، والركوع، والأضحية؛ لكنَّ هذه الألفاظ جاءت مختلطة بألفاظ الكنائس والإنجيل، وربما كان لنصرانيَّة الشاعر أثرٌ في ذلك. فيقول[4]:

إِنِّي وَرَبُّ النَّصَارَى فِي كَنَائِسِهَا　　وَالمُسْلِمِيْنَ إِذَا مَا جَمَعُوا الجُمَعَا

---

(1) تاريخ الطبري: 4/ 221 .

(2) الأغاني: 11/ 376 .

(3) البداية والنهاية: 9/ 237، وينظر في المعنى نفسه، الأغاني: 22/ 362 – 363، في رثاء أبي حزَّابة لطلحة الطلحات.

(4) تاريخ دمشق: 34/ 331، وينظر بشأن (قيام الليل) ديوان سراقة البارقي: 89، في رثائه لعبد الرحمن بن مخنف.

وَالقَائِمُ اللَّيْلَ بالإِنجِيْلِ يَدْرُسُهُ لِلَّهِ تَسْفَحُ عَيْنَاهُ إِذَا رَكَعَا
وَمِهْرَاقُ دِمَاءِ البُدْنِ عِنْدَ مِنَا لأَشْكُرَنَّ لابنِ سَيْفِ الله مَا صَنَعَا

وقد أكثر الشعراء في رثائهم للخلفاء والقادة من الدعاء لهم، إذ جاء بصيغٍ مستمدَّةٍ من القرآن والسنَّة. ومن ذلك قولهم: جزاك الله مغفرةً، وأراك الله عافيةً، وجُزيتَ خيراً، والله يرحم ... ويقي وَجْهَهُ عذاب الجحيم. ولعلَّ كثرة ورود هذه الأدعية على ألسنة الشعراء نابعٌ من اعتقادهم بانتفاع الأموات بها، إذْ أنَّ هناك أدلَّةً من القرآنِ والحديث تُؤكِّد ذلك وتحُثُّ عليه. منها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1]. وقوله ﷺ: «ليس شيءٌ أكرم على الله مِنَ الدُّعاء»[2]. وقوله: «الدعاء مُخُّ العبادة»[3]. والميت في قبره كالغريق الذي يستَغيث بمن ينجده و«ما الميت في قبره إلَّا كالغريق المتغوِّثْ ينتظر دعوةً تَلحقُهُ من أبيه أو أخيه أو صديقٍ له، فإذا لَحِقَتْهُ كانت أحب إليه من الدُّنيا وما فيها، وإنَّ هدايا الأحياء للأموات، الدُّعاءُ والاستغفار»[4]. ومن هذا المنطلق أكثر الشعراءُ من دُعائهم لِمَرْثِيِّيهِمْ، فمن ذلك ما جاء في رثاء عبد الله بن عبد الأعلى لمسلمة بن عبد الملك. إذ يقول[5]:

أَبَا سَعِيْدٍ أَرَاكَ اللهُ عَافِيَةً فِيْهَا لِرُوْحِكَ عِنْدَ العُسْرِ تَيْسِيْرُ

ومن ذلك قول كعب بن معدان الأشقري في رثاء بشر بن مروان، إذ يدعو له بالرحمة، وأن يقي وجهه عذاب الجحيم. فيقول[6]:

إِنَّ بِشراً وَاللهُ يَرحَمُ بِشْراً وَيَقِي وَجْهَهُ عَذَابَ الجَحِيْم

وجاء الدعاء للمرثي مقترناً مع الدُّعاء على قتلتهِ. كما جاء في رثاء سراقة

(1) سورة غافر، من الآية: 60 .
(2) مسند الإمام أحمد: 2/ 362، وسنن الترمذي: 5/ 125.
(3) سنن الترمذي: 5/ 125، وينظر فتح الباري لابن حجر العسقلاني: 11/ 79 .
(4) كنز العمال: 15/ 694.
(5) أنساب الأشراف: 8/ 363 .
(6) الفتوح لابن أعثم: 2/ 443 .

البارقي لأبي بكرٍ بن مخنف. إذ يقول[1]:

فَقُلْتُ تَلَقَّاكَ الإلهُ بِرَحْمَةٍ وَصَلَّى عَلَيْكَ رَبُّ المَشَارِقِ
لَحَا اللهُ قَوْماً عَرَّدُوا عَنْكَ بُكْرَةً وَلَمْ يَصْبِرُوا لِلامِعَاتِ البَوَارِقِ

وكثُر استعمال صيغة جزاك الله خيراً، أو جُزيتَ خيراً. إذ مثَّلت أكثر الأدعية. من ذلك ما جاء في رثاء محارب بن دثار للخليفة عمر بن عبد العزيز. إذ يقول[2]:

أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ جُزِيْتَ خَيْراً فَلَنْ نَنْسَاكَ آخِرَ مَا بَقِيْنَا

وخلاصة القول: إِنَّ دعوة الإسلام - بما تمثله من قيمٍ وأفكار - تركت بصماتها على رثاء الشعراء للخلفاء والقادة، فجاءت في شعرهم من الكثرة بحيث شَمِلَ معظم أركانه. وهذا إن دلَّ على شيءٍ فإنَّما يدلُّ على رسوخ هذه القيم وتأصُّلها في المجتمع.

---

(1) ديوانه: **56**.

(2) شعر الدعوة: **208**، وينظر في المعنى نفسه، شعر نُصّيِب بن رباح: **64**، وله أيضاً في رثاء عبد العزيز بن مروان: **78**، وقد أخل بها ديوانه المنشور، وشعر الفضل بن العباس اللهبي: **50**، في رثاء الوليد بن عبد الملك.

الفصل الرابع
تداخل الموضوعات في قصيدة الرثاء

- تمهيـــد
- المبحـــث الأول: الفخـــــر
- المبـحث الثانـي: الهجـــاء
- المبـحث الثـالث: المديــــح
- المبـحث الرابـع: الحكمــــة
- المبـحث الخامس: الشــكوى
- المبـحث الســادس: الوصـــف
- المبحث السابع: الشعر التاريخي
- المبحث الثامن: موضوعات عامّـة

تمهيــد

لم يقتصر موضوع الرثاء على بكاء الميت والتفجع عليه وتأبينه بالفضائل والخصال الحميدة، كما اصطلح على ذلك اللغويون؛ بل إنَّ «قصيدة الرثاء توشك أن تكون أصلاً تتفرع منه أصول المديح والهجاء والفخر والحماسة والوعيد والتهديد والوصف»[1]. وإذا ما صدق ذلك على بعض أنواع الرثاء[2]؛ فإنه أشد ما يصدق على رثاء الخلفاء والقادة في العصر الأموي، ذلك العصر الذي شهد صحوة العصبيات القبلية، وانطلاقها من كل قيد، بعد أن كان مضيَّقاً عليها في العصر السابق، عصر صدر الإسلام، حيث عهد النبوَّة والراشدين[3]. مما هيأ قاعدةً مناسبةً نما في جوها كثيرٌ من تلك الفنون.

وانطلاقاً من هذا الواقع الجديد، فإننا نجد من الشعراء مَنْ بدأ يفاخر بنفسه وآبائه وأجداده وقبيلته، وما أنجبوه من قادةٍ عظام، دوَّخوا الأعداء، وحموا الثغور، وَثَبَّتُوا أركان الدولة، وما يتبع ذلك من الإشادة بأمجادهم وفضائلهم. هذا من جانب، ومن جانبٍ آخر، فقد تشهد الدولة خروج بعض القادة على حكم الخلافة،

---

(1) رثاء الأبطال في الأدب العربي قبل الإسلام: 226.

(2) توصل الدكتور مخيمر صالح في كتابه رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى أنَّ قصائد رثاء الأبناء جاءت مستقلَّةً لا يشترك معها أي غرضٍ آخر، ولعلَّ هذه الاستقلالية هي التي ميزتها عن غيرها من القصائد في الشعر الجاهلي وغيره من العصور. ينظر رثاء الأبناء في الشعر العربي: 136 – 137، وقد تبيَّن من خلال دراستنا ما يُشيْرُ إلى عكس هذه النتيجة، إذ جاءت بعض تلك القصائد تحتوي على موضوعاتٍ شتَّى ... ومنها الفخر، كما جاء في رثاء نصر بن سيار لولده تميم، ورثاء زرارة بن حرب لولده عبد العزيز.

(3) ينظر اتجاهات الشعر في العصر الأموي: 52 .

لسببٍ أو آخر، مما يضطرَّ الخليفة إلى اللجوء لبعض القبائل في محاولةٍ للقضاء على هذه الثورة الجديدة[1]. فتكثر في مثل هذه الأجواء وتعلو صرخات التهديد والوعيد، خاصة عندما يذهب المرثي ضحيَّة لهذه الثورات، وبالمقابل فإننا نلمس روح الفخر والتباهي من القبيلة التي قُضت على هذه الثورة، وهو ما ستدعمه النصوص اللاحقة. وفضلاً عن ذلك، فإننا نجد بعض الشعراء يصفون الأجواء المحيطة بالمعارك، وحتى تلك التي ترافق الفقيد منذ تشييعه وحتى دفنه. وجاءت الشكوى في قصائد الرثاء، لتعبِّر عن انفعالاتهم العميقة وعواطفهم الشديدة، وكانت على نوعين: فمن الشعراء من اشتكى من الدهر وصروفه وما يفعله في الإنسان، ومنهم من توجه بالشكوى إلى الله، مستعيناً به على تجاوز محنته. كما لم تخلو قصائد الرثاء من بعض الموضوعات المتفرقة، كتوثيق الأحداث التاريخية، وتصحيح بعضها أيضاً، والتحذير من بعض المخاطر التي تحيط بالأُمَّة جرَّاء الاختلاف والتناحر والفرقة، وجاء بعضها الآخر ليسجِّل احتجاج الشعراء على بعض التصرفات التي من شأنها تقويض الدولة وإضعافها.

إنَّ ورود هذه الموضوعات في قصيدة الرثاء، ليُدلِّلُ على أنَّ «الرثاء بابٌ واسعٌ لا ينغلق على البكاء والتفجع والتوجع فحسب؛ بل ينفتح على الفخر والحماسة، والتهديد والوعيد والهجاء، والوصف والحكمة. فليس بين أيدينا في الشعر العربي موضوعٌ أو غرض يزاحم الرثاء في تعدُّد موضوعاته، وتجدد اتجاهاته وامتداد أغراضه»[2].

وليس هذا بجديدٍ على الشعراء في العصر الأموي، إذ كان الرثاء عند الشعراء الجاهليين قطعة من القصائد التي كانوا يلمُّون فيها بكثيرٍ من الموضوعات [3]. ولذلك جاءت قصائد رثاء الخلفاء والقادة مزدحمةً بتلك الموضوعات، والتي كان في الصدارة منها الفخر.

---

(1) ينظر مثلًا: ثورة آل المهلب، وثورة قتيبة بن مسلم الباهلي، سنة 96 هـ.

(2) رثاء الأبطال في الأدب العربي قبل الإسلام: 221.

(3) ينظر الشعراء من مخضرمي الدَّولتين: 377.

المبحث الأول
الفخـــر

وَهوَ مِن الموضُوعاتِ التي شَغلَتْ حَيِّزاً واسعاً في عُصُور الأدبِ العربي، ولا سيما في العصر الأموي؛ لِمَا شاع فيه من عواملَ سياسيةٍ واجتماعيةٍ، ساعدتْ عَلى إذكاء جذوة الشعر الذي يدور حول العصبيةِ القبليةِ ويعبِّرُ عَنْها .

والفخرُ عند العربِ بابٌ واسعٌ من أبوابِ شعرهمْ، يُعبِّرُ عن ميلهم الطبيعي إلى الأنفة والعزة، ومعاني البطولة والفروسية وقِرى الضيف، وإغاثة الملهوف ... إلخ. وهو على أنواع متعددة منها: الفخر الذَّاتي، ويشمل الفخر بالنفس والآباء والأجداد والقبيلة، والفخر السياسي، والفخر الديني، والفخر الحربي[1]. وإذا كان الفخر من سِمات النفس البشرية بعامَّة؛ فإنه وكما يقول ابن رشيق: ألصق بالشعراء من غيرهم[2]. هذا ما كان من شأن الفخر كغرضٍ مستقل، أمَّا أن يأتي في ثنايا قصيدة الرثاء، فهذا ما نسعى إلى دراسته والكشف عنه. إذْ لم تكن قصائد الرثاء مقتصرةً على البكاء، وإنما اختلطت بأغراضٍ متعدِّدة، كان من أبرزها الفخر[3]. وتعود كثرة وروده في قصائد الرثاء، إلى عوامل متعدِّدة، منها: شخصية المرثي، والكيفية التي مات فيها، فإن قُتِل دفاعاً عن أُمَّتِهِ والقيم التي يؤمن بها، وكان ممن تشهد له ساحات الوغى بِنِزَالِ الأعداء، كان رثاؤه محمَّلاً بالفخر[4].

(1) ينظر الفخر والحماسة: 5.

(2) ينظر العمدة: 1/ 143.

(3) ينظر دراسات في الأدب الجاهلي: 161.

(4) ينظر الفروسية في الشعر الجاهلي: 266.

وعليه فقد توزَّع فخر الشعراء في رثائهم للخلفاء والقادة، بين الذَّاتيَّة كالفخر -بالنفس والآباء والأجداد والقبيلة – وبين الفخر الذي ينطلق من منطلقاتٍ عقيديةٍ نابعةٍ من تعاليم الدين الإسلامي ونصرته والدفاع عنه. وبذلك يكون قد ابتعد نوعاً ما عن منطلقاته الجاهلية، إذْ كانت منصبَّةً على الفخر القبلي والفردي فقط، فضلاً عن ظهور أنواعٍ أُخرى من الفخر، أملتها ظروف الحياة الجديدة وما شهدته من وجود أحزابٍ متعدِّدة، يسعى كل واحدٍ منها لإثبات أحقيتِهِ في الحكم، كالفخر الحزبي والسياسي. والحقيقة أن لا تعارض بين الفخرين – الذَّاتي والدِّيني – إلَّا ما كان موجَّهاً لإذكاء نار العصبيَّات، والتنازع والاقتتال الدَّاخلي، وهو ما ورد النهي عنه في قوله ﷺ: « مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الجَاهِلِيَّةِ فَعُضُّوهُ بِهَنِ أَبِيهِ وَلا تُكَنُّوا»[1]. أَما عندما يكون هذا الفخر في أوقات المعارك والقتال مع الأعداء، فلا بأس به، لِمَا جاء من فخر الرسول ﷺ بنفسه وجدِّه في معركة حنين، إذ قال: «أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المطَّلِبْ»[2].

فمن الفخر بالنفس والقبيلة معاً، ما جاء في رثاء نصر بن سيَّار لولده تميم، إذْ جاء مقترناً بقتال الأعداء والذَّبِّ عن الحُرَمْ، وفاءً لِمَا قطعه من عهدٍ على نفسه للخليفة. فقال[3]:

وَمَا قَصُرَتْ يَدَاهُ عَنِ الأَعَادِيْ ... وَلاَ أَضْحَى بِمَنْزِلَةِ اللَّئِيمِ

وَفَاءً لِلخَلِيْفَةِ وابْتِذَالاً ... لِمُهْجَتِهِ يُدَافِعُ عَنْ حَرِيْمِ

فَمَنْ يَكُ سَائِلاً عَنِّي فَإِنِّي ... أَنَا الشَّيْخُ الغَضَنْفَرُ ذُو الكَلِيْمِ

نَمَتْنِيْ مِنْ خُزَيْمَةَ بَاذِخَاتٍ ... بَوَاسِقُ يَنْتَمِيْنَ إِلى صَمِيْمِ

---

(1) مسند الإمام أحمد: 5/ 163، ومجمع الزوائد للهيثمي: 3/ 3.

(2) صحيح البخاري: 3/ 220، وجاء في تاريخ دمشق: 3/ 107. «أَنَا ابْنُ العَوَاتِكْ» والعواتك ثلاثُ نسوة من سليم، ... منهنَّ عاتكة بنت الأوقص بن مرَّة بن هلال بن فالح بن ذكوان، وهي أُم وهب أبي آمنة أم النبي .

(3) ديوانه:45، وينظر الأخبار الطِّوَال للدينوري: 553.

وجاءَ الفخرُ بالآباءِ والأجداد، في معرضِ الحديثِ عنِ الإنجازاتِ التي حققوها في حياتهم، إذ كانت مبعث فخرٍ واعتزاز لأَبنائهم من بعدهم. من ذلك ما جاء في رثاء كعب ابن جُعيل التغلبي[1] لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد. إذْ يقول[2]:

أَبُـوْكَ الَّـذِي قَـادَ الجُيُوْشَ مُغَرِّبـاً ... إِلَى الرُّوْمِ لَمَّا أَعْطَتِ الخَرْجَ فَارِسُ

وَكَـمْ مِنْ فَتَىً نَبَّهْتَهُ بَعْدَ هَجْعَة ... بِقَـرْعِ اللِّجَامِ وَهْـوَ أَلْثَغُ نَاعِـسُ

ومثله ما جاء في رثاء الفرزدق لمخلَّد بن يزيد بن المهلب، إذ يفخَرُ بِهِ وبأبيه من قبله، فيقول[3]:

وَمَـا حَمَلَتْ أَيْدِيْهـم مِـنْ جنَازَةٍ ... وَمَا أُلْبِسَـــتْ أَثْوَابَهَا مِثْلَ مُخَلَّد

أَبُـوْكَ الَّذي تُسْتَهْزَمُ الخَيْلُ بِاسْمِهِ ... وَإِنْ كَـانَ فِيْهَا قَيْدَ شِـبْرٍ مُطَّرِدِ

وفضلاً عن افتخارهم بالآباء، فقد افتخروا بالأجداد، وهو كما يقول الزبيدي: أشهر أو أفخر ... واستشهد لتدعيم كلامه بفخر الرسول ﷺ بجدِّه عندما قال: أنا ابن عبد المطلب[4]. من ذلك ما جاء في رثاء أبي صخر الهذلي لعبد العزيز بن خالد بن أُسَيْد .إِذْ قَال[5]:

إِنْ يُمْسِ رَمْساً بِالرَّصَافَةِ ثَاوِياً ... فَمَا مَاتَ يا ابن العِيْصِ أَيَّامُكَ الزُّهْرُ[6]

---

(1) كعب بن جعيل التغلبي، شاعر تغلب في عصره، مخضرم عرف الجاهلية والإسلام، قال عنه المرزباني: هو شاعر معاوية بن أبي سفيان وأهل الشام، يمدحهم ويرد عنهم. (ت نحو 55 هـ). ينظر معجم الشعراء: 233، خزانة الأدب للبغدادي: 1/ 458، الأعلام للزركلي: 5/ 225.

(2) تاريخ دمشق: 34/ 331.

(3) ديوانه:1/ 163.

(4) ينظر تاج العروس: 1/ 115.

(5) منتهى الطلب من أشعار العرب: 9/ 379، وتاريخ دمشق: 36/ 294.

(6) العيص: وهم من ولد أُميَّة الأكبر بن عبد شمس، وهم: العاصي، وأبو العاصي، والعيص، وأبو العيص. ينظر الاشتقاق لابن دريد: 166، بلوغ الأرب: 3/ 466-467 .

وَذِيْ وَرَقٍ مِنْ فَضْلِ مَالِكَ مَالُهُ   وَذِيْ حَاجَةٍ قَدْ رِشْتَ لَيْسَ لَهُ وَفْرُ

وجاء في رثاء الفرزدق لبشر بن مروان ما يُؤكِّد هذا الفخر، ويضيف إليه فخره بقبيلته قريش، نافياً أي صلةٍ له بغيرها، فهو القرشي صليبةً. كما يقول[1]:

أَغَــرُّ أَبُـو العاصِي أَبُـوهُ كَأَنَّمَا   تَفَرَّجَتِ الأَثْـوَابُ عَـنْ قَمَـرٍ بَدْرِ
نَمَتْهُ الرَّوابي مِنْ قُرَيشٍ وَلَمْ تَكُنْ   لَهُ ذَاتُ قُرْبَى مِنْ كُلَيْبٍ ولا صِهـْرِ

واتسعت دائرة الفخر بالآباء والأجداد لتشمل أبناء القبيلة كلها، وهذا ما تجلى في رثاء الأصم بن الحجاج لقتيبة بن مسلم الباهلي (وكلاهما من قيس) إذ يرى في قومه المقدَّمين في المجد، الفاخرين لا يفخر عليهم مفاخر، لأنهم سادة القبائل جميعاً من يمنية وربعية وغيرها، ملكوا أمرها، وقادوها فانقادت، يحكمون في دماء من شاؤوا، ويحملون من شاؤوا على الذُّل والهوان. إذ يقول[2]:

أَلَـمْ يَـأْنِ لِلأَحْيَاْء أَنْ يَعْرِفُوا لَنَا   بَلَى نَحْنُ أَوْلَى النَّاسِ بِالمَجْدِ والفَخْرِ
نَقُوْدُ تَمِيْماً وَالمَوَالِي ومذحجا   وَأَزْداً وَعَبْدَ القَيْس وَالحَيَّ مِنْ بَكْرِ
نُقَتِّـلُ مَـنْ شِـئْنَا بِعِـزَّةِ مُلْكِنَا   وَنُجْبِرُ مَنْ شِئْنَا عَلى الخَسْفِ وَالقَسْرِ

ومثله ما جاء في رثاء عبد الرحمن بن جمانة الباهلي، لقتيبة بن مسلم الباهلي أيضاً، إذ يفتخر فيها بما حققه ابن قبيلته من فتوحات عمَّت الدنيا حتى وصلت إلى الصين. فيقول[3]:

وَإِنَّ لَـنَـا قَـبْـرَيْـنِ، قَـبْـرُ بَلَنْجَرٍ   وَقَبْراً بِصِيْنِ أَسْتَانَ يَا لَكَ مِنْ قَبْرِ
فَهَـذَا الَّذِي بِالصِّيْنِ عَمَّتْ فُتُوحَهُ   وَهـَذَا الَّذي يُسْقَى بِهِ سُبُلَ القَطْرِ

وقد يجمع الشاعر عندما يفتخر، بين آبائه وأجداده وقبيلته في آنٍ واحد. كما

---

(1) ديوانه: 1/ 217، وينظر في المعنى نفسه، تاريخ دمشق: 46/ 40، في رثاء التميمي لعمرو بن سعيد الأشدق .
(2) تاريخ الطبري: 5/ 285، وينظر اتجاهات الشعر في العصر الأموي: 248 .
(3) معجم البلدان للحموي: 1/ 490 .

فعل ثابت قطنة في رثائه ليزيد بن المهلب، ولم ينسَ أن يعير قاتلي يزيد بآبائهم وأجدادهم. فيقول[1]:

وَإِنَّـــا لعَطَّافُوْنَ بِالحِلْمِ بَعْدَمَا ... نَرَى الجَهْلَ مِنْ فَرْطِ اللَّئِيْمِ تكَرُّما
وَإِنَّـــا لَـحَـلالُـوْنَ بِالثَّغْرِ لا نَـرَى ... بِهِ سَاكِناً إِلَّا الخَمِيْسَ العَرَمْرَمَا
نَـرَى أنَّ لِلجِيْرَانِ حَاجاً وَحُرْمَةً ... إِذَا النَّاسُ لَمْ يَرْعُوا لِذِي الجَارِ مَحْرَمَا
وَإِنَّا لَنُقْرِي الضَّيْفَ مِنْ قَمْعِ الذُّرى ... إِذَا كَـانَ رَفْـدُ الـرَّافِـدِيْـنَ تَجَشُّمَا
أَبُوْنَا أَبُـو الأَنْـصَـارِ عَمْرُ بن عَامِرٍ ... وَهُـمْ وُلِـدُوا عَوْفاً وَكَعْباً وَأَسْلَمَا
وَقَـدْ كَـانَ فِي غَسَّانَ مَجْدٌ يَعُدُّهُ ... وَعَادِيَـةٌ كَانَتْ مِنَ المَجْدِ أَعْظَمَا

ومن أنواع الفخر الأُخرى التي تضمَّنتها قصيدة الرثاء، الفخر الحزبي والسياسي الذي لم يكن للعرب سابق معرفةٍ به قبل العصر الأُموي، ومما ساعد على ظهور هذا الفخر ما شهدته السَّاحة من كثرة وجود الأحزاب المتناحرة، والتي يسعى كل واحدٍ منها لإثبات أحقيته في الخلافة[2]. مما دعا الشعراء إلى إبراز الصورة المثالية لهؤلاء الخلفاء والقادة، في محاولةٍ منهم لتدعيم حقِّهم في الحكم. ومما جاء في هذا الإطار، ما قاله خالد بن يزيد بن معاوية في رثاء جدِّه وأبيه. إذ يحاول أن يدلل على حقِّهم في الخلافة من خلال تسليط الضوء على الصفات الحميدة والمهارات القيادية التي يتمتَّعون بها. فهم الذَّائدون عن حياض الدِّين، وحُمَاة المسلمين، والمتمسكون بحبل الله والجماعة، وهم إنما ينفِّذون خلافة الله في الأرض من خلال سعيهم فيما يُشرِّف أمر الدين والمسلمين. فيقول[3]:

وَهُـمْ كَانُوا الحُمَاةَ مِنَ المَخَازِي ... وَهُـمْ كَـانُـوا السُّقَاةَ المُطْعِمِيْنَا
بِـــإِذْنِ الله والـسَّـاعِـيْـنَ فِـيْـمَـا ... يُـشَـرِّفُ أَمْـرَ دِيْـنِ المُؤْمِنِيْنَا

(1) شعره: 58–59.
(2) ينظر اتجاهات الشعر في العصر الأموي: من 33 – 50، والفخر والحماسة : 38.
(3) تاريخ دمشق: 16/ 313 .

فَغَالَتْهُمْ شُعُوْبُ غَيَّبَتْهُمْ وَهُمْ عُمُدٌ لأَمْرِ المُسْلِمِيْنَا[1]
فَلَوْ بَقِيَتْ نُفُوْسُهُم عَلَيْهِمْ وَلَمْ تَجْزُرْهُمُ الدُّنيَا المَنُوْنَا
لأَصْبَحَ مَاءُ أَهْلِ الأَرْضِ عَذْباً وَأَصْبَحَ لَحْمُ دُنْيَاهُمْ سَمِيْنَا
رَأَيْتُ النَّاسَ لاقُوا بَعْدَ جَدِّي مُعَاوِيَةَ الَّذِي أَبْكى العُيُوْنَا
وَبَعْدَ أَخِي مُعَاوِيَةَ ابْنَ أُمِّي وَبَعْدَ أَبِي يَزِيْدِ الأَنْوَرِيْنَا

ويذهب الفرزدق في رثائه للخليفة سليمان بن عبد الملك أبعد من ذلك. فيُؤَكِّد أنَّ الخليفة الذي يرثيه قد وَرِثَ النُّبوَّةَ نفسها، وأراد من ذلك التَّأكيد على أنَّ الخِلافَةَ الأموية هي الميراث الشرعي للنُّبوَّة. فقال[2]:

مَا لِلمَنيَّةِ لا تَزَالُ مُلِحَّةً تَعْدُو عَلَيَّ وَلا أُطِيْقُ قِتَالَهَا
أَرْدَتْ أَغَرَّ مِنَ المُلُوْكِ مَتَوَّجاً وَرِثَ النُّبوَّةَ بَدْرَهَا وَهِلاَلَهَا

وفي الجانب الآخر، حاول الشعراء في رثائهم للقادة أن يوضِّحوا أَهَمِّية هؤلاء ودورهم في تدعيم أركان الدَّولة وتثبيت دعائمها، فهُم الأداة التي تُنَفِّذُ سياستها، والذِّراع القويَّة التي تضرب بها كل من تسوِّل له نفسه تهديدها أو الخروج عليها. فهذا الطرمَّاح يُفاخِرُ بما صنعت قبائل قحطان عندما نصرت الخلافة الأموية ضد الخارجين عليها. وفي محاولةٍ منه لإِضفاء الشرعية على هذا الحكم، عقد مقارنةً بين القوم الذين نصروا النبي محمد ﷺ، وقومه الذين ثَبَّتُوا في دمشق حكم الخلافة. جاء ذلك في معرض فخره بقومه الذين قتلوا قتيبة بن مسلم الباهلي، إثر فشل محاولته الخروج على الخلافة. فقال[3]:

لَوْلاَ فَوَارِسَ مُذْحِجٍ وابْنَةَ مُذْحِجٍ وَالأَزْدُ زُعْزِعَ وَاسْتُبِيْحَ العَسْكَرُ
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ البِلادُ وَلَمْ يَؤُبْ مِنْهُمُ إِلَى أَهْلِ العِرَاقِ مُخْبِرُ

---

(1) الشعوب: وهي المنيَّة لأنها تُفرِّق، ويقال شِعبَتْهُم المنيَّة، أي فرَّقتهم، ينظر اللسان، مادة (شَعَبَ): 1/ 501، وتاج العروس: 1/ 320 .

(2) ديوانه: 2/ 83.

(3) ينظر ديوانه: 248 – 252.

وَاسْتَضْلَعَتْ عَقْدُ الجَمَاعَةِ وَازْدَرَى أَمْـرُ الخَلِيْفَةِ وَاسْتُحِلَّ المُنْكَرُ
قَـــوْمٌ هُـمُ قَـتَـلُـوا قُـتَـيْـبَـةَ عُـنْـوَةً وَالـخَـيْـلُ جَانِحَةً عَلَيْهَا العِثْيَر
بِالمَرْجِ مَـرْجِ الصِّيْنِ حَيْثُ بَيَّنَتْ مُضَـــرُ العِـــرَاقِ مَـــنِ الأَعَـــزُّ الأكبر
إِذْ حَالَفَتْ جَـزَعـاً رَبِيْعَةُ كُلُّهَاُ وَتَـفَـرَّقَـتْ مُـضَـرٌ وَمَـــنْ يَتَمَضَّرُ
وَتَـقَـدَّمَـتْ أَزْدُ الـعِـرَاقِ وَمُـذْحِـجٌ تَحْمِي بَـصَـائِرُهُـنَّ إِذْ لا تُبْصِرُ
وَالأَزْدُ تَعْلَمُ أَنَّ تَحْتَ لِوَائِهَا مُلْكاً قَـرَاسِـيْـهِ وَمَـوْتٌ أَحْـمَـرُ[1]
فَبِعِزِّنَـا نُصِـرَ النَّبِـيُّ مُحَمَّد وَبِنَـا تُثَبَّتُ فِـي دِمَشْـقِ المِنْبَرُ

وكثيراً ما كان المنصب الذي يَتَسَنَّمُهُ القائد في دولة الخلافة، مبعث فخرٍ له ولأَهْله من بعده، فزرارة بن حرب يفخر بأن ابنَهُ عبد العزيز مِنَ القادة الذين كانوا على الدَّوام بقرب الخليفة مُنَفِّذاً لِمَا يَطلُبُ منه، وهو يرى أنَّ كل ما قام به من خدمةٍ لا يزال قليلاً لم يصل إلى المستوى الذي كان يطمح إليه. فقال[2]:

أَلا زَانَ قَـتْـلُ عَـبْـدِ الـعَـزِيْـزِ يصْلِي الـحُـرُوْبَ وَسَـدَّ الثُّغُوْرَا
وَلَـــمْ يَـــرَ مَـــا كَـــانَ مِـــنْ فِـعْـلِـهِ كَـثِـيْـراً وَلَـكِـنْ رَآهُ صَـغِـيْـرَا
وَمَـــــازَالَ مُـــــذْ كَـــانَ عَـبـد العَزِيْـزِ إِمَّـا وَزِيْـــراً وَإِمَـا أَمِيْرا

أَمَّا ما جاء في فخرهم الديني فكثير، سبق الحديث عنه في الفصول السابقة[3]. إذ افتخر الشُّعراءُ بِما كان يؤدِّيهِ الخلفاء والقادة من دورٍ مهم في حماية الدين، والذَّود عنه بوجه الأعداء، ومحاولة نشره من خلال الفتوحات الكبيرة التي تمَّت في عهدهم.

وجاء فخرهم الحربي ليكشف عن المهارات الحربية، والشجاعة والإقدام

---

(1) مُلكٌ قَراسِيَة: أي جليل أو قويٌ عظيم، ينظر اللسان، مادة (قَرَسَ): 6/ 172، وتاج العروس: 4/ 215.

(2) تاريخ دمشق: 18/ 448، وينظر في المعنى نفسه، ولاة مصر لكندي: 113، في رثاء مُرسل بن حمير لحفص بن الوليد وأصحابه .

(3) ينظر الفصل الثالث: ص 189 – 197.

التي تحلى بها هؤلاء الخلفاء والقادة، ولِيُبَيِّن أيضاً الإنجازات التي حقَّقوها على صعيد الفتوحات التي عمَّت الأرض شرقاً وغرباً، فكانت مبعث فخرٍ لهم على الدَّوام. فهذا الأصم بن الحجَّاج يفخر بما قدَّمه القائد قتيبة بن مسلم للخليفة في مجال الجهاد وفتح البلاد، وقتال الأعداء، فيقول مُخاطِباً الخليفة سليمان بن عبد الملك[1]:

سُلَيْمَانُ كَمْ مِنْ عَسْكَرٍ قَدْ حَوَتْ لَكُمْ ... أَسِنَّتُنَا وَالـمُـقَـرَّبَـاتُ بِنَا تَجْرِي
وَكَـمْ مِنْ حُصُوْنٍ قَدْ أَبَحْنَا مَنِيْعَةً ... وَمِـنْ بَلَدٍ سَهْلٍ وَمِـنْ جَبَلٍ وَعْـرِ
وَمِـنْ بَلْدَةٍ لَمْ يَغْزُهَا النَّاسُ قَبْلَنَا ... غَزَوْنَا نَقُوْدَ الخَيْلَ شَهْراً إِلى شَهْرِ

ومن فخرهم بالمهارات الحربية التي يتمتع بها المرثي، ما جاء في رثاء الفرزدق لوكيع بن أبي سود الغدَّاني (وكلاهما من تميم)، فهو الذي خَبِرَ الحرب وسبرَ أَغوارها، حتى غدا متمرِّساً يقود الخيل إلى ساحات الوغى. فيقول[2]:

عَلَى ابْنِ أَبِي سُوْدٍ تَفِيْضُ دُمُوْعِي ... وَمَـنْ لِمِرَاسِ الحَرْبِ بَعْدَ وَكِيْعِ
لَقَدْ كَـانَ قَـوَّادَ الجِيَادِ إِلى الوَغَى ... عَلَيْهِـنَّ غـَابٌ مِـنْ قَنـاً وَدُرُوْعِ

وقد مثَّل الدَّور الذي كان يؤدِّيه القائد في حماية قومه وأُمَّتِه، جانباً آخر من جوانب فخرهم الحربي، إذ نراهم يؤكِّدون هذه الخُلَّة فيمن يرثونه، مضيفين إليها مهارته في قيادة الخيل، فهي عنده دائمة الكر والفر. جاء ذلك في رثاء الشمردل بن شريك لعمر بن يزيد الأسيدي إذ يقول[3]:

حَامِي الحَقِيْقَةِ لا تَـزَالُ جِيَـادُهُ ... تَـغْـدُو مُـسَـوَّمَـةً بِـهِ وَتَــرُوْحُ
لِلحَرْبِ مُحْتَسِبُ القِتَالِ مُشَمِّر ... بِالدِّرْعِ مُضْطَمِرُ الحَوَامِلِ سـُرَّحُ

وتتكرر الصورة نفسها في رثاء أبي عطاء السـندي لنصر بن سيَّار، إذ يقول[4]:

---

(1) تاريخ الطبري: 5/ 285 .

(2) ديوانه: 1/ 410.

(3) شعراء أمويون: 2/ 523.

(4) شعره: 283، وينظر في المعنى نفسه، ديوان الفرزدق: 1/ 410، في رثاء وكيع بن أبي سود=

الخَنْدَفِيُّ الَّـذِي يَحْمِي حَقِيْقَتَهُ فِي كُلِّ يَـوْمِ مِخْوفُ الشَّرِّ وَالعَارِ
وَالقَائِـدُ الخَيْلَ قُبّاً فِي أَعِنَّتِهَا بِالقَوْمِ حَتَّـى تَلُفَّ القَـارُ بِالقَارِ

ومن المعاني الجديدة التي افتخر الشعراء بها، الفخر بنيل الشهادة في سبيل الله، كما جاء في رثاء أحد الشعراء لعثمان بن عبيد الله بن معمر، إذ يقول[1]:

وَنَـالَ الشَّـهَادَةَ مِنْهُـمُ فَتـىً بِـدُوْلابَ كَالقَمَـرِ الأَزْهَـرِ

ومثله قول خلف بن خليفـة في رثاء عاصم بن عمر بن عبد العزيز، إذ يقول[2]:

تَقَـدَّمَ صَابِـراً وَثَـوَى شَـهِيْداً فَلَسْـتُ أَعُـدُّهُ فِي المَيِّتِيْنَا

تبين مما سبق أنَّ قصائد الرثاء لم تقتصر على البكاء والتفجُّع فقط، بل احتوت على موضوعاتٍ أُخرى كان من أبرزها الفخر، إذْ سار الشعراء في فخرهم على خُطى شعراء ما قبل الإسلام، لكنَّ ما يُمَيِّزُ فخرهم، أنه كان يصب في خدمة الدعوة والدفاع عن المسلمين. من خلال التباهي بالأعمال التي قاموا بها تجاه دعوتهم وأُمتهم. وقد استَجَدَّت أنواعٌ جديدةٌ من الفخر لم يكن لشعراء ما قبل الإسلام أيُّ معرفةٍ بها، ألا وهي الفخر بنيل الشهادة في سبيل الله، والفخر الحزبي والسياسي، الذي كان نتيجةً طبيعيةً لما شاع في ذلك العصر من أحزابٍ متناحرةٍ يسعى كل واحدٍ منها لإثبات أحقيته في الخلافة.

= الغدَّاني، والمصدر نفسه: 1/ 235، في رثاء عمر بن عبيد الله بن معمر التميمي، وتاريخ دمشق: 11/ 326، في رثاء أبي نخيلة للجنيد بن عبد الرحمن المرِّي.

(1) أنساب الأشراف: 10/ 153 .

(2) المصدر نفسه: 9/ 260 .

المبحث الثاني

الهجـاء

وَهُوَ أَحَدُ الموْضُوعَات الشِّعريةِ القديمة، التِي تَضمَّنتهَا قَصِيدةُ الرِّثَاء، إذْ لَم يَعُد الشعر الذِي يُرثى بِهِ المَوْتى مُقْتَصِراً عَلَى الإشَادة بهم وَبَيان مَآثرهم وَخِصَالِهِم الحَميدة؛ بل وُجِدَتْ إلى جَانِبِ ذَلك أشعارٌ تنتقدهم وَتَهْجُوهم هِجَاءً مُرّاً، وَتَكْشِفُ عَنْ صِفاتهم وأفعالهم السيِّئة بنظر قائليها. فليسَ مِنَ الضّروْرَةِ أَنْ تُوافق تِلْكَ الصِّفات وَاقِعَ المَرثي، إذ لا يخْفَى الدَّافع الذي حَمَل الشاعر عَلَى وَصْمِه بتلكَ الصفاتِ والأفعال، فَقَدْ يَكُون شَخصيّاً، أو قبليّاً، أو مَذْهبيّاً، ... أو غَيْر ذَلك مِنَ الدَّوَافع مِمَّا سَنُبَينهُ لاحِقاً. وهنا لا بُدَّ من التساؤل عَنِ الأسْباب التي تَقَفُ وَرَاء وُجُود هَذِهِ الظَّاهِرَةِ فِي رِثَاءِ الخُلَفَاءِ وَالقَادة؟ هَلْ هِيَ الطَّبِيْعَة الإنْسانية عِنْدما تُحِب أوْ تَكْرَه؟ أَمْ هُو الجَاهُ وَالمَنْصِب وَمَا يجرُّه من عداواتٍ وإِحَنْ؟ وعلى العموم يمكننا أن نُجملُ أَهَمَّ تِلْكَ الأَسْبَابِ بِالنّقَاطِ الآتِيَة:

أولاً: الدَّافعُ الشَّخْصِيُّ الَّذِيْ يَنْصَبُّ عَلَى الخِلافَاتِ التي قَدْ تَنْشَأُ مِن احتِكَاكِ النَّاسِ وَتَعَارُضِ مَصَالِحِهِم الشَّخْصِيَّة. وَهُوَ أَقْدَمُ أَنْوَاعِ الهِجَاء[1].

ثانياً: الخِلافَاتُ الَّتِي قَدْ تَنْشَأ بَيْنَ أَفْـرَادِ الأسْرَةِ الحَاكِمَةِ فِيْمَا يخُصُّ شُؤوْنِ الحُكْم وَالخِلافَةِ، والَّتي كَثِيْراً مَا تُؤَدِّي إلى الخُرُوْج على طَاعَةِ الخَلِيْفَة، وقد تصل أحْيَاناً إلى التَّصْفِيَةِ الجَسَديَّةَ، مما يُوَلِّدُ حالةً من العداءِ تَجِدُ طَرِيْقَهَا إلى الشِّعْر كمتنفَّسٍ عمَّا يدورُ في خَلَدِ قَائِلِهِ مِنَ النِّقْمَةِ والثَوْرَةِ عَلَى الوَاقِعْ الَّذِي يَراه.

ثالثاً: الخِلافَاتُ القَبَلِيَّةُ التِي تَنْشَأ إِثْرَ التَّنَافُسِ عَلَى الإمَارَةِ وَالطَّمَع فِيْهَا،

---

(1) ينظر الهجاء والهجاؤون في الجاهليَّة: **19** و**95**.

وَمُحَاوَلَة إِثْبَاتِ الوَلاَءِ وَالطَّاعَةِ لهذَا الخَلِيْفَةِ أَوْ ذَاكْ، وَهُوَ مِنْ أَبْرَزِ الأَسْبَابِ الَّتِي وَقَفْتُ عَلَيْهَا.

وَجَاءَتْ نَمَاذِجُ الهِجَاء التي بَيْنَ أيدينا في صُوَرٍ مُتَعدِّدة، فمنها ما كان موجَّهاً إلى شخص الميت مباشرةً، ومنها ما جاء ضمن قصيدة الرثاء، كأن يرثي أحد الشعراء خليفةً أو قائداً ويضمِّنه هجاءً لمن أتى بعده. وقد تفاوتت نسبة الهجاء في قصيدة الرثاء، فمن القصائد ما كان هجاءً خالصاً من أول بيتٍ إلى آخر بَيْت. وَمِنْهَا مَا جَاءَ ضِمْنَ قَصِيدةٍ طَوِيلةٍ امتزجت بِالتَّهْدِيْد وَالوَعيد تَارةً، وبالفخر تَارَةً أُخْرَى. فَمِنَ النَّادِرِ أَنْ نَجِدَ قَصِيدةً في الهجاء خاليةً من التهديد والوعيد اللذَيْنِ يَدُلَّانِ على القوَّة وشدَّة البأس، وهي من السِّمَات التِي يُحَافِظُ عَلَيْهَا العَرَبِي وَيَفْخَرُ بِهَا. وَقَدْ يَأْتِي الهِجَاءُ مُتَزَامِناً مع الفخر، فيكون انتقال الشاعر من الهجاء إلى الفخر أو العكس مظهراً طبيعيَّاً ومنسَّقاً يتناسب مع مشاعره في هذا الموقف، لارتباطهما بعاطفتي الرِّضا والغضب في النَّفس البشريَّة التي حينما تغضب فإنها تبحث عن الأشياء التي تنال من الخصوم[1].

وقد تابع الشعراء في هجائهم هذا، تقاليد شعراء ما قبل الإسلام، ما عدا بعض الألفاظ التي استمدّوها من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فأصبحنا نجد ذكر النار وجهنَّم والعذاب الأليم، والكفر والضَّلال ... وغيرها من الألفاظ الأُخرى .

وقد سلك الشعراء في هجائهم طريقين، هما: الهجاء بالعيوب الخُلُقيَّة والنفسيَّة، التي تعتمد على التعيير بالمثالب والأعمال التي تنتقص من القيمة والسيادة على مستوى الشرف والأرومة، والجود والبخل، وقلَّما اعتُمِدَ على السب والشتم المقذع[2]. وهو ما أكَّد عليه نقَّادُنا القدامى، إذ يقول أبو هلال العسكري: «... والاختيار أن تنسب المهجو إلى اللؤم، والبخل، والشره، وما أشبه ذلك، وليس

---

(1) ينظر الفروسية في الشعر الجاهلي: 251 – 252 .

(2) ينظر الحماسة البصرية: 1/ 3، والفروسية في الشعر الجاهلي: 54.

بالمختار في الهجاء أن ينسبه إلى قبح الوجه وصغر الحجم وضؤولة الجسم»[1].
ويؤيِّده فيما ذهب إليه، ابن رشيق إذ يقول: «وأجود ما في الهجاء، أن يُسْلَبَ الإنسان الفضائل النفسيَّة وما تركَّب من بعضها مع بعض، فأمَّا ما كان في الخِلْقَةِ الجِسْمِيَّةِ مِنَ المَعَايِبْ، فَالهِجَاءُ بِهِ دُوْنَ ذَلِكْ»[2].

والطريق الآخر، وهو الهجاء بالعُيوب الخَلْقِيَّة - وإن كان بنسبةٍ أقل من سابقه - وهو ما عدَّهُ القرطاجنِّي تَحَامُلاً، متابعاً بذلك العسكري وابن رشيق، بقوله: «فأمَّا خِلْقَةُ الإنسان وصورَتُهُ فليس فِي قُدْرَتِهِ نَقْلُ شَيْءٍ مِنْهَا عَمَّا وُجِدَ عَلَيْه، فَحَمْدُ الإِنْسَانِ بِمَا يُستَحْسَنْ مِنْ هَذَا القَبِيْلِ مُخَادَعَةٌ لَهُ، وَذَمَّهُ بِمَا يُسْتَقْبَحْ مِنْ ذَلِكَ تَحَامُلٌ عَلَيْهْ»[3].

وواضحٌ من الأقوال المتقدِّمة تأكيد الأقدمين على أنَّ أفضل الهجاء وأجوده وأبلغه ما تناول العيوب النفسيَّة ورذائل المرء في طباعه وأخلاقه. أمَّا الهجاء الذي يعمد إلى انتقاص المهجوّين من جهة خَلْقِهِمْ وعُيوبهم الجسديَّة، فإنهم ذهبوا إلى التقليل من قيمته وأهميَّته. وقد ذهب أحد الباحثين إلى الاحتجاج بآراء بعض النقاد القدامى حول جواز المدح بِالأَوْصَافِ الجسديَّة العارضة، كجمال الوجه وطلاقة المُحَيّا، مع إضافتها إلى الفضائل النفسيَّة التي يتحلَّى بها الممدوح[4]. وجوَّز لنفسه الهجاء بالعيوب الجسدية مع النفسية بقوله: «وإذا كانت النفوسُ مجبولةً على الميلِ إلى الوجوهِ الحسانِ، فَذَمُّ سِوَاهَا أَمْرٌ مَقْبُوْلٌ فِي الهِجَاءْ»[5]. والحق أنَّ ما قصده نقَّادنا القدامى بجمال الوجه وطلاقة المحيا، لم يكن مقصوداً لذاته فحسب؛ ولكن لما يحمله من معاني الكرم والضيافة وحسن الاستقبال، وبشاشة الوجه، فجاز على هذا الأساس المدحُ بها، أمَّا في الهجاء فذكر المعايب الجسدية مقصودٌ

---

(1) الصِّناعتين للعسكري: 104.
(2) العمدة: 2/ 174.
(3) منهاج البُلغاء للقرطاجنيِّ: 169.
(4) ينظر سر الفصاحة: 250، والعمدة: 2/ 135 .
(5) ينظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري: 35.

لذاته، كما سيأتي بعد قليل، كقصر القامة، وَعَوَر العين ... ولهذا لا أُوافق الباحث فيما ذهب إليه.

فمن الدَّوافع الشخصية التي حملت بعض الشعراء «القادة» على هجاء خصومهم، ما جاء في هجاء نصر بن سيَّار للحارث بن شُريج[1]، بعد محاولة الأخير الخروج على الخلافة وشق عصا الطَّاعة[2]، مما عاد على أهله وقومه بالذُّلِّ والهلاك. فقال[3]:

يَا مُدْخِلَ الذُّلَّ عَلَى قَوْمِهِ ... بُعْداً وَسُحْقاً لَكَ مِنْ هَالِكِ
شُؤْمُكَ أَوْدَى مُضَراً كُلَّهَا ... وَغَضَّ مِنْ قَوْمِكَ بِالحَارِكِ
مَا كَانَتِ الأَزْدُ وَأَشْيَاعُهَا ... تَطْمَعُ فِي عَمْرٍ وَلا مَالِكِ
وَلا بَنِيْ سَعْدٍ إِذَا أُلْجِمُوا ... كُلَّ طمر لَوْنُهُ حَالِكِ

ومما يلاحظ على هذه المقطوعة، خُلُوَّهَا من أيِّ غرضٍ آخر سوى الهجاء.

كما قال خالد بن عبد الله القسْري في هجاء الحارث بن شريج أيضاً حين بلغَهُ قتله، مستنكراً فعلته التي أقدم عليها ومحاولته طلب الخلافة لنفسه. فقال[4]:

يُرَجَّى ابْنُ شَرْجٍ أَنْ يَكُوْنَ خَلِيْفَةً ... وَهَيْهَاتَ أَسْبَاب الخِلافَةِ مِنْ شَرْجِ

ومن الهجاء الشخصي ما جاء في معرض الرَّد على الخصم، كما جاء في رد الفرزدق على مِسْكِيْن الدَّارِمِي بعد أن رثى زياد بن أبيه ببيتٍ من الشعر. قال فيه[5]:

---

(1) الحارث بن شريح التميمي: ثائر من الأبطال، خرج على أمير خراسان، وخلع طاعة الخليفة هشام بن عبد الملك، استولى على الجوزجان والطالقان ومرو الروذ، بلغ جيشه ستين ألفاً، (ت 128 هـ). ينظر تاريخ الطبري: 9/ 66، والكامل في التاريخ: 5/ 172، والأعلام: 2/ 154.

(2) ينظر تفاصيل أوفى عن هذه الحادثة في تاريخ خليفة بن خياط: 307، وتاريخ الطبري: 6/ 12 – 13، والبداية والنهاية: 10/ 29 – 30.

(3) ديوانه:39، وينظر بعض الاختلافات في، أنساب الأشراف: 12/ 111.

(4) أنساب الأشراف: 12/ 111.

(5) ديوانه: 30 .

رَأَيْـتُ زِيَــادَةَ الإِسْــلاَمِ وَلَّـتْ جِهَاراً حِيْنَ وَدَّعْـنَـا زِيَـادُ

فأثار ذلك حفيظة الفرزدق، إذْ لم يتأخَّر ردُّه عليه، فقال يؤَنِّب مسكين، ويهجو زياد[1]:

أَمِسْكِيْنُ أَبْكَى اللهُ عَيْنَيْكَ إِنَّمَا جَرَى فِيْ ضَلاَلٍ دَمْعُهَا إذْ تَحَدَّرا
بَكَيْتَ امرِءاً مِنْ أَهْلِ مَيْسَانَ كَافِراً كَكِسْرَى عَلَى عِدَّانِهِ أَوْ كَقَيْصَرا
أَقُـوْلُ لَـهُ لَمَّـا أَتَـانِـي نَعِيُّـهُ بِـهِ لاَ بِظَبْـيٍ بِالصَّرِيْمَةِ أَعْفَـرَا

ومن الهجاء الشخْصي ما تعود أسبابه إلى الخلافات التي تقع بين أفراد الأسرة الحاكمة. من ذلك ما جاء ضمن قصيدة الرثاء، إذْ يرثي الوليد بن يزيد عمَّه مسلمة بن عبد الملك، ويُعَرِّضُ من خلالها ببعض الشخصيات من داخل الأسرة الحاكمة، مكتفياً بذكر عيوبها، مُتَّخِذاً من هذه المناسبة فُرصةً لهجائها والنَّيْلِ منها. فيقول[2]:

فَلَيْتَكَ لَـمْ تَـمُـتْ وَفِـدَاكَ قَـوْمٌ رَاخَـى بَـيْـنَـهُـمُ عَـنِّـي الـدِّيَـارْ
لَئِيْـمُ الصَّـدْرِ أو سَـرِفٌ نَكِيْدٌ وآخر لا يَــزُوْرُ وَلا يُــزَارْ[3]

ومن ذلك ما جاء في رثاء يحيى بن أبي الحكم بن أبي العاص[4]، لعمرو بن سعيد الأشدق، الذي خرج على الخليفة عبد الملك بن مروان ودعا لنفسه، فتمكَّن

---

(1) ديوانه: **1/ 201**، وفي الأغاني: **20/ 221**، ... بكيت على علجٍ بميسان كافر، وينظر، شعر الدعوة: **232-233**، في رثاء أبي بكر بن مخنف.

(2) ديوانه: **60**، وينظر في المعنى نفسه، أنساب الأشراف: **9/ 178**، والأغاني: **2/ 306**، في رثاء ابن ميادة للوليد بن يزيد، وهجائه لقتلته، وتاريخ دمشق: **46/ 40**، في هجاء عبيد الله بن أبي رافع لعمرو بن سعيد الأشدق.

(3) لئيم الصَّدر، وعني به يزيد بن الوليد (النَّاقص)، والسرف النَّكيد، وعني به هشام بن عبد الملك، والذي لا يزور ولا يُزار، مروان بن محمد. ينظر الأغاني: **7/ 8** ، وتاريخ دمشق: **58/ 45** .

(4) يحيى بن الحكم بن أبي العاص أخو مروان بن الحكم، ولّاهُ عبد الملك بن مروان المدينة ثم حمص، ينظر الطبقات لابن سعد: **5/ 152**، وتاريخ دمشق: **64/ 119**.

الخليفة منه وقتله[1]، فجاء هجاء الشاعر لقتلته مصوِّراً خطورة إقدامهم على هذا التصرف، بالنظر إلى العلاقات الأسرية وصلة الرحم التي تربطهم به، وهو وإن وصمهم بالغدر، وشبَّههم ببغاث الطير؛ فهو واحدٌ منهم، حريصٌ على سُمْعتهم، إذْ أراد أن يقول لهم: لا يُمكن أنْ تُعالج الأمور بين ذوي القربى بهذه الطريقة التي تُشمِتْ الأعداء بنا. فقال[2]:

أَعَيْنَيَّ جُـوْدَا بِالدُّمُوْعِ عَلَى عَمْرٍ ... عَـشِـيَّـةَ تُـبْـتَـزّ الـخِـلافَـةُ بِالغَدْرِ
كَـأَنَّ بَـنِـيْ مَـــرْوَانَ إِذْ يَقْتُلُوْنَهُ ... بُغَاثٌ مِنَ الطَّيْرِ اجْتَمَعْنَ عَلَى صَقْرِ
غَـدَرْتُـمْ بِـهِ يَـا بَنِي خَـيْـطِ بَاطِلٍ ... وَأَنْتُمْ ذَووا قُرْبَى مِنْهُ وَذَوو صِهْرِ[3]
فَرُحْنَا وَرَاحَ الشَّامِتُوْنَ عَشِيَّةً ... كَـأَنَّ عَلَى أَكْتَافِنَا فلَقَ الصَّخْرِ
لَحَا اللهُ دُنْيَا تُدْخِلِ النَّار أَهْلَهَـا ... وَتَهْتِكُ مَا دُوْنَ المَحَارِمِ مِنْ سِـتْرِ

ومن الأساليب المتَّبَعة في الهجاء، تعرُّضهم للأنساب والطعن فيها، إذْ كان من أبرز ما تناوله الشعراء في هجائهم، من ذلك ما ورد في هجاء ابن مفرغ الحميري[4]، لعبيد الله بن زياد، إذْ يقول[5]:

إِنَّ الَّــذِيْ عَــاشَ خَـتَّـاراً بِذِمَّتِهِ ... وَعَــاشَ عَبْداً قَتِيْل الله بـالـزَّابِ[6]
العَبْدُ لِلعَبْدِ لاَ أَصْـلٌ وَلاَ طَـرَفٌ ... أَلْــوَتْ بِـهِ ذَاتُ أَظْـفَـارٍ وَأَنْـيَـابِ

---

(1) ينظر تفاصيل ذلك في، سير أعلام النبلاء: 3/ 449، وتاريخ دمشق: 46/ 39 – 40 .
(2) أنساب الأشراف: 6/ 65 .
(3) خَيْطُ بَاطِلْ: هو لقب كان يلقَّب به مروان بن الحكم، لقِّب به لأنه كان طويلًا مضطرباً، ينظر مجمع الأمثال للميداني: 1/ 273، وأنساب الأشراف: 6/ 65 .
(4) واسمه يزيد بن زياد، شاعر غزل، كان من أهل تبالة (قرية بالحجاز) واستقر بالبصرة، وكان هجّاءً مُقذعاً، وهو صاحب البيت الشائع: العبد يُقرع بالعصا، والحرُّ تكفيه الملامة، (ت 69) هـ. ينظر الأعلام للزركلي: 9/ 235 .
(5) ديوانه: 81–84 .
(6) الزاب: وهو اسمٌ يطلق على عدة أنهر، منها الزاب الأسفل، والزاب الأعلى، وهما بقرب الموصل، وعلى الزاب الأعلى كان مقتل عبيد الله بن زياد. ينظر معجم البلدان: 3/ 124 .

إِنَّ المَنَايَا إِذَا مَـا زُرْنَ طَاغِيَةً هَتَكْنَ عَنْهُ سُـتُـوْراً بَيْنَ أَبْـوَابِ
هَـلَّا جُـمُـوْعِ نِـزَارٍ إِذْ لَقِيْتَهُمْ كُنْتَ امْـرأً مِـنْ نِـزَارٍ غَيْرَ مُرتَابِ
لا يَـتْـرِكِ اللهُ أَنْفَاساً تَعْطِسُوْنَ بِهَا بَنِي العَبِيْدِ شُـهُـوْداً غَيْرَ غِيَابِ
أَقُـوْلُ بُعْداً وَسُحْقاً عِنْدَ مَصْرَعِهِ لابْنِ الخَبِيْثَةِ وَابْنِ الكَوْدَنِ الكَابِي

ومن جانبٍ آخر، يُدَلِّلُ تعرُّض الشعراء في هجائهم لِلأنساب والطعن فيها، على مدى حرص النَّاس على سلامة مُحْتَدِها وأصالةِ نَسَبِها، وهو ما يراه أحد الباحثين شيئاً إيجابيًّا في الهجاء، إِذْ يقول: «فالواقع إِنَّ في الهجاء قوَّةً بنائيَّةً إلى جانب هذا المظهر الهدَّامْ، الذي هو أول ما يطالع المتصفِّحْ لهُ، فَهو حين يهاجم شخصاً من الأشخاص أو نظاماً من النظم أو نزعةً من النزعات، يتصوَّر في حقيقة الأمر حياةً أُخرى بِأَشخاصها ونظامها وأُسلوبها، هي مثلُه الأعلى الذي يطمح إليه ويدعو له، فالهجاء له فلسفةٌ في الحياة يريد أن يؤدِّيها إلينا»[1].

ونلاحظ أنَّ ما ورد من الهجاء الشخصي، لم يتناول المثالب والعيوب الخَلْقيَّة بقدر ما كان يركِّز على العيوب النفسية والخُلُقِيَّة. غير أننا عثرنا على أُنموذجينِ اثنين فقط، ركَّز الشعراء فيهما على الجانب الخَلْقِي أكثر من الجانب الخُلُقِيْ، إِذْ جاء في رثاء أبي حزَّابـة لطلحة الطلحات، ما ينالُ فيه من خليفته الذي أتى بعده، ولا يجد مجـالاً للمقارنة بين الاثنين، فالأول لحسن سيرته وعموم كرمه، لن نظفر بمثله أبداً، والثاني قصير القامة، أعور العين، ولذلك أنكره سريرنا والمنبر. فيقول[2]:

يَـا طَـلْـحُ يَـا لَـيْـتَـكَ عَـنَّـا تُخْبَرُ حِيْنَ أَتَـانَـا الجَعْظَرِيُّ الحَيْدَرُ
أَقَـلُّ مِـنْ شِـبْـرَيْـنِ حِيْـنَ يُشْبَرُ قَـدْ عَلِمَ الـقَـوْمُ غَـدَاةَ اسْتَعْبَرُوا
أَنْ لَـمْ يَـرَوا مِثْلَكَ حِيْـنَ تُقْبَرُ فَـقَـدْ أَتَـانَـا جُـرَّذٌ مُـجَـمَّـرُ

---

(1) الهجاء والهجَّاؤون في الجاهليَّة: 19 .
(2) أنساب الأشراف: 12/ 250 .

مِثْل أَبِـي الـقَـعْـوَاءِ لا بَـلْ أَقْصَرُ   وَخَـلْـفٌ يَـا طَلْحُ مِنْكَ أَعْـوَرُ[1]
أَنْـكَــرَهُ سَـرِيْرُنَـا وَالمِنْبَـرُ   وَقَصْرُنَـا وَالمَسْـجِدُ المُطَهَّـرُ

والحقيقة إِنَّ قِصَر القامة أو غيرها مِنَ العيوب الجسمية، لا يمكن أن تقف عائقاً أمام تسلم الإمارة والمسؤولية، لما جاء في حديث الرسول ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم حبشيٌ كأن رأسه زبيبة»[2]. فالاهتمام يجب أنْ ينْصب على الجوهر وليس على المظهر، وإذا ما علمنا أنَّ الدافع الذي دفع الشاعر إلى وصفه بتلك الأوصاف هو الدافع المادي[3]. أدركنا السبب الحقيقي وراء هجائه له بتلك الأوصاف.

والمثال الآخر، جاء في معرض رثاء نهار بن توسعة ليزيد بن المهلب، وتعريضه بقتيبة بن مسلم الباهلي الذي خلفه على خراسان، فقال[4]:

كَانَتْ خُرَاسَانُ أَرْضاً إِذْ يَزِيْدُ بِهَا   وَكُـلُّ بَـابٍ مِـنَ الخَيْرَاتِ مَفْتُوْحُ
فَاسْتُبْدِلَتْ قتِيبـاً جَعْـداً أَنَامِلُه   كَأَنَّمَـا وَجْهُـهُ بِالخَـلِّ مَنْضُوْحُ

وجاء الهجاء القبلي ليكشف عن حالة الصراع الذي كان قائماً بين القبائل والتسابق في إثبات الولاء والطَّاعة للخليفة، ومن الملاحظ أن هذا الهجاء عندما يكون دافعه قبليّاً نراه مصحوباً بنغمة الفخر الجماعي، وهذا ما لمسناه في هجاء الفرزدق لقتيبة بن مسلم الباهلي، إذْ يقول[5]:

فَـإِنْ تَكُ قَيْسٌ فِي قُتَيْبَةَ أُغْضِبَتْ   فَـلا عَطَسَتْ إِلَّا بِـأَجْـدَعَ رَاغِـمِ
وَمَـا كَـانَ إِلَّا بَـاهِـلِـيّـاً مُجَدَّعاً   طَغَى فَسَقَيْنَاهُ بِكَأْسِ ابـنِ خَـازِمِ
لَقَدْ شَهِدَتْ قَيْسٌ فَمَا كَانَ نَصْرُهَا   قُـتَـيْـبَـةَ إِلَّا عَـضَّـهَـا بِـالأَبَـاهِـم

(1) أبو القعواء: هو حاجبٌ لطلحة الطلحات، كان قصيراً. ينظر الأغاني: 22/ 263.
(2) مسند الإمام أحمد: 3/ 114، وصحيح البخاري: 1/ 170.
(3) ينظر الأغاني: 22/ 262.
(4) شعره: 97.
(5) ديوانه: 2/ 311.

أَتَغْضَـبُ إِنْ أُذُنَــا قُتَيْبَةَ حُزَّتَا   جِهَاراً وَلَمْ تَغْضَبْ لِيَوْمِ ابنِ خَازِمِ

وعلى الرغم من أن الهجاء موجَّهٌ إلى قتيبة؛ إلَّا أنه يتعدَّاه إلى هجاء قومه وقبيلته وأُسرته، فكثيراً ما يتناول الهجَّاؤون القبائل من خلال هجائهم للأفراد، وكأنهم يهجون هذه القبائل من خلال أبنائها وأفرادها، والشعراء إنما يمزجون هجاء الفرد بهجاء قومه وأهله إمعاناً في إيذائه وإيلامه والانتقام منه.

ومما جاء في هذا المعنى، هجاءُ رَجُلٍ من أهل الكوفة، للخَليفة مروان بن محمد، إذْ يتوجَّهُ من خلاله إلى بني مروان عامّة، مصوِّراً النهاية المؤلمة التي آلت إليها دولتهم، وهو ما يمكن أن نسمِّيه الهجاء السياسي[1]، فيقول[2]:

نَـزَعَ الـخِـلافَـةَ مِـنْ بَنِي مَــرْوَانَ   رَبٌّ عَلَى بِـالـطَـوْلِ وَالإِحْـسَـانِ
مَــازَال مَــرْوَانُ يُـقَـرِّبُ خَـطْـوَهُ   وَيَـحْـرِقُ الأَرْضَـيْـنِ بِـالـنِّـيْـرَانِ
وَيُـرَوِّعُ مِنْهَا فِي البِلادِ وَلَـمْ يَكُنْ   قَـدَرُ الإِلَــهِ يَـحِـلُّ عَـنْ مَــرْوَانِ
وَلَـقَـدْ رَمَــاهُ صَـالِـحٌ بِـفَـوَارِسٍ   شُـمِّ الأُنُـوْفِ مُعَانِقِي الأَقْـرَانِ
فَاسْتَخْرَجُوْهُ مِنَ الكَنِيْسَةِ صَاغِراً   وَتَـعَـاوَرُوْهُ بِذِلَّــةٍ وَهَــوَانِ
وَأَتَــاهُ لِلْحِيْنِ المُبَاحِ فَـوَارِسـاً   أَلِـفُـوا الطِّعَانَ بِسَاحَةِ المَيْدَانِ
سَــارُوا بِــرَأسِ الـرِّجْـسِ مَـرْوَانَ   الَّذِي فَتَكَ الوَرَى بِالظُّلْمِ وَالعُدْوَانِ

وجاءت لغة التهديد والوعيد والثأر ضمن قصيدة الرثاء، وبخاصَّة عندما يكون الشاعر من قبيلة المرثي نفسها، عندها تكون قصيدته خاليةً من أيِّ لونٍ من ألوان العاطفة الخارجة على حدود الحرب والثأر. وهذا ما تجلَّى في رثاء ثابت

---

(1) أَطلق هذا المصطلح الباحث الدكتور محمد محمد حسين في كتابه «الهجاء والهجاؤون في الجاهلية»: 23، على الهجاء القبلي في الجاهلية ويقول: «... أَمَّا الهجاء القبلي فهو في الواقع ليس شعراً سياسياً بالمعنى الدقيق، ولكنه يصور الشعر السياسي في طوره البدائي عند العرب، فالعرب في جاهليتهم لم يعرفوا نظام الدولة»، أما وقد عرفوه في العصر الأموي، فلا بأس أن نطلق عليه «الهجاء السياسي».

(2) الفتوح لابن أعثم: 2/ 344 .

قطنة ليزيد بن المهلَّبْ، وهو الشاعر الوحيد الذي ثار على الأمويين وتوعَّدهُم؛ لأنَّه غضب غضباً شديداً حين قتلوا يزيد بن المهلب، وهو غضبٌ جعله يتَّجه لصاحبته بشكواه مسترسلاً في وعيده للخليفة وتهديده له، آسياً على نفسه أنَّه لم يكن مع يزيد بن المهلب في حربه، فيقول[1]:

أَلا يَـا هِـنْـدُ طَـالَ عَـلَـيَّ لَيْلِي ... وَعَـــادَ قَـصِـيْـرُهُ لَـيْـلاً تَـمَـامَـا

كَـأَنِّـي حِـيْـنَ حَـلَّـقْـتُ الـثُّـرَيَّـا ... سُقِيْتُ لُـعَـابَ أُسُـوْدٍ أَوْ سمَامَا

مُصَابُ بَنِي أَبِـيْـكِ وَغِبْت عَنْهُم ... فَـلَـمْ أَشْـهَـدْهُـمْ وَمَـضَـوا كِـرَامَـا

فَـلا وَاللهِ لا أَنْـسَـى يَـزِيْـداً ... وَلا القَتْلَى الَّـتِـيْ قُتِلَتْ حَرَامَا

فَـعَـلَـيَّ أَنْ أَبُـو بِـأَخِـيْـكَ يَـوْمـاً ... يَـزِيْـداً أَوْ أَبُـوءَ بِـهِ هِـشَـامَـا

وَنَـسْـقِـي مُـذْحِـجـاً والحي كَلْبَاً ... مِـنَ الـذِّيْـفَـانِ أَنـفَـاسـاً قُـوَامَـا[2]

عَـشَـائِـرُنَـا الَّـتِـي تَـبْـغِـي عَلَيْنَا ... تَـجُـرُّ بِنَا زَكَـا عَـامـاً بِعَامَا

وَلَـوْلاهُـمْ وَمَـا جَلَبُـوا عَلَيْنَا ... لأَصْبَحَ وَسْطَنَا مُلْكـاً هُمَامَـا

ويتَّجِه ثابت قطنة إلى مسلمة بن عبد الملك الذي قضى على يزيد وثورته بالتهديد والوعيد قائلاً[3]:

وَفِـي غَيْرِ الأَيَّـامِ يَا هِنْدُ فَاعْلَمِي ... لِـطَـالِـب وَتْـرٍ نَـظْـرَةٌ إِنْ تَلَوَّمَا

فَعَلَيَّ إِنْ مَالَتْ بِـيَ الرِّيحُ مَيْلَةً ... عَلَى ابْـنِ أَبِـيْ ذَبَّـانَ أَنْ يَتَنَدَّمَا[4]

أَمَسْلَمَ إِنْ تَقْدِرْ عَلَيْكَ رِمَاحَنَا ... نُذِقْكَ بِهَا قَـيءَ الأَسَـاوِدِ مَسْلَمَا

وَإِنْ تَلْقَ لِلعَبَّاسِ فِي الدَّهْرِ عَثْرَةً ... نُكَافِهِ بِـالـيَـوْمِ الَّـذِي كَـانَ قَدَّمَا

قِصَاصاً وَلا نَعْدُو الَّذِي كَانَ قَدْ أَتَى ... إِلَيْنَا وَإِنْ كَـانَ ابْـنُ مَـرْوَانَ أَظْلَمَا

---

(1) شعره: 60.

(2) الذيفان: وهو السم القاتل، اللسان مادة (ذَيَفَ): 9/ 112 ، وتاج العروس: 6/ 113.

(3) شعره: 58.

(4) أبو ذبَّان: وهي كنية عبد الملك بن مروان، وسمي بذلك لفخره، ينظر. الكامل في التاريخ لابن الأثير: 4/ 199، ونهاية الأرب: 5/ 197.

سَتَعْلَمُ إِن زَلَّـتْ بِـكَ النَّعْلُ زَلَّـةً وَأَظْـهَـرَ أَقْــوَامٌ حَـيَـاءً مُجَمْجَمَا
مَنِ الظَّالِمُ الجَانِي عَلَى أَهْـلِ بَيْتِه إِذَا أُحْصِـرَتْ أَسْبَاب أمر وأَبْهَمَا

ولـم تقتصر مراثي ثابت قطنة في آل المهلب على يزيد، إذ سبقته إلى أبيه المهلب بن أبي صفرة من قبل، وجاءت ملئ بالثورة والغضب على قاتليه، فهو لا يرى طعماً للعيش، إن لم يدرك ثأره، ويشفي غليل نفسه، فيقول[1]:

إِنِّـي تَـذَكَّـرْتُ قَتْلَى لَـوْ شَهِدْتَهُمْ فِي حَوْمَةِ المَوْتِ لَمْ يُصلَوْا بِهَا دُوْنِي
لا خَيْرَ فِي العَيْشِ إِنْ لَمْ أَجْنِ بَعْدَهُمِ حَرْباً تَبِـيءُ بِهِمْ قَتْلى فَيَشْـفُوْنِـي

وَخُلاصَةُ القَوْلِ: إنَّ مَا جَاءَ فِي رِثَاءِ الخُلَفَاءِ وَالقَادَةِ مِنْ هِجَاء، لَمْ يَكُنْ مُسْتَغْرَباً؛ فقصيدة الرثاء احتوت على فنونٍ شعريةٍ كثيرةٍ كان من بينها الهجاء، وهو إنما جاء محتذياً في أسلوبه لشعراء ما قبل الإسلام، إلاَّ ما كان من ألفاظٍ تشير إلى تأثره بدعوة الإسلام. وجاء هجاء الشعراء على نوعين، أولهما: الهجاء الشخصي، بغض النظر عن الدوافع، والآخر قَبَلِي. وكان للهجاء بالمعايب الخُلُقية والنفسيَّة النصيب الأكبر من الهجاء بالمعايب الخَلْقِيَّة. ولم يقتصر الهجاء على السبِّ والشتم، كما شاع عند كثيرٍ من الباحثين[2]؛ إذ تعداه إلى مناقشة كثيرٍ من الأمور السياسية والدينية والاجتماعية، ومنها حثُّ أرباب الدولة على العودة إلى الأخلاق الحميدة والتصرف السليم، وهو أيضاً وسيلةٌ من وسائل التقريع السياسي، وتقريع رجال الدولة، أو بيان الولاء لجهةٍ ما ضِدَّ أُخْرَى، أَو التَزَلُّف لِقَائِدٍ أَوْ خَلِيْفَةٍ مُعَيَّنْ .

---

(1) الأغاني: 14/ 266 – 267، وينظر تاريخ دمشق: 60/ 96 – 97، بروايةٍ أُخرى.

(2) ينظر الهجاء والهجاؤون في الجاهلية: 1 .

المبحث الثالث

المديـــح

يستقي المديح والرثاء مادَّتهما الشعريَّة من معينٍ واحد؛ ألا وهو القيم والمعايير الأخلاقية التي تعارف عليها المجتمع، إلَّا أنَّ لكلٍ منهما جوَّه الخاص ودوافعه الذاتيَّة التي ينطلق منها[1]. إِذْ بقي المديح مقترناً بالتأبين ردحاً من الزمن، إذ كانوا لا يفرِّقون بينه وبين الرثاء، فهو في نظرهم مدح الميت، وإبراز صفاته وسجاياه النبيلة، وكان من أوائل من تصدَّى لهذا الموضوع من النقَّاد، قدامة بن جعفر، إذ يقول: «ليس بين المرثية والمدحة فصلٌ إلَّا أن يُذكر في اللفظ ما يدل على أنها لهالك، مثل: (كان) و(تولَّى) و(قضى نحبه)، وما أشبه ذلك، وهذا لا يزيد المعنى ولا يُنقصُ منه، لأنَّ تأبين الميت، إنَّما هـو بمثل ما كان يُمْدَحْ به في حياته»[2]. وتبعه ابن رشيق قائلًا: «ليس بين الرثاء والمدح فرق، إلاَّ أن يخلط بالرثاء شيءٌ يدل على أن المقصود به ميت، مثل: (كان) أو (عدمنا به كيت وكيت)، وما يشاكل هذا، لِيُعْلَم أنَّه ميت»[3]. وواضحٌ مما سبق، إغفالهم للجانب العاطفي والنفسي المحيط بكلٍ من المادح والرَّاثي.

والحقيقةُ أَنَّنا لسنا بصدد البحث في الفروق التي تميِّز كلَّ نوعٍ من الآخر -فالسمات المشتركة بينهما متعددة، وهي قائمة على القيم الاجتماعية (القاسم

---

(1) ينظر ما كتبه الدكتور نوري حمودي القيسي حول اختلاف الدوافع والأجواء النفسية لكلٍّ من المدح والرثاء في كتابه، شعراء أمويون: 3/ 140 .

(2) نقد الشعر: 111 .

(3) العمدة: 2/ 147 .

المشترك بينها) - بقدر ما يعنينا وجود المدح كغرضٍ مستقل داخل قصيدة الرثاء، إذ أخذ الشعراء يمدحون في رثائهم للخلفاء والقادة، من يَلُوْنَهُم في الحكم، يحدوهم في ذلك دوافع شتَّى، منها الماديَّةُ، ومنها السياسيَّة، ومنها الدِّينية. وقد تعارف النقاد على تسمية مدح السلف ورثاء الخلف «بالتهنئة والتعزية»[1]. وهو من الصعوبة بمكان، إذْ يقول ابن رشيق: «... ومن صعب الرثاء أيضاً جمعُ تعزيةٍ وتهنئة في موضع»[2]. فمن الدَّوافع الماديَّة التي حملت بعض الشعراء على مدح الخلفاء من خلال رثاء مَنْ سَبَقَهُمْ، ما جاء في رثاء عويف القوافي للخليفة سليمان بن عبد الملك، إذ ضمَّنها مدحه لخليفته عمر بن عبد العزيز، مستثيراً في نفس الخليفة الجديد روح العطاء والرزق للمسلمين، وهو دافعٌ لم يقتصر على شخص الشاعر خاصَّة؛ بقدر ما كان جماعياً يشمل المسلمين كافَّة، فيقول[3]:

قَـدِ ابْـتَـلَـى اللهُ بِـخَـيْـرِ خَـلْـقَـهُ
أَلْقَى إِلَـى خَيْرِ قُـرَيْـشٍ وَسْـقَـهُ(4)
يَـا عُـمَـرَ الـخَـيْـرِ المُلَقَّى وَفْـقَـهُ
سُمِّيْتَ بِـالـفَـارُوْقِ فَـافْـرُقْ فَـرْقَـهُ
وَارْزُقْ عِـيَـالَ المُسْلِمِيْنَ رِزْقَـهُ
وَاقْـصُـدْ إِلَـى الـجُـوْدِ وَلا تَـوَقَّـهُ
بَـحْـرُكَ عَـذْبُ المَاءِ مَا أَعَـقَّـهُ (5)

---

(1) المصدر نفسه: 2/ 154، وقد أطلق البعض عليه تسمية «الافتنان» وهو أن يتفنن الشاعر، فيأتي بفنين متضادَّين من فنون الشعر العربي، ينظر خزانة الأدب للحموي: 1/ 138، وأورده بعضهم تحت بابٍ أسماه «ما قيل في شواذ التهاني، وهي الجمع بين التهنئة والتعزية» ينظر نهاية الأرب للنويري: 5/ 136 – 140 .

(2) العمدة: 2/ 155 .

(3) شعراء أمويون: 3/ 149 – 150 .

(4) أي قلده أمره، والوسق: الحمل، ينظر اللسان مادة (وَسَقَ): 10/ 379 .

(5) ماءٌ عقٌّ، وعقاق، إذا اشتدَّت مرارته، ينظر تاج العروس: 7/ 17 .

رَبُّـك فَالمَحْـرُوْمُ مَـنْ لَـمْ يُسْـقه

ومثله ما جاء في رثاء عبيد الله بن قيس الرقيات، لطلحة الطلحات، إذ يمدح أولاده مِنْ بَعْدِهْ، ويؤكد أنَّهُم سيكونون خير عونٍ له، بعد أن تخلَّى عنه الأخِلَّاءُ، وقلَّ الكرماء، فيقول[1]:

لَـمْ أَجِــدْ بَـعْـدَكَ الأَخِـــلَّاءَ إِلا ... كَـثَـمَـادٍ مَـنْـزُوْحَـةٍ وَقِـــلاتِ[2]

غَـيْـرَ أَنِّــي رَجَــوْتُ أولادك البِيْـ ... ـضَ لِكَيْ يَخْلُفُوْكَ بَعْدَ المَمَاتِ

فَـوَجَـدْنَـا الَّــذِي رَجَـوْنَـا وَكَـانُـوا ... خَلَفَيِّينَ طَيِّبِي الـحُـجُـزَاتِ[3]

لا يَـمُـنُّـوْنَ أَنْ يَـكُـوْنَ لَـهُـمْ فَضْـ ... ـلٌ، وَيَـبْـنُـوْنَ صَـالِـحَ الـمَـأْثُـرَاتِ

وَلَقَدْ تُنْبِتُ الأَرُوْمَــةُ فِيْ المَجْـ ... ـدِ وَتَنْمِي العُـرُوْقُ بِالثَّابِتَاتِ[4]

وقد حاول الشعراء إبراز الجوانب الدينية في ممدوحيهم من الحكَّام، وذلك للصلة الوثيقة بين الحاكم والدِّيْنْ، ولأنَّ الحاكم كان يمثِّل السلطة الدينية والدنيوية في آنٍ واحد، فتباروا في إبراز تلك الصفات الرفيعة في الممدوحين، ولعلَّهم كانوا يقصدون رسم الأُنموذج الإسلامي الذي يجب أن يتحلَّى به الحاكم المسلم. جاء ذلك في رثاء الضحاك بن قيس للخليفة معاوية بن أبي سفيان، ومدحه لابنه يزيد، إذْ يقول[5]:

مَضَى ابْنُ أَبِـيْ سُفْيَانَ فَـرْداً لِشَأْنِهِ ... وَخُلِّفْتَ فَانْظُرْ هَذَا وَكَيْفَ تَصْنَعُ

أَقِيْمَنَا عَلَى المِنْهَاجِ فَارْكَبْ مَحَجَّةً ... سَدَاداً فَأَنْتَ المُرْتَجَى، كَيْفَ تفـزَعُ

---

(1) ديوانه: 22 .

(2) الثَّمَادْ: واحِدُها ثَمَدٌ، وهو الماءُ القليل. ويُقال: ماءٌ مثمود: إذا أُلحَّ عليه حتى ينفد، ينظر اللسان، مادة (ثَمَدَ):3/ 105 .

(3) كَانُوا خَلَفِيِّيْنِ: نَسَبهم إلى خلف بن أسعد بن عامر أبو طلحة، وطيبي الحُجُزات، أي أَعِفَّاءُ، كريمي المُنْتَمَى، ينظر اللسان، مادة (حَجَزَ): 5/ 331 .

(4) الأرومة: الأصل، والجمع أروم، ينظر اللسان، مادة (أَرَمَ): 12/ 14، وتنمي: ترتفع .

(5) الفتوح لابن أعثم: 2/ 71 .

وجاء الدَّافع السياسي في مدح الشعراء، ليمثِّل أكثر تلك الدَّوافع انتشاراً، إِذْ أرادوا من خلاله تأكيد حق هذا الخليفة أو القائد وأهليته في الحكم، من خلال مدحه بالسجايا الكريمة والصفات الحميدة، فضلاً عن أنَّه السور الذي يحمي ثغور الأُمَّة، والمدافع عن شرفها وكرامتها، والأمان لكلِّ خائف. جاء ذلك في رثاء حُمَيْد بن ثور، للخليفة عبد الملك بن مروان، ومدح ابنه الوليد بن عبد الملك، إذْ يقول[1]:

نَضَعُ الزِّيَارَةَ حَيْثُ لا يُزْرِيْ بِنَا ... شَرَفُ المُلُوْكِ وَلا يَخِيْبُ الزُّوَّرُ
يابْنَ الخَلِيْفَةِ ثُمَّ أَنْتَ خَلِيْفَةٌ ... وَخَلِيْفَةٌ مَا أَنْتَ إِذْ تَتَخَيَّرُ
بَحْرَانِ تَنْتَسِبُ البُحُوْرُ إِلَيْهِمَا ... لا بَحْرَ بَعْدَهُمَا يُهَارُ وَيُغْمَرُ[2]
أَنْتُمْ أَسَدَّةُ كُلِّ ثَغْرٍ خَائِفٍ ... وَخَلائِفُ الله الَّتِي نَتَخَيَّرُ

لقد كانت مدائحهم أقرب إلى الشعر السياسي منها إلى المدح التقليدي، الذي كان شائعاً في عصر ما قبل الإسلام، فمديح يحيى بن أَبي حفصة للوليد ابن عبد الملك، لمَّا بويع بالخلافة – فهنَّأَه وعزَّاه بموت أبيه – جاء ليؤكِّد مكانته السياسية، فهو المؤهَّل الوحيد بعدَ أبيه، بدلالة سكون المنبر الذي كان والده يعتليه، ورضاه به، في حين لو حاول أحَدٌ غيره اعتلاءه لأنكره وطرحه عنه، فقال[3]:

بَكَتِ المَنابِرُ يَوْمَ مَاتَ وَإِنَّمَا ... بَكَتِ المَنَابِرُ فَقْدَ فَارِسهُنَّهْ
لَمَّا عَلاهُنَّ الوَلِيْدُ خَلِيْفَةً ... قُلْنَ ابْنَهُ وَنَظِيْرَهُ فَسَكَنَّهْ
لَوْ غَيْرَهُ قَرَعَ المَنَابِرَ بَعْدَهُ ... لَنكِرْنَهُ فَطَرَحْنَهُ عَنْهُنَّهْ

ومما جاء في مدح القادة، قول الشاعر كعب بن معدان الأشقري[4]، في

(1) منتهى الطلب من أشعار العرب: 7/ 393، وقد أخلَّ بها ديوانه المنشور .
(2) الانهيار: وهو كل ما سقط من أعلى جرفٍ أو شفير ركية في أسفلها، ينظر اللسان، مادة (هَوَرَ): 5/ 267، وتاج العروس: 3/ 623 .
(3) تاريخ دمشق: 65/ 63 .
(4) كعب بن معدان الأشقري، فارس، شجاع، خطيب، كان معدوداً في جلَّة أصحاب =

معرض رثائه بشر بن مروان، إذ يفخر الشاعر بقومه وأنَّ فيهم مَنْ يَسُد غيبته، ويقوم مكانه، ذلكم هو المهلب بن أبي صفرة، شيخ الحروب، وابنها المُجَرَّب، فيقول مادحاً المهلَّبْ[1]:

فَلَئِن كَانَتِ المَنُوْنُ أَتَتْهُ ... إِنَّ فِيْنَا لَمنع هَذَا الحَرِيْمِ
بَابُ الحُرُوْبِ وَابْنَهَا وَأَخِيْهَا ... حَلَّ فِيْ مَنْصِبٍ وَاسْمِ كَرِيْمِ
يَمَنِيٌّ غَنَاهُ فِيْ سَالِفِ الأَزْدِ ... عِظَامُ النُّهَى وَأَهْلُ الحُلُوْمِ
ذَاكَ ذَاكَ المُهَلَّبُ بْنُ أَبِيْ صُفْرَةُ ... فِي الحَرْبِ كَالهِزَبْرِ الشَّتِيْمِ[2]

يلاحظ مما سبق، وجود تداخل بين غرضي الفخر، والمدح، وهذا شيءٌ طبيعي، لأنَّ نقطة الالتقاء بينهما تكمن في تشابه هذه الأغراض، وتداخل بعضها مع بعضها الآخر، والتقائها جميعاً عند هدفٍ واحد، هو التغنِّي بالفضائل الكريمة والمثل العليا.

وخلاصة القول: إنَّ المديح والرثاء يرتبطان بسمات مشتركة، شكلت المعايير والقيم الاجتماعية القاسم المشترك بينهما، مع اختلاف الدوافع والحالة النفسية لكلٍّ منهما، كما تعددت الدوافع التي حملت الشعراء على المديح، فمنها المادي، والسياسي، والديني، وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى رسم الأُنموذج الذي يجب أن يتحلَّى به الحاكم .

= المهلَّب بن أبي صفرة، وقد سأله الحجاج: أشاعرٌ أنت أم خطيب، فقال: كلاهما، (ت 80هـ). ينظر الأعلام للزركلي: 6/ 86 .

(1) الفتوح لابن أعثم: 2/ 443 .

(2) الشتيم: وهو الأسد العابس، ينظر تاج العروس: 8/ 355 .

المبحث الرابع
الحكمـــة

ارتَبَطَتِ الحِكْمَة بِالرثَاءِ ارتِبَاطاً قَويّاً، وَلا غَرَابَةَ فِي ذَلك! فَكِلاهُمَا يُشَكِّلُ المَوْتُ دَافِعَهُ الأَسَاس، وَهُوَ الذِي حَمَل الشعَرَاء عَلى التَّفْكير وَالتَأمُّل فِي مَصِيْر الإِنْسَان، وَمَا يَؤول إليه بَعْدَ المَمَات، فـ «لَيْسَ غَرِيباً أَنْ يَرْتَبِطَ الرِّثَاءُ بِالحِكْمَة، فَالرِّثَاء يَدْعُو إِلَى التَّفْكِير فِي الحَيَاة وَالمَوْت وَالزَّمان وَتذكُّر المَاضِيْن الذَّاهِبِيْن»[1].

وعندَمَا تَرِد الحِكْمَةُ في الشعر بعامَّة، فَإِنَّها لا تَأتي كَغَرَضٍ مُسْتَقِلٍ مِنْ أَغْرَاضِ الشِّعْرِ، وَإِنَّمَا تَأتِي مُتَدَاخِلةً مَعَ أَغْرَاضٍ شِعريَّةٍ أُخْرَى ... مِنْهَا الرِّثاءْ، وَذَلِكَ لِمُنَاسَبَتِه تِلْكَ المَعَاني الَّتِي تَتَطَلَّبُ التَّفْكير فِي حَقِيْقَة الحَيَاةِ والمَوْت، وَمَصير الإِنْسَان، وَالعظَةَ المُسْتفادةِ مِنْ تَقلُّب الأَحْوال وَصُروف الدَّهر، واستعراضُ طَريق الحَياة وَنِهَايته، وَكُلُّها مَعَانٍ تُلائِمُ غَرَضَ الرِّثاءْ.

ولا يخفى الأثر الإيجابي الذي تتركه الحكمة على شعر الرثاء، فهي تخفف من أثر الحزن على أهل الفقيد، وتساعد على تجاوز محنتهم. إذْ إِنَّها «تُلوِّنُ عاطفة الشعراء من حيث حِدَّتها ودرجتها، فتمنحها هُدوءاً يكبح عُنفها»[2]. ويحدد ابن دريد ماهيَّةَ هذه الحكمة وطبيعتها فيقول: «كُلُّ كلمةٍ وَعَظَتْكَ أو زجرتْكَ أو دعتك إلى مكرمةٍ أو نهتك عن قبيح فهي حِكْمَة ٌ وَحِكَمْ، وهو تأويل قول الرسول ﷺ: إنَّ مِنَ الشِّعْرِ لحكمةً وإنَّ من البيان لسحرا»[3].

---

(1) عشر قمم في الأدب العربي: **305** .

(2) رثاء الأبناء في الشعر العربي: **127** .

(3) ينظر الحديث الشريف في سنن ابن ماجة: **2/ 1235**، ومجمع الزوائد للهيثمي: **8/ 123**، =

لقدْ أكثرَ الشعراءُ منْ ذكر الحكمةِ والحديثِ عنْ مُشْكلة الحياةِ والموتِ فِي رثائهم للخلفاء والقادة، وتنوعت تبعاً لذلك طرقهم في التعبير عنها، وتعدَّدت منابع حكمتهم، إِذْ يُمْكِنُ حَصْرُهَا فِي اتِّجَاهَيْن اثنَيْن:

الاتجاه الأوَّل: وَهُوَ مُسْتَمَدٌّ مِنَ الدِّيْنِ الإِسْلاَمِي، وَمِنَ المَعَاني التِي قَدَّمَهَا سَابِقُوْهُمْ مِنَ الشُّعَرَاء، إِذْ عَبَّروا فيها عَن استِسْلاَمِهم للقَضَاءِ وَالقَدَر، وَعَنْ حَتْمِية المَوْت، وَضَعْفُ البَشَرِ أَمَامَهُ وَقِلَّةُ حِيْلَتِهِمْ. وقلَّما نجد شاعراً لا يؤكد أن الموت هو مصير كل إنسان، وهذا ما تجلَّى في رثاء جرير للمرار بن عبد الرحمن، إذ يقول[1]:

لا تَبْعُدَنْ وَكُلُّ حَيٍّ هَالِكٌ ... وَلِكُلِّ مَصْرَعِ هَالِكٍ مِقْدَارُ

ومثله ما جاء فِي رِثَاء مُحَارب بنْ دثار للخَليفة عُمَر بن عَبْد العَزِيْز، إذْ يؤكد حقيقة واقعة، وحكمة بالغة، ألا وهي غلبة القدر، على تدبير البشر، فإذا ما حان أجل الإنسان، فلا يستطيع أحدٌ ردَّه، فقال[2]:

لَو كُنْتُ أَمْلِكُ - والأَقْدَارُ غَالِبَةٌ - ... تَأْتِـيْ رَوَاحاً وَتِبْيَاناً وَتَبْتَكِرُ
رَدَدتُ عَنْ عُمرَ الخَيْرَاتِ مَصْرَعَهُ ... بِدَيْرِ سَمْعَانَ لَكِنْ يَغْلِبُ القَدَرُ

والاتجاه الآخر، استمدَّ فيه الشعراء حكمتهم من واقع مرثييهم وحياتهم، وذلك حين راحوا يتأملون فيما كان عليه أولئك الناس من قوةٍ وبأس ومجد، وما كان لهم من صيتٍ ذائع، وجاهٍ وسلطان ونفوذ ورأي، وأموال وكنوز وأرضٍ ممتدَّة، فوجدوا أنَّ ذلك كله لم يعصمهم من الموت، ولم يحمهم منه حين ينزل بساحتهم، ولهذا عدُّوا موتهم أكبر عظة، ودليلاً على فناء البشر. فقد تساءل محمد بن خالد بن الوليد في رثائه للخليفة عمر بن عبد العزيز، عن الملوك وما كانوا ينعمون به من عيشٍ رَغيد. هل أغنى عنهم ذلك من شيء؟ فيقول[3]:

= وجمهرة اللغة: **2/ 186**.

(1) ديوانه: **215** .

(2) شعر الدعوة: **210**، وأنساب الأشراف: **8/ 199**، برواية أخرى .

(3) معجم الشعراء للمرزباني: **345**.

أَيْـنَ المُلُوكُ وَعَيْشَهُمْ فيما مضى ... وَزَمَانُهُمْ فِيْـهِ وَمَـا قَـدْ جَمَعُـوا
ذَهَبُوْا وَنَحْنُ عَلى طَرِيقَةِ مَنْ مَضَى ... مِنْهُمْ فَمَفْجُوْعٌ بِـهِ وَمُفَجَّـعُ
عَثَرَ الـزَّمَـانُ بِنَا فَأَوْهَـى عَظْمَنَا ... إِنَّ الزَّمَـانَ بِمَا كَرِهْنَـا مُوْلَـعُ

ومثله ما قاله الأحوص الأنصاري، في رثاء الخليفة معاوية بن أبي سفيان، إذ يتساءل أيضاً، أين معاوية؟ أما كان لمنصبه دورٌ في دفع الموت عنه، أليست تلك عبرةٌ لمن يعتبر، فيقول[1]:

أَيْـنَ ابْـنُ هِـنْـدٍ، وَهْـوَ فِيْهِ عِبْـرَةٌ ... أَفَمَـا اقْتَدَيْتَ بِمَـْن لَـهُ مَعْقُولُ

وجاء الاعتماد على الشعر الحكمي، للتخفيف من ألم المُصاب. وهو ما عزّى به أحد الأعراب من بني كلاب، الخليفة عمر بن عبد العزيز في ولده. فقد ذكَّرَهُ بحكمةٍ جليلة، وهي أن الإنسان لا يولد على هذه الأرض، إلَّا ليموت في نهاية المطاف، ولا سبيل في هذه الحياة إلى الخلود أبداً؛ فأين آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذرِّيته منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا؟ أليسوا على حوضِ المنيّة يوماً واردون، ومن كأسه شاربون. فيقول[2]:

تَـعَـزَّ أمـيـر المؤمنيـــنَ فإنَّــهُ ... لِمَا قَدْ تَرى يُغَذَّى الصَّغِيرُ وَيُولَدُ
هَــلْ ابْنَـكَ إلَّا مِـنْ سُـلالةِ آدَمٍ ... لِكُلٍّ على حَـوضِ المنيَّةِ مَـوردُ

ويغلب على بعض القصائد مسحةٌ حكمية خالصة، إذ نجد كل بيتٍ فيها؛ بل كلَّ شطر منها، ما يؤكد حقائق ومسلمات من شأنها التخفيف من هول المصاب، كما جاء في رثاء الأحوص الأنصاري للخليفة معاوية بن أبي سفيان، إذ يُؤكِّد فيها، أَنْ لا سبيل إلى الخلود في هذه الدُّنيا، ولا نفع للإنسان في آخرته غير عمله الصالح، وأنَّ الموت لا ينفك عن ملاحقة الإنسان وطلبه، فلا بُدّ من يوم لكل مُعَمِّرْ، ومن يتفكّر في حقيقة الحياة يَجِدْ أنّ الناس عبارةٌ عن مجموعات، تمضي الواحدةُ تلوَ

---

(1) ديوانه: 219 .

(2) حلية الأولياء: 5/ 395 .

الأُخرى. وهو لا ينسى أن يحذّر مَنْ يأمن الزمان ويَركَنُ إليه، إذ يَصِفُهُ بالجهالة، فيقول[1]:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ المُوَكَّلُ بِالصِّبَا ... وَصِبَا الكَبِيْرِ إِذَا صَبَا تَضْلِيْلُ
قَدِّم لِنَفْسِك قَبْلَ يَومِكَ صَالِحاً ... وَاعْمَل فَلَيْسَ إِلَى الخُلُوْدِ سَبِيلُ
إِنَّ الحِمَامَ لَطَالِبٌ لَكَ لاحِقٌ ... وَالمَوْتُ رَبْعُ إِقَامَةٍ مَحْلُوْلُ
لا بُدَّ مِنْ يَوْمٍ لِكُلِّ مُعَمَّرٍ ... فِيْهِ لِعِدَّةِ عُمْرِهِ تَكْمِيْلُ
وَالنَّاسُ إِرْسَالٌ إِلَى أَمَدٍ لَهُمْ ... يَمْضِي لَهُمْ جِيْلٌ وَيَخْلُفُ جِيْلُ
لإِنْ امْرءاً أَمِنَ الزَّمَانَ - وَقَدْ أَرَى ... غَيْرَ الزَّمَانِ وَرَيْبَهُ - لَجَهُوْلُ

والحكمة حين تأتي في قصيدة الرثاء، فإنها تأتي على سبيل العظة، وبيان أن الراثي يؤمن إيماناً شديداً بحتمية الموت، ولذلك يتساءل محمد بن خالد بن الوليد في رثائه للخليفة عمر بن عبد العزيز، قائلاً: هل يطمع أحدٌ في الخلود إلى يوم القيامة، أم يظن أحد أن للموت عنه دافع، ولكن هيهات ... فما لنفسٍ عن وقتها متأخَّر، فيقول[2]:

هَلْ فِي الخُلُودِ إِلى القِيَامَةِ مَطْمَعُ ... أَمْ لِلْمَنُونِ عَن ابْنِ آدَمَ مَدْفَعَ
هَيْهَاتَ مَا لِلنَّفْسِ مِنْ مُتَأخرٍ ... عَنْ وَقْتِهَا لَوْ أَنَّ عِلْماً يَنْفَعُ

وقد لجأ بعض الشعراء إلى ختام قصائدهم بالحكمة، بحيث تستوعب مضمون القصيدة كلها، وتمثل خلاصة تجربتهم، وهو ما أكده أبو هلال العسكري بقوله: يجب أن يكون آخر بيتٍ في القصيدة أجود بيتٍ فيها، واستشهد على ذلك ببيتٍ حكمي مدللاً على الختام الجيد[3]. وهذا ما جاء في رثاء أبي عبد الأعلى للخليفة هشام بن عبد الملك، فبعد أن استعرض أُبَّهة المُلْك، والمواكب والأبواب والحُجّاب وصاحب الحرس، وقد هجره أحبابه وأسلموه فرداً لبيتٍ لا يحرسه فيهِ

(1) ديوانه: 219 .

(2) معجم الشعراء للمرزباني:345.

(3) ينظر الصناعتين: 443، ومنهاج البلغاء: 306 .

أحدْ. جاءت الحكمة لكي تؤكد أن كل ما مضى لا ينفع صاحبه إلَّا إذ اقترن بالعمل الصالح الذي يُكسب صاحِبه السعادة الأبدية. فقال[1]:

وَمَـا سَـــالِمٌ عَمَّا قَلِيْلٍ بِسَالِـمِ وَإِنْ كَثُرتْ أَحْرَاسُــهُ وَمَوَاكِبُهْ
وَإِنْ كَـانَ ذَا بَـابٍ شَدِيْدٍ وَحَاجِبٍ فَعَمَّا قَلِيْلٍ يَهْجـرُ البَابَ حَاجِبُـهْ
وَيُصْبِحُ بَعْدَ الحَجْبِ لِلنَّاسِ مُفْرداً رَهِينَةَ بَيْتٍ لَـمْ يُسْـتَرْ جَوانِبُــه
فَنَفْسُكَ فَاكْسِبْهَا السَّعَادَةَ جَاهِـداً فَكُلُّ امْـرِئٍ رَهْـنٌ بِمَا هُـوَ كَاسِبُه

نخلص مما تقدَّم، إلى أنَّ معاني الحكمة تناسب الرثاء، ولذلك أكثر الشعراء من التمثُّل بها، وخاصةً في مجال العزاء، لأنَّها تُعين على تجاوز محنة الموت، بما تبثُّه من معانٍ وأفكار تُذكِّر الإنسان بالمصير الذي سيؤول إليه. وقد تنوعت طرق الشعراء في التعبير عن هذه المعاني، فمنهم من استمد أفكاره من تعاليم الدين الجديد، الذي أكَّد حتمية الموت وأن لكل حيٍّ أجل محدود، ومنهم من استمدَّها من واقع المرثي، وما كان عليه من جاه وسلطان، لم يحل كل ذلك بينه وبين الموت، ولهذا كان وجودها في قصائد الرثاء على سبيل العظة والتذكر.

(1) تاريخ دمشق: **20**/ **80** – **81**.

المبحث الخامس
الشَّكــوى

وهي من الفنون الشعرية الوجدانيَّة، التي تصاحب الشعراء في انفعالاتهم العميقة، وعواطفهم الشديدة. فالشَّاعر في شكواه، من أصدق النَّاس تعبيراً عن الحقيقة النفسيَّة، لأنه يعبر عن حالات وجدانية ومعاناة حقيقية، وعواطف وهَّاجة، كما أنه في خضم انفعاله يصوِّر مشاعره وعواطفه الإنسانية الحزينة، بطريقة آنية بعيدة عن التصنُّع والافتعال، ولذلك قلَّما تجيء الشكوى متكلِّفة فاترة[1].

وفضلاً عن أنَّ الشكوى تعبر عن عواطف حزينة، ومعاناة حقيقية تنبع من داخل قائلها، فإنها وكما قيل قديماً: «الشكوى تخفف الألم وتُزيل الهم»[2]. ومن هذا المنطلق، فقد تعدَّدت المعاني التي تدور الشكوى حولها، إذ جاءت في رثاء الخلفاء والقادة على أنواعٍ متعدِّدة، فمنها ما كان من الأرق والهموم التي تصاحب فقد المرثي، ومنها الشكوى من الدهر والأيام، ومنها ما كان من الغربة التي تعد من الألوان الجديدة التي رافقت شعر الفتوحات، نتيجة لابتعاد المجاهدين عن أوطانهم وأهلهم .

أمَّا شكواهم من الحال التي لحقتهم جرَّاء فقدان المرثي، ما جاء في رثاء ثابت قطنة ليزيد بن المهلب، إذ يصوِّروا أرقهُ وهمومه اللذين ألمَّا به بعد موت يزيد، حتى كأنَّ ليله ولشدَّة طوله، لا يرجى له نهاية، فيقول[3]:

---

(1) ينظر الشكوى في شعر القرن الرابع الهجري: 5 .

(2) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: 2/ 438 .

(3) شعره: 57.

أَبـى طُـوْلُ هَـذَا الليلِ أَنْ يَتَصَرَّمَا وَهَـاجَ لَـكَ الهَمُّ الـفُـؤَادَ المُتَيَّمَا
أَرِقْـتُ وَلَـمْ تَـأْرَقْ مَعِي أُمُّ خَالِدٍ وَقَـدْ أَرِقَـتْ عَيْنَايَ حَـوْلاً مُحَرَّمَا
عَلَـى هَالِكٍ هَـدَّ العَشِيْرَةَ فَقْدُهُ دَعَتْـهُ المَنَايَـا فَاسْتَجَابَ وَسَـلَّمَا

وقد يتوجَّه الشاعر في شكواه إلى غيره، علَّ ذلك أنْ يخفف عنه بعض آلامهِ وأحزانهِ. إذ توجَّه ثابت قطنة إلى هند، أخت يزيد بن المهلَّب، يبُثُّها شكواه، وأنَّ ليله قد طال عليه، حتَّى بَاتَ قصيره ليلاً طويلا، فقال[1]:

أَلا يَـا هِـنْـدُ طَـالَ عَـلَـيَّ لَيْلِي وَعَـادَ قَـصِـيْـرُهُ لَـيْـلاً تَـمَـامَـا
كَـأَنِّـي حِـيْـنَ حَـلَّـقْـتُ الـثُّـرَيَّـا سُقِيْتُ لُـعَـابَ أُسْـوْدٍ أَوْ سمَامَا
أَمُـــرُّ عَلَـى مُـرِّ العَيْشِ يَوْمـاً مِـنَ الأيـَّـامِ شَـيَّبَنِي غُلامَـا[2]

وقد بلغت مجافاة الشعراء للدَّهر، وشكواهم منه حدَّاً بعيداً، إذْ راحوا يُلصقون به كل ما يحل بهم من مصائب ومحن، من ذلك ما جاء في رثاء عبد الله بن عمر بن عبد العزيز لأخيه عاصم، إذْ يشكو من الزَّمان، وما رماه به من مصائب، كان أحدها موت عاصم، فقال[3]:

رَمَى غَرَضِي رَيْبَ الزَّمَانِ فَلَمْ يَدَعْ غَدَاةَ رَمَى لِلقَوْسِ فِي الكَفِّ مَنْزَعَا
رَمَى غَرَضِي الأَقْصَى فَأَقْصَدَ عَاصِماً أَخاً كَانَ لِيْ حِـرْزاً وَمَأْوَىً وَمَفْزَعَا

ومثله ما جاء في رثاء الفرزدق لوكيع بن أبي سود الغدَّاني، إذْ يُنحي بِاللائمة على الدَّهْر، ويشكو من سهامه التي لا تخطئ هَدَفها، فيقول[4]:

---

(1) المصدر نفسه:60، وينظر في المعنى نفسه، حماسة الظرفاء: 1/ 93، في رثاء صفية بنت عبد الملك، لأبيها.

(2) أَمَرَّ عَلَيْهِ عَيْشَه: صَيَّرَهُ مُرّاً .

(3) تاريخ الطبري: 5/ 614.

(4) ديوانه: 2/ 84، وينظر في المعنى نفسه، والأغاني: 14/ 266 – 267، في رثاء ثابت قطنة للمفضَّل ابن المهلب، وتاريخ دمشق: 61/ 399، في رثاء عبد الملك بن مروان للخليفة معاوية بن أبي سفيان.

كَـيْـفَ بِـدَهْـرٍ لا يَــزَالُ يَـرُوْمُـنِـي بِـدَاهِـيَـةٍ فِيْهَا أَشَــدُّ مِـنَ القَتْلِ
وَكَـيْـفَ بِــرَامٍ لا تَطِيْشُ سِهَامُهُ وَلا نَحْـنُ نَرْمِيْـهِ فَنُـدْرِكَ بِالنُّبْلِ

ومن الشعراء من خرج بالشكوى إلى أُمورٍ أُخرى، هي ألصق بمبادئ الدين الحنيف والإيمان به، إذْ توجَّه الشَّاعر في شكواه من الموت إلى الله سبحانه وتعالى، بعد أن تيقن أنَّ كل ما يحدث له إنَّما هو مقدَّرٌ من الله. ولا أحدَ من البشر يستطيع فديته، فما فائدة الشكوى إلى الناس، جاء ذلك في رثاء الشمردل ابن شريك لأخيه وائل، إذْ يقول[1]:

أَقُـوْلُ وَقَـدْ رَجَمَتْ عَنْهُ فَأَسْرَعَتْ إِلَـيَّ بِـأَخْـبَـارِ اليَقِيْنِ مَحَاصِلُهْ
إِلَـى الله أَشْكُو لا إلى النَّاسِ فَقْدُهُ وَلَوْعَـةَ حُزْنٍ أَوْجَـعَ القَلْبَ دَاخِلُهْ

وقد امتدَّ تأثير الإسلام إلى شعرٍ جديد، هو شعر الفتوحات – وما أكثرها في العصر الأموي ـ وما رافقه من شكوى جديدة، هي الشكوى من الغربة والحنين إلى الأوطان، وهو ما جاء في رثاء زرارة بن حرب لابنه عبد العزيز الذي استشهد بعيداً عن وطنه وأهله، فقال[2]:

رَمَــتْـهُ الـمَـنُـوْنُ عَـلَـى غُـرْبَـةٍ بِـسَـهْـمٍ فَـأَصْـبَـحَ حَـدِّيْ عَـثُـوْرَا
نَعَـاهُ ابْـنُ حَــرْبٍ إِلَــيَّ الـغَـدَاةَ فَأَصْبَحْتُ شَيْخاً مُصَاباً ضَرِيْرَا

ومثله ما جاء في مرثية الشمردل بن شريك، لأخيه وائل، إذْ يُشِير فيها إلى استشهاده في دَار الغُربة، وعودة سيفه وَرِحْلِه، فيقول[3]:

لَعَمْرِي لَئِنْ غَالَتْ أَخِي دَارَ فُرْقَةٍ وَآبَ إِلَيْنَا سَيْفُهُ وَرَوَاحِلُـهْ

وربَّما توجَّه الشاعر بالشكوى إلى المرثي نفسه، يبثُّه أحزانه وما وجده بعد موته من ظلمٍ وحرمان، كما جاء في رثاء الفضل بن العباس للوليد بن عبد الملك،

(1) شعراء أمويون: 2/ 541.
(2) تاريخ دمشق: 18/ 448.
(3) شعراء أمويون: 2/ 540.

إذْ كان الشاعر يأتيه في حياته شاكياً كثرة العيال، فيغدق عليه الأموال، لكنّه بعد أن توفّي، جفاه سلفه[1] ولم يعطه، فقال يشكوه[2]:

يَا وَاصِلَ الرَّحِمِ الَّتِي قُطِعَتْ ... وَأَصَابَهَا الجَفَوَاتُ فِي الدَّهْرِ
إِنِّي وَجَدْتُ الخِلَّ بَعْدَكَ كَاذِبَاً ... فَبَرِئتُ مِنْ كَذِبٍ وَمِنْ غَدْرِ
مَاذَا لَقِيتُ جُزِيتَ صَالِحَةً ... مِنْ جَفْوَةِ الإِخْوَانِ لَوْ تَدْرِ

وتمنَّى الشعراء لو ينفع التشكّي من الموت ومحاولة افتدائه بالمال، لفعلوا ذلك، ولكنَّهم أدركوا أن لا فائدةَ منه، جاء ذلك في رثاء نصيب بن رباح لعبد العزيز بن مروان، فقال[3]:

وَنَزُوْرُ سَيِّدَنَا وَسَيِّدَ غَيْرِنَا ... لَيْتَ التَّشَكِّي كَانَ بِالعُوَّادِ
لَوْ كَانَ يُقْبَلُ فِدْيَةٌ لَفَدَيْتُهُ ... بِالمُصْطَفَى مِنْ طَارِفِي وَتِلادِي[4]

وعندما تلازمُ الإنسانَ الأسقامُ ويحس بدنو أجله، فإنَّه يتوجَّه بالشكوى إلى الله سبحانه، مما أصابه، علَّهُ يشفيه، بعد أن عجِزَ مداويه. جاء ذلك في رثاء بشر بن مروان لنفسه، بعد أن كتب إلى أمير المؤمنين يُعْلِمُه بحاله قائلاً: ... أمّا بعد، فإِنِّي كتبت إليك، وأَيّامي أوَّل يومٍ من أَيّام الآخرة، وآخر يومٍ من أَيّام الدُّنيا، وقال[5]:

شَكَوْتُ إِلَى اللهِ الَّذِي قَدْ أَصَابَنِي ... مِنَ الضُّرِّ لَمَّا لَمْ أَجِدْ لِي مُدَاوِيَا
فُؤَادٌ ضَعِيْفٌ مُسْتَكِيْنٌ لِمَا بِهِ ... وَعَظْمٌ بَدَا خُلْواً مِنَ اللَّحْمِ عَارِيَا
فَإِنْ مِتُّ يَا خَيْرَ البَرِيَّةِ فَالْتَمِسْ ... أَخَاً لَكَ يُغْنِي عَنْكَ مِثْلَ غِنَائِيَا

---

(1) وهو الخليفة سليمان بن عبد الملك.

(2) شعره: **50**، وينظر في المعنى نفسه، ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: **20**، في رثاء طلحة الطلحات.

(3) ديوانه: **83**، وفي زهر الآداب: **2/ 413**، قالها وعبد العزيز يحتضر.

(4) الطَّارف والتَّالد: المال الحديث والقديم.

(5) تاريخ دمشق: **10/ 264**.

يُوَاسِيْكَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ جُهْدَهُ إِذَا لَـمْ تَجِدْ عِنْـدَ البلاَءِ مُؤَاسِـيَا

وخلاصة القول: إنّ الشكوى في الرثاء، تعكس المشاعر الوجدانيَّة الصَّادقة، التي يرمي الشاعر من ورائها إلى بث أحزانه، ومحاولةٍ التخفيف منها. وجاءت على أنواعٍ متعدِّدة، فمنها الشكوى من الهموم والأرق الذي يصاحب الشَّاعر إثر فقد المرثي، والشكوى من الدّهر وصروفه، والشكوى من الغربة عن الأوطان. كما لا حظنا انتقال الشكوى عند الشاعر إلى الله سبحانه وتعالى، بعد أنْ كان يحيلها إلى الدَّهْرِ والأَيَّام.

المبحث السادس

الوصــف

يُرْجِعُ بعضُ النُّقَّاد القدامى[1]، الشِّعر في أغلَبِهِ إِلى باب الوصف، ويعود سبب اعتماد الشعراء على فنِّ الوصف في مختلف موضوعاتهم الشعريَّة ؛ لِمَا يتمتَّع به من عينٍ نافذةٍ حديدة اللحظ، دقيقة المراقبة، تنتبه لكلِّ ما يحيط بها من موضوعات. والشعر العربي ما تخلَّى عن وصف وتصوير جوانب مجتمعه منذ نشأ قبل الإسلام وحتَّى يومنا هذا[2].

وإذا كان الوصف ضرورةً لازمةً لفن التعبير الشعري بوجهٍ عام ؛ فإِنَّه في الرثاء مادَّةٌ أصليةٌ يحتاجُ إليها الشاعرُ دائماً للتعبيرِ عن أساه. ويعلل ابن رشيق انضواء معظم فنون الشعر - بما فيها الرثاء - تحت لواء الوصف؛ لأنَّ الرَّابط الذي يربط بينه وبين بقية فنون الشعر، هو اشتماله على التشبيه ومناسبته له[3].

وعلى الرغم من تصنيف بعض النقاد لهذا الفن على أنه أحد أغراض الشعر العربي المستقلَّة، كابن سلَّام مثلاً، إذ يحدد الأغراض الشعرية بالفخر والمديح والوصف والهجاء[4]. ويوافقه أبو هلال العسكري بقوله: ... وإنَّما كانت أقسام الشعر في الجاهلية خمسة: المديح والهجاء والوصف والتشبيب والمراثي[5]. ولا

---

(1) ومن هؤلاء النقاد ابن رشيق، ينظر العمدة: **2/ 294**.

(2) ينظر أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام: **41**، ورحلة الشعر: **69**.

(3) ينظر العمدة: **2/ 294**.

(4) ينظر طبقات فحول الشعراء لابن سلّام، السفر الأول: **5**.

(5) ينظر ديوان المعاني للعسكري: **1/ 31 - 91**.

يمكن عدَّه غرضاً مستقلًّا بذاته؛ لأنه ملازمٌ لطبيعة النفس البشرية؛ ولذلك نجده مندرجاً في جميع الأغراض، ففي الفخر أو الهجاء أو الرثاء، نجد استهلال الشاعر بوصف الطل، أو وصف الناقة والظعن والصحراء والليل، وما شاكل ذلك، وهو حين يصفها يُسْقط عليها ما يشعر به ويجعل منه مدخلاً للتعبير عن نفسه، كما نجد ذلك في انفعالات الشعراء، وفي وصف عواطفهم المختلفة، من حزنٍ أو فرح أو غير ذلك[1].

إنَّ أغلب شعر رثاء الخلفاء والقادة مقطوعات لا مقدِّمات لها، إلَّا أنها لا تخلو من أبياتٍ مفردة في فن الوصف، كوصف السحاب والمطر مثلاً، كما نلاحظ في مرثية عويف القوافي للخليفة سليمان بن عبد الملك، إذ يصف الشاعر فيها السُّحُب، وكيف لاحت له من بعيد، وما إن دَنَتْ حتَّى سمع لها صعقة، وما هي إلَّا لحظات حتَّى بدأ هطول المطر ليسقي قبر الخليفة، فيقول[2]:

لاحَ سَحَابٌ فَرَأَيْنَا بَرْقَهُ
ثُمَّ تَدَانَى فَسَمِعْنَا صَعْقَهُ
وَرَاحَتِ الرِّيحُ تُزْجِي بُلْقَهُ[3]
وَدُهْمَهُ ثُمَّ تُزْجِي وُرْقَهُ
ذَاكَ سَقَى قَبْراً فَرَوَّى ودِقَهُ
قَبْرَ امرئ عَظَّمَ رَبِّي حَقَّهُ

وقد يصف الشاعر نفسه وما يحيط به لحظة تلقيه خبر وفاة المرثي، ليعبر من خلاله عن هول المصيبة، وفداحة الخطب. فيزيد بن معاوية يصف الأرض وقد

(1) ينظر فن الوصف وتطوره في الشعر العربي: 7و8.

(2) شعراء أمويون: 3/ 148 – 149، وينظر في المعنى نفسه، الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام: 2/ 141، في رثاء ابن عرادة ليزيد بن معاوية.

(3) تُزجي: تسوق ، والأبلق من السحاب، ما فيه سواد وبياض. والأَوْرَق الذي بين الخضرة والسواد. والودق: المطر .

اهتزَّت أو كادت، لموت والده، والخيل المسرعة التي حملته إلى داره، مع عدم مبالاته أمات منها شيءٌ في الطريق أم لا، وما أن يصل الدار حتى يشرع في وصف حال ساكنيها، وما أصابهم جرَّاء ذلك من ألم، فيقول[1]:

فَمَادَتِ الأَرْضُ أَوْ كَادَتْ تَمِيْدُ بِنَا ... كَـأَنَّ أَغْـبَـرَ مِـنْ أَرْكَـانِـهِ انْقَلَعَا

ثُـمَّ انْبَعَثْنَا عَلَى خُـوْصٍ مُزَمَّمَةٍ ... نَرْمِي الفِجَاجَ بِهَا لا نَأْتَلِي سِرَعَا[2]

وَمَـا نُـبَـالِـي إِذَا بَـلَـغْـنَ أَرْحُـلَـنَـا ... مَا مَـاتَ مِنْهُنَّ بِالبَيْدَاءِ أَوْ ظَلَعَا

لَمَّا انْتَهَيْنَا وَبَـابُ الـدَّارِ مُنْصَفِقٌ ... لِصَوْتِ رَمْلَةَ رِيْعَ القَلْبُ فَانْصَدَعَا

ثُمَّ ارْعَـوَى القَلْبُ شَيْئاً بَعْدَ طَيْرَتِهِ ... وَالنَّفْـسُ تَعْلَمُ أَنْ قَدْ أُثْبِتَتْ جَزَعا

وفضلاً عن وجود المقطَّعات، وما أكثرها في رثاء الخلفاء والقادة؛ إلَّا أَنَّنَا لا نعدم وجود بعض القصائد الطوال، التي يبدؤُها الشاعر بمقدمة طلليةٍ أو غزلية[3]. يَنْفُذُ مِنْ خِلَالِهَا إِلَى هَدَفِهِ الأساس، ألا وهو الرثاء. ففي مرثية كثيِّر عزَّة لعبد العزيز بن مروان، والتي استغرقت عشرين بيتاً، افتتحها الشاعر بوصف الأطلال، وسؤالها عن أصحابها، فعيَّت ولم تستطع جواباً ثمَّ التزمت الصمت، لعِظَم المُصِيْبَة التي قهرت كلَّ مُحب، وعمَّت الكون، وأصمَّت الآذان، فقال[4]:

أَأَطْـــلالُ دَارٍ بِالنِّيَاعِ فَحُمَّتِ ... سَأَلْتُ فَلَمَّا اسْتَعْجَمَتْ ثُمَّ صُمَّتِ[5]

---

(1) أنساب الأشراف: 5/ 161، والبداية والنهاية: 8/ 153 – 154، وينظر في المعنى نفسه، منتهى الطلب من أشعار العرب: 7/ 387 – 392، في رثاء حُمَيْد بن ثَور الهلالي، للخليفة عبد الملك بن مروان.

(2) الخوص المزمَّمة: الإبل المخطَّمة، ينظر تاج العروس: 8/ 329 .

(3) سنتحدث عن وجود المقدمات الطللية والغزلية في قصائد رثاء الخلفاء والقادة في الدراسة الفنية.

(4) ديوانه: 71 – 72، وينظر المقدِّمة الغزلية التي استهلَّها الشاعر نفسه في وصف ديار حبيبته وحالة الحزن التي اكتنفته بعد أن امتنعت تلك الديار عن إجابته، حزناً على المرثي وهو عبد العزيز بن مروان، ينظر المصدر نفسه: 140 – 143.

(5) النِّياع موضع، وحُمَّة ، اسم قرية، ينظر معجم البلدان للحموي:5/ 265 ، و2/ 306 .

عَجِبْتُ لأنَّ النَّائِحَاتِ وَقَدْ عَلَتْ ... مُصِيْبَتُهُ قَهْراً فَعَمَّتْ وَأَصَمَّتِ[1]

نَعَيْنَ وَلَوْ أَسْمَعْنَ أَعْلامَ صِنْدِدٍ ... وَأَعْلامَ رَضْوَى مَا يَقُلْنَ ادْرَهَمَّتِ[2]

وَلِلأَرْضِ أَمَّا سَوَادُهَا فَتَجَلَّلَتْ ... بَيَاضاً وَأَمَّا بِيْضُهَا فَادْهَأَمَّتِ[3]

ثم يتابع الشاعر وصف المرثي، فيخلع عليه صفة الوقار والهيبة، وينتقل إلى وصف لباسه ومشيته، فهو يلبس بردةً عربية حمراء بلون الورد، لم يُخالطها سواد، وإذا مشى لا يكاد يلامس الأرض تيهاً وخُيلاء، وإذا طرح نعله لم تجلب ريحها الكلب، وإذا خلعها في مجلس القوم، شُمَّت رائحتها الطيبة التي لا تُنفِّر القوم، لأنَّها من الجلد المدبوغ، فيقول[4]:

كَأَنَّ ابْنَ لَيْلَى حِيْنَ يَبْدُو فَتَنْجَلِي ... سُجُوْفُ الخِبَاءِ عَنْ مَهِيْبٍ مُشَمَّتِ[5]

إِذَا مَا لَوَى صِنْعٌ بِهِ عَرَبِيَّةً ... كَلَوْنِ الدِّهَانِ وَرْدَةً لَمْ تَكَمَّتِ[6]

مُقَارِبُ خَطْوٍ لا يُغَيِّرُ نَعْلُهُ ... رَهِيْفُ الشِّرَكِ سَهْلَتُ المُتَسَمَّتِ[7]

إِذَا طُرِحَتْ لَمْ تَطِبِ الكَلْبَ رِيْحُهَا ... وَإِنْ وُضِعَتْ فِي مَجْلِسِ القَوْمِ شُمَّتِ

وجاء وصف الشاعر لأجواء المعارك والخيل والكر والفر، لينقلنا إلى أجواء المعركة، فنرى حركة الخيل، ونسمع قعقعة السيوف، كما جاء في رثاء سراقة

---

(1) قهر: أسافل الحجاز مما يلي نجد قبل الطائف، وقد تكون بمعنى القهر والإكراه، ينظر المصدر السابق:4/ 418 .

(2) صندد: جبل بتهامة، ورضوى، جبل بالحجاز، ينظر المصدر السابق: 3/ 425، و3/ 51 .

(3) إدهأمَّتْ: اسودَّتْ، ينظر اللسان، مادة (دَهَمَ): 12/ 209.

(4) ديوانه: 72 – 73، وينظر في المعنى نفسه، شعر الأخطل: 359، في رثاء الخليفة يزيد بن معاوية، وتاريخ دمشق: 20/ 81 – 82، في رثاء أبي عبد الله بن عبد الأعلى للخليفة هشام بن عبد الملك .

(5) السجوف: الستائر ، الخِبَاء: الخيمة ، مُشَمَّتِ: المُحيَّا الطيب .

(6) الصنع: الخيَّاط، وقيل الثوب والعمامة، لم تكمَّتِ: من اللون الكميت: لا أشقر ولا أسود.

(7) مقارب خطوه: خطواته قصيرة تيهاً وخُيلاء، والشراك: سير النَّعْل .

البارقي لمحمد بن مخنف، إذ يقول[1]:

لَمْ أَرَ مِثْلَ الخَيْلِ خَيْلِ ابْنِ مِخْنِفٍ غَدَاةَ انْتَدَى بِالشـَّاكِرِيِّ ابْنُ كَامِلِ[2]
أَشَدَّ وَلا أَمْضَى عَلَى الهَوْلِ مَقْدَماً وَأَقْتَلَ لِلقِـرْنِ المُشـيِّحِ المُنَازِلِ[3]
شَدَدْنَا وَشَدُّوا واضْطَرَبْنَا فَلَمْ نَخِمْ وَوَلُّـوا سِـرَاعاً كَالنَّعَامِ الجَوَافِلِ
فَما لَبِثَ المُخْتَارُ أَنْ كَـرَّ خَيْلَـهُ عَلَيْنَـا فَأَلْوَتْ بِالكِـرَامِ الأَمَاثِلِ[4]
وَصَكَّتْ عَلَيْنَا قَوْمَنَا مِنْ وَرَائِنَـا فَكَـمْ مِـنْ قَتِيـْلٍ بَيْنَنَـا وَمُقَاتِلِ[5]
فَمَا بَرِحَ القَرْمُ الرَّئِيْسُ ابْنُ مِخْنِفٍ يُقَاتِلُ حَتَّـى خَـرَّ غَيـْرَ مُوَائِـلِ[6]
وَنَجَّاهُ ضَـرْبُ الأَزْدِ تَزْجُرُ حَوْلَـهُ وَتَضْرِبُ عَنْـهُ بِالسُّيُوْفِ القَوَاصِلِ[7]

ومن وصف الفرسان المدجَّجين والمعارك والأسلحة، وصورة الخيل وهي تخوض في الدماء حتى نحورها، ما جاءَ في رثاء زياد الأعجم للمغيرة بن المهلب، إذ يقول[8]:

وَمُـدَجَّـجٍ كَـــرِهَ الكُمَـاةُ نِـزَالَهُ شَاكِي السِّلاحِ مُسَايِفٍ أَوْ رَامِـحْ
قَـدْ زَارَ كَبْشَ كَتِيْبَـةٍ بِكَتِيْبَـةٍ يَــرْدَى لِكَوْكَبِهَا بِــرَأْسٍ نَاطِحْ
سَبَقَتْ يَـدَاكَ لَـهُ بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ شَهَقَتْ لِمَنْفَذِهَا أُصُـوْلُ جَوَانِحْ

---

(1) ديوانه: **72 – 73**، وينظر في المعنى نفسه، المصدر نفسه: **43 – 44**، في رثاء عبد الرحمن بن مخنف أيضاً، وتاريخ الطبري: **5/ 285**، في رثاء عبد الرحمن بن جمانة الباهلي لقتيبة بن مسلم الباهلي.

(2) ابن كامل: هو عبد الله بن كامل الشاكري، ينظر البداية والنهاية: **8/ 316**.

(3) القرن: كفؤك في الشجاعة، والمشيح: المقدم عليك .

(4) أَلْوَتْ به الخيل: قتلته .

(5) صك: ضرب.

(6) القرم: السيد، وموائل: طالب النجاة .

(7) القواصل: القواطع .

(8) شعره: **64**، وينظر في المعنى نفسه، معجم الشعراء للمرزباني: **177**، في رثاء فُضالة بن عبد الله الغنوي لقتيبة بن مسلم الباهلي.

وَالخَيْلُ تَعْثُرُ فِي الدِّمَاءِ وَقَدْ جَرَى فَوْقَ النُّحُوْرِ دِمَاؤُهَا بِسَرَائِحْ[1]

نخلص مما تقدَّم، إلى أنَّ الوصف من الفنون التي ترتبط مع بقية الأغراض الشعرية بعلاقة متبادلة، لا غنى لأحدها عن الآخر، ولأهميته فقد عدَّه النقاد القدامى غرضاً شعريّاً مستقلاً، وإن كنَّا لا نتفق معهم في ذلك، ومن ضمن هذه الفنون التي ارتبطت مع الوصف، الرثاء. الذي حاول الشعراء من خلاله وصف أحزانهم تجاه المرثي ومحاولة تصوير الأحداث التي سبقت موته وتلك التي تلتها أيضاً، وسواء جاء الوصف في أبياتٍ قليلة ضمن مقطوعات، أو كان مقدِّمات لبعض القصائد؛ فإنَّه جاء ليصب في هذا الاتجاه نفسه.

(1) ينظر الشعر والتاريخ: 3، والإسلام والشعر، الدكتور سامي مكي العاني: **173** .

المبحث السابع
الشـعر التاريـخي

الشعر هو الكتاب الجامع لتاريخ العرب، والمسجِّل لكلِّ أحداثهم والشَّاهد العدل على كلِّ تصرُّفاتهم، ولولاه لضاع كثيرٌ من الأحداث وطُمِس العديد من مناقب الرجال ومفاخرهم، وهو الدَّليل على صدق ما يُروى من أخبار، ولذلك أكثر المؤرِّخون من الاستشهاد به والاعتماد عليه في توثيق الأخبار، وتفصيل الأجزاء. وكأنَّ الاعتماد على الشعر عند المؤرِّخين، أصبح جُزءاً من منهج كتابة التاريخ[1].

لقد استطاع الشعر أن يؤرِّخ الأحداث، ويدقق في أجزائها، ويحدد ملامح كثيرة لم يقف المؤرِّخون عندها، كان يَكتفى بالنظرة الشاملة وينطلق منها للحديث عن الموضوعات الكبيرة التي أخذت بُعدها من واقع الأحداث، أمَّا الشاعر فكانت ملاحظته وهو يعالج الحدث عن قرب، ويعيش الواقع ويُدرك الدَّوافع الحقيقية التي تقف وراءها أكثر من المؤرِّخْ ... إلى جانب البُعد الزمني الذي فصل المؤرخ الذي أرَّخَ لفترةٍ لم يُدْركها، أو كتب عن حدثٍ لم يقف عليه، وإنما اتصلت إليه أخباره وتواترت عليه رواياته فأحكم عقله فيها[2].

وشعر الرثاء أرَّخ بحق لتاريخ مجيدٍ وحافلٍ بالعطاءِ، لقادةٍ أفذاذ وأبطالٍ عِظام، فجاءت هذه الأشعار لتؤكِّد صحةً ما قيل عنهم، أو لتصحح بعض الأحداث التي رويت عنهم، «فقد جاءت النصوص الشعريَّة لتصحح كثيراً من الحوادث التاريخيَّة وتوضحها، وقد اعتمد المؤرخون في تسجيل الكثير من الحوادث التاريخية على

(1) ينظر الشعر والتاريخ: 3، والإسلام والشعر، الدكتور سامي مكي العاني: 173 .

(2) ينظر الشعر والتاريخ: 21.

الشعر»[1].

ومن تلك الحوادث التاريخية التي جاء الشعر في رثاء الخلفاء والقادة ليُصححها؛ ما جاء في رواية الأصبهاني من أنَّ يزيد بن معاوية كان بجانب والده وهو يحتضر، وأورد بيتين من الشعر قدَّم لهما بقوله: ... لمَّا احتضر معاوية، حضره يزيد بن معاوية فبكى وقال[2]:

لَوْ فَاتَ شَيءٌ يُرَى لَفَاتَ أَبُو حَيَّان لا عَاجِزٌ وَلا وَكِلُ
الحُوَّلُ القَلْبَ الأَرِيْبَ وَهَل يَدْفَعُ زَوْءَ المَنيَّةِ الحِيَلُ[3]

في حين تُجمع المصادر المختلفة على أنَّ يزيد لم يحضر وفاة والده[4]. واستدلُّوا جميعاً على ذلك، بما جاء في مرثية يزيد بن معاوية لأبيه، إذ يقول[5]:

جَاءَ البَرِيْدُ بِقِرْطَاسٍ يَخبُّ بِهِ فَأوجَسَ القَلْبُ مِنْ قِرْطَاسِهِ فَزَعَا
قُلْنَا لَكَ الوَيْلُ مَاذَا فِي صَحِيْفَتِكُمْ قَالَ الخَلِيْفَةُ أَمْسَى مُثْبَتاً وَجِعَا
فَمادَتِ الأَرْضُ أو كَادَتْ تَمِيْدُ بِنَا كَأَنَّ أَغبَرَ مِنْ أركَانِهِ انْقَلَعَا
لَمَّا انتَهَيْنَا وَبَابُ الدَّارِ مُنْصَفِقٌ لِصَوْتِ رَمْلَةَ رِيعَ القلبُ فانْصَدَعا

فجاءت هذه المرثية بدليلٍ قاطع، لا يدعُ مجالاً للشك في أنَّ يزيد لم يحضر وفاة والده معاوية، وإنَّما كان في الصَّائفة.

ومن الحوادث التاريخية الأُخرى التي جاء الشعر ليقول كلمته الفصل فيها، ما جاء في مرثية محارب بن دثار السدوسي، للخليفة عمر بن عبد العزيز، إذ حدد

---

(1) تاريخ الشعر السياسي: 4.
(2) شعره: 25، والأغاني: 17/ 212 – 213.
(3) زَوء المنية: ما تُحدِثُه المنية من الهلاك، ينظر اللسان، مادة (زَوِيَ): 14/ 364 .
(4) ينظر أنساب الأشراف: 5/ 161، وتاريخ الطبري: 4/ 242، وتاريخ دمشق: 59/ 230، والبداية والنهاية: 8/ 153، وحلية الأولياء: 9/ 154.
(5) شعره: 25.

فيها تاريخ وفاته بدقَّة، وهو ما جاءت الروايات التاريخية بأخبارٍ مختلفةٍ عنه[1]. إذ يقول[2]:

أَتَانَا مِنْ دِمَشْقَ لَهُ نَعِيٌّ فَلَمَّا أَنْ أَنَاخَ بِنَا دُعِيْنَا
وَأَسْمَعَنَا المُنَادِي مِنْ بَعِيْدِ سِرَاعاً رَاغِبِيْنَ وَرَاهِبِيْنَا
نُبَكِّي الدِّيْنَ وَالدُّنْيَا جَمِيْعاً لِخَمْسٍ كُنَّ مِنْ رَجَبٍ بَقِيْنَا

وجاءت بعض تلك المراثي، لتحدد تاريخ وفاة بعض القادة باليوم والشهر، وهو ما لا تهتم أغلب كتب التاريخ والتراجم بإيراده، إذ يكتفي هؤلاء بتحديد سنة الوفاة فقط. من ذلك ما جاء في رثاء الجعد بن قيس لزياد بن أبيه، إذْ يُحدد فيها تاريخ وفاته ويُسمِّي اليوم والشهر، فيقول[3]:

يَوْمُ الثُّلاثَاء الَّذِي كَانَ مَضَى لأَرْبَعٍ مَضَيْنَ مِنْ شَهْرِ الصَّوْمِ
يَوْمٌ قَضَى فِيْهِ المَلِيْكُ مَا قَضَى وَفَاةَ بِرٍّ جَدٍّ جَلِدِ القُوَى

ومثله ما جاء في تحديد يوم وفاة وكيع بن أبي سود الغدَّاني وابنه محمد، إذ حدده الفرزدق بليلة السبت، وبيَّن الفترة التي فصلت وفاته عن وفاة ولده، بعامين، فقال[4]:

يَا لَيْلَةَ السَّبْتِ إِنْ أَلْقَتْ كَلاكِلَهَا عَلَى تَمِيْمٍ وَعَمَّتْ بَعْدَهَا مُضَرَا
مُحَمَّدٌ وَوَكِيْعُ لَيْسَ بَيْنَهُمَا عَامَانِ يَا عَجَباً للدَّهْرِ إِذْ عَثَرَا

وفضلاً عن تحديد الشعراء ليوم الوفاة وتاريخها؛ فقد وثَّقُوا الأماكن التي دُفِنَ

---

(1) أوردت بعض المصادر رواياتٍ مختلفة في تاريخ وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز، فمنها من حددها بعشرٍ، وقيل لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومئة، ومنهم من قال: لأربع. ينظر، تاريخ الخلفاء للسيوطي: **246**، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: **1/ 246**، وسيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي: **345** .

(2) أخبار القضاة:**3/ 33** .

(3) الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام: **1/ 316** .

(4) ديوانه: **1/ 312**.

فيها هؤلاء الخلفاء والقادة، وهو ما تعُج كتب البلدان بذكره، وأخص منها معجم البلدان لياقوت الحموي[1]. إذ جاء في رثاء الأخطل للخليفة يزيد بن معاوية، ما يُشير إلى أَنَّهُ دُفِنَ بِحَوَّارين[2]، فقال[3]:

مُقِيْمٌ بِحَوَّارِيْنَ لَيْسَ يُرِيْمُهَا ... سَقَتْهُ الغَوَادِيْ مِنْ ثَوِيٍّ وَمِنْ قَبْرِ

ومثله ما جاء في رثاء كُثَيِّر عزَّة للخليفة عمر بن عبد العزيز، إذْ يشير إلى مكان دفنه بدير سمعان[4]، فيَقُوْل[5]:

أَقُوْلُ لَمَّا أَنْ أَتَانِي ثَمَّ مَهْلِكُهُ ... لا يَبْعُدَنْ قِوَامُ الأَهْلِ وَالدِّيْنِ

قَدْ غَادَرَوا فِي ضَرِيْحِ اللَّحْدِ مُنْجَدِلاً ... بِدَيْرِ سَمْعَانَ قِسْطَاسَ المَوَازِيْنِ

أَمَّا الفرزدق، فلم يكتف بذكر الإقليم الذي مات فيه عمر بن عبيد الله بن معمر، وهو الشام؛ بل حدد المدينة التي دُفن فيها، وهي ضُمِّيْر[6]، فقال[7]:

---

(1) ينظر الشعر والتاريخ: 3، والإسلام والشعر، الدكتور سامي مكي العاني: 173 .

(2) حوَّارين: وتدعى بالقريتين، وهي من تدمر على مرحلتين، وهناك مدن كثيرة بهذا الاسم، ينظر، معجم البلدان للحموي: 2/ 315.

(3) ديوانه: 358 .

(4) دير سمعان: وهو دير بنواحي دمشق، في موضع نزه وبساتين محدقة به، وعنده قصور ودور، ينظر، معجم البلدان للحموي: 2/ 517.

(5) أنساب الأشراف: 8/ 199، وقد أخلَّ بها ديوانه المطبوع.

(6) ضُمِّيْر: وهو موضعٌ قرب دمشق، قيل: هو قريةٌ وحصنٌ في آخر حدود دمشق مما يلي السماوة. ينظر معجم البلدان للحموي: 3/ 463 .

(7) ديوانه: 1/ 235، وينظر في المعنى نفسه، المصدر نفسه: 1/ 89، في رثاء سعيد بن أسلم، إذ يحدد مكان وفاته «بإصطخر»، والمصدر نفسه: 1/ 186، في رثاء عبد العزيز بن مروان، إذ يحدد مكان وفاته «بأرض النيل»، وديوان عُبيد الله بن قيس الرقيات: 20، في رثاء طلحة الطلحات، إذ يحدد مكان وفاته «بسجستان»، وتاريخ الطبري : 5/ 446، في رثاء ابن عرس العبدي لأسد بن عبد الله القَسْري، إذ يحدد مكان وفاته في «بلخ»، وتاريخ دمشق: 57/ 170– 171، في رثاء خُليد عينين للمنذر بن الجارود العبدي، إذ يحدد مكان وفاته «بقصدار».

أَمَّـا قُرَيْشٌ أَبَـا حَفْصٍ فَقَدْ رُزِئَـتْ   بِالشَّامِ إِذْ فَارَقَتْكَ البأْسَ وَالمَطَرَا
يَأَيْهَا النَّاسُ لا تَبْكُوا عَلَى أَحَـدٍ   بَعْدَ الَّـذِي بِضُمِّيْرَ وَافَـقَ القَدَرَا

ومن الأمور الأُخرى التي وثَّقها شعر الرثاء، ما جاء بشأن تحديد البلاد التي امتدَّ عليها سلطان الخليفة المرثي، من ذلك ما جاء في رثاء الأحوص الأنصاري للخليفة معاوية بن أبي سفيان، إذ يقول[1]:

مَلِكٌ تَـدِيْـنُ لَـهُ المُلُوْكُ مُـبَـارَكٌ   كَـادَتْ لِمَهْلِكِهِ الجِبَالُ تَـزُوْلُ
تُجْبَى لَـهُ بَـلَـخٌ وَدِجْـلَـةُ كُلُّهَا   وَلَـهُ الـفُـرَاتُ وَمَـا سَقَى والنِّيْلُ
وَالشَّـامُ أَجْمَـعُ دَارُهُ فَبِكُلِّـهِ   تُلْفَـى كَتَائِبُ جَمَّـةٌ وَخُيُـوْلُ

نخلص إلى أنَّ الشعرَ سجلٌّ حافلٌ لأحداث المجتمع، ووثيقةٌ صادقةٌ من وثائق تاريخ الأمَّة ورجالاتها، وتكمن أهمية هذه الأشعار وقيمتها، في أنها كانت تصدُر عن رجالٍ شاركوا في صنع تلك الأحداث بأنفسهم، وأرَّخوها بأشعارهم، لتكون أصدق الوثائق التاريخية. وهذا ما يميزها عن كتب التاريخ التي أرَّخت لفترةٍ لم يُدْرك مؤلِّفوها أحداثها، وإنَّما تواترت أخبارها عليهم .

(1) ديوانه: 219 – 220.

المبحث الثامن
موضوعات عامَّـة

احتوت قصائد الرثاء ومقطّعاته على موضوعات متعدِّدة، سبق الحديث عن أبرزها، لكنَّ تلك القصائد والمقطعات، لم تخلو من بعض الموضوعات الأُخرى التي لم يشكل وجودها ظاهرة مميزة. ومن تلك الموضوعات: الشماتة، التي أظهرها بعض الشعراء في مقتل بعض الخلفاء والقادة، وهم إنما يعبرون بذلك عن حالة الصراع التي كانت تسود بعض مراحل العصر الأموي. فهذا ثابت قطنة يستشعر أحاسيس قبيلته ويصوِّر شماتته بمقتل قتيبة بن مسلم الباهلي، الذي ولي خراسان بعد آل المهلب، إذ قال فيه بعد مقتله[1]:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الباهِلِيَّ ابْـنَ مُسْلِمٍ بِفَرْغَانَةِ القُصْوَى بِـدَارِ هَـوَانِ
تَمُـوْرُ أَسَـامِي الدِّمَـاءِ بِوَجْهِهِ وَقَـدْ كَـانَ صَعْباً دَائِـمَ الخَطَرَانِ[2]

وقد أظهر خلف بن خليفة الباهلي شماتته وتشفيه بمقتل الخليفة الوليد بن يزيد، وذلك لقتله خالد القسْري[3]، وهو إنما ينطلق في ذلك، من روحٍ قبلية عبرت عمَّا يسود المجتمع آنذاك من صراعٍ على السلطة، فقال[4]:

لَقَدْ سَكَّنَتْ كَلْبٌ وَأَسْبَاقُ مذْحِجٍ صَـدَىً كَـانَ يَزْقُو لَيْلُهُ غَيْرُ رَاقِـدِ
تَـرَكْـنَ أَمِـيْـرَ المُؤْمِنِيْنَ بِخَالِدٍ مُكِبَّاً عَلَى خَيْشُوْمِهِ غَيْرُ سَاجِدِ

---

(1) نقائض جرير والفرزدق: 363 – 364.

(2) تمور: تجري .

(3) ينظر تفاصيل هذه الحادثة في تاريخ الطبري: 5/ 560 وما بعدها.

(4) المصدر نفسه: 5/ 563.

فَـإِنْ تَقْطَعُوا مِنَّا مَـنَـاطَ قِـلادَةٍ قَطَعْنَا بِـهِ مِـنْـكُـمْ مَـنَـاطَ قَـلائِـدِ
وَإِنْ تُشْغِلُوْنَا عَـنْ نَـدَانَا فَإِنَّـنَا شَغَلْنَا الوَلِيْدَ عَـنْ غِنَاءِ الوَلائِدِ
وَإِنْ سَافَرَ القَسْريُّ سَفْرَةَ هَالِكٍ فَـإِنَّ أَبَا العَبَّاسِ لَيْـسَ بِشَـاهِدِ[1]

أَمَّا نصر بن سعيد الأنصاري، فيعلن صراحةً عن تشفيه بمقتل الوليد إذْ يقـــول[2]:

أَبْـلِـغْ يَـزِيْـدَ بَنِي كُـرزٍ مُغَلْغَلَةً أَنِّـي شُفِيْتُ بِغَيْبٍ غَيْرَ مَـوْتُـوْرِ[3]
قَطَعْتَ أَوْصَــالَ قَنُّوْرٍ عَلَـى حَنَق بِصَارِمٍ مِنْ سُيُوْفِ الهِنْدِ مَأْثُوْرِ[4]

ومما جاء في معنى الشماتة، ما قاله عبد الله بن عبد الأعلى، في رثاء أيوب ابن سليمان، الذي كان مؤدبه وحاضنه[5]. إذ يُبدي تعجُّبَهُ من شماتة الشامتين، ويخاطبهم بأَنَّهُ ليس ممن يُظْهِرِ الجَزَعَ على ما أصابه بموت أيوب، على الرغم من أن مصيبته تلك مدعاة لأن يجزع الإنسان. ويذكرهم بأنهم سيفجعون بأحبتهم يوماً من الأيَّام؛ وربما فُجِعَ غيرهم بهم، فقال[6]:

وَلَقَدْ عَجِبْتُ لِذِي الشَّماتة إِنْ أُري جَزَعِي وَمَـنْ يَـذُقِ الفَجِيْعَة يَجْزَعِ
فَاشْمَتْ فَقَدْ قَرَعَ الحَوادِثُ مَرْوَتِي وَاجْـذُلْ بِمَرْوَتِكَ التـي لـم تُفْجَعِ
إِنْ تَـبْـقَ تُفْجَعُ بِـالأَحِبَّـةِ كُلُّهُمْ أَوْ تُـرْدِكَ الأَحـداثُ إِنْ لَـمْ تُفْجَعِ
مَـنْ لا تُـخَـرِّمُـهُ المَنِيَّـةُ لا يُـرى مِنْهَا عَلَى خَـوْفٍ لَهَا وَتَـوَقُّـعِ
قَـدْ بَـانَ أَيُّـــوْبُ الَّـذي لِفِراقِـهِ سَـرَّ العَدُوَّ غَضَاضَتِـيْ وَتَخَشُّعِ

(1) ينظر تفاصيل هذه الحادثة في، تاريخ الطبري: 5/ 560 وما بعدها .
(2) تاريخ الطبري: 5/ 564.
(3) يزيد بن أسد بن كرز البجلي القسري، وهو جد القائد خالد بن عبد الله القسْري، قائد يماني قحطاني، من الشجعان وذوي الرأي، ينظر الأعلام للزركلي : 8/ 179 .
(4) القنور: وهو كل فظٍ غليظ، وقيل الشيء الخَلِقْ، وقيل العبد، ينظر اللسان، مادة (قَنَّوْر): 5/ 120، وتاج العروس: 3/ 507 .
(5) ينظر أنساب الأشراف: 8/ 100 .
(6) أنساب الأشراف: 8/ 101.

وشبيهٌ بذلك ما قاله ثابت قطنة في رثاء يزيد بن المهلب، إذ يحذر الشَّامتين بموته، قائلاً لهم: إنَّ ما وقع ليزيد سيحصل لغيره؛ بل لكل الناس، فهذا شأن الزَّمان، لا يأمنه أحد، فيقول[1]:

قُــلْ لِـمَـنْ كَــانَ شَـامِـتـاً بِـيَـزِيـدٍ مَــا جَـنَــاهُ الــزَّمَــانُ شَـيْـئـاً بِـدِيَّـا
وَكَـــذَاكَ الـزَّمَـانُ يَعْصِفُ بِالمَرْ ءِ وَإِنْ كَــانَ قَبْلَ ذَاكَ رَخِيَّا

ومن الموضوعات الأخرى، التحذير، إذ جاء في معرض رثاء ابن ميادة للخليفة الوليد بن يزيد، يحذِّر فيها قتلته، وأنهم سيواجهون المصير نفسه، بكتائب لا تميزها الصباح، فيقول[2]:

سَأَبْكِي مَا أَبْكِي جَزَعاً وَشَوْقاً حِـمَـامُ عِـنْـدَ مَـكَّـةَ مُـسْـتَـبَـاحُ
حَـــذَارِ حَـــذَارِ أَنْ أَنحي قَيْساً كَتَائِبُ لا تُمَيِّزُهَا الصَّبَـاحُ

ويكرر هذا الشاعر تحذيره، لكن هذه المرة إلى الرياح بن عثمان، الذي اتخذ حرسه وجنوده من الصغد، قائلاً له: اتخذ جندك وحرسك من قومك واترك هؤلاء العبيد الذين استظهرت بهم على أمرك، وأعطيتهم دراهمك، واحذر قريشاً. فاستخفَّ بقوله، فلمَّا قُتل رياح، قال ابن ميَّادة[3]:

أَمَـرْتُـكَ يَـا رِيَـاحُ بِـأَمْـرِ حَـزْمٍ فَقُلْتُ هَشِيمَةٌ مِنْ أَرْضِ نَجْدِ[4]
وَقُـلْـتُ لَـهُ تَـحَـفَّـظْ فِـي قُـرَيْـشٍ وَدَفِّـــعْ كُـــلَّ حَـاشِـيَـةٍ وَبُـــرْدِ
وَقُـلْـتُ لَـهُ تَـحَـرَّزْ مِـن رِجَـالٍ عَلَى مَحْبُوكَةِ الأَوْصَـال جُـرْدِ
فَـوَجْداً مَا وَجَـدْتُ عَلَى رِيَـاحٍ وَمَـا أَغْنَيْتُ شَيْئاً غَيرَ وَجْـدِي

---

(1) حماسة البحتري: **150**، وقد أخل بهما شعره المجموع.

(2) شعره: **95-96**، وتاريخ دمشق: **18/ 202**.

(3) شعره: **115 – 116**، وأنساب الأشراف: **13/ 131**، وينظر في المعنى نفسه، تاريخ دمشق: **14/ 450**، رثاء المسور الخولاني لحفص بن الوليد.

(4) الهشيمة: الشجرة اليابسة البالية، ويقال للرجل الجواد السمح، ما فلانٌ إلَّا من هشيمة كرم، أي لا يمنع شيئاً، ينظر اللسان، مادة (هَشَمَ): **12/ 612**، وتاج العروس: **9/ 105**.

وخلاصة القول: إنَّ قصيدة الرثاء لم تقتصر على الندب والتأبين والعزاء فقط؛ إنما احتوت على موضوعات شتَّى، إذ كان الرثاء بمثابة الأصل الذي تفرَّعت منه أغلب تلك الأغراض الشعرية، على أن الخيط الذي يربط بين جميع تلك الأغراض والرثاء، هو مناسبة موت المرثي .

الفصل الخامس
الدراسة الفنيَّة

- المبحث الأول، البناء الفني للقصائد والمقطعات
- المبحث الثاني، الألفاظ والتراكيب
- المبحث الثالث، الخيال والصورة الشعرية
- المبحث الرابع، الموسيقى الشعريَّة

المبحث الأول
البنـاء الفنـي للقصيـدة

قبل البدء في دراسة البناء الفني لرثاء الخلفاء والقادة، لا بُدَّ من تحديد المعيار الذي بموجبه نُطلق تسمية قصيدة أو مقطوعة على ما بين أيدينا من مادة شعرية، ليتسنَّى لنا دراسة الخصائص الفنِّية لكل منهما.

وهي مسألةٌ شغلت اللغويين القُدامى وشارك فيها بعض النقاد، إذ ذهب الأخفش إلى أنَّ القصيدة ما كانت على ثلاثة أبيات، وخالفه ابن جني قائلاً: إنَّ القصيدة ما جاوزت أبياتها الخمسة عشر، وما دون ذلك فهي قطعة[1]. وذهب الباقلاني إلى أنَّ القصيدة ما بلغت العشرين بيتاً فأكثر[2]؛ إلَّا أَنَّ ابن رشيق كان أكثر وسطيةً إذ قال: «وقيل إذا بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة ... ومن الناس من لا يعُد القصيدة إلَّا ما بلغ العشرة وجاوزها ولو ببيتٍ واحد»[3].

وفي ضوء ما تقدم من آراء، فإنني أَمِيْلُ إلى ما جاء به ابن رشيق، من أن القصيدة ما جاوزت العشرة أبيات، وأتَّخذه معياراً أسير عليه في تحديد المقطوعة من القصيدة. وعلى هذا الأساس، فقد بلغ مجموع القصائد التي ينطبق عليها هذا الرأي، سبعةً وثلاثين قصيدة. بلغ مجموع أبياتها (739) سبعمئةٍ وتسعة وثلاثين بيتاً[4]، فيما استغرقت المقطعات بقية المادة الشعرية، وكانت تتراوح في طولها بين

(1) ينظر اللسان، مادة (قَصَدَ): 3/ 355، وتاج العروس: 2/ 467.

(2) ينظر إعجاز القرآن: 257.

(3) العمدة: 1/ 189–188.

(4) ينظر: شعر يزيد بن معاوية : 25، ديوان سراقة البارقي: 80–81، ديوان عبيد الله بن قيس =

البيت الواحد وثمانية أبيات.

إنَّ السمة الغالبة على شعر رثاء الخلفاء والقادة هي شيوع المقطعات، وهي سمة رافقت شعر الرثاء بعامة، والشعر موضوع البحث خاصَّة؛ لأنَّ الشاعر في المقطوعة يُباشر موضوع الرثاء، ويُعبر عن مشاعره وأفكاره من دون مُقدمات، جاعلاً منها وحدةً موضوعية تُعبر عن أحاسيسه في لحظةٍ شعوريةٍ مُعينة، يجري فيها على سجيته من دون تدقيقٍ في معنى أو تنقيحٍ للفظ، أو التماس وزنٍ أو قافية[1]، أو أنَّ بعض تلك المراثي، كانت مرتبطةً بالحروب والثأر، الأمر الذي دفع الشاعر إلى الانشغال بهما عمَّا سواهما. وهذه سمة أغلب قصائد الحرب التي جاءت على شكل مقطَّعات[2]. فضلًا عن أنَّ «أغلب ما روي للخلفاء والأمراء والوزراء من أشعار، كان التقطيع هو الطابع العام لها»[3]. ومع ذلك فإننا لا نعدم وجود القصائد الطوال كما تقدَّم، والتي بلغت أبيات إحداها ما يُقارب الستين بيتاً، كما في رثاء زياد الأعجم للمغيرة بن المهلب، وسبعةً وأربعين بيتاً كما في رثاء الفرزدق لمحمد بن العاص، ... وغيرها .

أ- المقدِّمـــة:

مما يلاحظ على قصائد الرثاء بشكلٍ عام، خلوّها من تقليد المقدمات، ولولا وجود نماذج لا تتعدَّى أصابع اليد الواحدة؛ لقُلنا إنها تخلو تماماً من هذه المقدمات التي عدَّها النقاد جزءاً رئيساً في بناء القصيدة العربية إذ لا بُدَّ للشاعر من

= الرقيات: **17-19**، **20-22**، ديوان كثير عزة: **71-74**، **97-99**، **140-146**، **177-179**، ديوان الأحوص الأنصاري: **219**، ديوان الفرزدق: **1/ 217**، **1/ 235**، **1/ 397**، **2/ 190**، **2/ 251**، **2/ 253**، ديوان الطرماح: **248-252**، شعر زياد الأعجم: **56-58**، وشعر ابن ميادة: **33**، أنساب الأشراف: **5/ 161**، **5/ 305**، الفتوح لابن أعثم: **2/ 443**، تاريخ الطبري: **4/ 224**، **5/ 285**، **348-349**، الأغاني: **13/ 377-378**، تاريخ دمشق: **16/ 314**، **18/ 448**.

(1) ينظر العصر الإسلامي، د. شوقي ضيف: **67** .

(2) ينظر دراسات نقدية في الأدب العربي: **108 - 109** .

(3) أبحاث في الشعر العربي: **56** .

احتذائها والسير على خُطاها، وإلَّا عِيب شعره ونيل منه. يقول ابن قتيبة: «إنَّ مُقَصِّد القَصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدِمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع... ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه»[1]. ولكن هذا ينطبق على قصيدة المدح، بدليل المثال الذي قدمه ابن قتيبة لشاعرٍ مدح نصر بن سيَّار بقصيدةٍ تشبيهها مئة بيت ومديحها عشرة أبيات[2]. فضلًا عن أنَّ إحدى الباحثات أجرت عملية استقراء لدواوين مختلفة من عصورٍ مختلفة أيضاً، وتوصلت إلى نتيجةٍ مفادُها أن الشعراء لم يلتزموا بالمنهج الذي رسمه ابن قتيبة؛ إنما أخذوا به في بعض قصائدهم وانصرفوا عنه في قصائدهم الأُخرى[3]، وعلى الرغم من ذلك؛ فربما شاهد ابن قتيبة من القصائد ما لم يصلنا، فكان حكمه بناءً على ما شاهد، في حين لم نشاهد.

ولمَّا كانت أغلب مقدمات القصائد إمَّا طلليةً أو غزلية[4]؛ فقد تناول النقاد وجود المقدمة الغزلية في قصيدة الرثاء بالنقد والتحليل، فيما تجاهلوا الطللية؛ إلَّا ما كان من إشارة ابن قتيبة التي سبق ذكرها، ومن هؤلاء النقاد ابن رشيق إذ يقول: «ليس من عادة الشعراء أن يُقدِّموا قبل الرثاء نسيباً كما يصنعون ذلك في المدح والهجاء»[5]. مُعللًا ذلك بالجو النفسي للشاعر، إذ يقول: «لأنَّ الآخذ في الرثاء يجب أن يكون مشغولاً عن التشبيب بما هو فيه من الحسرة والاهتمام بالمُصيبة»[6].

وكثيراً ما أورد النقاد مرثية دريد بن الصمة في أخيه عبد الله، كشاهدٍ على ابتداء بعض الشعراء لقصائدهم الرثائية بالغزل، مُعيبين عليهم ذلك. يقول ابن

---

(1) الشعر والشعراء: 1/ 20 .

(2) المصدر نفسه: 1/ 20-21 .

(3) ينظر وحدة القصيدة في الشعر العربي حتى نهاية العصر العبَّاسي: 162-163.

(4) ينظر مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، د. حسين عطوان: 108 – 109.

(5) العمدة: 2/ 151.

(6) المصدر نفسه: 151-152.

رشيق: «قال ابن الكلبي – وكان علامةً – لا أعلم مرثيةً أولها نسيب إلَّا قصيدة دريد بن الصُمَّة[1]:

أَرَثَّ جَدِيْدُ الحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ بِعَاقِبَةٍ وَأَخْلَفَتِ كُلَّ مَوْعِدِ

ويضيف ابن رشيق: إنَّه الواجب في الجاهلية والإسلام إلى وقتنا هذا وبعده[2]. وأكثروا من تكلُّف الأعذار لذلك، فقال ابن رشيق: «إنما تغزَّل دريد بعد قتل أخيه بسنة، وحين أخذ ثأره وأدرك طِلبَتَهُ»[3]. وأغفلوا بذلك الجو العام الذي يسيطر على الشاعر، وهو جو الحزن، ثُمَّ إذا كان ذكر الغزل في مقدمة القصيدة مدعاة لاستمالة القلوب واستدعاء الإصغاء كما يقول ابن رشيق نفسه: «وللشعراء مذاهب في افتتاح القصائد بالنسيب لِما فيه من عطف القلوب واستدعاء القبول»[4]. فلماذا لا يكون داعياً لإثارة الحزن الذي يولِّده فراق الحبيبة؟ يقول الدكتور يحيى الجبوري مُعلِّقاً على هذا النوع من قصائد الرثاء التي تبدأ بالغزل: «ونُلاحظ أنَّ هذه القصائد جميعاً تبدأ بالغزل وفيها ألمٌ وشكوى وعتاب وروح حزين. كل ذلك يُمهد للانتقال إلى الرثاء، أي أنَّ الجو السائد هو جوٌّ حزين فيه ألمٌ وشجا»[5].

ومن هذه القصائد، مرثية كثيِّر عزَّة في عبد العزيز بن مروان، التي جاءت مقدمتها الغزلية منسجمةً مع حالة الحزن التي يعيش فيها الشاعر، ورؤيته الحبيبة وقد أَزِفَ وقت رحيلها، وقد حفلت خُدورها بالبرود الإنطاكية الموشاة بالخز، وإسهابه في وصف النوق القوية التي حملتها، وقد جفَّت ضروعها وقلَّ تحريكُها لأذنابها، وأسلمها انقطاع لبنها لتحمل السفر الطويل، فيقول[6]:

---

(1) الأمالي لليزيدي: 34.
(2) العمدة: 2/ 152.
(3) المصدر نفسه: 2/ 152.
(4) المصدر نفسه: 1/ 225 .
(5) الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه: 216 – 217، وينظر مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي: 232–235، والمرثاة الغزلية في الشعر العربي: 7 .
(6) ديوانه: 140 .

أَهَاجَتْكَ سَلْمَى أَمْ أَجَـدَّ بُكُوْرُهَا وَحُفَّتْ بِأَنْطَاكِيٍّ رَقْمٍ خُدورُهَا[1]
عَلَى هَاجِرَاتِ الشَّوْلِ قَدْ خَفَّ خَطْرُهَا وَأَسْـلَمَهَا للظَّاعِنَـاتِ جُفُوْرُهَــا

ويستمر في وصف حركة النوق وقد غابت تحت جنح الظلام. وبعد وصول مصر، ولاية ابن ليلى (عبد العزيز بن مروان)، واطمئنانه على رحلة الظعن ووصولها إلى مُسْتَقَرِّهَا، يَبدأ الشاعر في رثائه قائلاً[2]:

نَشِيْمُ عَلَى أَرْضِ ابْنِ لَيْلَى مَخِيْلَةً عَرِيْضاً سَنَاهَا مُكْفهِراً صَبِيْرُهَا[3]
فَأَصْبَحْتُ لَوْ أَلْمَمْتُ بِالحُوْفِ شَاقَنِي مَنَازِلُ مِنْ حُلْوَانَ وَحْشٌ قُصُوْرُهَا
أَقُــوْلُ إِذَا ما الطَّيْرُ مَـرَّتْ مُخِيْفَةً سَوَانِحُهَا تَجْرِي وَلا أَسْتَثِيْرُهَا
فَدَتْكَ ابنَ لَيْلَى نَاقَتِي حَدَثَ الرَّدَى وَرَاكِبُهَـا إِنْ كَانَ كَـوْنٌ وُكُوْرُهَـا

وتستوقفنا قصيدةٌ أُخرى، بدأها الشاعر بالغزل وهي قصيدة أبي صخرٍ الهُذلي في رثاء عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أُسيد وهو حي، إذْ يقول في مطلعها[4]:

عَفَا سَرِفٌ مِنْ جُمْلَ فَالمُرْتَمَى قَفْرُ فَشِـعْبٌ فَأَدْبَار الثَّنِيَّاتِ فَالغَمْـرُ

يتحدَّث الشاعر عن (جُمَلْ) وهي المرأة المتغزَّل بها، واصفاً حُسنها وجمالها، متحدِّثاً عن النَّدى الذي بَلَّ جبينها آخر الليل، وعن الذوب الذي فاح ريحه فكان المسك وكان الهوى ما عاش والشوق والمنى. وبعد هذه المقدمة، يبدأ بالرثاء قائلاً: إن كل هذه الأوصاف الجميلة والحُسن، لم يُنسِهِ دوام ذكر المرثي وذكر أعماله وأفعاله الحسنة الجيدة، فيقول[5]:

فَلَمْ يُنْسِهِ جُمْلاً وَتَشْبِيْبُهُ بِهَا حَــوَادِثُ أَيَّــامٍ لَـهَا مِــرَرٌ شُـزْرُ

---

(1) إنطاكي، منسوبٌ إلى إنطاكية، والرقم: ضربٌ من البُرود الموشَّاة بالخز .
(2) ديوانه: 144 .
(3) شام البرق: نظر إليه أين يتجه وأين يمطر .
(4) منتهى الطلب من أشعار العرب: 9/ 372، وأبيات الغزل استغرقت خمسة عشر بيتاً من ص: 372-374، وشعراء أمويون: 4/ 84 .
(5) منتهى الطلب من أشعار العرب: 9/ 374 – 375، وشعراء أمويون: 4/ 86 – 87 .

فِــرَاقُ أَخٍ لَـنْ يَبْرَحَ الدَّهْرَ ذِكْــرُهُ يُهَيِّمُنِي مَا عِشْتُ أَوْ يَنْفَدَ العُمْرُ
وَكُنْتُ إِذَاً مَا الطَّيْرُ جَاءَتْ مشِيْحَةً أَقُوْلُ وَفِي صَدْرِي بِمَا زُجِرَتْ وَجْرُ
أَبَا خَالِدٍ نَفْسِي وَقَتْ نَفْسَكَ الرَّدَى وَكَــانَ بِهَا مِنْ قَبْلِ عَثْرَتِكَ العَثْرُ
لِيَبْكِـكَ يَا عَبْدَ العَزِيْزِ قَلائِـصٌ أَضَـرَّ بِهَا طُـوْلُ المَنَصَّةِ والزَّجْرُ

ويُعلق الدكتور نوري القيسي رحمه الله على ذلك مبيناً أن مشاعر المرثي الحي قد تداخلت في تضاعيف الشاعر المضطر على أن يقف الموقف غير المناسب ليقول أبياتاً تعبر عن إحساس غير حقيقي. ويُرجع ذلك إلى أسباب تخص التزام الشاعر بتقليد فني درج عليه، كما تتفق مع ينبوع الإحساس الواحد الذي تتدفق منه عاطفة الصدود والرثاء، وهي مشاعر تتفق في كونها فراقاً، وتستثير أحاسيس مشابهة، وتُعبر عن لوعة متقاربة إذ تنتهي المقدمة بإخفاق وإحباط، بسبب عهود النساء التي تنتهي سريعة[1].

وقد يكون للمقدمة الطللية نصيبٌ من هذا الجو الحزين، فهي نتاج إحساس بأسى حياةٍ بائدة، قد يدرك الخيال ما بينها وبين حياة المرثي من علاقة، ويوجِدُ بينهما اتصالاً نفسيّاً وشعوريّاً، وإذا لم يستطع أن يبرره عقل الشاعر فقد يدرك خياله إيجاد المناسبة بينهما، فالأطلال بما يراه الشاعر فيها من حياة بائدة وما تثيره فيه من أسىً وحنين، هو من جنس العواطف التي يُثيرها سكون الجسد الذي كان مليئاً بالحياة، ومن هذه النقطة تبدأ الصلة بين الموقفين. فهذا كُثيِّر عزَّة يُنادي أطلالاً استعجمت وسكنت الحياة فيها، ويصر على مناداتها رغبةً منهُ في انبعاث الحياة فيها، جاعلاً من ذلك مقدِّمةً لرثاء عبد العزيز بن مروان، إذ يقول[2]:

أَطْــلالُ دَارٍ بِـالـنِّـيَـاعِ فَحُمَّتِ سَأَلْتُ فَلَمَّا اسْتَعْجَمَتْ ثمَّ صُمَّتِ
عَجِبْتُ لأَنَّ النَّائِحَاتِ وَقَـدْ عَلَتْ مُصِيْبَتُهُ قَهْراً فَعَمَّتْ وَأَصْـمَـتِ

(1) ينظر شعراء أمويون: 4/ 17 .

(2) ديوانه: 71 – 72، وينظر، شعر الرثاء السياسي للأمويين: 132 .

نَعَيْـنَ وَلَـوْ أَسْمَعْنَ أَعْـلامَ صِنْدَدٍ وَأَعْـلامَ رَضْوى مَا يَقُلْـنَ ادْرَهَمَّتِ

وإلى جانب المقدمات الغزلية والطللية، فقد وُجِدَت مقدماتٌ جديدة مستوحاة من طبيعة العصر، وما شهده من فتوحات عظيمة، عمَّت شرق الأرض وغربها، ومن صميم المهام التي يليها الخلفاء والقادة في عملهم، من ذلك تصويرهم لحركة القوافل والجنود التي تذهب للجهاد في سبيل الله؛ وتلك التي تعود منه، كما جاء في رثاء زياد الأعجم للمغيرة بن المهلب. وهي مقدمة تناسب موت الفرسان[1]؛ إذ يقول[2]:

قُـلْ لِلْقَوَافِلِ وَالـغُـزَّى إِذَا غَـزوا والـبَـاكِـرِيْـنَ وَلِـلـمَـجْـدِ الـرَّائِـحِ
إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالشَّجَاعَةَ ضَمَّنَا قَبْرَاً بِمَروٍ عَلَى الطَّرِيْقِ الوَاضِحِ
آبَ الجُنـودُ معقِبَـاً أَوْ قَافِـلاً وَأَقَـــامَ رَهْـنَ حَفِيْرَةٍ وَضَرَائِـحِ

وخلاصة القول: إنَّ مقدمات القصائد الطوال والمقطَّعات، جاءت مُنسجمةً مع الهدف العام للمرثية، وهو إظهار الانفعالات الحزينة، سواءٌ ما جاء منها كمقدمةٍ طللية أم غزلية أم غيرها، لأنَّها تستقي من عاطفةٍ واحدة، وتنهل من معينٍ واحد، ألا وهو عاطفة الحزن، وهو نفسه الخيط الخفي الذي يربط بين أجزائِها .

ب - المطلع والخاتمة:

تنبه النقاد القدماء إلى أهمية المطلع في أي عملٍ أدبي، وأولوا الشعر منه عنايةً خاصَّة؛ لأنه أول ما يقع في السمع من القصيدة، والدَّال على ما بعده[3]. وكانوا يُوجبون على من يتصدى لمقصد من المقاصد، أن يكون مُفتتح كلامه مُلائماً لذلك المقصد دالًّا عليه[4]. وقد أكثر النقاد من الحديث عن المطلع، ونَظَّرُوا لذلك

(1) ينظر صور أُخرى من المقدمات الجاهلية: **4 – 15** .

(2) زياد الأعجم، شاعر العربية في خراسان: **57** .

(3) ينظر كتاب الصناعتين: **435**، ومنهاج البلغاء: **309 – 310** .

(4) ينظر المثل السائر: **2/ 236**، والطراز: **2/ 26** .

كثيراً[1]؛ لكنهم في أغلب ما ذهبوا إليه؛ إنما كانوا يوجِّهون اهتمامهم إلى المتلقي. ونحن نعلم أنَّ الراثي عندما تجود قريحته بشيء، فإنه لا ينتظر من المستمع الثناء على كلامه أو ذمه؛ وإلَّا فأين ما يجيش في الصدر فينطلق به اللسان؛ بل أين الرغبة والرهبة، والطرب والغضب؟

وقد جاءت مطالع القصائد والمقطعات الرثائية متنوعةً تصبُّ جميعها في اتجاه التعبير عن الحزن والألم الذي يعتصر قلب الراثي، فمن تلك المطالع بل وأكثرها، المطالع البُكائية التي تُخاطب العين، وتصف انهمار الدموع. إذْ أبقى الشعراء على هذا النمط من المطالع التي بدأت بها أغلب مراثي ما قبل الإسلام[2]. لكنهم طوَّعوا بعضها الآخر بما ابتكروه من معانٍ وصور مستمدة من واقع العصر والحياة الجديدة. فمن تلك المطالع التي سارت على النمط الموروث، ما جاء في رثاء مروان بن الحكم للخليفة معاوية بن أبي سفيان، إذ يقول[3]:

يَا عَيْنُ جُودِي بِالدُّمُوعِ الذَّارِيَه ... جُوْدِي فَلا زَالَتْ غُرُبُكِ بَاكِيَه

وَابْكِ عَلَى خَيْرِ البَرِيَّة كُلِّهَا ... فَلَقَدْ أَتَتْكِ مَعَ الحَوادِثِ دَاهِيَه

ومثله ما جاء في رثاء سراقة البارقي للقائد عبد الرحمن بن مخنف، إذ يقول[4]:

أَعَيْنَيَّ جُوْدَا بِالدُّمُوْعِ السَّوَاكِبِ ... وَكُوْنَا كَوَاهِيَ شَنَّةٍ مَعَ رَاكِبِ

فَإِنَّ سُرُوْرَ العَيْشِ قَدْ حِيْلَ دُوْنَهُ ... وَمَا الشَّرُّ فِي الدُّنْيَا بِضَرْبَةِ لازِبِ

وَلِلأَزْدِ فَابْكِي إِذَا أُصِيْبَتْ سُرَاتُهُمْ ... فَقُبْحاً لِعَيْشٍ بَعْدَ ذَلِكَ خَائِبِ

وفي أحد هذه المطالع، يطلب الحارث بن عبد الأزدي من عينيه إن هي أنفدت دمعها من كثرة البُكاء على القائد سفيان بن عوف الأزدي؛ أن تسكب الدم

---

(1) ومنهم علي الجرجاني في الوساطة: **48**، وابن رشيق في العمدة: **1/ 218 – 219**.

(2) ينظر الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام: **191** .

(3) تاريخ دمشق: **57/ 275** .

(4) ديوانه: **85** .

بدلاً من الدَّمع، فيقول[1]:

أَعَيْنَيَّ إنْ أَنْفَدْتُما الدَّمْعَ فَاسْكُبَا　　دَماً بِأَنَّ سُفْيَانَ بنَ عَوْفٍ فَوَدَّعا

إنَّ أول ما يرتسم في الذهن عند سماع هذا المطلع، هو شدة الحزن التي ألمَّت بالشاعر، وهذا ما أراد أن يعبر عنه. وبجانب هذه المطالع التقليدية، كانت هناك مطالع بُكائية تتسم بالجدة والابتكار، وتنم عن قدرة شعرية في تطويع الأساليب التقليدية وتوظيفها توظيفاً جيداً يخدم المرثية ولا يكون عبأً عليها، وذلك باستحداث معانٍ وصور جديدة. من تلك الصور ما جاء في رثاء الشاعر خُليد عينين للقائد المنذر بين الجارود العبدي، إذ يُصوِّر فيها قوافل المجاهدين التي عادت للتو من الجهاد، ولم يكن المنذر من بينها، إذ وافته المنية في ساحات الجهاد. وهذه صورٌ جديدةٌ لم يألفها الشعراء قبل الإسلام، فيقول[2]:

يَا عَيْنُ اذرِ دَمْعَةً فَأَسْعِدِيْنِي　　وَابْكِ ابْنَ بِشْرٍ سَيِّدَ الوَافِدِيْنِ

وَابْكِي الأَشْعَثَ لَمَّا ثَوَى　　رَهَباً وَلَمْ يَرْجِعْ مَعَ القَافِلِيْنِ

جَاوَرَ قَصْدَار فَأَضْحَى بِهَا　　يَسفِي عَلَيْهِ الرِّيْحُ تُرْبَ الدُّرِيْنِ[3]

ومن المطالع الجديدة، ما جاء في رثاء الفرزدق للحجاج بن يوسف، إذ يطلب فيها من الناس أن يبكوا عليه؛ ولكنه بُكاءٌ على ماذا! إنه بكاءٌ على ما كان يمثله الحجاجُ من رعاية الدين، والوقوف على الثغر. فيقول[4]:

لِيَبْكِ عَلَى الحجَّاجِ مَنْ كَانَ بَاكِيَا　　عَلَى الدِّيْنِ أَوْ شَارٍ عَلَى الثَّغْرِ وَاقِفْ

وَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَانِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ　　عَلَى مِثْلِهِ إِلَّا نُفُوْسُ الخَلائِفْ

---

(1) تاريخ دمشق: 11/ 454 .

(2) تاريخ دمشق: 60/ 285 .

(3) الدُّرِيْن: وهو النبت الذي أتى عليه سنة ثم جف، والدرين حطام المرعى إذا تناثر وسقط على الأرض، اللسان ، مادة (دَرَنَ): 13/ 153، وتاج العروس: 9/ 198 .

(4) ديوانه: 2/ 5 .

ومثله بُكاء أبي عطاء السندي على نصر بن سيار[1]، وبُكاء اسماعيل بن عمَّار على خالد بن خالد بن الوليد[2]، وبكاء الفرزدق على عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي[3]، ووكيع بن أبي سود[4]، ومحمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله التيمي[5].

ومن المطالع الجديدة، ما افتُتِحَ بالدعاء للمرثي، وطلب الرحمة والاستغفار له والسلام عليه، وهذا ينم عن روحٍ إسلامية وإيمانٍ عميق، بعيداً عن المبالغة والتهويل. فهذا حارثة بن بدر الغدَّاني، يفتتح مرثيته في زياد بن أبيه بالدعاء والصلاة على قبره الذي حوى التُّقى والبر، فيقول[6]:

صَلَّى الإِلَـهُ عَلَى قَبْرٍ وَطُـهْـرِهِ عِنْدَ الثَّوِيَّةِ يَسْفِي فَوْقَهُ المُوْر

زَفَّتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ نَعْشَ سَيِّدِهَا فَثَمَّ كُلُّ التُّقَى وَالبَرُّ مَقْبُوْرُ

وفي صورةٍ أُخرى، يصف الفرزدق جموع المشيعين الذين يتضرَّعون إلى الله، ويستغفرون لعبد العزيز بن مروان، يلفهم الخشوع وتتغشَّاهم السكينة، فيقول[7]:

ظَلُّوا عَلَى قَبْرِهِ يَسْتَغْفِرُونَ لَـهُ وَيَقُولُونَ تَارَاتٍ لَنَا العِبَرُ

يُقَبِّلُوْنَ تُرَاباً فَوْقَ أَعْظُمِـهِ كَمَا يُقَبَّلُ فِي المَحْجُوْجَةِ الحَجَرُ

أمّا نُصِيْبُ بن رباح؛ فإنه يدعو له بالمغفرةً والرحمة، لأنه كان كثير العطاء، فيقول[8]:

---

(1) شعره: 283 .

(2) المصدر نفسه: 11/ 376 .

(3) ديوانه: 1/ 235 .

(4) ديوانه: 1/ 410 .

(5) ديوانه: 2/ 253 .

(6) شعراء أمويون: 2/ 346.

(7) ديوانه: 1/ 186 .

(8) شعره: 64 .

مَنْ ذَا ابْن لَيْلَى جَــزَاكَ اللهُ مَغْفِرَةً   يُغْنِي مَكَانَكَ أَوْ يُعْطِي الذِي تَهَبُ

ومثله ما جاء في مطالع قصائد كلٍّ من: عُبيد الله بن قيس الرقيات في رثاء طلحة الطلحات[1]، ومطلع قصيدة سليمان بن قته في رثاء أسد بن عبد الله القسْري[2] .

وهناك مطالع رثائيةٌ أُخرى لجأ الشعراء إليها، وكانت معروفةً قبل الإسلام، كالافتتاح بالقسم «توكيداً لِما ينقلون ويعلنون للناس، وحتى لا يكون أدنى مجال للشك في نفوس السامعين»[3]، فمن صيغ القسم تلك، قولهم: لَعَمْرِي، وهي أكثر هذه الصيغ شيوعاً، في حين غابت صيغٌ أُخرى لأنها تتعارض مع الدين الجديد، كالقسم باللات والعُزَّى وغيرهم. إذْ جاء في رثاء الأخطل للخليفة يزيد ابن معاوية قوله[4]:

لَعَمْرِي لَقَدْ دَلَّى إِلَى اللحْدِ خَالِدٌ   جنازة لا كَابِي الـزِّنَـادِ وَلا غُمْرِ

ومنها ما جاء في رثاء عبد الملك بن مروان لأُمية بن عبد الله بن خالد بن أُسيد، إذْ يقول[5]:

لَعَمْرِي لا أنسَى أُمَيَّـةَ أَظْلَمَـتْ   عَـلَـيَّ بِـهِ أَرْضِــي مَعاً وَسَمَائِيـا

ومثله ما جاء في رثاء الشمردل بن شريك لأخيه وائل[6]، ورثاء سلامة القس ليزيد بن عبد الملك[7]. لكنَّ هذا القَسَم وبتأثيرٍ من الدين الإسلامي، أصبح بالله عزّ وجلّ بعد أن كان بغيره. من ذلك ما جاء في رثاء كعب بن جُعيل لعبد الرحمن بن

---

(1) ينظر الشعر والتاريخ: 3، والإسلام والشعر، الدكتور سامي مكي العاني: 173 .
(2) تاريخ دمشق: 8/ 321 .
(3) الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي: 335 .
(4) شعره: 358 .
(5) أنساب الأشراف: 11/ 234 .
(6) شعراء أمويون: 2/ 545.
(7) المصدر نفسه: 1/ 44-45 .

خالد بن الوليد، إِذ يقول[1]:

إِنِّي وَرَبُّ النَّصَارَى فِي كَنَائِسِـهَا وَالمُسْلِمِيْنَ إِذَا مَا جَمَعُوا الجُمَعَا
وَالقَائِمُ اللَّيْلَ بالإِنجِيْلِ يَدْرُسُـهُ لِلَّـهِ تَسْـفَحُ عَيْنَـاهُ إِذَا رَكَعَـا

ومن تلك الأساليب التي افتتحوا مراثيهم بها؛ استعمالهم أسلوب الاستفهام، للإخبار عما يريدون، من ذلك ما جاء في رثاء محمد بن خالد بن الوليد للخليفة عمر بن عبد العزيز، إِذْ يقول في مطلعها[2]:

هَلْ فِي الخُلُودِ إِلى القِيَامَةِ مَطْمَعُ أَمْ لِلمَنُوْنِ عَـن ابْـنِ آدَمَ مَدْفَـعُ

وللغرض نفسه، استعملوا أيضاً أسلوب النداء، كقول الأحوص الأنصاري في رثاء الخليفة معاوية بن أبي سفيان[3]:

يَا أَيُّهَـا الرَّجُلُ المُوَكَّلُ بِالصِّبَا وَصِبَا الكَبِيْرِ إِذَا صَبَـا تَضْلِيْلُ

وبقي أن نقول: إنَّ ثمَّة ظاهرة مهمَّة شاعت في مطالع القصائد والمقطعات، ألا وهي ظاهرة التصريع. لِما له من أهميَّة فنيَّة في بناء القصيدة، إنَّ للتصريع في أوائل القصائد طلاوةً وموقفاً حسناً في النفس لاستدلالها به على قافية القصيدة قبل الانتهاء إليها،ولأهميَّته في بداية القصيدة، فقد عدَّ ابن رشيق الشاعر الذي لم يُصرِّع قصيدته كالمتسور الدَّاخل من غير باب[4]، ومن هذه المطالع المُصرَّعة، ما جاء في مطلع قصيدة جرير التي رثى فيها المرَّار بن عبد الرحمن، إذ يقول[5]:

رَاحَ الـرِّفَــاقُ وَلَــمْ يَــرُحْ مَــرَّارُ وَأَقَــامَ بَعْدَ الظَّاعِنِيْـنَ وَسَـارُوا

---

(1) تاريخ دمشق: **34/ 331** .

(2) معجم الشعراء: **345**، وينظر في المعنى نفسه، شعر عبد الله بن الزبير الأسدي: **79**، في رثاء عمرو بن العاص، وتاريخ دمشق: **57/ 170**، في رثاء حمزة بن بيض الحنفي، لمخلد بن يزيد .

(3) ديوانه : **219** .

(4) ينظر العمدة: **1/ 177**.

(5) ديوانه: **215**.

لا تَبْعُدَنْ وَكُلُّ حَيٍّ هَالِكٌ وَلِكُلِّ مَصرَعِ هَالِكٍ مِقْدَارُ

هذا ما كان من شأن التصريع في البيت الأول؛ فكيف الحال والمقطوعة مصرَّعة كلَّها؟ إن من شأن ذلك أن يكون مدعاةً لحسن الاستماع والتأثر بالحدث، وهو ما أكده ابن رشيق بقوله: « ... وربَّما صرَّع الشاعر في غير الابتداء ... وهو دليلٌ على قوَّة الطبع، وكثرة المادَّة»[1]، كما جاء في رثاء الجعد بن قيس لزياد بن أبيه، إذ يقول[2]:

أَبْقِ عَلَيَّ عَاذِلِي مِنَ اللَّوْمِ فِيمَا أُزِيلَتْ نِعْمَتِي قَبْلَ اليَوْمِ
قَدْ ذَهَبَ الكَرِيْمُ والظِّلُّ الدَّوَمِ وَالنِّعمُ المُؤثَّل الدثر الحوَّمِ
وَالماشِيَاتُ مَشْيَةَ بَعْد النَّوْمِ لَيْتَ الجِيَادَ كُلَّهَا مَعَ القَوْمِ
سُقِيْنَ سُمَّ سَاعَةٍ قَبْلَ اليَوْمِ لأَرْبَعٍ مَضَيْنَ مِنْ شَهْرِ الصَّوْمِ

ويستمر الشاعر بالنهج نفسه، وكأنَّه يدرك ما لهذا الأُسلوب من تأثيرٍ في السامع، فيقول أيضاً[3]:

وَمِنْهَا يَوْمُ الثُّلاثَاء الَّذِي كَانَ مَضَى يَوْمٌ قَضَى فِيْهِ المَلِيْكُ مَا قَضَى
وَفَاةَ برٍّ جَدٍّ جَلِدِ القُوَى حَرْبُهُ نَوال جَعْدٍ والتظَى
كَانَ زِيَادُ جَبَلاً صَعْبَ الذُّرى شَهْماً إذا سِيْمَ نَقِيْصَاتٍ أَبى
لا يُبْعِدُ الله زِيَاداً إذْ ثَوَى

وفي هذا السياق، يحسُنُ بنا الردُّ على أحد الباحثين الذين أنكروا وجود ظاهرة التصريع في قصائد ومقطعات الرثاء السياسي للأمويين، والتي تدخل في جزءٍ منها ضمن دراستنا[4]. إذ وجدت ستةً وعشرينَ قصيدةً ومقطوعة تبتدئُ مطالِعُها بأبياتٍ

(1) العمدة: 1/ 174.
(2) تاريخ الطبري: 4/ 221.
(3) المصدر نفسه، والجزء والصفحة.
(4) ينظر ما قاله الباحث علي حسين التمر في رسالته، شعر الرثاء السياسي عند الأمويين: 138.

مُصَرَّعة، وقد تأتي أحياناً جميع أبيات المقطوعة مصرَّعة كما مرَّ بنا قبل قليل(1).

إنَّ لمناسبة هذه الموضوعات قصيدة الرثاء، دوراً كبيراً في عدم وجود ما يُسميه النقاد بالتخلص(2). إذ إننا لم نجد أيّاً من تلك الألفاظ التي كانوا يتخلَّصون بها من مثل قولهم: (دَعْ ذَا) و(عَدِّ عَنْ ذَا) ... وغيرها؛ لأنَّ المراثي عموماً تصب في غرضٍ واحد، ذلك هو الحديث عن الموت، وإذا كان هناك من انتقالٍ بين الموضوعات؛ فإنَّه لا يعدو كونه انتقالٌ بين وصف حال الراثي وما أصابه من حزنٍ وألم، وبين حال المرثي الذي تعددت صفاته ومناقبه.

أمَّا الخاتمة في المرثية، فإنها تُمثل خلاصة ما جاء فيها من أفكار، وما أراد الشاعر أن يعبر عنه، وفضلاً عن اهتمام نقادنا القدامى بمطلع القصيدة، فقد أولوا الخاتمة اهتمامهم أيضاً، لأنها آخر ما يودع في الأسماع من أفكار ومعاني، وهي خلاصة ما يُختتم به وآخر صورة مما يُراد تخيُّله في ذهن السامع(3). وجعلوا لها شُروطاً يحسُن بالشاعر الأخذ بها، منها: «أن يكون مُحكماً لا تمكن الزيادة عليه ولا يأتي بعده أحسن منه»(4).

وقد تعددت خواتيم قصائد ومقطعات المراثي، إذ جاءت أغلبها في اتجاهاتٍ ثلاث. وهي جميعاً تتوافق مع غرض الرثاء، فقد عمد الشعراء إلى ختامها بالحكمة، وهو ما أكده القرطاجني، إذ يقول: «وإذا ذُيِّلت أواخر الفصول بالآيات الحكمية، والاستدلالية ... كان لها ذلك بمنزلة التحجيل، وزادت بذلك بهاءً وحسناً ووقعت

(1) ينظر بعض تلك القصائد والمقطعات في ديوان سراقة البارقي: 85، ديوان كثير عزة: 71، 140، ديوان جرير: 215، 296، 582، الأغاني: 1/ 42، 2/ 411، 8/ 361، 22/ 262، وتاريخ الطبري: 4/ 582، 5/ 267، 303، البداية والنهاية:9/ 187، تاريخ دمشق: 8/ 320، 46/ 40.

(2) حسن التخلص: هو انتقال الشاعر من معنى إلى معنىً آخر، بحيث يجعل الأول سبباً للتالي، ينظر، العمدة: 1/ 236-237، والمثل السائر: 1/ 121.

(3) ينظر العمدة: 1/ 239.

(4) خزانة الأدب، للحموي: 159.

من النفوس أحسـن موقع»[1]. من ذلك ما جاء في ختام مرثية زرارة بن حرب لابنه عبد العزيز، إذ يقول[2]:

فَـكُـلُّ فَتـىً شَـــارِبٌ كَأْسَــهُ   فَـإِمَّـــا صَغِيْـراً وَإِمَّـــا كَبِيْـرَا

وقول عبد الله بن عبد الأعلى النوفلي في رثاء الخليفة هشام بن عبد الملك[3]:

فَنَفْسُكَ فَاكْسِبْهَا السَّعَادَةَ جَاهِداً   فَكُلُّ امرئ رَهْـنٌ بِمَا هُوَ كَاسِبُهْ

ويُخاطب الفرزدق قومه بني تميم مُعزِّياً بموت القائد وكيع بن أبي سود الغدَّاني مختتماً كلامه، وخلاصة ما أراد، بحكمةٍ بليغةٍ يقول فيها[4]:

فَصَبْراً تَمِيْمُ إِنَّمَـا المَوْتُ مَنْهَلٌ   يَصِيْـرُ إِلَـيْــهِ صَابِـرٌ وَجَــزُوْعُ

وقد ختم بعض الشعراء قصائدهم بالدعاء بالسُّقيا لقبر المرثي، لأَنَّه آخر ما يمكن أن يُقدم الشاعر لفقيده، وهو أمرٌ تنبه إليه ابن رشيق إِذْ قال: «وقد كره الحُذَّاقُ من الشعراء ختم القصيدة بالدعاء لأَنَّه من عمل أهل الضعف؛ إِلَّا الملوك فإنهم يشتهون ذلك ...» [5]. وقد أكثر الشعراء من ختامهم للمرثية بهذا بالدعاء. من ذلك قول ابن عرس العبدي في رثاء أسد بن عبد الله القسْري[6]:

سُـقِيْتَ الغَيْثَ إِنَّـكَ كُنْتَ غَيْثـاً   مَرِيْعـاً عِنْـدَ مُـرْتَــادِ النّجَاعِ

وكذلك ختم جرير مرثيته في المرار بن عبد الرحمن، قائلاً[7]:

صَلَّى الإلـهُ عَلَيْكَ مِـنْ ذِي حُفْرَةٍ   خَـلَـتِ الـدِّيَـارُ لَـهُ فَـهُـنَّ قِـفَـار

---

(1) منهاج البلغاء: **300** .

(2) تاريخ دمشق: **18/ 448.**

(3) تاريخ دمشق: **20/ 80 – 81**، وبُغية الطلب: **9/ 4015.**

(4) ديوانه: **1/ 409**، وينظر في المعنى نفسه، المصدر نفسه: **1/ 217**، في رثاء بشر بن مروان، وديوان الأحوص الأنصاري: **220**، في رثاء الخليفة معاوية بن أبي سفيان.

(5) العمدة: **1/ 241.**

(6) تاريخ دمشق: **8/ 320.**

(7) ديوانه: **215 – 216.**

وَسَقَاكَ مِنْ نَوْءِ الثُّرَيَّا عَارِضٌ تَنْهَلُّ مِنْهُ دِيْمَةٌ مِدْرَارُ

وقد عمد الشعراء في خواتيم مراثيهم إلى تمجيد شخصية المرثي وتأكيد مناقبه وبيان الفراغ الذي تركه بموته، من مثل قول الفرزدق في رثاء بشر بن مروان[1]:

وَكُنَّا بِبِشْرٍ قَدْ أَمِنَّا عَدُوَّنَا مِنَ الخَوْفِ وَاسْتَغْنَى الفَقِيْرُ عَنِ الفَقْرِ

ومثله قول أبي جلدة، في رثاء مسمع بن مالك[2]:

كُنْتَ الشِّهَابَ الَّذي يُرْمَى العَدوُّ بِهِ وَالبَحْرُ مِنْهُ سِجَالُ الجُوْدِ تَغْتَرِفُ

ومن الشعراء مَنْ ختم مرثيته ببيان مصير المرثي في الجنَّة، وما يلقاه من نعيمٍ وتكريم، وبالمقابل ما يجده أعداؤه من عذابٍ أليم، جاء ذلك في رثاء جرير لقتيبة بن مسلم الباهلي، إذ يقول[3]:

عَلَى أَنَّهُ أَفْضَى إِلى حُوْرِ جَنَّةٍ وَتُطْبِقُ بِالبَلْوَى عَلَيْكُمْ جَهَنَّمُ

وجاءت خواتيم بعض تلك القصائد لتعبِّر عن حالة التنافس التي شهدتها بعض مراحل العصر الأموي بين القبائل، والتسابق في إثبات الولاء للخليفة، من ذلك ما جاء في مرثية الطرمَّاح لقتيبة بن مسلم، إذ يفخر فيها بجهود قبيلته في تثبيت دعائم الخلافة، فيقول[4]:

فِي عِزِّنَا انْتَصَرَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ وَبِنَا تَثَبَّتَ فِي دِمَشْقَ المِنْبَرُ

وعلى الرغم من تجويد الشعراء لخواتيم مراثيهم؛ إلَّا أننا نجد الكثير منها قد بقي من دون خاتمة معينة يُنهي الشاعر بها مرثيته .

---

(1) ينظر الشعر والتاريخ: 3، والإسلام والشعر، الدكتور سامي مكي العاني: 173 .

(2) الأغاني: 11/ 315.

(3) حماسة الظرفاء: 1/ 119، والبداية والنهاية: 9/ 191. وقد أخلَّ بها ديوانه المنشور .

(4) ديوانه: 252.

المبحث الثاني
الألفاظ والتراكيب

أوّل ما يطالعنا في نصوص الشعر ألفاظه، ولمَّا كانت هذه الألفاظ هي الوسيلة التي يُعبر الشاعر بوساطتها عن خلجات نفسه ومكنوناتها؛ كان لزاماً علينا البحثُ في العلاقة بين الموضوع الشعري واللغة المستعملة بما فيها من ألفاظ وتراكيب، ومدى ملاءمة هذه الألفاظ للغرض الشعري. إِذْ أَكَّد النقاد قديماً هذه العلاقة، فقال الجرجاني: «إنَّ لكلِّ نوعٍ من المعنى نوعاً من اللفظ هو به أخص وأولى، وضروباً من العبارة هو بتأديته أقوم، وهو فيه أجلى»[1]. وتبعه ابن رشيق مؤكداً ومفصِّلًا، إذ يقول: «فأول ما يحتاج إليه الشاعر ... حسن التأتي والسياسة، وعلم مقاصد القول؛ فإن نَسَبَ ذلَّ وخضع، وإِن مدح أَطْرَى وأَسْمَع، وإِنْ هجا أخلَّ وأَوْجَع، وإن فخر خبَّ ووضع، وإن عاتب خفض ورفع، وإن استعطف حنَّ وَرَجَع»[2]. والشعراء في كل ذلك إنما يعبرون عن واقعهم النفسي إزاء كل مقصد، وما تختلج به نفوسهم من مشاعر وأحاسيس[3]. فالموقف من الحدث والحالة الشعورية، هو الذي يفرض على الشاعر اختيار الألفاظ المناسبة للحدث قوةً أو ضعفاً. وهذا ما لمسناه في رثاء الخلفاء والقادة، إذ نجد الشاعر عندما يندب فقيده؛ فإنه يكثر من ذكر الألفاظ التي تعبر عن حزنه وألمه، فتتردد ألفاظٌ مثل: البُكاء وما يرافقها من مفردات، كالدموع، الحُزن، الضيق، الكآبة، الأسى، الضعف، الأرق، السُّهاد، الرزء، المُصيبة، اليأس،

---

(1) الرسالة الشافية (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): 117 .

(2) العمدة: 1/ 199، وينظر البيان والتبيين: 1/ 83، الوساطة: 24، والمثل السائر: 1/ 198 .

(3) ينظر في النقد الأدبي، د. شوقي ضيف: 129 .

الجزع، المنون، الدهر، الردى، الحتف، الروع، الشكوى، اللوم، الهلاك، القتل، الحدثان، الفزع، الويل، النواح، الهم، البؤس، الحسرة[1]، ... إلخ .

أمّا الألفاظ المتصلة بتأبين المرثي وذكر مناقبه وخصاله، فتدور حول الشجاعة والبأس، والكرم والجود، والندى والغيث، والنجدة، والعفة، والحلم، والحسب والنسب، والسماح، والشمس والقمر والبدر، ... إلخ. وكذلك فيما يخص العزاء، إذ تكثر ألفاظ: الصبر، والجَلَدْ، والقضاء والقدر، والاحتساب، ويوم القيامة، والجنة ونعيمها،... إلخ .

وإذا كانت «اللغة الجاهلية قد فرضت نفسها على لغة الشعر والنثر في عصور العربية المختلفة، منذ العصر الإسلامي إلى العصور العباسية المختلفة»[2]؛ فلا يعني ذلك وقوف الشعراء عندها، ذلك أن الحياة العربية بظهور الإسلام شهدت تغَيُّراً ملموساً فكراً وماديّات، وواكبت اللغة العربية هذا التغير واستوعبته، وظهر ذلك جلياً في شعر الرثاء. فقد تحققت رابطة وثيقة بين اللغة العربية والدين الجديد، وتأكدت فيما يتصل بالجانب الفكري والثقافي[3]. وجاء هذا التأثر ليشمل ألوان الرثاء كُلَّها، الندب والتأبين والعزاء. ففي جانب الندب، ظهرت ألفاظٌ ومعانٍ جديدة. فبعد أن كان البُكاءُ على الفقيد لذاته؛ أصبح يُبكى للدين والثغور التي حماها وكانت آمنةً بوجوده[4]. وكذلك التأبين، إذ أصبحنا نجد صفات العدل بين الرعية وحُسن سياستها، والتقوى، والورع، والزهد[5] ... إلخ. وفي جانب العزاء، شاعت روح الرِّضى والاستسلام لقضاء الله وقدره[6]. وفضلًا عن ذلك، فقد عبَّر

---

(1) يتعذر الإشارة إلى جميع الأماكن التي وردت فيها مثل تلك الألفاظ، وذلك لكثرة دورانها على ألسنة الشعراء، وهو ما ينطبق على التأبين والعزاء أيضاً .

(2) الشعر الجاهلي، قضاياه الفنية والموضوعية: **87** .

(3) ينظر العربية، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب: **13**.

(4) ينظر ديوان الفرزدق: **2/ 5**.

(5) ينظر ديوان كُثيِّر عزة: **177 – 179**.

(6) ينظر ديوان جرير: **215**، وأنساب الأشراف: **8/ 199**.

الشعراء عن قيم العقيدة الإسلامية وَضَمَّنوها أشعارهم، ولم يجدوا صعوبةً في التعبير عن أية قيمة جديدة، بما وفَّرته اللغة لهم من إمكانات، متأثرين بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فنجد ألفاظ: الدين، الحج والعمرة، شهر الصوم، وعيد الفطر، الأضاحي، المسجد، المُصلى، قيام الليل، الجنة والنار، الشهيد والشهادة، صلى الإله، نبي الله[1]. ... إلخ.

ودأب الشعراء عند رثاء الخلفاء والقادة على اختيار ألفاظ مخصوصة تُميزهم من بعضهم، ومنهم عن عامَّة الناس، وذلك لأنهم يحملون صفات محددة لا تكون مُشاعةً بين الناس. ومن تلك الألفاظ التي خصُّوا بها الخلفاء: المَلِكْ، الإمام، الولي، أمير المؤمنين، الكاملين، خير البرية، ربيع المسلمين[2]. ... إلخ. أمَّا تلك التي خصُّوا بها القادة، فمنها: السيد، الزعيم، الوزير، العميد، السَّري، والرئيس[3]. وهناك بعض الألفاظ التي قد يشترك فيها الخلفاء والقادة.

ومن الظواهر البارزة في ألفاظ الشعر الذي ندرسه وتراكيبه التَّكرار. لِما لذلك من ارتباط بظروف الشاعر النفسية وشدة انفعاله وتأثره، وما لها من دلالةٍ

---

(1) ينظر ديوان الفرزدق: 1/ 186، 217، 235، 2/ 5، 2/ 238، 251، 253، ديوان جرير:216، 304، ديوان كثيِّر عزَّة: 99، ديوان سراقة البارقي: 89، شعر نُصيب بن رباح: 64، شعر ابن هرمة: 215، شعر زياد الأعجم: 69، أنساب الأشراف: 8/ 199، الأغاني: 7/ 23، 11/ 376، 22/ 262 – 263، تاريخ الطبري: 4/ 221، البداية والنهاية: 9/ 191، الكامل في التاريخ لابن الأثير: 4/ 298، حلية الأولياء: 5/ 322، الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام: 1/ 317، تاريخ دمشق: 34/ 331 .

(2) ينظر ديوان الوليد بن يزيد: 77، ديوان الأحوص الأنصاري: 219، ديوان الفرزدق: 1/ 217، 2/ 83، التعازي والمراثي للمبرد: 63، أنساب الأشراف: 5/ 161، ولاة مصر: 77، أخبار القضاة: 3/ 33، منتهى الطلب من أشعار العرب: 7/ 388، تاريخ دمشق: 14/ 450، 16/ 313، 57/ 275، 65/ 63.

(3) ينظر ديوان سراقة البارقي: 43–44، 80، 85، 87، أنساب الأشراف: 11/ 34، الأغاني: 16/ 189، تاريخ دمشق: 18/ 448، 60/ 285، ولاة مصر : 113، الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام : 1/ 317.

صوتيةٍ أيضاً. يقول ابن رشيق: «وأولى ما تكرر فيه الكلام، باب الرثاء، لمكان الفجيعة وشـدة القرحة التي يجدها المتفجع، وهو كثيرٌ حيث التُمس من الشـعر وُجد»[1]. كما أنَّ «تناوب الألفاظ وإعادتها في سياق التعبير تُشكل نَغَماً موسيقيّاً يتقصَّده الناظم في شعره »[2].

فمن تكرارهم لبعض الألفاظ التي تصب في هذا السياق، ما جاء في رثاء يحيى بن أبي حفصة للخليفة عبد الملك بن مروان، إذ يُكرر فيها كلمة (المنابر) ثلاث مرات، والفعل (بكت) مرتين، ليُبين أثر موته ليس فقط على الأحياء؛ وإِنَّما على الجمادات أيضاً، فيقول[3]:

بَكَتِ المَنابِرُ يَـوْمَ مَـاتَ وَإِنَّمَـا ... بَكَـتِ المَنَابِـرُ فَقْـدَ فَارِسـَهُنَّهْ
لَمَّـا عَـلاهُـنَّ الـوَلِـيْـدُ خَلِيْفَـةً ... قُلْـنَ ابْنَـهُ وَنَظِيْـرَهُ فَسَكَنَّـهْ
لَـوْ غَـيْـرَهُ قَــرَعَ المَنَــابِرَ بَـعْـدَهُ ... لَنكِرْنَـهُ فَـطَرَحْنَــهُ عَنْهُنَّـهْ

والفرزدق في رثائه لمحمد بن العاص، يُكرر الفعل (كان) ليُدلل ويؤكد على صفاته، فيقول[4]:

وَكَــانَ إِذَا أَرْضٌ رَأَتْـــهُ تَزَيَّلَتْ ... لِـرُؤْيَـتِـهِ صَـحْـرَاؤُهَـا وَإِكَـامُـهَـا
وَكَـانَـتْ حَـيَـاةُ الهَالِكِيْنَ يَمِيْنُهُ ... وَللنَّيْبِ وَالأَبْـطَـالِ فِيْهَا سِمَامُهَا
وَكَانَتْ يَـدَاهُ المِرْزَمَيْنِ، وَقِـدْرُهُ ... طَـوِيْـلاً بِـأَفْـنَـاءِ البُيُوْتِ صِيَامُهَا
وَكَـانَ حَيَّاً لِلْمُمْحِلِيْنَ وَعِصْمَةً ... إِذَا السَّـنَةُ الشَّـهْبَاءُ حَلَّ حَرَامُهَا

إلى أن يختتم قصيدته بقوله:

وَقَـدْ كَـانَ مِمَّا فِـي خَلِيْلَيْ مُحَمَّد ... شمَائِلُ لا يُخْشَى عَلَى الجَارِ ذَامُهَا

(1) العمدة : 2/ 76.

(2) جرس الألفاظ ودلالتها : 239.

(3) تاريخ دمشق : 65/ 63 .

(4) ديوانه : 2/ 190–194، وينظر في المعنى نفسه، المصدر نفسه: 2/ 238، ديوان سراقة البارقي: 44، 86، 87، 88، الأغاني: 17/ 214.

ومن تَكرار شطرٍ كامل، ما جاء في رثاء الفرزدق لمحمد بن موسى بن طلحة التميمي. إذ يقول[1]:

أَودى ابنُ مُوْسَى وَالمَكَارِمُ وَالنَّدَى   وَالـعِـزُّ عِـنْـدَ تَـحَـفُّـظِ السُّلْطَانِ
جُمِعَ ابْنُ مُوْسَى وَالمَكَارِمُ وَالنَّدَى   وَالـعِـزُّ عِـنْـدَ تَـحَـفُّـظِ السُّلْطَانِ
جُمِعَ ابْنُ مُوْسَـى وَالمَكَارِمُ وَالنَّدَى   فِـي القَبْرِ بَيْنَ سَـبَائِبِ الأَكْفَـانِ

ويبدو أن الشعراء إنَّما كانوا يريدون من هذا التَكرار تَسليط الضَوء على نقطةٍ حسَّاسة في التعبير تكشف عن مدى حسرتهم على من فقدوه، أو رُبما أرادوا إِشعار السامعين بعظم الخسارة التي حلَّتْ بهم بسبب هذا الفقد. كما أنَّ تَكرار العبارة يؤدِّي إلى رفع مستوى الشعور في القصيدة الذي يُغني الشاعر من عناء الإفصاح المُباشر وإخبار القارئ بالألفاظ عن مدى كثافة الذروة العاطفيَّة[2].

وقد يميل الشعراء إلى التَكرار من أجل الربط بين بيتين أو أكثر، فيزيد من وحدة أجزاء الصورة، ويؤكد حدة الشعور. كما جاء في رثاء كثير عزة للخليفة عمر بن عبد العزيز، إذ كرر الشاعر كلمة الناس ثلاث مرات في البيت الأول والثاني والثالث، فقال[3]:

جَـلَّـتْ رَزِيْئَتُـهُ فَـعَـمَّ مُصَابُـهُ   فَالنَّاسُ فِيْـهِ كُلُّهُـمْ مَأْجُـوْرُ
وَالـنَّـاسُ مَأْتَمَهُمْ عَلَيْـهِ وَاحِـدٌ   فِـيْ كُـلِّ دَارٍ رَنَّـةٌ وَزَفِيْـرُ
عَمَّتْ مُصِيْبَتَهُ فَـصَـارَتْ أُسْـوَةً   لِلنَّاس كُلّهم فَلَيْـسَ صَبُـوْرُ

ومثله ما جاء في رثاء عاصم بن عمر بن عبد العزيز لأخيه عبد الله، إذ يقول[4]:

رَمَى غَرَضِي رَيْبَ الزَّمَانِ فَلَمْ يَدَعْ   غَدَاةَ رَمَى لِلقَوْسِ فِي الكَفِّ مَنْزَعَا

---

(1) ديوانه : 2/ 325 – 326 .
(2) ينظر قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة: 287 .
(3) ديوانه :529، وتاريخ دمشق : 45/ 263، بروايةٍ أُخرى .
(4) تاريخ الطبري: 5/ 614، تاريخ دمشق: 25/ 234، وينظر في المعنى نفسه، الأغاني: 17/ 333.

رَمَى غَرَضِي الأَقْصَى فَأَقْصَدَ عَاصِماً ... أَخاً كَانَ لِيْ حِـرْزاً وَمَأْوىً وَمَفْزَعَا

ومن الشعراء من جانس بين لفظتين، وذلك لإبراز الإيقاع الموسيقي، وما تُحدثه هذه المجانسة من رنين يلفت الانتباه. فمن الجناس غير التام، ما جاء في رثاء زياد الأعجم للمغيرة بن المهلب، إِذْ يُجانس بين اسم المرثي، وهو المُغيرة، والخيل المغيرة. يقول فيها[1]:

فَانْعِ المُغِيرَةَ لِلمُغِيْرَةِ إِذْ غَـدَتْ ... شَـعْواءُ مُجْحِرَةٌ لِنَبْحِ النَّابِـحِ

ومن الجناس الناقص، ما جاء في رثاء أبي الجويرية (عيسى بن عصمة) للجنيد بن عبد الرحمن المري، والتي يقول فيها[2]:

هَلَكَ الجُـوْدُ وَالجُنَيْـدُ جَمِيْعـاً ... فَعَلَـى الجُوْدِ وَالجُنَيْدِ السَّـلامُ

ومنهم من يستخدم بعض الألفاظ بصيغة اسم الفاعل (كالقائل، والفاعل، والحامي، والواهب) ليعطي الفعل معنىً أشمل في الدلالة، وأعمق في التأثير، مما يجعل السامع أو المتلقي يعيش استمرارية هذه الأفعال، وأنَّ هذه الصفات دائمة ومُلازمة لهذا المرثي، إذ لا حدَّ لنهايتها ولا أمد لانقضائها. من ذلك ما جاء في رثاء الفرزدق لعمر بن عُبيد الله بن معمر التيمي، يقول فيها[3]:

القَائِـلَ الفَاعِلَ الحَامِي حَقِيْقَتَهُ ... وَالوَاهِبَ المائَةَ المَعْكَاءَ وَالغُرَرَا

ومثلـه ما جاء في رثاء الشمردل بن شـريك لعمر بن يزيد الأسدي، إذ يقول[4]:

لِلحَرْبِ مُحْتَسِـبُ القِتَالِ مُشَمِّرٌ ... بِالدِّرْعِ مُضْطَمِرُ الحَوَامِلِ سُـرَّحُ

سَـادَ الـعِـرَاقَ وَكَـانَ أَوَّلَ وَافِـد ... تَأْتِـي المُلُوْك بِهِ المَهَاري الطُّلَّـحُ

---

(1) شعره: 64.

(2) تاريخ الطبري: 5/ 427، وينظر في المعنى نفسه، تاريخ دمشق: 11/ 454، في رثاء الحارث بن عوف الأزدي لسُفيان بن عوف .

(3) ديوانه: 1/ 235 .

(4) شعراء أمويون: 2/ 523.

وفضلاً عمَّا ذكرناه من السهولة والوضوح التي امتازت بهما ألفاظ رثاء الخلفاء والقادة، فإنَّ التراكيب هي الأُخرى كانت محكمة النسجِ تامَّة الترابط، فهي تنحو منحى الرقة والسهولة عندما تتجه إلى تصوير مشاعر الراثي تجاه فقيده، في حين تتجه نحو القوة والجزالة عندما تكون موجهة إلى تأبينه، ولا سيما إذا ما علمنا أنَّ الفقيد من ذوي الجاه والسلطان .

المبحث الثالث

الخيال والصورة الشعرية

يُعَدُّ الخيال من أهم مقوِّمات الصورة الشعرية، التي يستطيع الشاعر التعبير بها عن أفكاره ومعانيه، وإيصالها إلى السامع بصورةٍ مؤثِّرةٍ تبدو أقرب إلى تفاعله مع الحدث، وهو ما استطاع شعراء المراثي التعبير من خلاله عن أحزانهم وآلامهم بصدق، جعلنا نُشاركهم مشاعرهم وانفعالاتهم ونعيش آلامهم. وهو ما عبر عنه القرطاجني بقوله: «أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر المخيل أو معانيه أو أسلوبه أو نظامه، وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيلها أو تصورها»[1].

ولولا الخيال لصار الشعر نقلاً للواقع أو محاكاةً ليس فيها تفنن وإبداع. ولأهميته في رسم الصورة وتشكيلها؛ فقد ذهب أحد الباحثين إلى أنَّ الشعر في معناه العام، تعبيرٌ عن الخيال[2]، وأكَّد ذلك آخرون بقولهم: إِنَّه الملكة التي تخلق الصورة الشعرية وتبثها، أو تلك التي يؤلف الأديب صوره بها [3]. ولا بُد لهذا الخيال من وعاءٍ ينقل فيه الأديب فكرته وإحساسه معاً إلى قُرَّائه وسامعيه، وهذا الوعاء هو الصورة الشعرية[4]. وقد لخص أحد الباحثين المُحدثين رأيه في الصورة الشعرية بعد استقراءٍ مطوَّل لآراء النقاد القدماء والمحدثين في هذا الخصوص، قائلاً: «فالصورة كما تبدو لي من خلال هذه المقارنة، عبارة عن العلاقة القائمة

(1) منهاج البلغاء: **89**، وينظر مفهوم الشعر، د. جابر عصفور: **241**، إذ ينقل آراء بعض العلماء حول أهمية الخيال في الشعر، وفي النقد الأدبي، د. شوقي ضيف: **167** وما بعدها .

(2) ينظر النقد الأدبي : **417**، والصورة الشعرية : **73** .

(3) ينظر الصورة الشعرية : **73**، وفصول في الشعر : **196** .

(4) ينظر أصول النقد الأدبي، الشايب : **242** .

بين اللفظ والمعنى في نصٍّ أدبي، والحصيلة الناجمة عن اقترانهما، فهي غيرهما منفصلين، وهي امتدادٌ لهما مجتمعين. فليست هي اللفظ بمفرده شكلاً فارغاً رنَّاناً، ولا المعنى بذاته مضموناً ذهنياً مجرَّداً، ولكنها الخصائص المشتركة بينهما والتي تتقوَّم بها شخصية النص الأدبي، وتتميز من غيرها من النصوص بما تحمله من أحاسيس وانفعالات قد لا يوحي بها ظاهر اللفظ، ولا يحققها مجرد المعنى، ولكنها مزيجٌ بين دلالة اللفظ وإيجابية المعنى في تحقيق أُنموذج أدبي، أو تمييز نصٍّ من نص، بما تضفيه صياغة الشكل في علاقاته الاستعارية، وما تمليه خصائص المعنى في تأثيره وأحاسيسه»[(1)].

ولا بُدَّ للشاعر عند تكوين صوره وأخيلته من الاعتماد على عناصر البيان من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز، وهي ليست غاية في ذاتها، إنَّما هي غاية لمعانٍ تمثِّلها[(2)]، وقد يلجأ الشاعر إلى ذاته فيرسم صوره من دون الاعتماد على شيءٍ من ذلك، «فالصورة تشكيل لغوي، يُكونها خيال الفنان من مُعطيات متعددة يقف العالم المحسوس في مُقدمتها. فأغلب الصور مستمدَّة من الحواس، إلى جانب ما لا يمكن إغفاله من الصور النفسية والعقلية»[(3)].

إنَّ الصور التي نحن بصدد دراستها والبحث عنها، صورٌ رثائيّةٌ، لا تخرج في أُطُرِهَا العامَّة عن ثلاثةِ أشكال؛ فهي إمّا صورة الموت الذي يُداهم الإنسان ولا يستطيع دفعه، وإمَّا صورة الفقيد الذي مثَّل موته خسارة لأهله وأُمَّته، وإمَّا صورة الراثي نفسه وما حلَّ به من همومٍ وأحزان .

صــورة المــوت:

لجأ الشعراء في تصويرهم الموت والطريقة التي يأتي بها، إلى التشخيص والتجسيم، فصوروه بالرجل الذي لا يقاوم لشدة بأسه وقوته تارةً، وبالكأس التي

---

(1) الصورة الفنية في المثل القرآني: 37، وينظر المصدر نفسه: 25 – 34 .

(2) ينظر في النقد الأدبي، د. شوقي ضيف: 173 .

(3) الصورة في الشعر العربي: 30 .

تَسقي شاربها السُّم الزعاف تارةً أُخرى ... إلى غيرها من الصور. وكان اعتمادُهم في ذلك على الاستعارة، لأنها أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع، ولذلك تبدو أقدر على الإثارة والتفكير. كما أنها «الوسيلة العُظمى التي يجمع الذهن بوساطتها في الشعر أشياء مختلفة لم توجد بينها علاقة من قبل، وذلك لأجل التأثير في المواقف والدوافع، وينجم هذا التأثير عن جميع هذه الأشياء. وعن العلاقات التي يُنشئها الذهن بينها»(1). وكثرة الاستعارات في تصوير الموت - بعد ذلك - أمرٌ طبيعي «لأنها هي التي تُلائم ثورة العاطفة وحدَّة الوجدان»(2).

ومن هذه الاستعارات المعبِّرة عن صورة الموت، ما جاء في رثاء الفرزدق للخليفة سليمان بن عبد الملك، إذ يصوِّر فيها الموت بالرجل القوي الذي لا طاقة للشاعر بقتاله أو الوقوف في وجهه، ويُردف في بيتٍ آخر فيُصوره بالكأس التي تسقي الملوك، والرداء الذي سَيَلْبَسُهُ الإنسان مهما امتدَّ العمر به وطال، فيقول(3):

مَا لِلمَنِيَّةِ لاتَزَالُ مُلِحَّةً تَعْدُو عَلَيَّ وَلا أُطِيقُ قِتَالَهَا
تَسْقِي المُلُوكَ بِكَأسِ حَتْفٍ مُرَّةٍ وَلَتُلْبِسَنَّكَ إِنْ أَرَدتَ جِلالَهَا

ويُكرر الشاعر وصف الموت، لكنه في هذه المرة ليس رجلاً عاديًّا، إنه رامٍ ماهر، لا تطيش سِهامه، ولا يُمكن رميه أو النيل منه، كما جاء في رثائه لوكيع بن أبي سود الغدَّاني، إذ يقول(4):

كَيْفَ بِدَهْرٍ لا يَزَالُ يَرُوْمُنِي بِدَاهِيَةٍ فِيْهَا أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ
وَكَيْفَ بِرَامٍ لا تَطِيْشُ سِهَامُه وَلا نَحنُ نَرْمِيْهِ فَنُدْرَكَ بِالنُبْلِ

---

(1) مبادئ النقد الأدبي: 310.
(2) في النقد الأدبي، د. شوقي ضيف: 171 .
(3) ديوانه: 2/ 83 .
(4) المصدر نفسه: 2/ 84.

صورة المرثي:

لمَّا كانت الاستعارة مناسبةً لتصوير الموت بما تحويه من صورٍ مجسَّمة وشخوصٍ مرئية؛ فإنَّ التشبيه يُناسب صورة المرثي وما كان عليه من شجاعةٍ وكرمٍ وحلمٍ إلى ما هنالك من صفاتٍ حميدة. لأنَّ التشبيه لا يُستعمل في حال الانفعال الشديد[1].

وهذا ما لمسناه في قصائد الرثاء ومقطَّعاته، إذ نلاحظ الشاعر وبعد أن يبكي ويذرف دموعه مدراراً، ترتاحُ نفسه وتهدأ ثورته، فيبدأ بعدها تعداد مناقب المرثي ومزاياه وفضائله[2]، وكانت وسيلته لذلك – في الأعم الأغلب – التشبيه، لأنه أكثر الصور دوراناً في الشعر. ولا غرابة في ذلك، فهو ليس أكثر هذه الفنون جرياناً في الشعر فحسب؛ إنَّما في كلام العرب بصورةٍ عامَّة[3]. ومردُّ ذلك عائدٌ إلى أنَّه «يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيدا»[4].

وقد استمد الشعراء تشبيهاتهم وصورهم من بيئتهم التي عاشوا في كنفها، من صحرائها المترامية، وجبالها العالية، وحيواناتها المختلفة. فضلاً عمَّا تُمثله السماء بكواكبها من دلالات رمزية في نفس الشاعر. في حين بقيت بعض الصور الأخرى منتزعة من دواخل الشاعر نفسه .

فمن التشبيهات البليغة التي استمدَّها الشعراء من بيئتهم، ما جاء في رثاء الجعد بن قيس لزياد بن أبيه إذ يشبهه بالجبل في علو منزلته وارتفاع شأنه، فيقول[5]:

---

(1) ينظر في النقد الأدبي: 171.

(2) لا يمكن الجزم بأن جميع المراثي قد سارت على هذا النهج، فمنها ما كان تأبيناً خالصاً، ومنها ما كان عزاءً أيضاً، ومنها ما ابتُدئ بالتأبين وخُتم بالندب.

(3) ينظر الكامل في اللغة والأدب: 3/ 93 .

(4) الصناعتين، للعسكري: 243، وينظر العمدة : 287 .

(5) الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام: 1/ 316 – 317، وينظر في المعنى نفسه، الأغاني: 17/ 215، في رثاء ابن عباس للخليفة معاوية بن أبي سفيان .

كَانَ زِيَـادُ جَبَلاً صَعْبَ الـذُّرا   شَهْمَاً إِذا سِيْمَ نَقِيْصَاتٍ أَبى

ومن تلك التشبيهات التي استمدُّوها من البيئة أيضاً، ما جاء من تشبيههم للدموع وشدة انهمارها، بالسيل في المنحدر، كما جاء في رثاء صفية بنت عبد الملك لأبيها، إذ تقول[1]:

فَفَاضَتْ عِنْدَ ذَلِكُمْ دُمُوْعِي   علَى خَـدِّي كَمُنْحَدَرِ الغَرِيْدِ

ويُشبه عُبيد الله بن قيس الرقيات كرم طلحة الطلحات بالبحر في سعته وشموله جميع المحتاجين، فيقول[2]:

إِنَّمَا كَانَ طَلْحَةُ الخَيْرِ بَحْراً   شَقَّ للمعْتَفينَ مِنْهُ بُحُوْرُ[3]

ثُمَّ كَانَ الَّذِي تَلقَّاكَ مِنْهُ   نَائِلٌ وَاسِعٌ وَسِيْبٌ غَزِيْرُ

ومن تشبيههم بالحيوان، ما جاء في رثاء أبي نخيلة للجنيد بن عبد الرحمن المري، إذ يشبِّه كتائبه وهي زاحفةٌ إلى أرض المعركة، بحركة القطا وما تثيره من غُبار، فيقول[4]:

فَتىً كَانَ يَسْرِي لِلْعَدُوِّ كَأَنَّمَا   عَجَاجُ القَطَا فِي كُلِّ يَوْمٍ كَتَائِبُهْ

ويتجه أبو نُخيلة في نظره إلى السماء، فينتقي أجمل ما فيها وهو البدر، فيشبه الجنيد بن عبد الرحمن به، وهو يسير بجيشه إلى لقاء العدو، فيقول[5]:

وَكَانَ كَأَنَّ البَدْرَ تَحْتَ لِوَائِه   إِذَا سَارَ فِي جَيْشٍ وَرَاحَتْ عَصَائِبُهْ

ومن التشبيهات التي امتزجت فيها صور البيئة الحية والجامدة؛ ما جاء في

---

(1) حماسة الظرفاء: 1/ 93 .

(2) ديوانه: 17 – 18، وينظر في المعنى نفسه، منتهى الطلب من أشعار العرب: 7/ 393، في رثاء حُميد ابن ثور الهلالي للخليفة عبد الملك بن مروان .

(3) المعتفون: ذوو الحاجة من الفقراء وغيرهم .

(4) تاريخ دمشق: 11/ 326.

(5) تاريخ دمشق : 11/ 326 .

رثاء كثيِّر عزَّة للخليفة عمر بن عبد العزيز، إذ شبَّه الخليفة بالحصن المنيع، وعرين الأسود، الذي يحمي أُمَّته ويذود عنها، فقال[1]:

لَقدْ كُنْتَ لِلْمَظْلُوْمِ عِـزّاً وَنَاصِراً إِذَا مَا تَعْيَا فِي الأُمُـورِ حُصُونُهَا
كَمَا كَـانَ حِصْناً لا يُـرَامُ مُمَنَّعَا بِـأَشْبَـالِ أُسْـدٍ لا يُـرَامُ عَرِيْنُهَـا

ولم يكتف الشعراء بما حولهم من مظاهر الطبيعة، إذ امتدَّت أبصارهم إلى السماء فأخذوا يشبهون موتاهم بما تحويه من أجرام سماوية، كالشمس والقمر والنجوم والشُّهُب...، فكانت تشبيهاتهم مادةً غزيرة للكشف عن جوانب الحياة والطباع والسلوك والنشاط الإنساني في أطوار البداوة والحضارة[2]. فالنار في الليل تحمل أكثر من دلالة ومعنى، منها الاهتداء في الليل، ومنها الكرم، ومن هذا المنطلق شبَّه الفرزدق محمد بن العاص بشهاب الليل في ارتفاع ناره، إِذْ يقول[3]:

فَتىً كَشِهَابِ الليل يَـرْفَـعُ نَـاره إِذَا النَّارُ أَخْبَاهَا لِسَارٍ ضِرَامُهَا

وقد جاء تشبيه أبي عطاء السندي لنصر بن سيار بالمصباح، كدلالةٍ على أهميته في حياتهم، فهو يجلو الطريق للسَّاري، فقال[4]:

مِنْ كُلِّ أَبَيَضَ كَالمِصْبَاحِ مِنْ مُضَرٍ يَجْلُو بِسُـنتِه الظَّلْمَاءَ للسَّـارِي

وشبَّه جرير المرار بن عبد الرحمن بالبدر، فقال في رثائه[5]:

لَمَّا غَـــدوا بـأَغَـرَّ أرْوَعَ مَاجِـدٍ كَالبَـدْرِ تُسْـقَى بِـهِ الأَمْطَـارُ

ومن تشبيههم بالشمس، ما جاء في رثاء سراقة البارقي لمحمد بن مخنف،

(1) ديوانه: 177، وينظر في المعنى نفسه، ديوان الفرزدق: في رثاء عبد الله بن ناشرة، وتاريخ دمشق: 18/ 202، في رثاء ابن ميَّادة للخليفة الوليد بن يزيد .
(2) ينظر غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات: 19 .
(3) ديوانه : 2/ 191 .
(4) الأغاني : 17/ 333 .
(5) ديوانه : 215، وينظر في المعنى نفسه، شعر زياد الأعجم : 68، في رثاء المغيرة بن المهلب.

إِذْ يقول[1]:

أَغَــرُّ كَقَرْنِ الشَّمْسِ أَرْوَع مَاجِدٌ نَجِيبٌ عَــنِ الأَعْــدَاءِ لَيْسَ بِنَاكِلِ

ومن تشبيههم بالنجوم والقمر، ما جاء في رثاء جرير للخليفة الوليد بن عبد الملك، إذ يقول[2]:

أَمْسَى بَنُوْهُ وَقَــدْ جَلَّتْ مُصِيْبَتُهُمْ مِثْلَ النُّجُوْمِ هَوَى مِنْ بَيْنِهَا القَمَرُ

وفضلاً عن مناسبة التشبيه لوصف حال المرثي، فإنَّ هناك فنوناً بلاغيَّةً أُخرى لا تقلُّ أهميَّةً عنه؛ بل تعطيه بُعداً آخر، ومن تلك الفنون الكناية، إذ جاءت في معرض رثاء زياد الأعجم للمغيرة بن المهلب، يصف فيها كثرة القتلى في صفوف الأعداء، حتى أنَّ الخيل خاضت في دمائهم إلى النحور، فقال[3]:

وَالخَيْلُ تَعْثُرُ فِي الدِّمَاءِ وَقَدْ جَرَى فَــوْقَ النُّحُوْرِ دِمَــاؤُهَــا بِسَــرَائِحِ

وقد كنَّى الفرزدق في رثائه لسعيد بن أسلم عن أهمية كرمه والوقت الذي يظهر فيه، وهو وقت القحط والجدب وهبوب الرياح الباردة، فقال[4]:

لَقَدْ ضَمِنَتْ أَرْضٌ بِاصطَخْرٍ مَيْتاً كَرِيْماً إِذَا الأَنْــوَاءُ خَفَّ سَحَابُهَا

وفي المعنى نفسه، بَيَّن عُبيد الله بن قيس الرقيات، الوقت الذي يبرز فيه كرم طلحة الطلحات، وذلك من خلال صورٍ معبِّرةٍ لا أدلَّ عليها من نفسها، إذ يقول[5]:

وَيُــبَــارِي الصَّبَا بِجَفْنَتِهِ الشِّيــ ــزَى إِذَا هَاجَتِ الصِّبَا الزَّمْهَرِيْر
حِيْنَ لا يَنْبَحُ العَقُوْرُ مِــنَ القُــ ــرِّ وَلا يُغْبَقُ الوَلِيْدُ الصَّغِيْرُ[6]

---

(1) ديوانه : 81 .

(2) ديوانه :296، وينظر في المعنى نفسه، ديوان الفرزدق: 1/ 217، في رثاء بشر بن مروان، والمصدر نفسه: 1/ 186، في رثاء عبد العزيز بن مروان.

(3) شعره: 65 .

(4) ديوانه: 1/ 89 .

(5) ديوانه: 18 .

(6) العَقور: الكلب، والقُرْ: شدة البرد، ويُغْبَق: يُعْطَى رَضعة المساء، والشِّيز: خشبٌ تُعمل منه =

وكان للألوان نصيبٌ وافرٌ في صور الشعراء وأخيلتهم، إذْ أرادوا أن يجعلوا صورهم أقرب إلى النفس، وأوضح في الذهن، وألصق في الخيال[1]. وكان في مقدِّمة هذه الألوان، اللون الأبيض، لما يرمز له من طهارةٍ ونقاء. إذْ جاء في رثاء أبي حزَّابة لعبد الله بن ناشرة، ما يُؤيد ذلك بقوله[2]:

لَعَمْرِي لَقَدْ هَدَّتْ قُرَيْشٌ عُرُوْشَنَا بِأَبْيَضَ نَفَّاخ العَشيَّاتِ أَزْهَرَا

وعبَّروا باللون الأحمر عن الدم والموت، إذ جاء ذلك في معرض فخر الطرمَّاح بقومه الذين قتلوا قتيبة بن مسلم الباهلي، إذ يقول[3]:

وَالأَزْدُ تَعْلَمُ أَنَّ تَحتَ لِوَائِهَا مُلْكاً قَرَاسِيةً وَمَوْتٌ أَحْمَرُ

ومن الشعراء من استمدَّ صوره من دواخل نفسه، فلم يعتمد على استعارةٍ أو تشبيه، أو غيره من الفنون. فقد جاء في رثاء أبي جلدة لمسمع بن مالك ما يؤكِّد ذلك، فالشاعر يتوجَّه بالخطاب إلى نفسه، مُعزِّياً ومواسياً، فيقول[4]:

أَقُوْلُ لِلنَّفْسِ تَأْسَاءً وَتَعْزِيَةً قَدْ كَانَ مِنْ مسْمِعٍ فِي مَالِكٍ خَلَفُ
يَا مُسْمِعَ الخَيْرِ مَنْ نَدْعُو إِذا نَزَلَتْ إِحْدَى النَّوائِبِ بِالأَقْوَامِ وَاخْتَلَفُوا
تِلْكَ العُيُوْنُ بِحَيْثُ المِصْرُ سَادِمَةٌ تَبْكِيْكَ إِذْ غَالَكَ الأَكْفَانُ وَالجُرُفُ

ومثله ما جاء في رثاء حمزة بن بيض الحنفي لمخلد بن يزيد، إذ فُلَّ نَابُهُ، وكثُر اكتِئابُه، فقال[5]:

= الجفان، والزمهرير: الباردة .

(1) ينظر دراسات في الشعر الجاهلي: **161**، وللمستزيد ينظر ما كتبه الدكتور نوري القيسي عن دلالة الألوان في الشعر الجاهلي، المصدر نفسه: **161-176**.

(2) الأغاني: **22/ 259**، وينظر في المعنى نفسه، ديوان عُبيد الله بن قيس الرقيات: **20**، في رثاء طلحة الطلحات .

(3) ديوانه: **248** .

(4) شعراء أمويون: **4/ 348-349**.

(5) تاريخ دمشق: **57/ 170 - 171** .

أَمُخَلَّدُ هِجْتَ حُزْنِي وَاكْتِئَابِي وَفُلَّ عَلَيْكَ يَوْمَ هَلَكْتَ نَابِي
وَعُطِّلَتِ الأَسِرَّةُ مِنْكَ إِلَّا سَرِيْرك يَوْمَ تُحْجَبُ بِالثِّيَابِ
وَآخِرُ عَهْدِنَا بِكَ يَوْمَ يُحْثَى عَلَيْكَ بِدَابِقٍ سَهْلُ التُّرَابِ

صورة الراثي:

جاء حديث الشعراء عن أنفسهم، وما أصابهم بعد فقدهم، مفعماً بالأسى والحزن، مبيناً ما أصابهم من أرقٍ وهمٍّ وشحوب وضعف. إِذْ كانت مخاطبة العين والطلب منها أن تذرف الدموع - مع ما رافق ذلك من صورٍ بلاغية - الأبرز بين تلك الصور، إذ جاء في رثاء سراقة البارقي لعبد الرحمن بن مخنف ما يوضح ذلك. فقد طلب الشاعر من عينيه أن تجود بالدموع الغزيرة، وشبه كثرة انسكابها بالقربة الممزقة، فقال[1]:

أَعَيْنَيَّ جُوْدَا بِالدُّمُوْعِ السَّوَاكِبْ وَكُوْنَا كَوَاهِيَ شَنَّةٍ مَعَ رَاكِبْ

وهذا الفرزدق يدخل في حوارٍ عاطفي مع نفسه، وكأنها شخصٌ آخر، إِذ يطلب منها أن تسعفه ولو بعبرةٍ على فراق بشر بن مروان، وهذا أقل القليل، وإِلَّا سيوجه لها اللوم والعتاب، علَّ تلك الدمعة أن تشفي صدره السقيم وتطفئ حرارته اللاهبة. ويختتم هذه الصور المحزنة بأن يجد لنفسه العذر، قائلاً: لو أن الموت رجلٌ لقاتلناه ودفعنا المنية عن بشر، ولكن لا طاقة لنا بذلك. فيقول[2]:

أَعَيْنَيَّ إِلَّا تُسْعِدَانِي أَلُمْكُمَا فَمَا بَعْدَ بِشْرٍ مِنْ عَزَاءٍ وَلا صَبْرِ
وَقَلَّ جَدَاءً عَبْرَةٌ تَسْفَحَانِهَا عَلَى أَنَّهَا تَشْفِي الحَرَارَةَ فِي الصَّدْرِ
وَلَو أَنَّ قَوْماً قَاتَلُوا المَوْتَ قَبْلَنَا بِشَيْءٍ لَقَاتَلْنَا المَنِيَّةَ عَنْ بِشْرِ

وقد أكثر الشعراء من التمثل بصور الشيب الذي علا رؤوسهم، لهول المصيبة التي حلَّت بهم، فاستعانوا بتلك الصور في التعبير عن أساهم، إذ جاء ذلك في رثاء

(1) ديوانه: 85 .

(2) ديوانه: 1/ 217 .

منقذ ابن عبد الرحمن الهلالي لعمر بن يزيد الأسدي، فقال[1]:

مَـنَـعَ الـعَـزَاءُ حَـرَارَةَ الـصَّـدْرِ   وَالـحُـزْنُ حَلَّ عَقْدَ عَزِيْمَةِ الصَّبْر
لَمَّـا سَـمِعْتُ بِوَقْعَـةٍ شَـمِلَتْ   بِالشَّـيْبِ لَـوْنَ مَفَـارِقِ الشَّـعْرِ

أَمَّا في رثاء ثابت قطنة للمفضل بن المهلب، فتتداخل الصور وتمتزج، لتخرج مزيجاً هدف الشاعر من ورائه إلى التعبير عمَّا أصابه من ضعفٍ حنى ظهره، وشيبٍ غزا رأسه، وهمٍ لا يفارقه، فقال[2]:

لَمَّا حَنَى الدَّهْرُ مِنْ قَوْسِي وَعَذَّرَنِي   شَيْبِي وَقَاسَيْتُ أَمْرَ الغلْظِ وَاللِيْنِ
إِذَا ذَكَـرْتُ أَبَـا غَسَّـانَ أَرَّقَنِـي   هَمٌّ إِذَا عرس السَّارُونَ يُشْـجِيْنِي

وقد استعار الحكم بن عبد الله الذي أصابه بفقد بشر بن مروان، صورة الرجل الذي لا ينفك يأتيه صباحاً ثُم يعاود في المساء، فقال[3]:

إِنِّـي لَفِـي هَـمٍّ يُبَاكِرُنِـي   مِنْـهُ وَطَـارِقٍ يَسْـرِي

ومن صور استعمالهم للمجاز، الذي يضم التشبيه والاستعارة[4]. ما جاء في رثاء عبد الملك بن مروان، لأمية بن خالد بن أُسيد، وخالد بن يزيد بن معاوية، وروح بن زنباع، الذين تُوفوا في سنةٍ واحدة، إذ جعلهم بمثابة الخيط الذي يشُد سريره بهم، فقال[5]:

أَشُـدُّ بِهِم رُكنِي سرِيْرِي وَمَوْكِبِي   فَكَيْفَ بِصَبْرِي بَعْدَهُـمْ وَعَزَائِيَا

وقد كنُّوا عمَّا أَصابهم بموت المرثي من حزنٍ وألم، بحيث جعل هذا المُصاب، كبار السن ينسون حلمهم فيبكون، وعجَّل في رؤوس الشبَّان الشَّيْب.

(1) تاريخ الطبري: 6/ 109 .
(2) شعره: 64.
(3) شعره: 108.
(4) ينظر فصول في الشعر: 169 .
(5) أنساب الأشراف: 11/ 234 .

جاء ذلك في رثاء سراقة البارقي لعبد الرحمن بن مخنف، إذ يقول[1]:

أَمَارَ دُمُـوْعَ الشِّيْبِ مِنْ أَهْلِ مِصْرِهِ وَعَجَّلَ فِي الشُّبَّانِ شِيْبَ الذَّوَائِبِ

وهكذا استطاع الشعراء التعبير عن مشاعرهم من خلال رسم بعض الصور الشعرية المؤثرة، التي استطاع خيالهم المبدع تجسيدها بحيث جعلتنا نشاركهم مشاعرهم وانفعالاتهم، ونعيش آلامهم، وكان سبيلهم إلى ذلك بعض الفنون البلاغية، والتي كان من أهمها التشبيه والاستعارة والكناية ... وغيرها .

(1) ديوانه: 85 .

المبحث الرابع
الموسـيقى الشـعريَّة

أ- الـوزن:

وهو ركنٌ مهمٌّ من أركان الشـعر، إذ لا بُدَّ للكلام أن يستوفيه حتَّى يكون شـعراً، «فالشعر قولٌ موزونٌ مقفًّى...»[1]، كما أنَّه «أعظم أركان حد الشعر وأولاهما به خصوصيَّةً»[2]، وَلِمَا له من أهميَّة في تشكيل الإيقاع العام للقصيدة - بوصفه الإطار الخارجي للنص الشعري - فإنَّها تستمد إيحاءها ودلالتها من البحر الشعري الذي يُضفي عليها إيقاعاً خاصًّاً يُسهِمُ إلى حدٍّ كبير في ترجمة عواطف الشاعر ونقلها إلى الآخرين، وكان الجاحظ من أوائل من تكلَّموا في أهمية الصوت وأثره في المستمعين[3].

وقد كانت مسألة الربط بين الأوزان الشعرية وموضوعاتها، مثار نقاشٍ وجدل بين النقاد، «فالعلاقة بين الوزن وموضوع القصيدة من أعقد القضايا النقديَّة التي لمَّا يستقر النقد فيها على رأيٍ وقرار»[4]. ولم تكن هذه المسألة بعيدةً عن اهتمام نقادنا القدامى، إذ أشار ابن طباطبا إليها قائلاً: «إذا أراد الشاعر بناء قصيدةٍ مخَّضَ المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثراً، وأعدَّ له ما يُلبسه إيَّاه من الألفاظ التي تُطابقه

(1) نقد الشعر: 15 .

(2) العمدة: 1/ 134 .

(3) ينظر ما قاله الجاحظ عن الأصوات وأهميتها في التأثير على المستمعين، فمنها ما يُحزن، ومنها ما يُفرح، ومنها ما يُخوِّف ...، يُنظر الحيوان: 4/ 191 – 192 .

(4) بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء الحديث: 161.

والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس القول عليه»[1]. وذهب القرطاجني أبعد من ذلك فقال مفصِّلاً: «لمَّا كانت أغراض الشعر شتَّى، وكان منها ما يُقصد به الجدّ والرّصانة، وما يُقصد به الهزل والرشاقة، ومنها ما يُقصد به البهاء والتفخيم، وما يُقصد به الصغار والتحقير، وجب أن تُحاكى تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان ويُخيلها للنفوس، فإذا قصد الشاعر الفخر، حاكى غرضه بالأوزان الفخمة الباهية الرَّصينة، وإذا قَصد في موضعٍ قَصداً هزليّاً أو استخفافيّاً وقَصد تحقير شيء أو العبث بِه، حاكى ذلك بما يُناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء، وكذلك في كُلِّ مقصد ... »[2]. وقريبٌ منه ما قاله أبو هلال العسكري من أنَّ على الشاعر اختيارَ وزنٍ مناسبٍ للمعنى الذي يريد التعبير عنه[3].

وتبعاً لذلك فقد انقسمت آراء النقاد المحدثين في مسألة المناسبة بين الأوزان الشعرية والأغراض على فريقين: فمنهم من كان في رأيه موافقاً لآراء النقاد القدماء، ومنهم مَنْ لم يوافق على هذه المناسبة. ومستند الفريق الأول في ذلك كما عبَّر عنه عبد الله الطيب المجذوب بقوله: ... إنَّ اختلاف أوزان الشعر العربي يعني بالضرورة اختلاف الموضوعات؛ وإلَّا فقد أغنى بحرٌ واحدٌ ووزنٌ واحد ... فكلُّ تجربةٍ شعورية تفرض وزنها الخاص، كما تفرض كيفية خاصَّة أيضاً في تشكيل الإيقاع[4]. وغاب عن أذهان هؤلاء أنَّ الشاعر يستطيع أن يعبِّر عن حزنه وسروره في وزنٍ واحد، وعملية استقراء بسيطة تؤكِّد لنا ذلك[5].

والحقيقة أنَّ كل ما يشيع من آراء وأفكار حول صلاحية وزنٍ ما لموضوعٍ ما، ليس أكثر من استنتاجات جاءت بعد دراسة الشعر واستقراء موضوعاته وأوزانه إلى حدٍّ ما، فهي إذن نتائج لا قواعد وأُسس يمكن الاعتماد عليها في إصدار الأحكام

---

(1) عيار الشعر: 5 .
(2) منهاج البلغاء: 266 .
(3) ينظر الصناعتين: 157 .
(4) ينظر المرشد إلى فهم أشعار العرب: 1/ 72 .
(5) ينظر الشعر العربي المُعاصر: 55 .

الجازمة[1].

أمَّا الفريق الآخر، والذي أميل إلى رأيه بهذا الخصوص، فيُلخصه الدكتور إبراهيم أنيس بقوله: «... إنَّ استعراض القصائد القديمة وموضوعاتها لا يكاد يُشعرنا بمثل هذا التخير أو الربط بين موضوع الشعر ووزنه، فهم كانوا يمدحون ويُفاخرون أو يتغزلون في كل بحور الشعر التي شـاعت عندهم ... من دون أن يتخيروا وزناً خاصاً لموضوعٍ خاص»[2]. ثُمَّ إِنَّ الشاعر عندما يتأثر بحدثٍ ما، لا ينتظر في التعبير عنه حتى يهيئ بحراً يُناسبه وقافيةً يسير عليها ؛ وإِنَّما يأتيه ذلك عفو الخاطر. «فالشاعر عندما تجيش نفسه بالشعر لا يضع في حسبانه بحراً أو قافية، وإنَّما يأتي هذا طواعيةً لِيُلائم بين أحاسيسه وانفعالاته، بحكم أنَّ الوزن والقافية جزءٌ لا يتجزَّأ من العمل الشعري، وبحكم أنَّ الصوت الموسيقي ليس لحناً خارجيّاً بقدر ما هو عنصر متفاعل وملتحم مع بقيَّة عناصر النص الشعري»[3].

وذهب بعضهم إلى أنَّ مَنْ يحاول ترصُّد البحث عن وزنٍ وقافيةٍ أو شكلٍ يصبُّ فيه أفكاره ليخرج بقصيدةٍ ما، بأنَّه ليس من الشعر في شيء. «فالشاعر حين يُريد أن يقول شعراً لا يُحدد لنفسه بحراً بعينه، وإِنَّما هو يتحرَّك مع أفاعيل نفسه، فيخرج الشعر في الوزن الذي يصدف له من الأوزان»[4].

والشاعر الحقيقي لا طاقة له ولا حول في اختيار الوزن ... فالشعر يصنع نفسه بنفسه بعد أن ينضج موضوع القصيدة وتختمر تجربتها، وإلَّا تحوَّل الشعر من تجربةٍ شعورية إلى تجربةٍ مادِّية صرفة يعد الشاعر كلَّ شيءٍ فيها إعداداً[5].

إزاء ما تقدَّم من آراء، واستدلال كلَّ ذي رأيٍ على صحَّة رأيه، بما ساقه من

---

(1) ينظر بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء الحديث: **163 – 164** .

(2) موسيقى الشعر: **177** .

(3) عضوية الموسيقى في النص الشعري: **154** .

(4) الأسس الجمالية في النقد العربي : **376** .

(5) ينظر شعر الهذليين، أحمد كمال زكي : **235** .

أدلة، فإنني أجد أنَّ أقرب الآراء إلى الصواب، ما حاول الربط بين العاطفة والوزن وليس بين الموضوع الشعري والوزن، وهو مذهب عدد من النقاد[1].

وللوقوف على الأوزان التي شاعت في هذه المراثي تبعاً لذلك، فقد أجريتُ عمليةً إحصائيةً للبحور التي سارت عليها، ولكثرة المادة التي ندرسها فقد انتخبت مجموعة من الشعراء أصحاب الدواوين وغيرهم، إذ بلغ مجموع القصائد والمقطعات في هذه المجموعة **(69)** تسعةً وستين قصيدةً ومقطوعة، يمكن لنا من خلالها الوقوف على مجموعة من الحقائق التي تدل نتائجها على مغايرة بعض الآراء النقدية لمجموعة من النقاد القدماء والمحدثين .

---

(1) تنظر هذه الآراء في، بناء القصيدة العربية في النقد العربي القديم في ضوء الحديث: **167 – 168**، وينظر شعر أوس بن حجر ورواته الجاهليين: **507** .

1 – الأوزان

		الطويل	البسيط	الكامل	الوافر	الخفيف	المديد	المتقارب	الهزج
الفرزدق	عدد القصائد	7	1	1	–	–	–	–	–
	عدد المقطوعات	8	4	2	–	–	–	–	–
كثير عزة	عدد القصائد	4	–	–	–	–	–	–	–
	عدد المقطوعات	2	2	1	–	–	–	–	–
سراقة البارقي	عدد القصائد	2	–	–	–	–	–	–	–
	عدد المقطوعات	2	–	1	–	–	–	–	–
الشمردل ابن شريك	عدد القصائد	3	–	–	–	–	–	–	–
	عدد المقطوعات	–	–	1	–	–	–	–	–
ثابت قطنة	عدد القصائد	1	–	–	1	–	–	–	–
	عدد المقطوعات	2	1	–	–	–	–	–	–
الطرمّاح	عدد القصائد	1	–	–	–	–	–	–	–
	عدد المقطوعات	1	–	–	–	–	1	–	–
جرير	عدد القصائد	–	–	1	–	–	–	–	–
	عدد المقطوعات	1	–	1	1	–	–	–	–
عبيدالله بن قيس الرقيات	عدد القصائد	–	–	–	–	2	–	–	–
	عدد المقطوعات	–	–	1	–	–	–	–	–
الاحوص الأنصاري	عدد القصائد	–	–	1	–	–	–	–	–
	عدد المقطوعات	–	1	–	–	–	–	–	–
عبد الله بن همام السلولي	عدد القصائد	–	–	–	1	–	–	–	–
	عدد المقطوعات	–	–	–	–	–	1	–	–

		الطويل	البسيط	الكامل	الوافر	الخفيف	المديد	المتقارب	الهزج
ابن ميادة	عدد القصائد	–	–	–	1	–	–	–	–
	عدد المقطوعات	–	–	1	1	–	–	–	–
زياد الأعجم	عدد القصائد	–	–	–	1	–	–	–	–
	عدد المقطوعات	–	–	–	–	–	–	–	–
عويف القوافي	عدد القصائد	–	–	–	–	–	–	–	1
	عدد المقطوعات	1	–	–	–	–	–	–	–
الوليد بن يزيد	عدد القصائد	–	–	–	–	–	–	–	–
	عدد المقطوعات	–	–	–	1	–	–	1	–
أبو حزّابة	عدد القصائد	–	–	–	–	–	–	–	–
	عدد المقطوعات	–	–	–	–	–	–	–	–
المجموع	عدد القصائد	18	1	3	4	2	–	–	1
	عدد المقطوعات	17	8	8	3	–	2	1	–

من خلال هذه الإحصائية يتبين لنا، ميل هؤلاء الشعراء إلى الأوزان الطويلة وعلى الأخص منها البحر الطويل، ولا غرو في ذلك؛ فقد بنت العرب شعرها في أغلبه على البحور الطويلة لا سيما البحر الطويل، وفي ذلك يقول المعري: «... ويقال إنَّ العرب كانت تسمِّي الطويل الركوب لكثرة ما كانوا يركبونه في أشعارهم»[1]. فقد «نُظم منه ما يقرب من ثلث الشعر العربي، وأنه الوزن الذي كان القدماء يؤثرونه على غيره ويتخذونه ميزاناً لأشعارهم، لا سيما في الأغراض الجدِّية الجليلة الشأن»[2]. وفضلًا عن مناسبة البحور الطويلة لجميع الأغراض

---

(1) الفصول والغايات: 1/ 212 – 213.

(2) موسيقى الشعر: 191.

الشعريَّة؛ فإنَّها في الرثاء ذات قدرة واسعة على استيعاب التدفق النفسي المتنامي داخل البيت الشعري الواحد، وهي من أصلح الأوزان الشعرية في معالجة القضايا الجادَّة، **عدد المقطوعات** ومنها الرثاء[1]، ويمكننا رؤية مظاهر هذه الجدَّة في مرثية كثير عزة في الخليفة عمر بن عبد العزيز، التي بلغت ثلاثين بيتاً، إذ إنها لم تأخذ منحى الرثائية التقليدية من ندبٍ أو تأبينٍ أو عزاء، بحيث يمكن الفصل بين هذه الموضوعات، وإنما جاءت المرثية تحمل كل ذلك دفعةً واحدة. يقول فيها[2]:

لَقَدْ كُنْتَ لِلْمَظْلُوْمِ عِـزّاً وَنَاصِـراً ... إِذَا مَا تَعْيَـا فِـي الأُمُـورِ حُصُونُهَا

كَمَا كَـانَ حِصْناً لا يُـرَامُ مُمَنَّعاً ... بِأَشْـبَالِ أُسْـدٍ لا يُـرَامُ عَرِيْنُهَـا

وَلِيْتَ فَمَا شَـانَتْكَ فِيْنَا وِلايَـةٌ ... وَلا أَنْتَ فِيْهَـا كُنْتَ مِمـنْ يَشِيْنُهَا

فَعَفَّتْ عَنِ الأَمْـوَالِ نَفْسُـكَ رَغْبَةً ... وَأَكْـرِمْ بِنَفْسٍ عِنْـدَ ذَاكَ تَصُونُهَا

وَعَطَّلْتَهَا مِـنْ بَعْدِ ذَلِكَ كَالَّـذِي ... نَهَى نَفْسَهُ إِنْ خَالَفَتْـهُ يُهِينُهَـا

كَدَحْتَ لَهَـا كَدْحَ امرِئٍ مُتَحَـرِّجٍ ... قَدْ أَيْقَـنَ أَنَّ اللهَ سَـوْفَ يَدِيْنُهَـا

فَعِشْتَ حَمْيداً فِي البَرِيَّةِ مُقْسِـطاً ... تُـؤَدِّي إِلَيْهَـا حَقَّهَا مَا تَخُوْنُهَـا

وَمُـتَّ فَقِيْداً فَهْيَ تَبْكِي بِعَوْلَـةٍ ... عَلَيْكَ وَحُـزْنٍ مَـا تَجِفُّ عُيُوْنُهَا

وكذلك جاءت بقية البحور الطويلة، كالبسيط[3]، والكامل[4]، والوافر[5]...، لتوائم عواطف الشعراء التي استطاعوا من خلالها التعبير عمَّا يجيش في صدورهم من مشاعر وأحاسيس جعلتنا نعيش معهم أحداثها.

وفضلاً عمَّا بينته الإحصائية من ميل واضحٍ لدى الشعراء نحو البحور

---

(1) ينظر شعر أوس بن حجر ورواته الجاهليين: **514**.

(2) ديوانه: **177 – 179**، وينظر المصدر نفسه: **179**، والتعازي والمراثي: **63**، وأخبار القضاة: **3/ 33**.

(3) ينظر ديوان الفرزدق: **1/ 235** .

(4) ينظر ديوان جرير: **215-216** .

(5) ينظر المصدر نفسه: **225** .

الطويلة؛ فقد أوضَحَتْ جَوَانباً مُهمَّةً أُخرى، وهو ما نستطيع الرد من خلاله على بعض الباحثين القدماء والمحدثين. إِذْ جاء في حديث القرطاجني عن ملاءمة بعض البحور لغرض الرثاء قوله: «... وَلِما في المديد والرمل من اللين كانا أليق بالرثاء»[1]، في حين جاءت نتائج الإحصائيَّة لتبين خلو المراثي من أحد هذين البحرين وهو الرمل، في حين جاء المديد بنسبةٍ قليلةٍ لم تتعدَّى مقطوعتين، وليكون هذا الحكم أكثر تأكيداً، فقد أحصيت القصائد والمقطوعات المتبقية والتي لم تدخل ضمن هذه الإحصائية، وكانت النتيجة مقاربة لِمَا تمَّ التوصُّل إليه .

ومن النقاد المحدثين مَنْ ذهبَ إِلى أَنَّ الشاعر في حالة اليأس والجزع يتخير غالباً وزناً طويلاً كثير المقاطع يصبُّ فيه أشجانه ما ينفِّس عن حزنه وجزعه. فإذا قيل الشعر وقت المُصيبة والهلع تأَثَّر بالانفعال النفسي وتطلَّب بحراً قصيراً يتلاءم وسرعة التنفُّس وازدياد النبضات ا لقلبيَّة، ومثل هذا الرثاء الذي ينظم وقت الهلع والفزع لا يكون عادةً إلَّا في صور مقطوعة قصيرة[2]، والحقيقة أننا لم نقف على أنموذجٍ نظم الشاعر فيه على البحور السريعة القصيرة، علماً أن كثيراً منها قيل وقت وقوعِ المصيبة والهلع، ولكنها نُظمت على البحور الطويلة، وهو عكس ما توصَّل إليه الباحث. ومن تلك المراثي التي قيلت عقب وقوع المصيبة، وهو وقت العلم بها بالنسبة للراثي؛ ما جاء في رثاء يزيد بن معاوية لأبيه بعدما أخبره البريد بنعيه، وهي قصيدةٌ بلغت عشرة أبيات من البحر البسيط، الذي يستعمل لإيقاعه المترجّح بين الرنين السريع والامتداد الهادئ الحزين[3]، فقال[4]:

جَـاءَ البَرِيْدُ بِقِرْطَاسٍ يَخُـبُّ بِـهِ … فَأَوجَسَ القَلْبُ مِنْ قِرْطَاسِهِ فَزَعَا

قُلْنَا لَكَ الوَيْلُ مَاذَا فِي صَحِيْفَتِكُمْ … قَـالَ الخَلِيْفَةُ أَمْسَـى مُثْبَتاً وَجِعَا

---

(1) منهاج البلغاء: **269** .

(2) ينظر موسيقى الشعر: **177 – 178** .

(3) ينظر شعر أوس بن حجر ورواته الجاهليين: **516** .

(4) شعره: **25**، وأنساب الأشراف: **5/ 161** .

فَمادَتِ الأرْضُ أو كَادَتْ تَمِيْدُ بِنَا كَـأنَّ أَغْـبَرَ مِـنْ أركَـانِـهِ انْقَلَعَا
لَمَّا انتَهَيْنَا وَبَـابُ الـدَّارِ مُنْصَفِقٌ لِصَوْتِ رَمْلَةَ رِيعَ القلبُ فانْصَدَعا

ومن جانبٍ آخر بينت الإحصائية أن الشاعر نظم في البحور الطويلة البيتين والثلاثة، إلى جانب الأبيات الطويلة، ومن تلك المراثي التي نُظمت على البحور الطويلة وهي لا تتجاوز الثلاثة أبيات، ما جاء في رثاء الفرزدق لوكيع بن أبي سود الغدَّاني إذ يقول من الطويل[1]:

عَلَى ابْنِ أَبِي سُوْدٍ تَفِيْضُ دُمُوْعِي وَمَـنْ لِمِرَاسِ الحَرْبِ بَعْدَ وَكِيْعِ
لَقَدْ كَـانَ قَـوَّادَ الجِيَادِ إِلى الوَغَى عَلَيْهِـنَّ غَـابٌ مِـنْ قَنـاً وَدُرُوْعِ
تَقُوْلُ تَمِيْمٌ بَعْدَمَـا فُجِعُوا بِـهِ: لَقَدْ كَانَ لِلأَحْسَـابِ غَيْرَ مُضِيْـعِ

وبناءً على هذه النتائج التي باينت آراء بعض النقَّاد القدماء والمُحدثين؛ فإننا لا يمكن أن نعد ما توصَّلنا إليه دليلاً ينطبق على أنواع الرثاء الأُخرى بالضرورة، إذْ ينبغي على الباحث الابتعاد عن التعميم في إطلاق الأحكام، لأنَّ كل استقراء لا يستقصي جميع التراث الشعري العربي – وهذا حقّاً مطلبٌ صعب – يظل ناقصاً لاقتصاره على النماذج الشعريَّة التي استقصاها الباحث وحدها[2]. وفضلًا عن ذلك؛ فإنَّ لكُلِّ تجربةٍ شعريَّةٍ الحرية في اختيار البحر الذي يُناسبها بعفويَّة، لذلك من السهل أن نجد قصائد متعددة في وزن واحد، ويمكن أن نجد مشاعر مختلفة في وزنٍ واحد أيضاً، كأن تُعبر عن حزنك في وزنٍ وعن سرورك في الوزن نفسه، وعملية استقراء بسيطة تؤكد لنا ذلك .

ب- القافيــة:

لا تقلُّ القافيةُ في الشعر العربي أهميةً عن الوزن، إذ جاء في معظم تعريفات الشعر عند النقاد القدماء ما يدل على اقترانها به، فالشعر قولٌ موزونٌ مقفى[3]،

---

(1) ديوانه: 1/ 410.
(2) ينظر رثاء الأبناء في الشعر العربي: 189 .
(3) ينظر نقد الشعر: 15 .

والقوافي شريكة الوزن في حد الشعر[1]، ولأهميتها فقد عدَّ ابن جني العناية بالشعر إِنَّما هي بالقوافي[2]، وهي تؤلف مع الوزن وحدة موسيقية تامة، أَمَّا تكرارها فجزءٌ من الموسيقى الشعرية، إذ هي بمنزلة الفواصل الموسيقية التي تجعل المتلقي يشعر بأنه يسير بنغم موسيقي متسق، يخلق شعوراً بوحدة الإيقاع الملائمة لوحدة المعنى[3]. وفضلًا عن ذلك فإنَّ القصائد عادةً ما تُنْسَب إلى قوافيها، فيقال: رائية فلان وميمية فلان ودالية فلان... إلخ .

وقد قسَّم أبو العلاء المعرِّي القوافي بحسب خفتها وكثرة ورودها على ثلاثة أنواع:

أ- القوافي الذُّلُل، وهي الأكثر شيوعاً في الشعر العربي، وإن اختلفت نسبتها بين هذا الحرف أو ذاك، إلَّا أنها لا تخرج عن الحروف الآتية: الراء، والميم، والباء، والتاء، والدال، والعين، والياء المتبوعة بألف الإطلاق، والنون، والسين، والكاف، والفاء، والحاء.

ب- القوافي النُّفُر، وهي قليلة الشيوع في الشعر العربي، وتشمل: الصاد، والزاي، والضاد، والطاء، والهاء الأصلية، والجيم، والواو.

ج- القوافي الحُوش، وهي نادرة المجيء في الشعر العربي، وتشمل: الثاء، والخاء، والذال، والشين، والغين، والظاء[4].

وقد أجريت على غرار الأوزان، إحصائيةً يمكن أن نتعرف من خلالها حركة القافية في مجموعةٍ منتخبةٍ بلغت مئةً وأحد عشر قصيدةً ومقطوعة، لمجموعةٍ من الشعراء أصحاب الدواوين الشعرية وغيرهم، وكانت نتائجها على النحو الآتي:

---

(1) ينظر العمدة: **1/ 151** .

(2) ينظر الخصائص، لابن جني: **1/ 85** .

(3) ينظر موسيقى الشعر: **246**، وفن التقطيع الشعري، الدكتور صفاء خلوصي: **220** .

(4) ينظر لزوم ما لا يلزم: **1/ 45**، والقافية والأصوات اللغويَّة، د. محمد عوني عبد الرؤوف: **95**. والمرشد إلى فهم أشعار العرب: **1/ 46 – 71** .

2 – القوافي

القافية		ر	م	د	ن	ع	ل	هـ	ح	ب	ت	ك	س	ف	ق
الفرزدق	عدد القصائد والمقطوعات	9	6	5	3	4	2	–	1	2	–	–	–	1	–
كثير عزة	عدد القصائد والمقطوعات	3	–	1	3	–	2	–	–	–	1	–	–	–	–
الوليد بن يزيد	عدد القصائد والمقطوعات	2	1	–	–	1	–	3	–	–	–	–	–	–	–
جرير	عدد القصائد والمقطوعات	4	1	–	1	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
ثابت قطنة	عدد القصائد والمقطوعات	1	2	1	1	1	–	–	–	–	–	–	–	–	–
نصيب بن رباح	عدد القصائد والمقطوعات	1	–	1	–	–	1	1	–	1	–	–	–	–	–
سراقة البارقي	عدد القصائد والمقطوعات	1	–	–	–	–	2	–	2	1	–	–	–	–	–
ابن ميادة	عدد القصائد والمقطوعات	–	–	1	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
إبن قيس الرقيات	عدد القصائد والمقطوعات	1	–	1	–	–	–	–	–	–	1	–	–	–	–
نهار بن توسعة	عدد القصائد والمقطوعات	–	–	1	–	–	–	–	1	1	–	–	–	–	–
الأحوص الأنصاري	عدد القصائد والمقطوعات	–	1	–	–	–	1	–	–	–	–	–	–	–	–
الطرماح بن حكيم	عدد القصائد والمقطوعات	1	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
يحيى بن أبي حفصة	عدد القصائد والمقطوعات	–	–	–	1	–	–	1	–	–	–	–	–	–	–
عويف القوافي	عدد القصائد والمقطوعات	–	–	–	–	–	–	1	–	–	–	1	–	–	–
حارثة بن بدر الغداني	عدد القصائد والمقطوعات	2	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–

القافية		ر	م	د	ن	ع	ل	هـ	ح	ب	ت	ك	س	ف	ق
الشمردل بن شريك	عدد القصائد والمقطوعات	–	–	–	–	–	–	1	1	–	–	–	–	–	–
كعب بن معدان	عدد القصائد والمقطوعات	1	1	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
عبد الرحمن بن جمانة	عدد القصائد والمقطوعات	2	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
كعب بن جعيل	عدد القصائد والمقطوعات	–	–	–	–	1	–	–	–	–	–	–	1	–	–
حمزة بن بيض الحنفي	عدد القصائد والمقطوعات	–	–	1	–	–	–	–	–	1	–	–	–	–	–
الحجاج بن يوسف	عدد القصائد والمقطوعات	–	–	–	–	–	–	–	1	–	–	1	–	–	–
نصر بن سيار	عدد القصائد والمقطوعات	–	1	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
عبدالله بن الزبير	عدد القصائد والمقطوعات	1	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
يزيد بن معاوية	عدد القصائد والمقطوعات	–	–	–	–	1	–	–	–	–	–	–	–	–	–
الكميت بن يزيد	عدد القصائد والمقطوعات	–	–	–	–	–	–	–	–	–	1	–	–	–	–
ابن هرمة	عدد القصائد والمقطوعات	–	1	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
الأخطل	عدد القصائد والمقطوعات	1	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
زياد الأعجم	عدد القصائد والمقطوعات	–	–	–	–	–	–	–	1	–	–	–	–	–	–
حميد بن ثور الهلالي	عدد القصائد والمقطوعات	1	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
أبو صخر الهذلي	عدد القصائد والمقطوعات	1	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
المجموع	عدد القصائد والمقطوعات	32	14	12	9	8	8	7	7	6	3	2	1	1	1

من هذه الإحصائية، يتبين لنا أنَّ أكثر القوافي التي استعملها الشعراء، كانت من القوافي الذُّلُل، إذ بلغت (95) خمسةً وتسعين قافية. يأتي في مقدِّمتها حرف الرَّاء، فهو كثيرٌ شائعٌ في الشعر العربي، وله رنين موسيقي لطيف[1]، تليها القوافي الحوش، إذ بلغت (8) ثمانية قوافٍ، تليها القوافي النفر، إذ بلغت (7) سبعة قوافٍ. ولا تعني كثرة ورود القوافي الذلل أنها أكثر ملاءمةً وجودةً من غيرها؛ فعلى الرغم من قلَّة ورود القوافي النفر والحوش؛ إلَّا أن الشاعر استطاع تطويع تلك القوافي وإخضاعها لإرادة المعاني والأفكار والعواطف والأخيلة.

ومن تلك القوافي الحوش، التي جاءت على حرف الفاء، الذي لم يرد إلَّا مرَّةً واحدة، ما جاء في رثاء الفرزدق للحجاج بن يوسف. الذي استطاع الشاعر من خلاله أن يضمِّنها معانٍ جديدة، ويعبر فيها عن أحداث عصره، وما شاع فيه من كثرة الجيوش والفتوحات التي ملأت الأرض، فصوَّر مشاعر هذه الجيوش وهي مرابطة على الثغور، وكيف شقيت بموته، وفقدت ما كانت تربط أحشاءها به عند الخوف، فقال[2]:

لِيَبْكِ عَلَى الحَجَّاجِ مَنْ كَانَ بَاكِيَا ... عَلَى الدِّيْنِ أَوْ شَارٍ عَلَى الثَّغْرِ وَاقِفْ
يَـقُـوْلُـوْنَ لَـمَّـا أَنْ أَتَـاهُـمْ نَعِيُّه ... وَهُمْ مِنْ وَرَاءِ النَّهْرِ جَيْشُ الرَّوَادِفْ
شَقِيْنَا وَمَاتَتْ قُـوَّةُ الجَيْشِ والَّذِي ... بِهِ تُرْ بَطُ الأَحْشَـاءُ عِنْدَ المَخَاوِفْ

ومن الأمور التي يمكن ملاحظتها على القوافي أيضاً، هو ميل بعض الشعراء إلى خفض قوافيهم، لِمَا في الكسرة من رقَّةٍ ولين يُناسب غرضهم الذي يُعبِّرون فيه عن عاطفةٍ حزينةٍ ونفسٍ مُلتاعة منكسرة «ومَنْ تَأمَّل الشعر العربي وَجَدَ أرق قصائده مكسورة الروي في الغالب»[3]، ومن تلك المراثي التي جاءت مخفوضة القافية، مرثية الفرزدق لمحمد بن موسى بن طلحة التميمي، إذ عبَّر الشاعر فيها عن

(1) ينظر موسيقى الشعر: 247 – 248 .
(2) ديوانه: 2/ 5 .
(3) المرشد إلى فهم أشعار العرب: 1/ 69 .

الأرق الذي لازمه، والحزن الذي أسبل الدمع في عينيه، فقال[1]:

نَامَ الخَلِيُّ وَمَا أُغَمِّضُ سَاعَةً ... أَرَقاً وَهَاجَ الشَّوْقُ لِي أَحْزَانِي

وَإِذَا ذَكَرْتُكَ يَابْنَ مُوْسَى أَسْبَلَتْ ... عَيْنِي بِدَمْعٍ دَائِمِ الهَمَلانِ

مَا كُنْتُ أَبْكِي الهَالِكِيْنَ لِفَقْدِهِمْ ... وَلَقَدْ بَكَيْتُ وَعَزَّ مَا أَبْكَانِي

ومن الظواهر الأخرى، استعمال الشعراء حروف المد «الألف والواو والياء» قبل حرف القافية، لأخذ النَّفَسْ في آخر البيت، ومد الصوت بشكل يوحي بالنواح أو الندب، الذي يصاحب مَدّ الصوت، كما نُشاهد في مرثية ابن عرس العبدي لأسد بن عبد الله القَسْري، والتي يقول فيها[2]:

نَعَى أَسَدِ بنِ عَبدِ الله نَاعٍ ... فَرِيْعَ القَلبُ للمَلِكِ المُطَاعِ

بِبَلَخٍ وَافَقَ المِقْدَارَ يَسرِي ... وَمَا لِقَضَاءِ رَبِّكَ مِنْ دِفَاعِ

فَجُوْدِي عَلَيْهِ بِالعَبَرَاتِ سُحَاً ... أَلَمْ يَحْزُنْكِ تَفْرِيقُ الجِمَاعِ

وخلاصة القول: إنَّ الشاعر المتمكن، هو الذي يستطيع توظيف اللغة توظيفاً دلاليّاً يُعبر من خلاله عن واقعه وذاته، تعبيراً فنيَّاً مُؤثراً، تتوافر فيه كل عناصر الجمال، لغةً ووزناً وموسيقى وإيقاعاً، وصورة ودلالة .

---

(1) ديوانه: 2/ 325 .

(2) البداية والنهاية لابن كثير:9/ 356، وتاريخ دمشق: 8/ 320 .

الخاتمة ونتائج البحث

بعد أن وفقني الله عَزَّوَجَلَّ إلى إتمام هذه الدراسة، أود الإشارة إلى أهم النتائج التي تمخضت عنها، توخّياً للفائدة.

فقد تبين بعد البحث في المعنى اللغوي والاصطلاحي لكل من مفردة الخليفة والقائد، تشابه كلا المعنيين للمفردة الواحدة، كما جاءت الألفاظ المرادفة لكل منهما مؤديةً الغرض نفسه ودالةً عليه. وأوضحت الدراسة أهمية منصب الخليفة في المجتمع، وأن لا استقرار وأمن من دون حاكم، ممثلاً بالخليفة أو القائد. ومن خلال النظر في مراحل تطور الرثاء من العصر الجاهلي وحتى الأموي، وجدنا أن الرثاء في هذا العصر قد احتذى النماذج السابقة وسار على خطاها، عدا بعض التغير الذي طرأ على المرثية، وذلك بتأثيرٍ من الدين الإسلامي، وطبيعة الأحداث التي عاشها العصر.

كما أشارت الدراسة إلى أن ورود هذا الشعر في عدد كبير من المصادر التاريخية، والأدبية، واللغوية، لدليلٌ على أصالة هذا الضرب من الشعر. إذ ساقه كُتَّاب التاريخ سنداً لأخبارهم، في حين استشهد به أصحاب كتب اللغة والمعجمات على فصاحة بعض الألفاظ، أو للدلالة على استعمالها في الكلام العربي. كما أشارت الدراسة إلى أن كثرة عدد الرواة الذين تعاقبوا على رواية هذا الشعر يدل على اتِّبَاعهم الطريقة العلمية والمنهج السليم في أخذ العلم وروايته، كما تصدى علماؤنا لهؤلاء الرواة وأعملوا رأيهم في تقييمهم وبيان ما يروون. وكشفت الدراسة عن العلاقة الشخصية والقبلية التي تربط بعض الشعراء بمرثييهم. إذ كان لهذه العلاقة الدور الكبير في غزارة المادة الشعرية وجودتها، كما في حالة الفرزدق مع القائد وكيع بن أبي سود الغداني، وكثيِّر عزة مع عبد العزيز بن مروان، وسراقة

البارقي مع القائد عبد الرحمن بن مخنف. كما أنّ منزلة الشاعر الأدبية، لا تعني بالضرورة وفرة المادة الشعرية لديه فيما يخص دراستنا، وهذا ينطبق على جرير، والأخطل، ... وغيرهم. ولعلّ حدث الموت بما يضفيه من رهبة، وراء قلّة إنتاجهم في هذا المجال.

وقد أظهر تنوع المراثي، اختلاف كل من اللغة المستخدمة والأسلوب المتّبَع في رثاء الشعراء للخلفاء والقادة، وكلٌّ منهما للآخر، إذ تميز رثاء الخلفاء بما يناسبه من الألفاظ والقيم التي تعبر عن حقيقة هذا المنصب، والمهام الموكلة إلى الخليفة من حفظ الدين وحماية الأمّة والدفاع عنها، في حين جاء رثاء القادة ليبرز الجانب العسكري والمهارات القتالية وذكر المعارك والسلاح والخيل وما إلى ذلك من المهام الموكلة إلى القائد في أرض المعركة، فضلاً عن الأمور الأُخرى، كحماية الثغور، والمحافظة على الأمن والاستقرار، والقضاء على أصحاب الفتن.

وكشفت الدراسة عن قدرة الشعراء في تطويع بعض القيم الجاهلية الموروثة التي وردت في رثائهم، وذلك بتأثيرٍ من الدين الإسلامي وجعلها تتماشى مع قيمه ومبادئه. من ذلك مثلاً، ذكرهم للدهر، إذ جاء متزامناً مع القدر، فلم يخرج إلى المعنى الذي كان سائداً عند الجاهليين، إذ أوكلوا كل ما أصابهم من مصائب ومحن إلى الدهر، كما كان دعاؤهم للميت بالمغفرة والرحمة دليلاً على إيمانهم العميق بالبعث والحساب، والجنة والنار.

كما أوضحت الدراسة أن قصيدة الرثاء لم تقتصر على الندب والتأبين والعزاء فقط، إذ كانت بمثابة الأصل الذي انبثقت عنه فنونٌ شعريةٌ متعددة، كالمدح، والفخر، والوصف، والهجاء؛ إِذْ لم يعد الشعر الذي يُرثى به الموتى مقتصراً على الإشادة بهم؛ فقد وُجدت أشعارٌ تنتقدهم وتهجوهم، وهو ما اصطلحنا على تسميته بالرثاء الهجائي.

ومن الظواهر التي كشفت الدراسة عنها أيضاً، بروز ظاهرة المبالغة والتهويل التي تناسب روح البطولة والشجاعة والإقدام عند ولاة الأمر، فضلاً عن أنّها السمة

التي طبعت الشعر في العصر الأموي بعامّة.

ومن الأمور الأخرى التي توصل البحث إليها، استدراكه بعض الأشعار التي خلت دواوين أصحابها أو شعرهم المجموع منها، ومن هؤلاء الشعراء: الفرزدق، وجرير، وحُميد بن ثور الهلالي، وشعر ثابت قُطْنة، وشعر أبي نُخيلة،... وغيرهم.

وفي الجانب الفني، بينت الدراسة أن أغلب شعر رثاء الخلفاء والقادة، هو مقطوعات شعرية، موازنة بعدد القصائد والمطولات، وعند دراستنا لبنية القصيدة؛ لاحظنا شيئاً من آثار التقليد لنماذج رثائية قديمة، إلّا أنها شهدت تأثراً بالدين الإسلامي، وهو ما تجلى في بعض المطالع الدعائية والحكمية. وفي جانب الألفاظ والتراكيب، لاحظنا استخدام مفردات جديدة لم تعهدها المراثي من قبل، مستمدةً من تعاليم الإسلام، أمّا التراكيب فكانت محكمة النسج، تامّة الترابط. فهي تنحو منحى الرقة والسهولة عندما تتجه إلى تصوير مشاعر الراثي، في حين تتجه نحو القوة والجزالة عندما تكون موجهةً إلى تأبينه وبيان فضائله.

وأخيراً سلطت الدراسة الضوء على الموسيقى في المرثية، لتكشف من خلالها عن محدودية العلاقة التي تربط الوزن بالموضوع الشعري، وهذا ما أكدته الإحصائية التي قمنا بإجرائها على مجموعة منتخبة من الشعراء أصحاب الدواوين المنشورة وغيرهم. إذ وجدنا معظم الشعراء قد نظموا في أغلب بحور الشعر العربي، ولم يتقيدوا بالتقسيمات التي وضعها بعض النقاد القدامى، وهو الشيء نفسه الذي ينطبق على القوافي أيضاً.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

(أ)

- **أبحاث في الشعر العربي**، الدكتور يونس السامرائي، مطابع دار الكتب، الموصل **1989**م.
- **أبعاد الالتزام في القصيدة الأموية**، تأليف الدكتورة مي يوسف خليف، دار غريب- القاهرة، (د.ط، د.ت).
- **الإبل في الشعر الجاهلي**، أنور أبو سويلم، دار العلوم للطباعة والنشر-الرياض، ط**2**/ **1983**م.
- **إبن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره**، إيليا سليم حاوي، مكتبة المدرسة، ودار الكتاب اللبناني، **1959**م.
- **اتجاهات الشعر في العصر الأموي**، الدكتور صلاح الدين الهادي، مكتبة الخانجي، ط**1**/ **1407**هـ- **1986**م.
- **اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري**، قحطان رشيد التميمي، دار المسيرة - بيروت، (د.ط، ود.ت).
- **أثر القرآن في الأدب العربي في القرن الأول الهجري**، الدكتورة ابتسام مرهون الصفار، مطبعة اليرموك، بغداد، ط**1**/ **1394**هـ- **1974**م.
- **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، (ت **450**هـ)، دار الحرية للطباعة - بغداد، **1409**هـ - **1989**م.

- **إحياء علوم الدين**، أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، (ت**505**هـ)، الدار المصرية اللبنانية، (د.ط، ود.ت).
- **الأخبار الطوال**، أبي حنيفة الدينوري (ت**282**هـ)، تحقيق: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، ط**1**/ **1960**م.
- **أخبار القضاة**، محمد بن خلف بن حيان وكيع، (ت**306**هـ)، عالم الكتب - بيروت، (د.ط، ود.ت).
- **الأخبار الموفقيات**، الزبير بن بكار (ت **256**هـ)، تحقيق: الدكتور سامي مكي العاني، مطبعة العاني - بغداد، **1972**م.
- **أدب الكاتب**، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، (ت **276**هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، **1382**هـ - **1963**م.
- **الأدب في موكب الحضارة، (كتاب الشعر)**، الدكتور مصطفى الشكعة، دار الكتاب اللبناني، ط**2**/ **1974**م.
- **أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام**، بطرس البستاني، دار الجيل - بيروت، **1989**م.
- **الأذكار النووية**، يحيى بن شرف النووي الدمشقي، (ت **676**هـ)، دار الفكر.
- **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، (ت**463**هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل - بيروت، ط**1**/ **1412**هـ.
- **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، الإمام عز الدين ابن الأثير، (ت**630**هـ)، تحقيق الشيخ مأمون شيحا، دار المعرفة - بيروت، ط**1**/ **1997**م.
- **الأسس الجمالية في النقد الأدبي عرض وتفسير ومقارنة**، الدكتور عز الدين إسماعيل، دار الشؤون الثقافية - بغداد، ط**3**/ **1986**م.
- **الإسلام والشعر**، الدكتور سامي مكي العاني، سلسلة عالم المعرفة، **(66)** مطابع دار الرسالة، الكويت، **1983**م.

- **الاشتقاق،** أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، (ت**321**هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بمصر، (د.ط، د.ت).
- **الإصابة في تمييز الصحابة،** ابن حجر العسقلاني، (ت **852**هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية- بيروت، ط**1**/ **1415**هـ.
- **أصول الدعوة،** الدكتور عبدالكريم زيدان، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط**3**/ **1409**هـ - **1988**م.
- **أصول النقد الأدبي،** أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، ط**3**/ **1365**هـ- **1946**م.
- **إعجاز القرآن،** أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت **403**هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف - القاهرة، (د.ط، د.ت).
- **الأعلام،** خير الدين للزركلي، دار العلم للملايين- بيروت، ط**5** (د.ت).
- **الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام،** لأبي الحجاج يوسف بن محمد ابن إبراهيم الأنصاري البياسي، (ت **653**هـ)، دراسة وتحقيق: الدكتور شفيق جاسر أحمد محمود، ط**1**/ **1987**م.
- **الأغاني،** لأبي الفرج الأصفهاني، (ت**356**هـ)، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر - بيروت، ط**2**، (د.ت).
- **الأمـالي، لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي،** منشورات دار الآفاق الجديدة- بيروت، (د.ت ود. ط).
- **أمالي الزجاجي،** أبي القاسم عبد الرحمن بن إسحق الزجاجي،(ت**340**هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل- بيروت، ط**2**/ **1407**هـ - **1987**م.
- **أمالي اليزيدي،** لأبي عبد الله محمد بن العباس بن محمد ابن أبي محمد يحيى بن المبارك اليزيدي (ت **310**هـ)، عالم الكتب- بيروت، ومكتبة المتنبي- القاهرة.
- **الإمامة والسياسة،** أبي محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، (ت**276**هـ)، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي وشركاه- القاهرة، ط**1**/ **1413**هـ.

- **أنساب الأشراف**، صنفه الإمام أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، (ت 279هـ)، حققه وقدم لـه: الدكتور سـهيل زكار، والدكتور رياض زركلي، دار الفكـر، ط1/ 1417هـ - 1996م.
- **الأوائل**، لأبي هلال العسكري،(ت 395هـ)، تحقيق: محمد المصري ووليد قصاب، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1975م.
- **الأيام الأخيرة للدولة الأموية**، عمر أبو النصر، منشورات المكتبة الأهلية - بيروت، ط1/ 1962م.
- **أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي**، منذر الجبوري، دار الشؤون الثقافية- بغداد 1986م.

(ب)

- **البدء والتاريخ**، مظهر بن طاهر المقدسي، (ت بعد 355هـ)، تحقيق: كليمان هوار، باريس، 1906م.
- **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، لمحمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت930هـ)، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، ط3/ 1402هـ- 1982م.
- **البداية والنهاية**، لأبي الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي (ت 774هـ)، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط1/ 1408هـ.
- **البطولة في الشعر العربي قبل الإسلام**، رسالة ماجستير غير منشورة، مؤيد محمد صالح اليوزبكي، مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة الموصل.
- **بغية الطلب في تاريخ حلب**، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، (ت430هـ)، تحقيق: الدكتور سهيل زكار، دار الفكر - بيروت، ط1/ 1988م.
- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، جلال الدين السيوطي(ت911هـ)، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه - القاهرة، 1964م.

- **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**، محمود شكري الآلوسي، عني بشرحه وتصحيحه وضبطه، محمد بهجة الأثري، ط3/ (د.ت)، مطابع دار الكتاب العربي بمصر.
- **بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء الحديث**، الدكتور يوسف حسين بكار، دار الأندلس، ط**2**/ **1403**هـ - **1983**م.
- **البيان والتبيين**، أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، (ت255هـ)، تحقيق: فوزي عطوي، دار صعب- بيروت، (د.ط، ود.ت).

(ت)

- **تاج العروس من جواهر القاموس**، محمد مرتضى الزبيدي (ت 1025هـ)، مكتبة الحياة- بيروت، (د.ط، ود.ت).
- **التاج في أخلاق الملوك**، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، (ت255هـ)، تحقيق: الأستاذ أحمد زكي باشا، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ط**1**/ **1322**هـ- **1914**م.
- **تاريخ ابن خلدون**، لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت808هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (د.ط، ود.ت).
- **تاريخ الأدب العربي**، كارل بروكلمان، نقله إلى العربية: الدكتور عبد الحليم النجار، دار المعارف بمصر، **1962**م.
- **تاريخ الأمم والملوك**، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري (**310**هـ)، تحقيق: نخبة من العلماء، مؤسسة الأعلمي- بيروت، (د.ط، ود.ت) .
- **تاريخ بغداد، أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي**، (ت463هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية- بيروت، ط**1**/ **1417** هـ.
- **تاريخ الخلفاء**، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، (ت911هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين، مطبعة السعادة بمصر، ط**1**/ **1371**هـ- **1952**م.

- **تاريخ خليفة بن خياط،** (ت **240**هـ)، تحقيق الدكتور: سهيل زكار، دار الفكر- بيروت، **1414** هـ- **1993**م.
- **تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني الهجري،** أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط**2**/ **1953**م.
- **تاريخ مدينة دمشق،** لأبي القاسم علي بن الحسن المعروف بابن عساكر (ت**571**هـ)، تحقيق: علي شيري، دار الفكر، **1415**هـ.
- **تاريخ مختصر الدول،** غريغوريوس أبي الفرج أهرون الطبيب المعروف بابن العبري، (ت**685**هـ)، وقف على تصحيحه وفهرسته الأب أنطوان صالحاني اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين - بيروت، **1809**م.
- **تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح،** (ت**284**هـ) دار صادر- بيروت، (د.ط، ود.ت).
- **تذكرة الحفاظ،** محمد بن طاهر بن القيسراني، (**507**هـ)، تحقيق: حمدي عبد الحميد إسماعيل السلفي، دار الصميعي - الرياض، ط**1**/ **1415**هـ.
- **التذكرة الحمدونية،** محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، تحقيق: إحسان عباس، وبكر عباس، دار صادر- بيروت، ط**1**/ **1996**م.
- **التعازي،** لأبي الحسن علي بن محمد المدائني، (ت **228**هـ)، تحقيق: الدكتورة ابتسام مرهون الصفار، والدكتور بدري محمد فهد، مطبعة النعمان- النجف، **1971** .
- **التعازي والمراثي،** لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، (ت **286**هـ)، تحقيق: محمد الديباجي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، **1396**هـ- **1976**م.
- **تفريج الكروب في تدبير الحروب،** عمر بن إبراهيم الأوسي الأنصاري، تحقيق وترجمة: الدكتور جورج سكانلون،دار المعارف بمصر، **1961**م.
- **تفسير الطبري،** محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري، (ت**310**هـ)، دار الفكر - بيروت، **1405**هـ .

- **تفسير القرآن العظيم**، أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، (ت**774**هـ)، دار المعرفة - بيروت.
- **تقريب التهذيب**، لابن حجر العسقلاني، (ت**852**هـ)، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية- بيروت، ط**2**/ **1415**هـ.
- **التنبيه والإشراف**، لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت**345**هـ)، تحقيق عبد الله الصاوي، القاهرة، **1938**م.
- **تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي**، الدكتور خالد جاسم الجنابي، دار الشؤون الثقافية- بغداد، ط**2**/ **1986**م.
- **تهذيب التهذيب**، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (ت**852**هـ)، دار الفكر، ط**1**/ **1404**هـ.
- **تهذيب كتاب مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق في فضائل الجهاد**، للإمام أحمد بن إبراهيم ابن النحاس، (ت**814**هـ)، هذبه وانتقاه الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النفائس، ط**1**/ **1419**هـ- **1999**م.
- **تهذيب الكمال**، أبو الحجاج يوسف المزي، (ت**742**هـ)، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، ط**4**/ **1406**هـ.
- **تهذيب اللغة**، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، (ت**370**هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، **1384**هـ- **1964**م.
- **التيار الإسلامي في القصيدة الأموية**، تأليف الدكتورة مي يوسف خليف، دار الثقافة للنشر والتوزيع، **1993**م.

(ث)

- **الثقات**، لمحمد بن حبان بن أحمد بن أحمد أبي حاتم التميمي البستي، (ت**354**هـ)، مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن - الهند، ط**1**/ **1393**هـ.

- **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن**، للرماني والخطابي والجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله، ودكتور محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر،ط**2/ 1387**هـ- **1968**م.
- **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، (ت**429**هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، **1384**هـ - **1965**م.

(ج)

- **الجامع لأحكام القرآن**، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، (ت **671**هـ)، دار إحياء التراث العربي، **1405**هـ، (د.ط).
- **الجرح والتعديل**، شيخ الإسلام الرازي، (ت**327**هـ)، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط**1/ 1371**هـ.
- **جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب**، الدكتور ماهر مهدي هلال، دار الرشيد للنشر، **1980**م.
- **جمهرة خطب العرب**، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية- بيروت، (د.ط، د.ت).
- **جمهرة اللغة**، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي بن دريد، (ت**321**هـ)، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن، ط**1/ 1345**هـ .
- **الجندية في عهد الدولة الأموية**، تأليف: وفيق الدقوقي، مؤسسة الرسالة، ط**1/ 1406**هـ - **1985**م.
- **الجوهر النفيس في سياسة الرئيس**، محمد بن منصور بن حبيش بن الحداد، (ت**615**هـ)، تحقيق ودراسة: رضوان السيد، دار الطليعة - بيروت، **1983**م.

(ح)

- **حضارة العرب**، تأليف الدكتور غوستاف لوبون، نقله إلى العربية عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط**3/ 1375**هـ - **1956**م.

• **الحلة السيراء**، محمد بن عبد الله القضاعي بن الأبار، (ت**658**هـ)، تحقيق: الدكتور حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، **1963**م.

• **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني،(**430**هـ)، تحقيق: سعيد بن سعد الدين خليل الاسكندراني، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط**1**/ **1421**هـ- **2001**م.

• **الحماسة**، لأبي عبادة البحتري، (ت**284**هـ)، تحقيق: كمال مصطفى، المطبعة الرحمانية بمصر، ط**1**/ **1929**م.

• **الحماسة البصرية**، لصدر الدين بن أبي الفرج بن الحسين البصري (ت **659**هـ)، مطبوعات دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن- الهند، (د.ط، ود.ت).

• **الحماسة الشجرية**، هبة الله بن علي بن حمزة العلوي الحسني (ت **542**هـ)، تحقيق: عبد المعين ملوحي، وأسماء الحمصي، منشورات وزارة الثقافة- دمشق **1970**م.

• **حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء**، لأبي محمد عبد الله بن محمد العبدلكاني، (ت **431**هـ)، تحقيق محمد جبار المعيبد، منشورات وزارة الإعلام- بغداد، **1973**م.

• **الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة**، الدكتور محمد جمال الدين سرور، دار الفكر العربي، (د.ط، ود.ت).

• **الحياة والموت في الشعر الجاهلي**، مصطفى عبد اللطيف جياووك - بغداد، **1977**م.

• **الحيوان في الشعر الجاهلي**، الدكتور حسين جمعة، دار دانية للطباعة والنشر - دمشق، **1989**م.

• **الحيوان**، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، (ت**255**هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي - بيروت، ط**1**/ **1359**هـ - **1940**م.

(خ)

- **خزانة الأدب وغاية الأرب**، تقي الدين أبي بكر علي بن عبدالله الحموي، (ت **837**هـ)، تحقيق: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال- بيروت، ط**1**/ **1987**م.
- **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، لعبد القادر بن عمر البغدادي (ت **1093**)، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي – القاهرة، ط**3**/ **1989**م.
- **الخصائص**، صنعة أبي الفتح عثمان بن جني (ت **392**هـ)، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط**4**/ **1990**م.

(د)

- **دراسات في الشعر الجاهلي**، الدكتور نوري حمودي القيسي، دار الفكر – دمشق، **1974** م.
- **دراسات نقدية في الأدب العربي**، الدكتور محمود عبد الله الجادر، مطابع دار الحكمة، الموصل، **1990**م.
- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد، (ت**852**هـ)، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية – حيدر أباد – الهند، ط**2**/ **1972**م.
- **ديوان ابن الرومي**، تحقيق حسين نصار، مطبعة دار الكتب – القاهرة، **1973**.
- **ديوان الأحوص الأنصاري**، جمعه وحققه: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، ط**2**/ **1411**هـ- **1990**م.
- **ديوان الأفوه الأودي**، صنعة عبد العزيز الميمني، ضمن مجموعة (الطرائف الأدبية)، دار الكتب العلمية – بيروت، (د.ط، ود.ت).
- **ديوان امرئ القيس**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف – مصر، ط**3**/ **1984**م.
- **ديوان الحماسة لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي**، محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده- مصر، **1374**هـ- **1955**م .

- **ديوان حميد بن ثور الهلالي**، صنعة الأستاذ عبد العزيز الميمني، مطبعة دار الكتب المصرية، ط1/ 1371هـ - 1951م.
- **ديوان سراقة البارقي**، تحقيق: حسين نصار، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة، ط1/ 1366هـ- 1947م.
- **ديوان طرفة بن العبد**، تحقيق فوزي عطوي، دار صعب - بيروت، (د.ط)، 1980م.
- **ديوان الطرماح**، حققه الدكتور عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق- 1388هـ- 1968م.
- **ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات**، تحقيق وشرح: الدكتور محمد يوسف نجم، دار صادر - بيروت، 1378هـ - 1958م.
- **ديوان الفرزدق**، قدم له: أكرم البستاني، دار صادر- بيروت، (د.ط، ود.ت).
- **ديوان كثير عزة، شرحه**، عدنان زكي درويش، دار صادر- بيروت، ط1/ 1994.
- **ديوان كعب بن مالك الأنصاري**، دراسة وتحقيق الدكتور سامي مكي العاني، عالم الكتب، ط2/ 1417هـ - 1997م.
- **ديوان مسكين الدارمي**، جمعه وحققه: خليل إبراهيم العطية، وعبد الله الجبوري، مطبعة دار البصري- بغداد، ط1/ 1389هـ- 1970م.
- **ديوان المعاني**، لأبي هلال العسكري، دار الجيل- بيروت، (د.ط، ود.ت).
- **ديوان معاوية بن أبي سفيان**، جمع وتحقيق وشرح: فاروق إسليم بن أحمد، دار صادر - بيروت، ط1/ 1996م.
- **ديوان نصر بن سيار**، جمع وتحقيق: عبد الله الخطيب، مطبعة شفيق - بغداد، ط1/ 1392هـ- 1972م.
- **ديوان الوليد بن يزيد**، جمعه وحققه وشرحه، الدكتور واضح الصمد، دار صادر- بيروت، ط1/ 1998م.

- **ديوان يزيد بن مفرغ الحميري**، جمعه وحققه الدكتور عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الرسالة، ط1/ 1395هـ - 1975م.

(ذ)

- **ذيل الأمالي والنوادر**، لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي، منشورات دار الآفاق الجديدة- بيروت، (د.ت ود. ط).

(ر)

- **الرثاء**، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط3/ 1955م.
- **رثاء الأبناء في الشعر العربي**، الدكتور مخيمر صالح، مكتبة المنار- الأردن، ط1. (د.ت) .
- **الرثاء السياسي عند الأمويين منذ قيام دولتهم حتى سنة 227 هـ**، علي حسين التمر، رسالة دكتوراه غير منشوره، جامعة الموصل، 1996م.
- **الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام**، الدكتورة بشرى محمد علي الخطيب، مطبعة الإدارة المحلية، 1397هـ- 1977م.
- **رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية**، الدكتور مصطفى الشكعة، عالم الكتب- بيروت، 1979، (د.ط).

(ز)

- **زهر الآداب وثمر الألباب**، لأبي اسحق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت 453هـ)، مفصل ومضبوط ومشروح بقلم الدكتور زكي مبارك، دار الجيل- بيروت، ط4/ 1972م.
- **زياد الأعجم**، حياته وشعره، الدكتورة ابتسام مرهون الصفار، مطبعة الإرشاد- بغداد .

(س)

- **سبل السلام**، الإمام محمد بن إسماعيل الكحلاني، (ت 1182هـ)، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ط4/ 1379هـ.

- **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد**، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، (ت942هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية- بيروت، ط1/ 1414هـ.
- **سنن أبي داود**، سليمان بن الأشعث السجستاني، (ت275هـ)، تحقيق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر - بيروت، ط1/ 1410هـ - 1990م.
- **سنن ابن ماجة**، محمد بن يزيد القزويني، (ت275هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر - بيروت، (د.ط، ود.ت).
- **سنن الترمذي**، محمد بن عيسى الترمذي، (ت279 هـ)، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر - بيروت، 1403هـ.
- **سنن الدارمي**، عبد الله بن بهرام الدارمي، (ت255هـ)، مطبعة الاعتدال - دمشق، (د.ط، ود.ت).
- **السنن الكبرى**، أحمد بن الحسين بن علي للبيهقي، (ت458هـ)، دار الفكر - بيروت، (د.ط، ود.ت).
- **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية**، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، (ت 728هـ)، دار المعرفة - بيروت، (د.ط، ود.ت).
- **سير أعلام النبلاء**، لشمس الدين بن محمد الذهبي، (ت748هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وحسين الأسد، ط9/ 1413هـ.
- **السيرة النبوية**، أبو محمد عبد الملك بن هشام، (ت213هـ)، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل - بيروت، ط1/ 1411هـ .
- **سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز**، لابن الجوزي، (ت 751هـ)، دراسة وتحقيق: الدكتور السيد الجميلي، دار مكتبة الهلال، ط1/ 1405هـ- 1985م .

(ش)

- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، (ت1089هـ) شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العماد الحنبلي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط1/ 1419هـ- 1998م .

- **شرح أشعار الهذليين**، صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، حققه عبد الستار أحمد فراج، راجعه محمود أحمد شاكر، مكتبة دار العروبة، مطبعة المدني، القاهرة. (د.ط، ود.ت).
- **شرح ابن عقيل**، بهاء الدين عبد الله بن عقيل، (ت769هـ)، محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي – بيروت، (د.ط، د.ت).
- **شرح ديوان الحماسة**، لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، (ت421هـ)، تحقيق: أحمد أمين وعبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط1/ 1371هـ – 1591م.
- **شرح ديوان جرير**، محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، دار الأندلس– بيروت، (د.ط، ود.ت)
- **الشرق في حكم الخلفاء**، فون كريمر، ترجمه: خودا بخش، طبعة كلكته. (د.ت).
- **شعر إبراهيم بن هرمة**، تحقيق: محمد نفاع، وحسين عطوان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، (د. ط، ود. ت).
- **شعر ابن ميادة**، جمع وتحقيق الدكتور حنا جميل حداد، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق،(د.ط)، 1402هـ – 1982م.
- **شعر أبي عطاء السندي**، صنعة قاسم راضي مهدي، مجلة المورد، المجلد التاسع، العدد الثاني، 1400هـ – 1980م.
- **شعر الأخطل**، صنعة السكري، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، دار الأصمعي– حلب، ط1/ 1391هـ– 1971م.
- **الشعر الإسلامي في عصر صدر الإسلام**، دراسة فكرية فنية، علي كمال الدين الفهادي، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة الموصل، 1990م.
- **الشعر الأموي في خراسان والبلاد الإيرانية**، تأليف الدكتور الهادي حمودة الغزي، الدار التونسية للنشر، 1955م.

- **شعر أوس بن حجر ورواته الجاهليين**، دراسة تحليلية، الدكتور محمود الجادر، دار الرسالة للطباعة – بغداد، **1979**م.
- **شعر ثابت قطنة**، جمع وتحقيق: ماجد السامرائي، وزارة الثقافة والإعلام، **1970**م.
- **الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه**، الدكتور يحيى الجبوري، دار التربية – بغداد، **1972**م.
- **الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية**، إبراهيم عبد الرحمن، مكتبة الشباب – القاهرة، **1979**م.
- **شعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي**، جمعه، وحققه، ووثَّقه، وشرح غريبه، وترجم لأعلامه، وصنع فهارسه، عبد العزيز بن محمد الزير، ومحمد بن عبد الله الأطرم، مطبوعات الرئاسة العامة للكليات والمعاهد العلمية، **1329**هـ- **1972**م.
- **شعر الرثاء في العصر الجاهلي دراسة فنية**، الدكتور مصطفى عبد الشافي الشورى، الدار الجامعية- بيروت، **1983**م.
- **شعر عبد الله بن الزبير الأسدي**، جمع وتحقيق: الدكتور يحيى الجبوري، دار الحرية للطباعة – بغداد، **1394**هـ- **1974**م.
- **الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية**، الدكتور عز الدين إسماعيل، دار العودة – بيروت، ط**3**/ **1981**م.
- **شعر الفتوح الإسلامية**، النعمان القاضي، الدار القومية للطباعة والنشر- القاهرة، **1385**هـ- **1965**م.
- **شعر الكميت بن زيد الأسدي**، جمع وتقديم الدكتور داود سلوم، مطبعة النعمان- النجف الأشرف، **1969**م.
- **شعر نصيب بن رباح**، جمع وتقديم، الدكتور داود سلوم، مطبعة الإرشاد- بغداد، **1967**م.
- **شعر الهذليين في العصر الجاهلي والإسلامي**، تأليف: الدكتور أحمد كمال زكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، (د.ط)، **1389**هـ - **1969**م.

- **الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي**، عفيف عبد الرحمن، دار الأندلس – بيروت، ط1/ 1984م.
- **الشعر والتاريخ**، الدكتور نوري حمودي القيسي، دار الحرية للطباعة- بغداد، 1401هـ- 1980م.
- **الشعر والشعراء**، أبو محمد عبد الله بن مسلم، (ت276هـ)، دار الثقافة – بيروت،(د.ت).
- **الشعر والشعراء في بلاط عبد العزيز بن مروان**، الدكتور محمد أبو المجد علي، مكتبة الآداب- القاهرة، ط1/ 1419هـ- 1998م.
- **شعر يزيد بن معاوية**، جمعه وحققه: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد- بيروت، ط1/ 1982م.
- **شعراء أمويون**، دراسة وتحقيق: الدكتور نوري حمودي القيسي.

– الجزء الأول والثاني، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر – جامعة الموصل، 1976م.

– الجزء الثالث، مطبوعات المجمع العلمي العراقي- بغداد، 1402هـ- 1982م.

– الجزء الرابع، عالم الكتب – بيروت، ط1/ 1985م.

- **الشعراء من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية**، الدكتور حسين عطوان، دار الجيل – بيروت، 1984م.
- **الشكوى في شعر القرن الرابع الهجري**، جواد رشيد مجيد، رسالة ماجستير غير منشورة، مقدمة إلى كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، 1409هـ – 1988م.

(ص)

- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي، (821هـ)، تحقيق: الدكتور يوسف علي طويل، دار الفكر- دمشق، ط1/ 1987م.

- **الصبر في القرآن الكريم**، الدكتور يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط2/ 1404هـ - 1984م.
- **الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية**، إسماعيل بن حماد الجوهري، (ت نحو 400هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، ط4/ 1407هـ - 1987م.
- **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، علاء الدين علي بن بلبان، (354هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط2/ 1414هـ - 1993م.
- **صحيح البخاري**، محمد بن إسماعيل البخاري، (ت256هـ)، دار الفكر - بيروت (د.ط، ود.ت).
- **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج النيسابوري، (ت261هـ)، دار الفكر - بيروت (د.ط، ود.ت).
- **الصناعتين**، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، (ت 395هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم. (د.ط، د.ت).
- **الصورة الشعرية**، سي- دي لويس، ترجمة الدكتور أحمد نصيف الجنابي، ومالك ميري، وسلمان حسن إبراهيم. دار الرشيد- بغداد، 1982م.
- **الصورة الفنية في المثل القرآني**، الدكتور محمد حسين علي الصغير، دار الرشيد، 1981م.
- **الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري**، الدكتور علي البطل، دار الأندلس - بيروت، ط2/ 1401هـ - 1981م.

(ط)

- **طبقات الحفاظ**، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي،(ت 911هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1/ 1403 هـ.
- **طبقات الشافعية**، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة، (ت851هـ) تحقيق: الدكتور الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب - بيروت، ط1/ 1407هـ.

- **طبقات الفقهاء**، لأبي إسحق الشيرازي، (ت 476هـ)، تصحيح ومراجعة الشيخ خليل عيسى، دار القلم – بيروت.
- **طبقات فحول الشعراء**، لمحمد بن سلام الجمحي (ت231هـ)، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، دار المدني- جده، (د.ط، ود.ت).
- **الطبقات**، لابن سعد (ت 230هـ)، دار صادر- بيروت، (د.ط، ود.ت).
- **الطير ودلالته في البنية الفنية والموضوعية للشعر العربي قبل الإسلام**، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة بغداد، **1417**هـ – **1996**م.

(ع)

- **العربية، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب**، تأليف: يوهان فك، ترجمة الدكتور: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي – القاهرة، **1980**م.
- **عشر قمم في تاريخ الأدب العربي**، ممدوح حقي، الدار البيضاء، دار الكتاب، ط**4**/ **1976**م.
- **العصر الإسلامي**، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف،ط**9** (د.ت).
- **عضوية الموسيقى في النص الشعري**، الدكتور عبد الفتاح صالح نافع، مكتبة المنار- الأردن، ط**1**/ **1985**م.
- **العقد الفريد**، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت**328**هـ)، تقديم: الأستاذ خليل شرف الدين، منشورات دار ومكتبة الهلال – بيروت، ط**2**/ **1990**م.
- **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، (ت **456**هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل – بيروت، ط**4**/ **1972**م.
- **عون المعبود شرح سنن أبي داود**، محمد شمس الحق العظيم آبادي، (**1329**هـ) دار الكتب العلمية – بيروت.
- **عيار الشعر**، لمحمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، تحقيق: الدكتور طه الحاجري، والدكتور محمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى- القاهرة، (د.ط) **1956**م.

• **عيون الأخبار**، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، (ت276هـ)، شرحه وضبطه: الدكتور يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية – بيروت، (د.ط، ود.ت).

• **العيون والحدائق في أخبار الحقائق من خلافة الوليد بن عبد الملك**، إلى خلافة المعتصم، لمؤلف مجهول، تحقيق: نبيلة عبد المنعم داود، مطبعة النعمان – النجف الأشرف، (د.ط، ود.ت).

(غ)

• **غاية النهاية في طبقات القراء**، لشمس الدين أبي الخير محمد بن محمد، (ت833هـ)، نشره ج. برجستراس، مكتبة الخانجي بمصر، ط1/ 1351هـ – 1932م.

• **غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات**، علي بن ظافر الازدي، (ت613هـ،(تحقيق: محمد زغلول سلام، ومصطفى الجويني، دار المعارف بمصر،1971م.

(ف)

• **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ابن حجر العسقلاني، (ت852هـ)، دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت، ط2، (د.ت).

• **فتوح البلدان للبلاذري**، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، (ت 279هـ)، مكتبة النهضة المصرية– القاهرة، 1379 هـ.

• **الفتوح**، لأبي محمد أحمد بن أعثم الكوفي، (ت214هـ)، تحقيق: الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، ط1/ 1412هـ – 1992م.

• **الفخر والحماسة**، ضمن فنون الأدب العربي، حنا الفاخوري، دار المعارف بمصر،ط2/ 1968م.

• **الفخري في الآداب السلطانية**، محمد بن علي بن طباطبا، المعروف بابن الطقطقي، (ت709هـ)، دار صادر – بيروت،1380هـ – 1960م.

- **الفرق بين الفِرَق وبيان الفرقة الناجية**، عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي، (ت 429هـ)، دار الآفاق الجديدة – بيروت، ط2/ 1977م.
- **الفروسية في الشعر الجاهلي**، الدكتور نوري حمودي القيسي، عالم الكتب – بيروت، ط2/ 1984م.
- **الفِصَل في الملل والأهواء والنحل**، لابن حزم الأندلسي، (ت456هـ)، مكتبة المثنى بغداد.
- **فصول في الأمرة والأمير**، سعيد حوى، مكتبة الرسالة الحديثة، الأردن–عمان، ط1/ 1402هـ– 1982م.
- **فصول في الشعر**، الدكتور أحمد مطلوب، منشورات المجمع العلمي العراقي، 1420هـ – 1999م.
- **الفصول والغايات**، أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري، (ت449هـ)، ضبط محمد حسن زناتي، مطبعة حجازي بالقاهرة، ط1/ 1356هـ– 1938م.
- **الفقه الإسلامي وأدلته**، تأليف الدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر،ط2/ 1985م.
- **فن التقطيع الشعري**، الدكتور صفاء خلوصي، دار الشؤون الثقافية – بغداد، ط6/ 1987م.
- **الفن الحربي في صدر الإسلام**، عبد الرؤوف عون، دار المعارف بمصر، (د. ط) 1961م.
- **فن الوصف وتطوره في الشعر العربي**، إيليا حاوي، دار الكتاب اللبناني، ودار الكتاب المصري، ط2/ 1987م.
- **الفهرست**، محمد بن إسحق النديم، (ت 385هـ)، دار المعرفة – بيروت، 1398هـ – 1978م.
- **فوات الوفيات والدليل عليها**، محمد بن شاكر الكتبي، (ت 764هـ)، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر – بيروت، (د.ط، ود.ت).

- **في الشعر الإسلامي والأموي**، الدكتور عبد القادر القط، دار النهضة العربية – بيروت، **1979**، (د.ط).
- **في النقد الأدبي**، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط**3/ 1962**م.

(ق)

- **القافية والأصوات اللغوية**، دراسة الدكتور محمد عوني عبد الرؤوف، مكتبة الخانجي، **1977**م.
- **قضايا الشعر المعاصر**، نازك الملائكة، دار العلم للملايين– بيروت، ط**6/ 1981**م.
- **القيادة في منظور الشعر العربي حتى نهاية العصر الراشدي**، يحيى زكي العبيدي، رسالة دكتوراه غير منشورة، مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة بغداد، **1408**هـ – **1997**م.

(ك)

- **الكامل في التاريخ**، لأبي الحسن المعروف بابن الأثير الجزري (ت**630**هـ)، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية– بيروت، ط**2/ 1415**هـ– **1995**م.
- **الكامل في اللغة والأدب**، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، (ت**285**هـ)، تغريد بيضون، ونعيم زرزور، دار الكتب العلمية– بيروت، ط**1/ 1409**هـ– **1989**م.
- **كتاب الوحشيات**، لأبي تمام، حققه: عبد العزيز الميمني الراجكوتي، دار المعارف بمصر، **1962**م.
- **كشف الخفاء ومزيل الإلباس**، إسماعيل بن محمد العجلوني، (ت **1162**هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط**2/ 1408**هـ .
- **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، حاجي خليفة (ت**1067**هـ)،دار إحياء التراث العربي .
- **كنز العمال، المتقي الهندي**، (ت **975**هـ)، تحقيق: الشيخ بكري حياني، والشيخ صفوة السقا، مؤسسة الرسالة – بيروت، (د.ط، ود.ت) .

(ل)

- **لزوم ما لا يلزم،** أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري، (ت449هـ)، شرح وتحقيق: إبراهيم الأبياري، مطبعة وزارة التربية والتعليم، **1378**هـ - **1959**م .
- **لسان العرب،** للعلامة ابن منظور، (ت117هـ)، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط1/ **1405**هـ .
- **لسان الميزان،** شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (ت852هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، ط2/ **1390**هـ .

(م)

- **مآثر الإنافة في معالم الخلافة،** أحمد بن يحيى القلقشندي، (ت821هـ)، تحقيق: عبد الستار أحمد فرّاج، مطبعة حكومة الكويت، ط2/ **1985**م.
- **مبادئ النقد الأدبي،** إِ. أَ. ريتشاردز، ترجمة الدكتور مصطفى بدوي، مراجعة الدكتور لويس عوض، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة- **1961**م.
- **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،** ضياء الدين ابن الأثير الحلبي، (637هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية- بيروت، (د.ط)، **1995**.
- **مجمع الأمثال،** أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني، (ت 518هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة- بيروت، (د.ط، ود.ت).
- **مجمع البحرين،** الشيخ فخر الدين الطريحي، (ت1085هـ)، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ط2/ **1408**هـ .
- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد،** نور الدين الهيثمي، (ت807هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، **1408** هـ - **1988**م.
- **المحاسن والمساوئ،** إبراهيم بن محمد البيهقي، (ت320هـ)، عني بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي، مطبعة السعادة - مصر، **1225**هـ - **1906**م.

- **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**، أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصبهاني، منشورات مكتبة الحياة – بيروت، (د.ط، ود.ت).
- **محاضرات في تاريخ العرب**، الدكتور صالح أحمد العلي، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، **1981**م.
- **المحبّر**، أبو جعفر محمد بن حبيب، (ت**245**هـ)، تحقيق إيلزه ليخن شتيتر، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، (د.ت) .
- **المحلى في الفقه**، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، (ت **456**هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الفكر – بيروت، (د.ط، ود.ت).
- **مختصر سياسة الحروب**، أبو سعيد الشعراني الهرثمي، صاحب المأمون، من القرن الثالث الهجري، تحقيق: عبد الرؤوف عون، مراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر– **1964**م.
- **المخصص**، علي بن إسماعيل بن سيده، (ت**458**هـ)، المطبعة الأميرية ببولاق، ط**1**/ **1317**هـ.
- **المراثي**، مراثٍ وأشعار في غير ذلك وأخبار ولغة عن محمد بن العباس اليزيدي، (ت**310**هـ)، حققه: محمد نبيل طريفي، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية– دمشق **1991**م.
- **المرثاة الغزلية في الشعر العربي**، الدكتور عناد غزوان، مطبعة الزهراء – بغداد،**1974**م.
- **المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها**، عبد الله الطيب المجذوب، دار الفكر – بيروت، ط**2**/ **1970**م.
- **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، لأبي الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي، (ت**346**هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، ط**2**/ **1367**هـ – **1948**م.

- **مسالك الأمصار في ممالك الإبصار**، ابن فضل الله العمري، تحقيق: محمد زكي باشا، دار الكتب العربية – القاهرة، **1924**م.
- **مستدرك الحاكم**، محمد بن محمد بن الحاكم النيسابوري، (**405**هـ)، تحقيق: يوسف المرعشلي، دار المعرفة – بيروت، **1406**هـ.
- **المستدرك على صناع الدواوين**، الدكتور نوري القيسي، وهلال ناجي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، **1993**م.
- **المستطرف في كل فن مستظرف**، شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، (ت**850**هـ)، تحقيق: الدكتور مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية– بيروت، ط**2**/ **1986**م.
- **مسند أحمد**، الإمام أحمد بن حنبل (ت**241**هـ)، دار صادر – بيروت، (د.ط، ود.ت).
- **مصادر دراسة الشعر العربي في العصر الأموي**، الدكتور عوض محمد الدوري، دار الشؤون الثقافية – بغداد، **2001**م.
- **مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية**، الدكتور ناصر الدين الأسد، دار المعارف بمصر، ط**3**/ **1966**م.
- **المعارف**، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، (ت**276**هـ)، حققه وقدم له الدكتور ثروت عكاشة، دار المعارف، ط**4**/ **1388**هـ – **1969**م.
- **معاوية بن أبي سفيان**، عباس محمود العقاد، منشورات المكتبة العصرية – بيروت، (د.ط، ود.ت).
- **معجم الأدباء**، ياقوت الحموي، (ت**626**هـ)، دار الفكر – بيروت، ط**3**/ **1980**م.
- **معجم البلدان**، ياقوت الحموي، (ت **626**هـ)، دار إحياء التراث العربي– بيروت.
- **معجم الشعراء**، لأبي عبد الله محمد بن موسى المرزباني (ت**384**هـ)، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية، **1379**هـ – **1960**م.

- **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، لأبي عبيد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، (ت487هـ)، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب- بيروت، ط3/ 1403هـ .
- **معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار**، تأليف الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد ابن عثمان الذهبي، (ت748هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط1/ 1404هـ - 1984م .
- **مغازي رسول الله**، محمد بن عمر الواقدي، (ت207هـ)، تحقيق: الدكتور مارسدن جونسن، مطبعة جامعة إكسفورد، 1966م.
- **المغني في الضعفاء**، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، (ت748)، تحقيق: نور الدين عتر، لم يذكر مكان الطبع.
- **مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم**، أحمد بن مصطفى طاش كبرى زادة، مراجعة وتحقيق: كامل بكري، 1968م.
- **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، الدكتور جواد علي، دار العلم للملايين - بيروت، ط3/ 1980م.
- **مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي**، الدكتور جابر عصفور، المركز العربي للثقافة والعلوم، (د.ط)، 1982م.
- **مقدمة ابن خلدون**، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، (ت808هـ)، دار القلم، بيروت، ط5/ 1984م.
- **مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي**، الدكتور حسين عطوان، دار الجيل، ط2/ 1408هـ- 1987م.
- **مقطعات مراث لابن الأعرابي**، (ت231هـ)، برواية ثعلب، (291هـ)، تحقيق: محمد حسين الأعرجي، منشورات مجلة اللغة والأدب - سلسلة الأعداد الخاصة، العدد الثاني، 1994م.

• **المكتبة العربية، دراسة لأمهات الكتب في الثقافة العربية**، الدكتور عزة حسن، دمشق، **1390**هـ– **1970**م.

• **مناهج التأليف عند العلماء العرب**، الدكتور مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين– بيروت، ط**4**/ **1982**م.

• **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، (ت **597**هـ)، تحقيق: محمد ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية– بيروت، ط**1**/ **1412**هـ – **1992**م.

• **منتهى الطلب من أشعار العرب**، محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون، (ت**597**هـ)، تحقيق: الدكتور محمد نبيل طريفي، دار صادر – بيروت، ط**1**/ **1999**م.

• **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، أبو الحسن حازم القرطاجني، (ت**684**هـ)، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط**3**/ **1986**م.

• **موسيقى الشعر**، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة، ط**4**/ **1972**م.

• **ميزان الاعتدال**، لشمس الدين بن محمد الذهبي، (ت**748**هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة– بيروت، ط**1**/ **1382**هـ.

(ن)

• **نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان**، للأمير إسماعيل بن يوسف بن محمد المعروف بابن أحمر، (ت**807**هـ)، دراسة وتحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة – بيروت، **1967**م.

• **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، لجمال الدين أبي المحاسن يوسف ابن تغري بردي (ت**874**هـ)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر – مصر، (د.ط، ود.ت).

- **نسب قريش**، لأبي عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري، (ت236هـ)، دار المعارف للطباعة والنشر، ط3/ (د.ت).
- **نصيحة الملوك**، لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي (ت450هـ) تحقيق محمد جاسم الحديثي، بغداد، دار الشؤون الثقافية، **1986**م.
- **نظام الحكومة النبوية**، تأليف العلامة الشيخ عبد الحي الكتاني، دار الكتاب العربي، (د.ط، ود.ت).
- **النظم الإسلامية نشأتها وتطورها**، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين- بيروت، ط6/ **1982**م.
- **النظم الإسلامية دراسة تاريخية**، د. فاروق عمر وآخرون، منشورات دار الحكمة- بغداد، **1987**م.
- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، أحمد بن محمد المقري، (ت **1041**هـ)، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر- بيروت، **1968**م، (د.ط).
- **نقد الشعر**، لقدامة بن جعفر، (ت337هـ)، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى بغداد، **1963**م.
- **نهاية الأرب في فنون الأدب**، لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، (ت 732هـ)، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب.

- الجزء (**20**)، تحقيق: محمد رفعت فتح الله، مراجعة: إبراهيم مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، **1395**هـ - **1975**م.
- الجزء (**21**)، تحقيق: علي محمد البجاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، **1396**هـ - **1976**م.

- **نهاية الإقدام في علم الكلام**، لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، (ت548هـ)، مطبعة أكسفورد، **1934**م.
- **النهاية في غريب الحديث**، لابن الأثير، (ت606هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، مؤسسة إسماعيليان، ط4/ **1364**هـ.

- **نيل الأوطار**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، (ت**1255**هـ)، دار الجيل – بيروت، **1973**م.

(هـ)

- **الهجاء والهجاؤون في الجاهلية**، الدكتور محمد محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، (د.ط)، **1947**م.
- **هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، إسماعيل باشا البغدادي، (ت**1339**هـ)، دار إحياء التراث العربي– بيروت، (د.ط، ود.ت).

(و)

- **الوافي بالوفيات**، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، (ت **764**هـ)، دار صادر – بيروت، ط**2**/ **1991**م.
- **وحدة القصيدة في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي**، حياة جاسم (سلسلة الكتب الحديثة– **47**) بغداد، (د.ط) **1972**م.
- **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة، ط**2**/ **1951**م.
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، (ت **681**هـ)، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة – بيروت، **1968**، (د.ط).
- **ولاة مصر**، لمحمد بن يوسف للكندي، تحقيق: الدكتور حسين نصار، دار بيروت، ودار صادر– بيروت، **1379**هـ – **1959**م.

المصادر المخطوطة:

- **الدر الفريد وبيت القصيد، لمحمد بن آيدمر**، المتوفى في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، نسخة مصورة عن مخطوط **3761** معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في جامعة فرانكفورت، (نشر): فؤاد سزكين، مودعة في المجمع العلمي العراقي برقم: **37232**.

- **ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب**، لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن خيرة المواعيني القرطبي الإشبيلي، (ت564هـ)، مصور المجمع العلمي العراقي، برقم 1308 - 2643 عن نسخة المكتبة الملكية في الخزانة العامة/ الرباط 2647.

البحوث والمجلات:

- رثاء الأبطال في الأدب العربي قبل الإسلام، الدكتور عادل جاسم البياتي، ملحق العدد السادس من مجلة كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، 1982م.
- صور أخرى من المقدمات الجاهلية اتجاهات ومثل، مجلة المجلة، العدد: 104، 1965، القاهرة.
- مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد (37)، الجزء (3)، 1406هـ - 1986م.
- مجلة المورد، المجلد (7)، العدد (3)، 1398هـ - 1978م، والعدد (4) لسنة 1975م.
- مجلة البلاغ، بغداد، العدد الثامن، السنة الثالثة، 1396هـ - 1976م.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

RIṮĀ’ AL-ḪULAFĀ’ WAL-QĀDA

FĪ AL-‘AṢR AL-’UMAWĪ

BY
PROF. DR.
TARRAF TAREK AL-NAHAR

